الشام في صدر الاسلام

من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية

« دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية »

رسالة قدمت لنيل درجة الدكتوراه

من جامعة دمشق - كلية الاداب - قسم التاريخ

إعداد

نجدة خماش

بإشراف

الأستاذ الدكتور نبيه عاقل

الاهـــداء

الى الشام ، بلد الأصالة العربية والشـموخ ، بحدوده الشـــاملة ، قبـل أن تمعن فيه عوامـــل الضعف والوهـن ومعـــــــاول التجزئـــة والتمزيـــــق .

****

شكر وامتنان

أتوجه بخالص الشكر ووافر الامتنان الى الأستاذ الدكتور نبيه عاقل لاشرافه على اعداد رسالة الدكتوراه هذه ، ولتوجيهه لي منذ البدء توجيها سديدا على طريق البحث العلمي .

ولا أنكر في هذا المجال فضل عدد من زملائي الأساتذة الكرام في قسم التاريخ ، وفضل الأستاذ الدكتور وليد عرفات رئيس قسم الدراسات الاسلامية في جامعة لانكستر ، لما أمدوني به من كتب ومصادر .

وآمل أن أكون قد وفقت بتزويد المكتبة التاريخية ببحث يتناول حقبة تعتبر بحق من أهم فترات تاريخنا العربي .

نجدة خماش

المقدمــة

هذا البحث محاولة لدراسة الأوضاع الاجتماعية والادارية في الشام منذ الفتح حتى سقوط الخلافة الاموية ، وقد دفعني الى اختياره اهمال المؤرخين لدراسة أوضاع الشام في هذه الفترة ،بينما حظيت الولايات الأخرى ،لا سيما العراق ومصر ،باهتمام الباحثين ،وبالرغم من كثرة المؤلفات التي تبحث في الشام بشكل عام ،فانها كثيرا ماتتخطى هذه المرحلة على أهميتها ، فولاية الشام احتلت في هذه الفترة بالذات مكانة عظيمة،ولذلك فان سقوط الامويين لم يكن معناه زوال أسرة وقيام أسرة غيرها في الحكم فحسب ،بل زالت بسقوطهم عظمة اقليم الشام الذى كان يحتل مركزا استراتيجيا هاما في الدولة الاسلامية أثر كثيرا في توجيه النشاط الاقتصادى والسياسي والحربي . وبقيام دولة العباسيين ،انتقل مركز الاسلام الى الشرق ،الى بغداد عاصمتهم الجديدة ، وأخذوا يوءقلمون سياستهم على أساس هذا الوضع الجديد ،ومن ثم كان لذلك نتائجه البعيدة المدى .

لم يكن اعداد هذه الدراسة ليخلو من المصاعب ، اذ أن تقديم صورة للوضع الاجتماعي والادارى للشام في فترة صدر الاسلام ، اقتضى جمع كل الشذرات والنبذ المتناثرة في بطون المصادر على أنواعها ثم سد الثغرات بالاستنتاج المنطقي أو بالقياس الى ماكان يطبق في الولايات الأخرى ، فالشام جزء من الدولة الاسلامية ، وبالرغم من أن جغرافية كل منطقة وأوضاعها الاجتماعية والادارية السابقة قد لعبت دورها في ايجاد نوع من التمايز بين ولاية وأخرى ، فان القواعد العامة تكاد تكون واحدة تقريبا . ونظرا لأن بحثي السابق كان يتعلق بادارة الولايات بشكل عام ، فان هذا قد مهّد وساعدني على اعطاء صورة شاملة مكنتني من اجراء مقارنـات ، بين الحين والآخر، لاظهار أوجه الشبه أو الاختلاف بين الأوضاع الاجتماعية والتنظيمات الادارية المطبقة في الشام وتلك التي كانت مطبقة في الولايات الأخرى .

يتناول القسم الأول من بحثي طبقات المجتمع ودورها في الادارة والحكم وتوطيد حكم بني أمية ، ولذلك كان لا بد لي في الفصل الأول من أن ابحث في العناصر السكانية التي كانت في الشام قبل الفتح ومناطق تواجدهم ، من عرب وروم ويهود وسامرة وفرس وجراجمة ونبط . ولقد تبيّن لي أن مصادرنا العربية تذكر أسماء بعض القبائل ،

../..

الا أن هناك أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة غير مذكورة ، لأنه لم يكن لعلماء الأنساب علم بها ، وأعني بذلك القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية والقبائل التي دوّنت تلك الكتابات فهي كتابات عربية وان اختلفت عن عربيتنا ، فقد سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير ، فقال : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، ولكن هؤلاء العلماء لم يتصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان مخالف للساننا . وقد ألقت المكتشفات الأثرية الأضواء على كثرة وجود العرب في الشام ليس في الجنوب وعلى مشارف البادية فقط ، وانما في مناطق داخلية والى الشمال . بالاضافة الى العرب وجد بالطبع الروم ومرتزقتهم في مدن الساحل والمدن الداخلية الهامة ، كايلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر ، ثم اليهود والسامرة في فلسطين والأردن ، والفرس في بعلبك وحمص وأنطاكية ، والجراجمة في منطقة اللكام ، وأخيرا تلك الطبقة التي يطلق عليها المؤرخون العرب لفظ العلوج أو النبط والتي تشير النصوص الى كثرتهم في الأرياف والمدائن ، كما أن النصوص المبعثرة في المصادر تحوي قرائن مثل الأرض والقرى والزراعة ، وكلها تدل على أن المقصود بالنبط طريقة الحياة وليس النسب ، وان كان البعض يعتبرونهم من بقايا الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام والعراق ومترسبات الآراميين ، وليس من المستغرب أن يكون قد اندمج فيهم الكثير من العرب الذين سكنوا هذه المناطق وبادت أسماؤهم . ولقد حاولت أن أتبين نسبة هذه العناصر السكانية بعضها الى بعض ، فلم أوفق ، لأن الروايات لا تهتم الا بذكر أعداد المقاتلة من جهة ، ولأن التفاوت في الروايات حول هذه الأعداد كبير جدا ، وان كان قد ظهر أن العرب كانوا نسبة سكانية لا يستهان بها في المنطقة ، وأن الروم البيزنطيين قد اعتمدوا عليهم في الوقوف في وجه العرب المسلمين ، وأن هؤلاء العرب قد أيدوهم في كثير من المواقف ، بينما تشير الروايات الى أن العرب استخدموا النبط كجواسيس وكفيوج لأنهم كانوا الى المسلمين لبرّهم أميل ، وكان الروم لا يتهمونهم في شيء من ذلك . ولكن موقف العرب وموقف غيرهم من سكان الشام النصارى لم يكن موقفا جامدا ، لا سيما بعد أن أمسك العرب بزمام الموقف ، وتبيّن لهم حسن المعاملة التي كان يلقاها من يدخل ذمتهم .

../..

فاذا أتينا الى توزع العناصر السكانية في الشام بعد الفتح ، وهو ماعالجته في الفصل الثاني ، فان مما يسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرة القبلية أن القبائل لم تسر في هجرتها وفق خطة موضوعة تحدد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها ، وذلك لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح ، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيلة الواحدة مواطن شتى ، ومن ثم كان لهذه الهجرات الجماعية ولاستيطان قبائل العرب الأمصار المحدثة والأقطار المفتوحة آثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة وفي المجتمع القبلي خاصة ، ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في اطار روابط النسب الواسعة ، كالعدنانية والقحطانية والمضرية والربعية ، ومنها تصدع الوحدة القبلية ، لأن القبيلة الضخمة العدد ، قلّما كانت تنزل برمتها في موطن واحد .

وكانت جيوش المسلمين ، التي قدمت لفتح بلاد الشام ، نواة القبائل التي استوطنت الشام ، وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا الى معرفة القبائل التي نزلت بلاد الشام وعددها عند الفتح وبعده ، الاّ أننا نستطيع استخلاص احصاء تقريبي لها من طريق تتبع جيوش الفتح والامدادات ، واعتمادا على أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين ابّان الفتنة الأولى والثانية والثالثة .

ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولها بلاد الشام تزايدا سريعا ، فقد كان عدد المسجلين في ديوان العطاء في حمص في خلافة مروان بن الحكم من اليمانية فقط عشرين ألفا ، وبلغ عددهم في ديوان العطاء بدمشق في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك خمسة وأربعين ألفا ، وبلغ أهل دمشق من العرب أربعة وثمانين ألفا في سنة ١٢٦ هـ ، ومقاتلتهم خمسين ألفا ، وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل .
ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل العرب الوافدين الى الشام وحدهم ، وانما تمثل أيضا من انضم اليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم أسلموا وانضموا بعد الى جيوش المسلمين .

ومن دراستنا لتوزع العناصر السكانية في بلاد الشام بعد الفتح ، يتبين لنا أمور ثلاثة ، أولها أن العنصر العربي قد أصبح الغالب بعد هجرة الروم ، بحيث أن اليعقوبي الذي زار هذه المنطقة في القرن الثالث لا يذكر الروم على الاطلاق ، وانما يطلق

../..

فاذا أتينا الى توزع العناصر السكانية في الشام بعد الفتح ، وهو ما بحثته في الفصل الثاني ، فان مما يسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرة القبلية أن القبائل لم تسر في هجرتها وفق خطة موضوعة تحدد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها ، وذلك لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح ، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيلة الواحدة مواطن شتى ،ومن ثم كان لهذه الهجرات الجماعية ولاستيطان قبائل العرب الأمصار المحدثة والأقطار المفتوحة آثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة وفي المجتمع القبلي خاصة ،ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في اطار روابط النسب الواسعة ، كالعدنانية والقحطانية والمضرية والربعية ، ومنها تصدع الوحدة القبلية ،لأن القبيلة الضخمة العدد ،قلّما كانت تنزل برمتها في موطن واحد .

وكانت جيوش المسلمين ،التي قدمت لفتح بلاد الشام ، نواة القبائل التي استوطنت الشام ،وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا الى معرفة القبائل التي نزلت بلاد الشام وعددها عند الفتح وبعده ،الاّ أننا نستطيع استخلاص احصاء تقريبي لها من طريق تتبع جيوش الفتح والامدادات ،واعتمادا على أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين ابّان الفتنة الأولى والثانية والثالثة .

ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولها بلاد الشام تزايدا سريعا ، فقد كان عدد المسجلين في ديوان العطاء في حمص في خلافة مروان بن الحكم من اليمانية فقط عشرين ألفا ، وبلغ عددهم في ديوان العطاء بدمشق في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك خمسة وأربعين ألفا ، وبلغ أهل دمشق من العرب أربعة وثمانين ألفا في سنة ١٢٦ هـ ، ومقاتلتهم خمسين ألفا ،وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل . ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل العرب الوافدين الى الشام وحدهم ،وانما تمثل أيضا من انضم اليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم أسلموا وانضموا بعد الى جيوش المسلمين .

ومن دراستنا لتوزع العناصر السكانية في بلاد الشام بعد الفتح ، يتبين لنا أمور ثلاثة ،أولها أن العنصر العربي قد أصبح الغالب بعد هجرة الروم ،بحيث أن اليعقوبي الذى زار هذه المنطقة في القرن الثالث لا يذكر الروم على الاطلاق ، وانما يطلق

اسم العجم عليهم ،ولا نجد لهم ذكرا في الأجناد الشمالية في دمشق وحمص وقنسرين ، وانما في جندى الأردن وفلسطين ، وثانيها أن قبائل قضاعة واليمن تستوطن الجانب الأكبر من الشام ، فجلّ أهل حمص كانوا يمانية قضاعية ، ولكثرتهم في جند حمص ضرب المثل بذلة القيسي فيها ،كما أنهم تواجدوا بكثرة في جند دمشق والاردن وفلسطين .
أما مواطن قيس ،فكانت في قنسرين ، بالاضافة الى وجود قلة منهم في مدينة دمشق وفي الغوطة وحوران والغور والجولان . ولما كانت قضاعة وكلب خاصة هي أضخم الكتل القبلية في بلاد الشام في العصر الأموى ، كان انحياز هذه الكتلة الى أى حزب سياسي خليقا بترجيح كفته ومنحه تأييدا حربيا وسياسيا له شأوه ، وكذلك كان انحياز هذه القبيلة الى احدى الكتلتين العدنانية والقحطانية خليقا بترجيح كفتها العددية وباختلال ميزان القوى القبلية ، ومن هنا احتدم النزاع حولها وتجاذبتها العدنانية والقحطانية ، وقام نسّابو كل من الكتلتين والاخباريون فيهما بمحاولات كثيرة منذ مستهل العصر الأموى حتى منتصف العصر العباسي في ضم هذه القبيلة الى شجرتهم النسبية ،
أما الأمر الثالث، فانه نظرا لعدم تجاوب أهل الساحل في بادئ الأمر لتأثرهم بالصبغة الرومية ، فقد اضطر معاوية الى نقل قوم من الفرس الى سواحل الأردن وصور وعكا والى انطاكية ، كما أسكن معاوية جماعة كبيرة من يهود الاردن طرابلس ، ثم اقطع عبدالملك فرس بعلبك الخمس في مدينة طرابلس ، ولذلك فانه مما يثير الانتباه، أن سكان كور جند دمشق الساحلية معظمهم من الفرس واليهود ، في حين يشكل العرب الأكثرية الساحقة في مدن جند حمص الساحلية .

في الفصل الثالث ، بحثت في طبقات المجتمع الشامي ووضعها الاجتماعي ودورها في الادارة والحكم ، فتوضح لي أن عاملين اثنين كان لهما دور هام في بادئ الأمر في تحديد المكانة الاجتماعية للعرب المسلمين في الشام ،وهما عامل العطاء منذ فرضه الرسول ونظمه عمر بن الخطاب ، وعامل صحبة الرسول ونصرته في دعوته ، وماكان من أثره في نشأة طبقة الصحابة التي انشطرت بدورها شطرا اتجه الى المعرفة والعلم وشطرا اتجه نحو السياسة والحكم ،فقد عاش صحابة الرسول في ذاكرة الجماعة الاسلامية ووجدانها على أنها امتداد لحياته الشريفة وتمثيل لها وتعبير عن دعوته وتجسيم لهذه

../..

الدعوة لا سيما أن عددهم ، حسب ما ورد في كتاب الطبقات ، كان ١١٣ صحابيا . ويبدو أن جند حمص بالذات كان ملتقى لأصحاب الرسول حتى كان يسمّى الجند المقدّم ، وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصحابة مجاهدين وتوزعهم في الأجناد دور كبير في ارساء قواعد الدين وتفقيه الناس وتعليمهم دينهم وسننهم ، فكانوا أساتذة لمن خلفهم ، كما أن عمر بن الخطاب اتبع في الشام سياسة خاصة لنشر الدين ، وهو بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة .

وكان للصحابة كذلك المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة ، وقد جعل معاوية أثناء ولايته للشام والجزيرة ولاة على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة وأبنائهم ، الا أنه كان من نتيجة معركة صفين أن ازداد نفوذ القبائل اليمانية التي نصرت معاوية ، مما دفعه في عهد خلافته الى انتقاء ولاة الأجناد من زعماء القبائل حسبما يتوفر لهم من استقرار وكثرة ، ولكن معاوية في الوقت نفسه لا ينقاد لليمانية تماما ، لأنه استطاع بمصاهرته لقبيلة كلب أن يحقق نوعا من التوازن .

وبالرغم من أن سادات القبائل وأشرافهم بقيت لهم مكانتهم في العهد المرواني ، الاّ أن اخراج الأمويين وشيعتهم من المدينة ومكة وتوجههم الى الشام سنة ٦٤ هـ ومعركة مرج راهط وما نجم عن ذلك من احتدام العصبيات ، دفع خلفاء الفرع المرواني ، باستثناء عمر بن عبد العزيز ، الى الاعتماد على أمراء البيت الأموي في شؤون ادارة وحكم الأجناد وقيادة الحملات ، لا سيما الصوائف والشواتي ، وأصبح أفراد البيت الأموي يتمتعون بامتيازات متعددة لم يكونوا يتمتعون بها في العهد السفياني .

ومن دراستي لسير ولاة بني أمية الشخصية ، تبيّن لي أن الفترة المروانية تميزت بازدياد اعتماد الخلفاء اما على أمراء من الفرع المرواني أو على ولاة من أهل الشام لادارة الولايات ذات الأهمية الكبرى ، وأظهرت مدى ما حققه هؤلاء الولاة في ميدان الادارة والتنظيم الاداري ، فكأنّ الشام كانت المدرسة التي يتم فيها هذا التدريب ، اذ أن معظم التنظيمات الادارية الهامة في العراق ومصر وافريقيا تمت في الواقع على يد ولاة من أهل الشام سواء من العرب أو الموالي فيما بعد .

أما فكرة العطاء فقد عاشت رمزا للمكانة الاجتماعية وتعبيرا عن السابقة الى النصرة ،

../..

ثم تعبيرا عن الشجاعة والبلاء في تلك الحروب الخطيرة التي ساهموا فيها . وكان شرف العطاء في العهد الراشدي يمنح لمن يقوم ببعض الأعمال الادارية أو القيادية أو من يبدى بسالة في الحروب . وقد استمرت هذه القواعد في العصر الأموى ، الا أن عامل الدعم لمعاوية وللحكم الأموى في الشام أصبح عاملا أساسيا . وبالرغم من أن مقدار ماكان يدفع في شرف العطاء لم يكن بالدرجة التي تجعل ممّن يأخذه غنيا ، الا أنه كان يعتبر شرفا عظيما يستحق التسجيل .

وكان لعامل العطاء دوره كذلك منذ البدء في تحديد المساواة بين العرب المسلمين والموالي ، وقد اتضح لي من دراسة الروايات المتعلقة بهم في الشام أنه كانت لهم مكانة تكاد توازى مكانة العرب المسلمين . صحيح أن مجموعة كبيرة من هذه الروايات متعلقة بموالي بني أمية ، وهم موالي عتاقة ، الا أن هناك روايات أخرى متعلقة بالموالي بشكل عام ، وكان هؤلاء يعاملون بكل احترام وتقدير ،ويفرض لهم في العطاء ، ويتم تسجيلهم في الديوان . وقد ازداد اعتماد الخلفاء في الفترة المروانية على الموالي سواء في الدواوين أو الادارة ،وفي هذا دليل على المكانة التي كانت لهم وعلى ازدياد من دخل في الاسلام من سكان الشام من غير العرب أو من الرقيق . ثم انتقلت بعد ذلك الى الحديث عن أهل الذمة ،وميّزت بين وضع العرب النصارى ،والنصارى من غير العرب، كما أوضحت سياسة التسامح تجاه أهل الذمة ومدى حقوقهم وواجباتهم ، وصلة المسلمين بهم ، وموقف الدولة من اليعاقبة والملكانيين أو الملكيين ،وعوامل هذا الموقف . كما ناقشت قضية الشروط العمرية المتعلقة بملابس أهل الذمة ، ثم بينّت مدى اعتماد خلفاء بني أمية عليهم في الادارة وتناقص هذا الاعتماد تدريجيا ، نتيجة لتدابير الخليفة عمر بن عبد العزيز من جهة وازدياد من دخل في الاسلام من جهة أخرى .

ومن الطبيعي أن أتطرق الى الرقيق ووضعهم الاجتماعي في الشام ،لا سيما أن أعدادهم تضخمّت نتيجة للفتوح وارسال الخمس الى دمشق ، مما اقتضى ايجاد موظف خاص مسؤول عن أمور الرقيق بدءًا من خلافة سليمان بن عبد الملك ، وأشرت الى الاعمال المختلفة التي كان يكلف بها العبيد عامة ،ورقيق الخمس خاصة ، وبالرغم من أنه ليست بين أيدينا

../..

روايات تلقي ضوءا على مستوى حياة الرقيق والمعاملة التي كانوا يلقونها من أسيادهم في الشام ، فان أمراء بني أمية وولاتهم كانوا يمتلكون الكثير من رقيقهم ، وكثرة الموالي لدى خلفاء وأمراء بني أمية كلها دلائل تشير الى ذلك .

في الفصل الرابع بحثت في دور أهل الشام في توطيد سلطان بني أمية ،اذ أن أهل الشام كانوا القاعدة المتينة والجبهة المتراصة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها ، وكل اختلال في هذه الجبهة كان يعرض الحكم الأموي للخطر ،وقد أظهرت مدى دعمهم لمعاوية ثم لمروان بن الحكم وعبد الملك من بعده ، وموقفهم من الفتنة الثالثة ، وكيف أن خذلانهم لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كان من الأسباب الهامة والأساسية في سقوط الحكم الأموي ، وقد أشرت الى العوامل التي أدّت الى دعمهم لخلفاء بني أمية بشكل عام والى خذلانهم لمروان بن محمد ، ثم أشرت الى ازدياد اعتماد ولاة العراق ، خاصة في الفترة المروانية ، على القوات الشامية في قمع الحركات الخارجية والشيعية أو في الثورات الأخرى ،كثورة ابن الأشعث ويزيد بن المهلب ، وقد كان لذلك نواح ايجابية وأخرى سلبية .

أما في الفصل الخامس ،فقد أظهرت دور أهل الشام في الفتوح ولا سيما فتوح أرمينية واللان وبعض مناطق بلاد الخزر ،وفي فتوح عدد من جزر البحر المتوسط وفتوح شمالي افريقيا ،واشتراكهم كذلك في فتوح السند مع محمد بن القاسم الثقفي ،وفي فتوح جرجان بقيادة يزيد بن المهلب . وهنا لا بد من الاشارة الى أن الفضل في تحقيق الفتوحات في المشرق يعود بشكل عام الى مقاتلة الكوفة والبصرة .

يتضمن القسم الثاني من رسالتي الادارة في الشام . وقد بحثت في الفصل الأول منه النظام الاداري وتقسيم الشام الى أجناد ،وأسباب هذا التقسيم ومدى تأثره بنظام الجنود البيزنطي ،وانقسام هذه الأجناد الى كور ،وكون مراكز هذه الأجناد كلها مدنا داخلية ، ثم اتبعته بالحديث عن أهم الموظفين الاداريين ابتداءا من الخليفة ، الرئيس الاداري الأعلى ،وأظهرت مدى التغيير الذي طرأ على مفهوم الخلافة ونوع المسؤوليات التي كانت ملقاة على عاتق الخليفة ، ثم انتقلت الى المستشارين أو الوزراء فولاة الأجناد فالكتاب وأصحاب الشرط والبريد والقضاة ، فبينت القواعد التي اعتمد

../..

طبقها الخلفاء في انتقائهم والمهمات والواجبات التي كانت توكل اليهم مع اظهار الفروق في هذه الواجبات التي كانت ملقاة على عاتق هؤلاء الموظفين في العراق ومصر ، وبين تلك التي كانت ملقاة عليهم في الشام لكونها الولاية المركزية ومستقر الخليفة .

وبالرغم من أنني كنت قد تحدثت عن الدواوين بشكل عام في بحثي عن ادارة الولايات في العصر الأموى ، فانني هنا ركزت اهتمامي على الدواوين المتواجدة في الشام ، ذلك أنه بالاضافة الى الدواوين الأساسية التي كانت في الأمصار ، ظهرت في الشام دواوين خاصة ، كديوان المستغلات وديوان الزمنى وديوان الرقيق والنفقات . وبالرغم من عدم ذكر ديوان للذرارى في الشام ، فلاشك أنه كان موجودا ، وان لم يذكر ذلك صراحة ، لكثرة الروايات المتعلقة بعطاء الذرارى في الشام .

وقد حاولت في الفصل الثاني عند البحث عن النظام المالي في الشام أن أشير الى أن بعض الضرائب والتدابير العملية ، مثل الجزية فردية ومشتركة ، والعشر والزكاة ومعاملة الاراضي العربية في عهد الرسول كان لها أثرها على نظام الضرائب الذى طبق . كما أن نظامي الضرائب اللذين وجدهما العرب في الأراضي المفتوحة قد استعملا مصطلحات ولكنهما طبقا وفقا للمفهوم الاسلامي . ثم ان مما يثير الانتباه أننا لا نكاد نجد فقيها مسلما واحدا يؤكد وحدة التطبيق في كل أطراف الدولة الاسلامية ، بل ان الروايات تشير الى العكس من ذلك ، وتحاول أن تظهر الاجراءات التي طبقت في الولايات المختلفة ، ولا تحاول مطلقا تقديم صورة لنظام موحد في كل أجزاء الدولة الاسلامية . فالاجراءات التي تمت أثناء الفتح لم تكن واحدة ، لأنها تأثرت بالأوضاع المحلية ، ولذلك كان لا بد لي عند دراستي للنظام المالي في الشام من أن أعود الى النظام المالي البيزنطي الذى كان مطبقا لأبرهن أن نظامي الضرائب في الشام استعملا مصطلحات فقط ، أما التطبيق فكان وفقا للمفهوم الاسلامي . كما أنني عمدت الى دراسة أحداث الفتح حتى يختفي ذلك التناقض الذى قد يبدو لأول وهلة عندما ندرس الروايات المختلفة المتعلقة بعهود الصلح ، وقد نصت المعاهدات التي عقدت مع مدن الشام والجزيرة بوضوح على وجود جزية وخراج ، فبحثت في الجزية ومقدارها ومن أخذت ومن أعفي منها ، والى التعديل الذى أحدثه عمر بن الخطاب بعد ذلك في مقدارها ، ثم الى التعديل الثاني في خلافة عبدالملك بن

مروان . أما الخراج فان الروايات المتعلقة بالشام في هذا الصدد قليلة ، ولذلك اضطررت الى الاعتماد على الاجراءات التي تمت في العراق لايضاح بعض الأمور ،لا سيما عندما تكون لدى المؤشرات التي تسمح لي بأن أقيس ماحدث بالشام بماحدث بالعراق .
وكذلك اعتمدت على الروايات الخاصّة بالعراق ،فيما يتعلق بأراضي الصوافي في الشام وموقف عمر بن الخطاب منها ، وهي تختلف في الواقع مايرد في كتب بعض الفقهاء كأبي يوسف الذى يعكس وضع الصوافي في العصر الأموى ، كما تعرّضت الى الضرائب الاضافية في الشام وقارنت بينها وبين تلك التي أضيفت في العراق ومصر ، فتبين أن هذه الضرائب في الشام هي التي نصت عليها المعاهدات التي عقدت أثناء الفتح ،في حين أن الضرائب في المشرق ومصر أضيف بعضها في العصر الأموى .
وجد في الشام في العصر الأموى بيت مال خاص لأموال الفيء وآخر للصدقات ، وهناك رواية تشير الى أن عمر بن عبد العزيز أوجد بيت مال خاص للخمس ،فتكلمت عن الأموال التي كانت ترد بيت مال الفيء ومقدار ماكانت ترسله الولايات المختلفة من فائضها الى دمشق ، وموقف العراق خاصة من هذا الفائض ، وهذا بدوره يفسر لنا كثرة الأموال التي كانت ترد من جهة وعدم حاجة الخلفاء الى فرض ضرائب اضافية على أهل الشام الذين تمتعوا في هذه الفترة بميزات لم يتمتع بها غيرهم من سكان الولايات الأخرى .
وكان لا بد لي أثناء الكلام عن النظام المالي أن أبحث في النقود المتداولة والى تعريب النقد ولا سيما الدينار الذى كان يتم سكه في دمشق خاصة ، وقد تبيّن لعلماء الآثار أن الدنانير الأموية العربية الصافية في افريقيا قد ضربت في دمشق لصالح المغرب بعكس الدراهم ،حيث استمر الولاة بضرب الدراهم حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذى أمر خالد بن عبد الله القسرى والي العراق سنة ست ومائة أن يبطل السكك من كل بلدة الا واسطا ، وكذلك فعل يوسف بن عمر الثقفي ،فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة بحرّان .
لا شك أن اصلاح عبد الملك للنقد وايجاده نقدا قوميا عربيا كان بمثابة حجر الأساس للنهضة التجارية الاسلامية ، ولكن كان لعمله بالمقابل اثر فعال على العلاقات البيزنطية العربية وعلى اقتصاد الشام ومصر بشكل خاص ، ذلك أن البيزنطيين عادوا الى تطبيق

../..

القيود التجارية التي كانت مطبقة سابقا أثناء صراعهم مع الساسانيين ، في حين لم يعمد خلفاء بني أمية الى تطبيق مثل هذه القيود على التجار المسلمين في تعاملهم مع البيزنطيين . فبيزنطة لم يكن باستطاعتها أن تتخلى عن منتجات العالم العربي ، كما أن التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار العرب كانت مواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية ، لذلك سمح حكام بيزنطة لموظفين أو صرافين مراقبين من استقبال التجار المسلمين منها طرابزون (Trebizond) الذى كان يسمح فيه بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة . واختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة ، فطرابزون مرفأ أمين على البحر الأسود غير مهدد ، وباتخاذهم طرابزون محطة نهائية للتجارة العربية ، سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام المركزين البحريين لمنافسيهم الأمويين الى بلاد العراق التي لم تكن تشكل خطرا عليهم . فاذا أضفنا الى ذلك قوة الأسطول البيزنطي الذى خرج منتصرا سنة ١٠٠ هـ وأخذ يمخر عباب البحر المتوسط ويقطع بشكل فعـّال التجارة ليس مع الغرب فقط ، وانما بين الشام ومصر وشمالي افريقيا ، ثم انتقال الحكم الى العباسيين حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون ، نجد أن الشام خسرت مكانتها كمركز للخلافة الاسلامية من جهة ، كما خسرت من جهة ثانية مركزها التجاري الهام وبقيت بعد سنة ١٣٥ هـ /٧٥٢م عاجزة مدة عشرين عاما عن تشكيل اسطول لها ، وهذا أثـّر بدوره على فرنسا التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر ، اذ مرّت بفترة ركود اقتصادى بعد سنة ٩٨ هـ /٧١٦م ، فلم تعد ترى تجارا سوريين في موانئها التجارية أو تجارا من مناطق اسلامية أخرى .

آخر فصل في البحث يتعلق بالتنظيم العسكرى البرى والبحرى ، حيث تحدثت عن عناصر الجيش من عرب وموالي والى نسبهم في هذا الجيش ، وظهور فرق للموالي في الفترة المروانية ، كالوضاحية والذكوانية والحمرة وغيرهم ، وان كانت نسبتهم أقل بكثير من نسبة المقاتلة من العرب . ثم تطرّقت الى التعبئة ومفهومها ، والقيادة والقواعد التي كان يعتمد عليها الخلفاء في تعيين قوّادهم ، كما تحدثت عن الأسلحة ووسائل الدفاع والتحصين في الشام وأظهرت مدى التقدم السريع الذى أحرزه المسلمون ولا سيما مقاتلة أهل الشام

٠٠/٠٠

في هذا المضمار ، وأنهيت البحث بالتنظيم المالي للجيش ، وهو تنظيم قائم على أسس اسلامية ، وخلصت من بحثي هذا الى أن الجيش الشامي كان أشبه مايكون بالجيش النظامي لأن مقاتلته كانوا على أهبة الاستعداد دائما طيلة خلافة بني أمية ، فالغزوات في الجبهة الشمالية كانت متواصلة تقريبا ، بالاضافة الى الصوائف والشواتي التي كانت مستمرة ، فاذا انقطعت فمعنى ذلك انشغال المقاتلة بقمع فتنة . ولا شك أن هذا النظام الذى ظلّ معمولا به طيلة خلافة بني أمية كان عبارة عن تمرينات ومناورات جماعية جعلت مقاتلة الشام أكفأ المقاتلين ، حتى أن ليون الأيسوري نفسه يبين أن البيزنطيين في حروبهم لم يواجهوا عمليات حربية حصيفة ومحكمة ومدروسة كخطط العرب ، وأن القائد المكلف بمواجهتهم كان يحتاج الى كل قدراته الاستراتيجية ، كما أن الفرق التي يقودها يجب أن تكون انضباطية وجريئة اذا أراد أن ينجح في صدّ العرب .

==========

تحليل المصادر :

ان دراسة الأوضاع الاجتماعية والادارية في الشام في صدر الاسلام اقتضى دراسة معمقة ودقيقة للمصادر على أنواعها التاريخية منها (كتب التاريخ العام والمحلي ، والطبقات والتراجم والأنساب) والأدبية والجغرافية ، بالاضافة الى كتب الفقه ولا سيما كتب الخراج ، وبالرغم من أن كل صنف يركّز على ناحية معينة ، الاّ أنه لا يهمل النواحي الأخرى ، ولذلك فقد أمكنني الافادة من مختلف المصادر ، ولو جزئيا ، في كل موضوع من مواضيع الرسالة ، وان لم تكن نسبة الفائدة واحدة .

يجد الباحث المدقق في الكتب التاريخية العامة ، رغم تركيزها على النواحي السياسية معلومات ذات قيمة كبيرة في النواحي الادارية والاجتماعية والمالية ، كما أنها تتناول بشكل واسع القبائل التي اشتركت في الفتح واستقرارها في الأمصار . وقد تميّز الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه بكثرة المعلومات الهامة التي افادتني في مناحي البحث كله ، سواء في الاشارة الى أماكن استقرار القبائل قبل الفتح وبعده أو في عرض الأوضاع الاجتماعية للعرب المسلمين والعوامل التي أثّرت في تحديد مكانتهم ، كما أنه حوى معلومات مفيدة عن الأرض والصوافي ونظرة القبائل تجاهها ، والخطوات الأولى التي اتخذها عمر بالنسبة للأرض ، كذلك تضمن تاريخه معلومات عن الديوان والعطاء والتعبئة العسكرية وعناصر الجيش والقيادات والأسلحة التي استخدمها العرب أثناء الفتح وبعده في العصر الأموي ، ولا يقل كتاب فتوح البلدان وكتاب أنساب الأشراف للبلاذري (ت ٢٧٩ هـ) أهمية وقيمة ، فقد أفادت المعلومات الواردة فيهما البحث في جميع فصوله ، لا سيما وأن البلاذري في كتابه فتوح البلدان ، يتميز بالاهتمام الزائد في النواحي الادارية والمالية ، ويورد عنها أخبارا كثيرة غير مذكورة في المصادر الأخرى . وما دمنا في صدد الكلام عن كتب الفتوح ، فلا بد من التعرّض لكتاب الفتوح لأحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) ، اذ يعتبر كتابه من أقدم الكتب التاريخية التي ألّفت عن القرنين الأول والثاني الهجريين ، ولذلك فهو لا يعطي فقط روايات تاريخية عن الأحداث المختلفة ، ولكنه بروايات يعتبر مصدرا تقاس عليه روايات من سبقه أو عاصره من المؤرخين ، كالبلاذري والطبري واليعقوبي والمسعودي والدينوري وغيرهم ، وبمقارنة الروايات

../..

يمكن الوصول الى فكرة أوضح عن الاحداث التاريخية ذات العلاقة بالموضوع .

ومن مصادر التاريخ الهامة كذلك كتاب تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) الذي أغنى البحث بالقوائم التي يورد ها بأسماء الدواوين المركزية وموظفيها ، وكذلك القضاة ورؤساء الشرطة وولاة الأجناد في نهاية عهد كل خليفة أموى . وهذه القوائم تسترعي انتباه دارسي الأحوال الادارية ،وقلما نجد مثل هذا الاهتمام بالادارة من قبل مؤرخي الأحوال السياسية .

وضمّت مؤلفات الدينورى (ت ٢٨٢ هـ) واليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) والمسعودى (ت ٣٤٥ هـ) معلومات هامة تختلف عما أورده الطبرى والبلاذرى ، وهذا يدل على أنهم استمدوا معلوماتهم من مصادر مختلفة ، ولكن عدم ذكرها للأسانيد يجعل من الصعب تعيين هذه المصادر .

وتناول ابن سعد (ت ٢٢٠ هـ) في كتابه الطبقات الحديث عن الصحابة والتابعين الذين أقاموا في الشام ودورهم في نشر الاسلام وارساء قواعده ، كما أن الروايات الواردة في ترجمة عمر بن عبد العزيز أمدّت البحث بمعلومات قيّمة عن تدابير عمر بن عبد العزيز في مختلف المجالات ،لا سيما المالية منها والمتعلقة ببيوت الأموال في دمشق ، وبالعطاء وخاصة عطاء الأسرى ،والغائبين ومفاداة الأسرى .

ولكتب التاريخ المحلي قيمتها لأنها تعبر عن الرباط الوثيق الذى يربط الناس بمكان مولدهم ولأنها تورد حوادث محلية قد يهملها المؤرخون الذين يهتمون بالحوادث العامة والتي تعطي مع مالدينا من معلومات صورة أعمّ وأشمل ، الآ أن الباحث في التواريخ المحلية تواجهه عراقيل متنوعة منها عدم وجود تواريخ محلية لكل الاقاليم أو المدن الاسلامية ، فلم تكن كل المدن الاسلامية محظوظة مثلا ،مثل دمشق أو حلب ، بحيث تيسّر لتاريخها أن يكتب على يد أحد أبنائها أو الساكنين فيها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان بعض التواريخ المحلية لها صفة كتب (التراجم) أكثر من صفة (التاريخ) ،وأشهر مثل على ذلك كتاب بغية الطلب لابن العديم ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وليس بخاف أن البحث عن المعلومات التاريخية المتناثرة بين طيات هذه الكتب يحتاج الى وقت طويل وجهد كبير .

٠٠/٠٠

وتأتي أهمية كتب الفقه من عنايتها بالضرائب والشؤون الاقتصادية والادارية والاجتماعية . ومن المصادر الفقهية التي أغنت البحث بشكل جليّ ، كتب الخراج ككتاب الخراج لأبي يوسف (ت ١٨٢ هـ) ، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم (ت ٢١٣ هـ) ، وكتاب الأموال لأبي عبيد (ت ٢٢٤ هـ) ، والأحكام السلطانية للماوردي (ت ٤٥٠ هـ) ، بالاضافة الى بعض المصادر الفقهية الأخرى ، كالمدونة لمالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ، وكتاب الأم للشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، والمسند لابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ، وجامع المسانيد لأبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) ، وكتب الخراج والفقه هذه تقدم مادة تاريخية واسعة ذات أهمية وفائدة خاصة تنفرد بها عن غيرها من المصادر ، لاسيما اذا انتبه الباحث الى أن الفقهاء بشكل عام لا يراعون في تقديم مادتهم التطور التاريخي ، كما أنهم لا يراعون النواحي الجغرافية ، مما يخلق الارتباك وتعدّد الآراء . هذا ما نلاحظه مثلا في الروايات التي يوردها أبو يوسف أو أبو عبيد أو يحيى ابن آدم والمتعلقة بالاجراءات التي اتخذها عمر بن الخطاب بشأن السواد أو بشأن تحديد الجزية ، ويعود السبب في ذلك الى أن اهتمام الفقهاء موجّه بالدرجة الأولى الى السوابق التي يفيدون منها لوضع تعاليم أو قواعد فقهية مبنية على التدابير والاجراءات التي اتخذها الرسول (صلعم) والخلفاء الراشدون ولا سيما عمر بن الخطاب ثم عمر بن عبد العزيز من بعده .

لا يستغنى عن الأدب في كتابة التاريخ الاسلامي لأن المؤرخ الواعي يستنبط من المصادر الأدبية الكثير من حقائق التاريخ ، ومن أهم المصادر الأدبية التي استفدت منها كتب الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) ، وابن قتيبة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) ، وأبي الفرج الاصبهاني (٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) ، وابن عبد ربه (ت ٣٢٧ هـ) ، هذا بالاضافة الى دواوين الشعراء المعاصرين لفترة صدر الاسلام كديوان جرير والأخطل وغيرهما .

وتقدم الكتب الجغرافية عونا كبيرا ومتما في مجال البحث من حيث تحديد منطقة الشام وثغورها وأجنادها وامتداد هذه الأجناد والمدن الساحلية التابعة لكل جند منها والقبائل التي استقرّت فيها بعد الفتح ، بالاضافة الى العناصر السكانية الأخرى ، ومن أهم هذه الكتب ، كتاب البلدان لليعقوبي (ت ٢٨٨ هـ) ، والأعلاق النفيسة لابن رستة

../..

(ت ٢٩٠ هـ) ، والمسالك والممالك للاصطخري (ت ٣٢١ هـ) ، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) .

المصادر الذمية :

لا يكتمل البحث في الأوضاع الاجتماعية والادارية في الشام دون الرجوع الى أهم مصدر بيزنطي ، وهو تاريخ تيوفانس ، وبعض المصادر السريانية المترجمة الى الفرنسية أو الانكليزية أو العربية . وبالرغم من أن هذه المؤلفات قد أمدتني ببعض المعلومات القيمة غير المتوافرة في مصادرنا ، الا أنه لا بد من القول بأن المادة المتواجدة في مصادرنا أعمق وأغنى وأشمل . كما أن التحاليل التي ترد في مصادرنا ، وان كانت ترد بشكل غير مباشر ، فانها تدل على فهم للأحداث عميق ، بينما نجد تيوفانس والمؤرخين السريان يرجعون الأمور كلها الى القدرة الالهية وبركة القديسين والأولياء عند الفوز والانتصار ، أو الى الغضب الالهي ونقمة القديسين في حال الفشل والهزيمة .

المصادر التاريخية المتأخرة :

يعتمد المؤرخون المتأخرون بصورة عامة على روايات من سبقوهم من المؤرخين الأوائل . الا أن الباحث قد يعثر بين طيات هذه المصادر على روايات فريدة غير واردة في كتب الأوائل ، ولذلك فالأجدر بالباحث أن يرجع الى هذه المصادر المتأخرة ويدرسها . ومن المصادر المتأخرة التي أغنت البحث كتب ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي والذهبي والسيوطي وابن الجوزي والقلقشندي والنويري وغيرهم .

المراجع الحديثة :

قدمت المراجع الحديثة ، العربية منها والأجنبية ، ولا سيما تلك التي تبحث في النظم الاسلامية عامة والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والمالية خاصة ، فوائد جمة لما تضمنته من آراء وتعليقات وتحليلات ، وأخص بالذكر منها ما كتبه الدكتور عبد العزيز الدوري في النظم الاسلامية سواء في كتابه " مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي " أو في مقالاته عن الاقطاع والضرائب والحرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام .

../..

كما اعتمدت على المراجع الأجنبية عند البحث عن العرب في الشام قبل الفتح ومناطق تواجدهم ، بناء على ماتوصل اليه علماء الآثار ، وكذلك في البحث عن النظام المالي في الشام في العهد البيزنطي وفي النتائج الاقتصادية والسياسية الهامة التي نجمت عن تعريب الدنانير . ومن أهم هذه الكتب ، كتاب دانيل دينيت عن الجزية والاسلام ، وكتاب أوستروغورسكي عن تاريخ الدولة البيزنطية ، بالاضافة الى بحوث كبار المؤرخين المنشورة في المجموعة المعروفة باسم (Byzantium) وفي الموسوعة الاسلامية .

* * *

* *

*

.

تمهيد

الشَأْم والشأَم والشام والشآم (1) هو الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب على المنطقة التي يحدها بحر الروم من الغرب ، والبادية الممتدة من إيلة الى الفرات ،ثم من الفرات الى حد الروم ، وشماليها بلاد الروم ،وجنوبيها حد مصر وتيه بني اسرائيل ،وآخر حدودها مايلي مصر رفح ومايلي الروم الثغور. (2) أي أن الشام كانت تضم الرقعة التي تشغلها الآن سورية ولبنان والأردن وفلسطين ، وتلك كانت بلاد الشام على مدى تاريخ طويل ،ولم يتم تقسيمها سياسيا الى دول أربع الا بفعل الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وسورية اسم غلب اطلاقه على القطر الشامي منذ عهد قديم ، قال البكرى : " سورية بضم أوله وكسر الراء المهمله وتخفيف الياء اسم للشام " ،(3) وفي فتوح البلدان للبلاذرى ، أن هرقل لما بلغه خبر أهل اليرموك وايقاع المسلمين بجنده هرب من انطاكية الى قسطنطينية فلما جاوز الدرب قال : عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو يعني أرض الشام". (4)

---

(1) : ياقوت الحموي ،معجم البلدان ،دار صادر ،بيروت ط ١٣٩٧ هـ /١٩٧٧ م ج٣ص ٣١٢

(2) : الاصطخري ،المسالك والممالك ،تحقيق دي غوجه De Geoge ط ١٩٦٧ – ص /٥٥/ ،ويرى الاصطخري أنه بالرغم من أن بعض الثغور تعرف بثغور الشام وأخرى كانت تعرف بثغور الجزيرة فان كليهما من الشام ،لأن كل ماوراء الفرات (ويقصد بذلك كل ماهو غربي الفرات) من الشام . وانماسمي من ملطيه الى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها يرابطون وبها يغزون لا لأنها من الجزيرة ، أما قدامه بن جعفر فيجعل مرعش والحدث من ثغور الجزيرة ، وطرطوس وأذنه والمصيصه من ثغور الشام . قدامه بن جعفر ، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ، ١٣٠٦ هـ ص٢٥٣.

(3) : محمد كرد علي ، خطط الشام ،دمشق ١٣٤٣ هـ /١٩٢٥ م ج ١ ص٤٧.

(4) : البلاذري ،فتوح البلدان ،تحقيق رضوان محمد رضوان ، مصر ١٩٥٩ م ، ص /١٤٢/.

../..

ويرى ارنست هرتزفيلد (Ernest Hertzfield) أن سورية اسم مقتضب من اسم أشورية لغلبة الآشوريين عليه (٥) والسين والشين تتعاوران في اللغات السامية ، وقد ظهر اسم سوريه لأول مرة عند هيرودوت (٤٨٥ - ٤٢٥ ق.م) (٦) ويظهر بشكل Shryn في آداب أوغاريت وسيريون Siryon في العبريه حيث يطلق على لبنان الشرقي ، (٧) وفي العصور اليونانية ومابعدها توسع استعمال هذا الاسم وأطلق على البلاد كلها ، واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.(٨)

وكانت فلسطين بالنسبة لهيرودوت قسما من سوريه ، (٩) واعتبر وليم الصوري وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية فلسطين جزءًا من سورية أيضا . (١٠)

واستخدمت كلمة سوري (Syrian) بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقيه تشمل سكان سورية كلها ، غير أنها تستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية العربية السورية فقط . (١١) وكمصطلح ديني فان اسم سوري يشير الى أتباع الكنيسة السورية القديمة أو السريانية بفئتيها السريان الكاثوليك Syrian Catholic والسريان الارثوذكس Syrian Orthodox (١٢) .

---

(٥) : ارنست هرتزفيلد ، مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٢٢-١٩٤٧ص ١٧٨ ، ١٨١ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ج ١ ص ٤٧ .

(٦) : فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان . ج ١ ص ٦٢ .

(٧) : المصدر السابق ج ١ ص ٦٢ .

(٨) : The Modern Encyclopaedia First Edition, 1961 Art. Syria History .

(٩) : فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان ص ٦٢ .

(١٠) : المصدر السابق ص ٦٢ . A History of Deeds Done Beyond the Sea , tr.Emily A. Babcock & A.C. Krey New York , 1943 Vol. II P. 5 .

(١١) : M.E.Art., Syria, History .

(١٢) : E.Britannica, 15th.Edition Art.,Syria ,Religious groups

../..

أما كمصطلح لغوي فان كلمة سرياني Syriac وليس سوري Syrian هي التي تشير الى الفئة التي تتكلم السريانية (١٣) أما اللغة العربية فتستعمل اسم سوري للمفهوم العرقي والجغرافي ، واسم سرياني للمفهوم اللغوي والديني .

وللغويين والجغرافيين في سبب تسميته شاما آراء مختلفة ، (١٤) فقيل إنما سميت الشام شاما لأن قوماً من كنعان نزلوها فتشاءموا اليها فسميت شاماً لذلك . (١٥) وقالت طائفة انما سميت شاماً لما تشاءم لها أهل اليمن من يمنهم كما يقال تيامنوا وتياسروا فسميت لذلك ، (١٦) وقيل سميت الشام شاماً لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض ، فشبهت بالشامات ، أو لأن أرض الشام مختلفة الألوان بالحمرة والبياض والسواد فسمي شاما لذلك كما يسمى الخال في بدن الانسان شامة ، (١٧) وقد تجمع الشام على شامات ، (١٨) وتسمى بلاد الشام بذلك ، كما أن اطلاق الشام على دمشق وارد أيضاً من باب اطلاق العام على الخاص ، والعرب كثيرا ما كانوا يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها ، فكانوا يقولون بلا فرق ، دمشق أو الشام ، الفسطاط أو مصر ، شبام أو حضرموت. (١٩)

---

(١٣) : M.E. Art ., Syriac.
Donner , F. Mc graw, The Early Islamic Conquests, princeton New Jersey P. 94 (Syriac is a dialect of the Aramaic Language).
أما فيليب حتي فيرى أن اسم سوري Syrian يشير الى الشعوب التي تتكلم السريانية (تاريخ سوريه ولبنان ص ٦٣) .

(١٤) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٢

(١٥) : المصدر السابق ج ٣ ص ٣١٢ ، ابو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١هـ ص /١٣/ .

(١٦) : نزهة الأنام ، ص /١٣/ .

(١٧) : المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تعليق غازي طليمات ، ط ١٩٨٠م ص /١٤٠/ .

(١٨) : خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ط ١٩٦٧ ص /١٥٧/ .

(١٩) : كرد علي ، خطط الشام ج ١ ص /٤٨/ .

../..

وكان أوّل جغرافيين أعطيا للديار الشامية وحدة جغرافية ، الأصطخري (ت ٣٢١ هـ) ثم المقدسي (ت ٣٨٠ هـ) اذ عنون الاصطخري الفصل الخاص بالشام بقوله " أرض الشام"، أما المقدسي فقد استعمل " اقليم الشام " قاصداً بذلك وحدة جغرافية ، كما أن المقدسي هو أول من تكلم عن التكوين الطبيعي لاقليم الشام فقال : ووضع هذا الاقليم ظريف ، هو أربعة صفوف ، فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل ، رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن الساحل ، والصف الثاني الجبل ، مشجر ذو قرى وعيون ومزارع ويقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وقدس والبقاع وانطاكية والصف الثالث ، الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع يقع فيه من البلدان إيله وتبوك وصغر (زغر) وأريحا وبيسان وطبريه وبانياس ، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وحلب .

ان هذا الوصف الذي يقدمه المقدسي قريب من الوصف الذي يقدمه علماء الجغرافيا لتضاريس بلاد الشام التي تتألف من المناطق المتميزة التالية اذا ما اخترقنا سورية الطبيعية أو الشام من غربها الى شرقها .

١ـ السهول الساحلية :

السهول الساحلية الشامية هي بالاجمال ضيقه محدودة لانحصارها بين البحر والجبال الغربية ، ولكنها تتسع في جنوب سيفا فتشكل سهولاً زراعية رحبة ، وقرب الجبال منها يغذيها بالأتربة والمجروفات ومياه الري ، لكن السيول الهابطة نحو الساحل تجف في الصيف فلا يستفاد منها حين الحاجة اليها ، وهي تفيض في الشتاء فتضر بالزرع ، ولا يمكن استخدامها في الزراعة الا اذا شيدت لها خزّانات وأقنية .

وتمتاز السهول الساحلية بخصب تربتها ووفرة أمطارها ، لذلك فهي صالحة لزراعات متنوعة ، لكنها ليست من الاتساع بحيث تكفي سكانها بالمنتوجات الزراعية ،

٠٠/٠٠

ولا بد لها من التعامل الزراعي مع بلاد الداخل لتقيم التوازن في مواردها الغذائية.(٢٠)

وتبدأ السهول الساحلية في الشمال بسهل الاسكندرون الذي يمتد على أكثر من (٤٨٠٠) كم٢ ثم سهول اللاذقية وجبلة وبانياس ،وتمتاز هذه السهول بثرواتها الزراعية ، تأتي بعد ذلك سهول لبنان الساحلية ، وهي سهول ضيقة لا سيما بين طرابلس وبيروت ، فالجبال تقترب من البحر حتى لا تدع بينها وبينه سوى متسع صغير للزراعة. (٢١)

وتبدأ سهول فلسطين بسهل عكار الذي يتصل به مرج ابن عامر الممتد نحو الداخل والمتميز بتربته السوداء الملائمة لزراعة الحبوب ،وعند جبل الكرمل يضيق السهل الساحلي حتى لا يبعد عن البحر أكثر من ١٨٠ م ، ويعرف السهل الواقع بين جبل الكرمل ويافا باسم سهل سارونه ،يليه نحو الجنوب سهل فلسطين العظيم ، وجميع هذه السهول مشهورة بخصبها لكنها قليلة المياه ،بسبب شح الأمطار ،وهي موطن الحمضيات المشهورة في العالم ، وسهل فلسطين يتصل عند غزة وبئر السبع بصحراء النقب القاحلة وتزيد مساحتها عن نصف مساحة فلسطين ،وساحل فلسطين مستقيم رملي لا يلائم نشوء الموانئ ، لذلك كانت أكثر المدن الفلسطينية داخل البر ، وهذا هو الفارق بين فينيقيا القديمة وفلسطين ، فالأولى تلائم الحياة البحرية والثانية توافق الفاعلية الزراعية ،ومرفأ حيفا انما نشأ بحمى جبل الكرمل ، وساعد على نشوء مرفأ يافا عوامل اتكالية بحرية. (٢٢)

منطقة الجبال الغربية :

هي منطقة ذات التواءات تتجه بصورة عامة من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي ، ولكن هذا الاتجاه يتبدّل حسب المواقع ،وتتناول الصدوع هذه السلاسل الالتوائية في وسطها وعلى جوانبها وأعظمها شأناً صدع طولاني يكسرها في شرقها ،فتبدو قممها الشاهقة على طرفها الأيمن ، بينما طرفها الغربي يهبط متدرجاً ويؤلف أحياناً هضاباً خفيفة التموج تخترقها

---

(٢٠) : د. رياض دويدري ،جغرافية سورية والوطن العربي ،دمشق ١٩٨١ ص٣٩.

(٢١) : حسن سيد أحمد أبو العينين/ لبنان ،بيروت ١٩٦٨ ص ٩٨ .

(٢٢) : د. دويدري ،المصدر السابق ص ٣٩ - ٤٠.

../..

مجازات عرضانية ضيقة و عميقة وهي في الغالب من عمل الانتكال النهري ، وتتقارب رؤوس الأودية أحياناً فلا تترك بينها سوى ظهور أومتون جبلية ضيقة كما هو الحال في لبنان . (٢٣) وقد أثرت وعورة هذه الجبال في مصيرها التاريخي ، فكانت ملجأ أميناً للأقليات العرقيــة والطائفية ،(٢٤) ولعلّ مايعكس هذا الوضع وصف ياقوت الحموي لهذه المنطقة بقولـه : " ان في هذا الجبل سبعين لساناً ،لا يعرف كل قوم لسان الآخرين الآ بترجمان"(٢٥).

تبدأ منطقة الالتواءات الغربية في الشمال بجبال الأمانوس التي يقع في وسـطها ممر بيلان (٦٨٤ م) يليها نحو الجنوب جبل الأقرع ، ثم جبال الساحل الســـــورية فجبال لبنان التي يصل علوها الى (٣٠٨٨ م) في قمة القرنــة السوداء ، ثم ينزل الارتفاع في الوسط الى (٢٦٢٨ م) في جبل صنين والى (١٦٥٠ م) في الجنوب في جبل الباروك والممر الرئيسي الذي يخترق جبال لبنان هو ممر ظهر البيدر (١٥٠٠ م) .

تلتحم جبال لبنان بعد مصب نهر الليطاني بجبال فلسطين ، وأول جبال فلسطين في الشمال جبل الجليل (قمة جبل الجرمق ١٢٠٨ م) وجبل الكرمل الذي يشـرف علـى مدينة حيفا ، وبين مدينة جنين ومشارف القدس تقوم جبال نابلس أو السامرية ثم جبـال القدس والخليل ، ويعلو جبل الزيتون المشرف على القدس (٨١٥ م) وتنتهي جبال فلسطين جنوبا بحدوديات صحراء النقب التي تتجه من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي بينما يكون اتجاه جبال فلسطين من الشمال الى الجنوب. (٢٦)

---

(٢٣) : المصدر السابق ص ٤١ .

(٢٤) : حتي ، تاريخ سورية ولبنان ص ٣٩ .

(٢٥) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ٥ ص ١١ .

(٢٦) : د . دويدري - المصدر السابق ص ٤٠ - ٤٢ .

../..

منطقة الوحدة الانهدامية :

بين الجبال الساحلية والجبال الداخلية يمتد أخدود طولاني ضيـق ناجـم من خسف عميق ، وهو جزء من الانهدامات السورية الافريقية ، (٢٧) وهذا الأخدود أو الغور لا يتشابه في جميع أرجائه من حيث البنية ، وشكل السطح ونوع التربة والمناخ ، بل ينقسم الى مناطق متباينة تبطارها أوديه متعاكسة في الاتجاه ، وهو في الغالب متعر التوائي متصدع ، والصدوع الجانبيه ليس لها علو واحد ففي فلسطين يهبط قعر الغور الى (٣٩٢ م) تحت سطح البحر في قاع البحر الميت . (٢٨) وعند بعلبك يرتفع حتى (١١٠٠ م) فوق سطح البحر ، وفي أمكنه عدة خرجت الحمم من الصدوع وسالت نحو قرارة الغور فغلقت فيه سدودا طبيعية تجمعت وراءها المياه وشكلت بحيرات ، وقد جفّت بعض هذه البحيرات وتركت مكانها رسوبات صلصالية نجدها اليوم في سهل الغاب وسهل العمق ، تكسوها طبقة سطحية من الرسوبات النهرية الحديثة وهكذا نجد في الغور صخورا صلصاليه وكلسيه وبركانيه ولحقية ، والاختلاف في أجزاء الغور لا يقتصر على الاتجاه والارتفاع ونوع الأرض ، بل يتعداه أيضا الى المناخ ، ففي الشمال تهطل أمطار كافيه ، بينما الوديان الجنوبية حارة جافة . (٢٩)

تبدأ الوحدة شمالا بمجرى نهر قره صو الذى يلتقي بمياه نهر العاصي في بحيرة العمق ، ثم يشغل الوحده نهر العاصي فيوءلف سهل العمق ، فسهل الغاب ، ثـم

---

(٢٧) : Gregory J.W. The Rift valleys of East Africa, London , 1971, PP. 337 - 380

(٢٨) : Quennel, A.M. The Structural and geomorphic Evolution of The Dead Sea Rift, quart. jour. geol. .soc. vol. 114, 1959, p 7.

(٢٩) : صلاح الدين بحيري ، جغرافية الاردن ، عمان ، ١٩٧٣ ص ٧٩.

../..

سهل البقاع ، ويفصل بين حوض الليطاني وحوض الاردن ، فتحه بركانية ، ثم ينبسط سهل الحولة الذي يرتفع (٧٠ م) بأيه بحيرة طبرية التي تنخفض (٢٠٦ م) عن سطح البحر، وينتهي نهر الاردن بالبحر الميت الذي ينخفض سطحه عن البحر(٣٠٦)م ، وفي جنوب البحر الميت يمتد وادي عربة مائلا من الجنوب نحو الشمال ،ويستمرالغور الخسفي في خليج العقبة. (٣٠)

<u>منطقة الجبال الشرقية</u> :

وهي تراصف الجبال الساحلية على الطرف الشرقي من الوهدة ،ولكنها على قربها منها تختلف عنها أشد الاختلاف ،فهذه جافة جرداء وتلك مروية مكسوة بالغابات ، وهذه متقطعة قليلة الانتظام ، وتلك مستمرة الآ حين تخترقها مجازات الأنهار ، والجبال الغربية أكثر علوا ،أما الشرقية فهي أكثر تفرعاً ،لأنها ترسل نحو الداخل مجموعة محدودبات تصل حتى نهر الفرات ودجلة وندعوها بالسلاسل التدمرية .

وأول جبال المنطقة الشرقية جبل الاكراد ، ويليه نحو الجنوب الشرقي جبل سمعان (٨٧٠ م) ثم جبل الزاوية (٦٣٦ م) فجبال لبنان الشرقية التي يصل ارتفاعها الى (٢٦٢٩ م) وبعد مقعر الزبداني المنخسف نصل في الجنوب الى جبل حرمون (٢٨١٤ م) الذي يشاهد في أفق مدينة دمشق وتكلل هامته الثلوج أشهرا من السنة ، لذلك يدعى أيضا بجبل الشيخ .

يتفرّع من الجبال الشرقية محدودبات تشكل مجموعتين ،اولاهما تبدأ عند حمص (جبل بلعاس) والثانية تتشعب عند دمشق وتؤلف جبال وهضاب القلمون ،والمجموعتان تقتربان حول تدمر في البادية السورية حيث نجد جبل البشري (٨٦٠ م) الممتد حتى الفرات ، ثم جبل عبدالعزيز القائم في شمال الجزيرة الفراتية ثم جبل سنجار في العراق .

---

(٣٠) : King, L.C. The Morphology of The Earth , NewYork 1962 pp. 293 - 295.

وفي الجنوب من غوطة دمشق وجبل حرمون تقوم منطقة بركانية واسعة تشكل اقليما متميزا بين الجمهورية العربية السورية والمملكة الاردنية الهاشمية وتتألف من مخاريط بركانية (جبل العرب) يصل ارتفاعها الى (١٨٠٣ م) ومن هضاب وسهول منداة بحرات البازلت ، (الجولان وحوران) ومن فجوات بركانية وعرة (الصفا واللجاة) .

والتواءات المنطقة الجبلية الشرقية تتحول في بلاد الأردن الى هضبة مرتفعة ، وأهم العوارض الطبيعية في هضبة الأردن جبال عجلون (١٢٠٠ م) في الشمال وجبال البلقاء (١٠٦٧ م) عند السلط وجبال مآب (٩٠٠ م) وجبال الطفيلة (١٢٠٠ م) ثم جبال الشراة (١٥٠٠ م) الملتحمة بجبال السراة في شبه جزيرة العرب. (٣١)

منطقة الهضاب والبوادي والسهول الداخلية :

ان منطقة واسعة من البوادي تمتد غرب العراق وشرق بلاد الشام ، وهي تتحول الى شبه صحراء في منطقة الحماد ، وقد رأينا أن سلسلة الالتواءات تجتاز بوادي الشام من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي بادئة من القلمون ومنتهية عند الفرات ودبلة أطلق عليها الجغرافيون اسم السلاسل التدمرية .

ولا تخلو البادية الشامية من نتوءات بركانية مبعثرة ، كما يتخللها شبكة من الاودية الجافة والسبخات ، مما يدل على أن المناخ كان قديما أكثر أمطارا والسيول أكثر انتشارا وأغزر ماء . وحتى في صحراء الحماد نجد عددا كبيرا من الأودية المتجهة نحو الفرات ، يتخذ منها البدو ممرات لنجعاتهم ، والمناطق المأهولة بشكل ثابت هي بعض الواحات ذات المياه الباطنية كتدمر مثلا ، ويطلق البدو على هذه الواحات اسم المناظر ، وعندما يخترق هذه السهوب نهر أو ينبوع أو تتوافر فيها الأمطار تنقلب الى سهول مزروعة ، كما هو الحال في غوطة دمشق وسهل حمص وسهول حلب وأطراف نهر الفرات وسهول الخابور في منطقة الجزيرة .

---

(٣١) : صلاح الدين بحيري — جغرافية الاردن ص ٩٣ .

الباب الأول

الفصل الأول

العناصر السكانية في الشام
قبل الفتح وموقفها منه

العرب وتوزعهم :

تتميز الشام بكثرة القبائل التي كانت قاطنة فيها أثناء الفتح والتي ترد أسماؤها في مصادرنا العربية ، الا أن هنالك أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة غير مذكورة لأنه لم يكن لعلماء الانساب علم بها ، ذكرت في التوراة وكتب اليهود الأخرى وفي المصادر اللاتينية واليونانية والكتابات الجاهلية ، واذا جاز لأحد الشك في أصل بعض القبائل المذكورة في كتب اليهود أو في مؤلفات الكتبة الكلاسيكيين على اعتبار أنها أخطأت في ادخالها في جماعة العرب ، فان هذا الجواز يسقط حتما بالنسبة الى القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية وبالنسبة الى القبائل التي دونت تلك الكتابات ، فهي كتابات عربية وان اختلفت عن عربيتنا ، وباينت لهجتها لهجتنا .

سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير ، فقال : " مالسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا " (١) ولكن علماء العربية لم يتنصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان مخالف للساننا ، بل عدوهم من صميم العرب ، وقد القت المكتشفات الاثرية الأضواء على كثرة وجود العرب في الشام ، فالنصوص الكثيرة المنقوشة على صخور البازلت في المنطقة التي يطلق عليها اسم الصفا في الجنوب الشرقي من دمشق تشير الى أن السكان الذين نقشوا تلك النصوص في القرون الميلادية الأولى هم من أصل عربي ، فلغتهم لهجة عربية وكتابتهم تمت الى الكتابات

---

(١) : محمد بن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، ليدن ، ١٩١٣ ، طبعة أوفست بيروت ، دار النهضة ص/٤/ .

../..

التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية ، وأهمية هذا الاكتشاف هو أن علماء الآثـــار قد تعرّفوا على عرب الصفا قبل أن يمتزجوا بغيرهم امتزاجا تاما ، فتعرّفوا بواســـطة هذه النقوش على كتاباتهم وآلهتهم وعاداتهم ،(٢) كما أن الرأي السائد اليوم بيـــن العلماء أن الأنباط عرب مثل سائر العرب وان استعملوا الآرامية في كتاباتهم ، ولم يذكرهم الاخباريون ، بدليل أن أسماءهم أسماء عربية خالصة ، وأنهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الحجاز مثل ذي الشرى واللات والعزّى ، وأنهم رصّعوا كتاباتهم الآرامية بكثير من الألفاظ العربية ، وبدليل اطلاق اليونان واللاتين والمؤرخ اليهـــودي (يوسفوس) كلمة العرب على الأنباط واطلاق اسم العربية الصخريـــــــة (Arabia Petraea) على أرضهم ، ولو لم يكن الأنباط عربا لما أطـــلق الكلاسيكيون اسم العرب عليهم ، ولما كانوا ليدخلوا بلادهم ضمن العربية ويجعلونها جـزءاً من أجزائها الثلاثة. (٣) أما استخدام الأنباط للآرامية في كتاباتهم فيعود الى أن الآرامية كانت قد تغلبت على أكثر لغات الشرق الأدنى ، وصارت لغة الكتابة والتدوين والتجـــارة في هذه المنطقة قبل الميلاد وبعده بقرون ، تغلّبت على العبرانية مثلا وزاحمتها حتـــى فضّلت عليها عند المتكلمين بها من الخاصة والسواد الى نهاية القرن السابع بعد الميلاد ،(٤) فلا عجب أن يدون الأنباط وغيرهم من العرب بالآرامية ، لغة الفكر والثقافة والتجارة ، وأن يتكلموا بلغة أخرى هي لغة اللسان . وقد كان الأعاجم في الاسلام يتكلمون بألسنة أعجمية ويدونون باللسان العربي ، لسان القرآن والعلم والفكر . وما ذكرناه من الأنباط ينطبـــق على سكان تدمر ، فقد أخذ العنصر العربي بالمعنى الأصلي للكلمة يتغلب عليها تدريجيا اعتبارا من مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، حتى أصبح هذا العنصر حوالي العهـــــد السلوقي هو النواة الثابتة في تدمر والغالبة عليها ، وتلك نتيجة توصل اليها الباحثون .

---

(٢) : رينيه دوسو ، العرب في سورية قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص/١/٠

(٣) : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م ج٣ ص/٩/٠

(٤) : المصدر السابق ، ج٣ ص/١٠/٠

ونوه بها البعض تنويها وأكدها البعض الآخر تأكيدا جازمـا ،(٥) كما أكدتهـا أحدث دراسة في أسماء الأعلام التدمرية ، (٦) وكانت القبائل العربية في بادية الشام ترفد مدينة تدمر بصورة خاصة نظرا لكونها أكبر مركز في تلك الأرجاء ، ولاقتصادهـا التجاري القافلي الذي يحتاج للرجال والخيل والجمال وتوطيد العلاقات البدويـة الحضرية على أساس المصلحة المشتركة ، وأقدم الكتابات التدمرية حافلة بالأسماء العربية الصريحة سواء بالنسبة للأشخاص أو القبائل . (٧)

بالاضافة الى الأنباط والسكان العرب في تدمر ، فان مدينة حمص كانت تحت سلطان أسرة عربية قبل وصول بومبي الى سورية والدليل على عروبتها ، أن أمراءها يحملون أسماء ذات طابع عربي خالص شبيهة بتلك التي عثر عليها العلماء في نصوص صفويـة . (٨) وحكمت أسر لها نفس الأسماء العربية بلدة الرها ، كما أن الايتوريين ، وهم من أصـل عربي ، (٩) كانوا يسيطرون على مملكة تقع في لبنان الداخلي عاصمتها خلكيس (Chalcis)

---

(٥) : Cocke . G. A. A Text Book of North Semetic Inscriptions, Oxford, 1903, P.264. " The bulk of the population of Palmyra was of Arab race. Hence many of the proper names are Arabic and several Arabic words occur.

(٦) : Stark, J.K., Personal names in Palmyrene Inscriptions , Oxford, 1971, P.20. " A statistical survey of the names given in the main list would show that more than half of them can be best explained through Arabic, or can have a possible Arabic etymology, when one further considers that names like HYRN, MGYMW, MLKW which lexically require an Arabic explanation are attested with far greater frequency than other names, the balance weighs even more in favour of Arabic.

(٧) : عدنان البني ، تدمر والتدمريون ، رسالة دكتوراة منسوخة ، دمشق ١٩٧٧ ، ص ٩٢

(٨) : دوسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ص ١١/٠.
Donner, The Early Islamic Conquest, Princeton, New Jersey, P.95

(٩) : Jones, V., Journal of Roman Studies, 1931 P. 257.

../..

هنجر في البقاع ، ومن هناك امتد سلطانهم في لبنان حتى الشاطئ الفينيقي ، وكانوا يقلقون جبيل (Byblos) وبيروت (Beryte) الى أن تدخل بومبي ليضع حدا لتعسفاتهم. (١٠)

ثم ان الدراسات التي قام بها رينان تبين أن أسماء الأعلام العربية التي تقدمها النصوص التي اكتشفت في حوران لها ما يماثلها في دمشق وحمص وتدمر، (١١) كما يشير رينان الى ذلك الضبط التام الذي كتبت به الأسماء العربية في النقوش مما يثير انتباه الفقيه اللغوي ،فقد روعيت فيها أدق خصائص اللغة العربية ،والتوافق الموجود بين خصائص العربية قبل الاسلام والعربية التي يتحدث بها اليوم هو توافق يدعو الى العجب حقا . (١٢) ويضيف دوسو أن آلاف النصوص التي ظهرت منذ ذلك الوقت حتى الآن في شرقي سورية ،سواء أكانت نصوصا اغريقية أم نبطية أم صفوية ، الى جانب نصوص ثلاثة عربية قبل الاسلام أكدت صدق آراء رينان التي استوحاها من دراسته لاثني عشر نصا اغريقيا قد كتبت كتابة ناقصة ، وكان رينان قد نشر آراءه في مذكرة عنوانها " في بعض أسماء عربية موجودة بنقوش اغريقية في حوران ". (١٣) هذا وان اكتشاف نقش بيزنطي رسمي مكتوب باللغات الثلاث ، الاغريقية والسريانية والعربية ،بالقرب من حرّان وعائد الى النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، يكشف أن المتكلمين باللغة العربية كانوا يشكلون نسبة لا يستهان بها ،والا لما كتب النص بالعربية بالاضافة الى اليونانية لغة الادارة والحكم ، والسريانية وهي اللغة التي كان يتكلم بها القسم الأكبر من السكان في سورية. (١٤)

---

(١٠) : دوسو ،المصدر السابق ص ١٤ . Donner, Op. Cit. P. 95

(١١) : المصدر السابق ،ص ١٤ .

(١٢) : المصدر السابق ،ص ١٥ .

(١٣) : المصدر السابق ،ص ١٥ .

(١٤) : Donnor, Op. Cit P. 95.

ومن سوء الحظ أن المصادر العربية لا تقدم سوى معلومات شديدة الغموض فيما يتعلق بهجرة العناصر العربية الى الشام والآثار التي تركتها ، ولولا التأييد الذى حصل عليه العلماء ، من النقوش الكتابية ومن مؤلفات معاصرة ، لأضحت هذه المعلومات عديمة الجدوى .

يشير اليعقوبي أن قضاعة كانت أول من تقدم الشام ، وكان أول من تقدمها من قضاعة تنوخ ، فملكهم الروم على من ببلاد الشام من العرب ، ثم غلبت بنو سليح . (١٥)

أما الطبري ، فيذكر بأن كثيرا من تنوخ الذين كانوا قد توجهوا مع مالك وعمرا ابني فهم ومالك بن زهير لحقوا بالشام الى من هنالك من قضاعة ، بعد أن ضبط أردشير بن بابك أول ملوك الساسانيين العراق لأنهم كرهوا أن يقيموا في مملكته ، (١٦) أى أن هذه الهجرة نحو الشام كانت حوالي النصف الأول من القرن الثالث الميلادى لأن أردشير بن بابك هو مؤسس السلالة الساسانية التي يبدأ حكمها سنة ٢٢٥م . أما الهجرة الأولى من قبائل تنوخ (١٧) سواء نحو العراق أو الشام فربما كانت في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادى .

---

(١٥) : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م ، ج ١ ص ٢٠١ .

(١٦) : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف - الطبعة الثانية ج ٢ ص ٤٢ .

(١٧) : تنوخ : حي من اليمن اختلف النسابون فيه ، فقال ابن خلدون بأنهم من بني أسد بن وبره بن تغلب بن حلوان بن عمرو بن الحافي بن قضاعه ، وقال الزبيدى تنوخ قبائل اجتمعت وتألفت منهم بنو فهم ، وقال الزمخشرى ، "تنوخ قبائل تحالفت فتنخت في مواضعها ، وقال النويري : تنوخ وهو مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد ، وقال ابن عبدربه وابو الفداء ، تنوخ من قبائل قضاعة ، وقال ابن سعيد : ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاعمة ودوس الذين تنخوا بالبحرين ، ويذكر الطبرى أن تنوخ تضم قبائل عدة من العرب تحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التوازر والتناصر ، فصاروا يدا على الناس ، وضمهم اسم تنوخ . الطبرى ج ١ ص ٦١٠ ؛ عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، بيروت ، ج ١ ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

../..

ونستنتج مما يرد عند الطبري واليعقوبي والمسعودي وابن عبد ربه وغيرهم أن تنوخ التي استقرت في الشام كانت من قبائل قضاعة ، وأن بني سليح غلبت عليهم وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام ، وبنو سليح هم عرب نسبهم النسابون الى سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف من قضاعة (١٨) ، ثم سارت غسان الى الشام فقدموا أرض البلقاء وسألوا سليحا أن يدخلوا معهم فيما دخلوا فيه من طاعة ملك الروم ، فكتب سليح الى ملك الروم وكان منزله بأنطاكية فأجابهم الى ذلك وشرط عليهم شروطا ، (١٩) أما ابن عبد ربه فيذكر أن سليح ، هو عمرو بن حلوان بن عمران ، بينما الضجاعمة هم من بني سعد بن سليح ، وأن الضجاعمة هم الذين كانوا ملوك الشام قبل غسان (٢٠) ويبدو مما يذكره المستشرق نولدكه أن الضجاعمة كانوا عمالا للروم على عرب مشارف الشام وأن جدهم ضجعم عاش في أواخر القرن الرابع للميلاد وأخذ من الروم لقب فيلارك (Phylarch) ، (٢١) وأنه تنصر وتنصر معه عدد كبير من أتباعه ، ولم يتغلب الغساسنة على الضجاعمة بسهولة ويسر ، على أن هذا النصر الذي أحرزه الغساسنة على بني سليح لم يؤد الى زوالهم ، أو زوال الضجاعمة نهائيا أو هجرهم للمنطقة ، اذ يرد ذكر بني سليح بن حلوان في حاضر قنسرين (٢٢) كما كان الضجاعمة من القبائل العربية المعروفة عند ظهور الاسلام ، فقد وقفوا مع سكان دومة الجندل في عنادهم ومقاومتهم لخالد بن الوليد وكان رئيسهم اذ ذاك ابن الحدرجان ، (٢٣) كما زار الشاعر النابغة الذبياني أحدهم ببصرى وذكر ذلك في احدى قصائده :

---

(١٨) : ابن عبد البر ، الأنباه على قبائل الرواة ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ص ١٢٣ ، المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الاندلس ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٣٩٣ هـ عام ١٩٧٣ م ج ٢ – ص ٨٣ .

(١٩) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٠٧ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ – ص ٨٣ .

(٢٠) : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م ج ٣ – ص ٣٧٣ .

(٢١) : نولدكه ، أمراء غسان ، ص ٦ .

(٢٢) : البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ص ١٥٠ .

(٢٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٧٨ .

../..

لعمري ،لنعم الحيّ من آل ضجعم
نزور ببصرى أو ببرقة هارب (٢٤)

أما الغساسنة فهم باجماع النسابين من الأزد ،أزد اليمن ،التي افترقت فيما ذكره ابن عبد ربه وغيره من علماء النسب على نحو من سبع وعشرين قبيلة منهم الأنصار- الأوس والخزرج ، وكل الاوس والخزرج غساني الا ما كان منهم بعُمان . (٢٥) وقد شذ من الخزرج قبيل من قبائلها كانت دارهم الشام فهم غسانيون ،وليسوا في الأنصار ،الا رجلين كانا بالمدينة فأسلما ونصرا مع قومهما من الأنصار ،وهما أبو الدرداء ،وعدي بن كعب من الخزرج . (٢٦) ويذكر ابن حزم أن الغساسنة هاون شتى من الأزد ،ومن هاون غسان التي سكنت الشام أولاد جفنة بن عمرو مزيقياء (٢٧) وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من نزل الاردن من أرض الشام ،(٢٨) ويستفاد مما يذكره الشعراء أن مركز الجفنيين الأهم كان الجولان الذي كان يقع في ولاية فلسطين الثانية ،(٢٩) كما يذكر هؤلاء الشعراء أن الغساسنة كانوا يقيمون بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى يعرف بجلّق ، (٣٠) يقول حسان بن ثابت :

لله درّ عصابة نادمتهم يوما بجلّق في الزمان الأول

---

(٢٤) : النابغة الذبياني ،الديوان ،تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار بيروت صادر ،ص ٢٥
(٢٥) : ابن عبد البر ،الانباه على قبائل الرواة ،ص ١٠٦ .
(٢٦) : المصدر السابق ،ص ١٠٧ .
(٢٧) : ابن حزم ،جمهرة أنساب العرب ،ص ٣٥١ ،المسعودي ،مروج الذهب ،ج ٢ ص ٨٣
(٢٨) : المسعودي ،المصدر السابق ،ج ٢ ص ٨٣ .
(٢٩) : فلسطين الثانية (Palestina Secunda) كان مركزها بيسان ومدنها الرئيسية جدرة وطبرية .
Le Strange, Palestine and the Muslims, 1890, P. 26.
نولدكه _ أمراء غسان ،ص ٥١ .
(٣٠) : يرى ياقوت الحموي أن جلق هو اسم لكورة الغوطة كلها ويضيف وقيل جلق موضع [illegible] من قرى دمشق ،معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٥ .

../..

يسقون من ورد البريص عليهم[٣١]   بردى يصفق بالرحيق السلسل

كما يذكر في قصيدة أخرى ،

أنظر خليلي ببطن جلق هل
توئنس دون البلقاء من أحد[٣٢]

وذكر حسّان مواضع عديدة تقع في ملك غسان من جنوبي الجولان الى أطراف دمشق (٣٣) ولم تكن سلطة الأمير الجفني تقف عند حدود ولاية ما ، بل كان تتجاوزها وتمتد على كل القبائل الرحل ، أوشبه الرحل التي كانت دائما أو في أوقات معلومة في فلسطين الثانية ، والولاية العربية وفينيقية لبنان ، وربما أيضا في ولاية سورية الشمالية ، أما في البيداء فان ملكه كان يمتد الى الحد الذي كان العرب يخشون فيه بأسه وسلاحه ، أي الى

---

(٣١) : يستنتج ياقوت الحموي من قصيدة حسان المذكورة ومن قصيدة وعلة الجرمي "ولا سرطان أنهار البريص" على أن البريص اسم الغوطة بأجمعها ، فيقول : "ألا تراه نسب الأنهار الى البريص ، وكذلك حسان فانه يقول : يسقون ماء بردى من ورد البريص" . معجم البلدان ج ١ ص ٤٠١ ، محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي ، دمشق ، الطبعة الثانية ص ١١ .

(٣٢) : حسان بن ثابت ـ الديوان ، تحقيق وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٤ م ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣٣) : المصدر السابق ص ٧٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦ ،

القصيدة رقم ١٣ -

أسألت رسم الدار أم لم تسأل   بين الجوابي فالبضيع فحومل

والمرج من الصُّفّرين فباسم   فديار سلمى دُرّسا لم تحلل

القصيدة رقم ١٢٢ -

لمن الدار أوحشت بمعان   بين أعلى اليرموك فالخمّان

فالقريّات من بلاس فداريا   فسكاء فالقصور الدواني

فقفا جاسم فأودية الصفر   مغنى قنابل وهجان

القصيدة رقم ١٣٦ أ -

من دون بصرى وخلفها جبل الثلج عليه السحاب كالقدد

٠٠/ / ٠

ماوراء سلسلة التلاع الأخيرة التي تعيين حدود امبراطورية الروم ،(٣٤) وبالرغم من المنطقة الواسعة التي كان يمتد اليها النفوذ الغسّاني ،فاننا لا نرى كما يقول نولدكه اشارة الى أن الغساسنة كانوا يمتلكون أيا من الأماكن الحصينة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش ،كدمشق ،وبصرى أو تدمر التي حصنها جوستينان . (٣٥)

ويبدو أن دخول الفرس لبلاد الشام سنة ٦١٣ — ٦١٤ م ضعضع ملك بني جفنه ففر بعض أمرائهم الى بلاد الروم والتجأ البعض الآخر الى داخل الصحراء ، ومن الطبيعي أن لا يترك الفرس في الشام عمال الروم من العرب ، وكانوا قد ذاقوا منهم الامرّين ، ويؤيد هذا الافتراض مايذكره حسّان من تهدم ملك بني غسّان وكيف أن بطريق الفرس (وكان لقب بطريق قد أصبح شائعا بين أهل تلك البلاد) قد سطا على ملك بني غسّان وتربّع في عقر دارهم وأباح رعاية الابل فيها حتى جبل الحارث في الجولان . (٣٦) أما قصيدته التي أنشدها على مايبدو قبل هجرة النبي (صلعم) بزمن قليل ،فتدل على أن منطقة نفوذهم كانت تمتد من جبل الشيخ الى ايله ،(٣٧) وفي فترة الفتوح ، تذكر المصادر العربية

---

(٣٤) : نولدكه ،امراء غسان ،ص١٥ ،النابغة الذبياني ،الديوان ،ص ٤٣ ، ٥٥ .

(٣٥) : نولدكه ،المصدر السابق ،ص١٥ ،نقلا عن ملالا ٢ / ١٥٢ ،تيوفانس ص ٢٦٧ .

(٣٦) : حسان بن ثابت ،الديوان ،ص ١٩٤ ، قصيدة رقم — ٨٤ —

أباح لها بطريق فارس غائطا
له من ذرى الجولان بقل وزاهر
تربّع في غسّان أكناف محبل
الى الحارث الجولان فالنني ظاهر

(٣٧) : المصدر السابق ص ٢٠٨ — قصيدة رقم — ١٨٣ —

من يغر الدهر أو يأمنه
من قبيل بعد عمرو وحجر
ملكا من جبل الثلج الى
جانبي أيلة من عبد وحر
أتيا فارس في دارهم
فتناهوا بعد اعصام بقر
ثم صاحا يا آل غسان اصبروا
انه يوم مصاليت صبر

وجود قبائل غسّان في مؤته ، (٣٨) وفي من راهط ، (٣٩) ومرج الصفر، (٤٠) والثنيه ، (٤١) ومن عذرا، (٤٢) ومعظم هذه المناطق قريبة من دمشق .

بالاضافة الى قبائل غسّان ترد أسماء قبائل كلب في بادية الشام في قراقر وسوى مع قوم من بهراء (٤٣) وكانت مساكن كلب السماوة ولا يخالط بطونها في السماوة أحد ، ويحدد الهمداني مناطق سكناها " من حوران في ديار كلب من يمينك في السماوة ثم في الدهناء الى أن ترى نخل الفرات ولا يخالط كلبا سواها ، (٤٤) أما ديار عاملة فمجاورة للأردن ، وجبل عاملة مشرف على عكا والى الغرب من حمص تقع أرض بهراء ، (٤٥) ويطلق الاخباريون لفظ عرب الضاحية او المستعربه عندما يذكرون القبائل العربية في الشام أثناء الفتح ، ففي رواية السري عن شعيب عن سيف : "أن أبابكر أمر خالد بن سعيد أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام اليه .... فأقام فاجتمع اليه جموع كثيرة ، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على عرب الضاحية البعوث ....

---

(٣٨) : الواقدي ، المغازي، ج ١ ص ٤٠١ .

(٣٩) : البلاذري ، فتوح ، ص ١١٩ ؛ الطبري ، ج ٣ ص ٤٠٧ ؛ تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٣٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٤٠٦ ؛ ابن حبيش ، الفتوح ، مخطوطة ، ص ١٢٧ .

(٤٠) : الطبري ج ٣ ص ٤١٠ .

(٤١) : الأغاني ، ج ١٥ ص ١٦٤ .

(٤٢) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٣٩ .

(٤٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١١٨ ؛ وقراقر ، واد لكلب بالسماوة ، وسوى ، ماء لبهراء من ناحية السماوة .

(٤٤) : الهمداني ، صفه جزيرة العرب ، تحقيق محمد علي الاكوع الحوالي ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ص ٢٧٢ و ص ٢٧٤ .

(٤٥) : المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

../..

فنفر اليهم من بهراء وكلبوسليح ،وتنوخ ، ولخم وجذام وغسّان . (٤٦)

أما في أحداث سنة ١٤ هـ فيذكر الطبري نقلا من ابن اسحاق ، أن هرقل سار في الروم حتى نزل انطاكية ،ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي و عاملة، (٤٧) ثم بنيف ثانية ،ومعه من المستعربة من غسّان وتلك القبائل من قضاعة ، وعندما يطلق الاخباريون لفظ العرب المستعربة فهم لا يقصدون نسبها ،لأن من بينها من هو من أصل قحطاني ، على حسب مذهب أهل الانساب في نسب القبائل ، وانما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت في الشام وأطرافها وخاصة ،تلك التي دانت بالنصرانية وتأثرت بالثقافة الارامية وبلهجتها ،وذلك لظهور هذا الاثر فيها وعلى لهجتها خاصة ، مما حدا بعلماء اللغة أن يتحرجوا في الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة. (٤٨) وقد فضلت غالبية القبائل العربية المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادى ،عرفت عندهم بالحاضر ، فكان في أكثر مدن الشام مثل حلب ، ودمشق ، وقنسرين وحمص، حاضر يقيم فيه العرب ، فكان حاضر قنسرين لتنوخ ومنهم بنوسليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، (٤٩) كذلك كان يسكن في طرف قنسرين قبائل طيء ، ويطلق على منطقة سكناهم بحاضر طيء نزلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيما بينهم واستدعت تفرّقهم . (٥٠) وكان بقرب مدينة حلب حاضر يدعى حاضر حلب يجمع أصنافا من العرب من تنوخ وغيرهم. (٥١) ويذكر ابن حزم أن قبيلة جديله من ولد

---

(٤٦) : الطبري ،ج ٣ ص ٣٨٩ ؛ابن الأثير ،ج ٢ ص ٤٠٢ ؛تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٧) : الطبري ،ج ٣ ص ٥٧٠ ؛ البلاذرى ،فتوح ص ١٤٠ .

(٤٨) : جواد علي ، المفصل في التاريخ ،ج ٦ ص ٢١٦ .

(٤٩) : البلاذري ،فتوح ،ص ١٥٠ .

(٥٠) : المصدر السابق ،ص ١٥١ .

(٥١) : المصدر السابق ، ١٥١ .

../..

قطرة بن طيء وتيم الله وحبيش والأسعد جلوا كلهم عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بكلب وعاضر طيء "(٥٢) بالاضافة الى هذه المناطق وجد العرب في بعلبك، (٥٣) وفي قيسارية ، (٥٤) ويبدو أن منطقة فلسطين كانت آهلة بالقبائل العربية اذ يذكر ابن الاعثم اجتماع الروم في أجنادين وأن أهل البلاد من نصارى العرب قد وعدوهم بالمساعدة ،(٥٥) كما يطلق الطبري على أرض فلسطين أرض قضاعة. (٥٦) الى جانب العرب وجد الفرس في بعلبك ، (٥٧) وحمص وانطاكية ، (٥٨) والسامرة واليهود في قيسارية ، (٥٩) والاردن وفلسطين ، (٦٠) واليهود في حمص ومدن أخرى ، (٦١) والجراجمة في جبل اللكام ،(٦٢) والروم ومرتزقتهم في مدن الساحل ، (٦٣) وفي المدن الداخلية كايلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر ، (٦٤) وحلب ، يضاف الى هؤلاء تلك الطبقة التي يطلق عليها المؤرخون العرب لفظ العلوج أو النبط ، (٦٥) ويستنتج من الروايات الواردة في لسان العرب

---

(٥٢) : ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٣٧٥ .

(٥٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٦ .

(٥٤) : المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٥٥) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ١ ص ١٤٣ .

(٥٦) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٠٨ .

(٥٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٤ ، ١٣٦ .

(٥٨) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٥٩) : المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٦٠) : المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٦١) : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٦٢) : المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٦٣) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٦٤) : ابن الاعثم - فتوح ، ج ١ ص ١٤٠ .

(٦٥) : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٤ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الأولى ، ص ١٨٧ .

../..

كثرة النبط في العراق والشام في منطقة الأرياف والمدائن ، (٦٦) كما أن النصوص المعثرة في المصادر تحوي قرائن مثل الأرض والقرى والزراعة وكلها تدل على أن المقصود بالنبط طريقة الحياة وليس النسب ، أما المسعودي ، فيشير الى أن النبط هم السريان الذين يسكنون العراق والجزيرة والشام ، (٦٧) ويبدو أن الدكتور جواد علي قد أخذ برأي المسعودي ، ولكنه جعله أكثر شمولا فهو يعتبرهم بقايا الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام والعراق وترسبات الآراميين في هاتين المنطقتين وذلك قبل الاسلام وفي الاسلام ، (٦٨) وكان النبط يتكلمون بلهجات عربية ولكن برطانة أعجمية ، وبلكنة غريبة ظاهرة ، وقد ضرب المثل في رطانة كلام النبط بالعربية وقبحه " وقد قبح الكلام وصار على كلام النبط ". (٦٩)

هذه هي العناصر السكانية التي وجدت في الشام ابان الفتوح ، الا أنه من الصعب أن نتبين نسبة هؤلاء بعضهم الى بعض ، فالروايات لا تذكر عدد السكان الا نادرا ، كما أنها لا تذكر سوى المقاتلة أحيانا مع اختلاف كبير في الارقام بين رواية وأخرى ، ففي الحديث عن فتح قيسارية مثلا نجد أن عدد السامرة ثلاثون ألفا حسب رواية البلاذري ، وثمانون الفا عند ابن عساكر وياقوت الحموي ، أما عدد اليهود فهو عند البلاذري وابن عساكر مائتا ألف وعند ياقوت مائة ألف ، وعدد مقاتلة الروم حسب رواية هشام بن عمّار أثناء محاصرة معاوية لها كان (٧٠٠) ألف من المرتزقه وكان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة ألف، (٧٠)

---

(٦٦) : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نبط ، ورد في لسان العرب أنهم انما سموا أنباطا لاستنباطهم مايخرج من الارضين ، وفي حديث عمر رضي الله عنه ، " تمعددوا ولا تستنبطوا" أي تشبهوا بالنبط ، وفي الحديث الآخر : لا تتنبطوا في المدائن " أي لا تشبهوا بالنبط في سكناها واتخاذها العقار ، ومنه حديث عمرو بن معد يكرب ، سأل عمر عن سعد بن أبي وقاص ، فقال : أعرابي في حبوته ، نبطي في جبوته ، أراد أنه في جباية الخراج وعمارة الأرضين كالنبط حذقا .

(٦٧) : المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٥١ .

(٦٨) : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ، ج ٣ ص ١١ .

(٦٩) : الاغاني ، ج ٥ ص ١٦ .

(٧٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٧ .

../..

... ابن عساكر وياقوت فيشيران الى أن مقاتلة الروم فيها كانوا مائة ألف . (٧١) ونجد نفس هذا الاختلاف عند ذكر المقاتلة من المستعربة العرب ، ففي رواية محمد بن اسحاق عن عروة بن الزبير أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء بمائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب المستعربة ، (٧٢) ويذكر ابن الاعثم أن جبلة بن الايهم الغساني نزل الغوطة من أرض دمشق في أربعين ألفا من العرب المتنصرة بالخيل والعدد والسلاح ،(٧٣) أما ابن اسحاق فيشير أن عدد المستعربة من غسّان وتلك القبائل من قضاعة التي كان يقودها جبلة بن الايهم الغسّاني في معركة اليرموك ،كان عددهم اثنى عشرألفا . (٧٤) ان هذه الروايات بالرغم من اختلافها تظهر بأن العرب كانوا نسبة سكانية لا يستهان بها في المنطقة ،لاسيما بعد أن جلا قسم كبير من أهل المدن الساحلية كصيدا وعرقه ،وجبيل ، وبيروت ، (٧٥) وجبلة ، (٧٦) كما نفهم من روايات أخرى جلاء سكان المدن الداخلية ، ففي دمشق مثلا يذكر الواقدي أن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بانطاكية ،(٧٧) كما جلا قسم من أهل حمص عنها. (٧٨)

ان القبائل التي كانت قاطنة في الشام في الفترة السابقة للفتح كانت اما قضاعية أو قحطانية ،وكانت النصرانية منتشرة فيهم واكثر وضوحا وأوسع انتشارا منها بين عرب العراق ، فأمراء الغساسنة عند ظهور الاسلام وسادات القبائل النازلة في مناطق حكم الروم ونفوذهم

---

(٧١) : تهذيب تاريخ دمشق ،ج ٤ ص ٣٩٩ ،ياقوت الحموي ،معجم البلدان ، مادة قيسارية .
(٧٢) : الطبري ،ج ٣ ص ٣٧ ،تهذيب تاريخ دمشق ،ج ١ ص ٩٤ ، ١٨ .
(٧٣) : ابن الاعثم ،فتوح ،ج ١ ص ١٢٥ .
(٧٤) : الطبري ،ج ٣ ص ٥٧٠ .
(٧٥) : البلاذري ،فتوح ،ص ١٣٣ ،ابن الاثير ،ج ٢ ص ٤٣٣ .
(٧٦) : ابن الاثير ،ج ٢ ص ٤٩٢ .
(٧٧) : البلاذري ،فتوح ص ١٢٨ .
(٧٨) : المصدر السابق ،ص ١٢٧ .

../..

كانوا على هذه الديانة ،(٧٩) وان كانوا على مذهب يخالف مذهب البيزنطيين ، فالنصرانية وجدت المساعدة الرسمية من الروم في بلاد الشام ، وكان لدخول الروساء فيها أهمية كبيرة في انتشارها ،لأن ذلك يؤدي الى حصولها على الحماية الرسمية ، وعلى انتشارها في شعبية الرئيس، محاكاة وتقليدا له ،(٨٠) ونظرا لاعتناق سكان الشام عامة للمذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة الالهية الواحدة للمسيح ،هذا المذهب الذى اعتبر هرطقة بموجب قرارات المجمع الكنسي الذى انعقد في خلقدونية سنة (٤٥١م فان كثيرة من المؤرخين يرون أن انتشار العرب في هذه المنطقة واضطهاد سكان الشام من قبل البيزنطيين دينيا كانا من أكبر العوامل التي مهدت للفتح العربي طريقه واعانت عليه ،(٨١) وليس منهم من يذكر هذه العلاقة بين عرب الجزيرة وعرب الضاحية الا ويشير الى أثرها في سرعة الاستجابة وتحقيق النصر ،حتى أن فيليب حتي يرى أن الفتح كان معركة قومية وأن الفوز فيه كان للقومية العربية لا الدين الاسلامي.(٨٢)

---

(٧٩) : ابن حزم ،جمهرة انساب العرب ،ص ٤٥٧.

(٨٠) : جواد علي ،المفصل في تاريخ العرب ،ج ٦ ،القسم الديني ،ص ٢١٣.

(٨١) : د. ابراهيم العدوي ،الامبراطورية البيزنطية ،والدولة الاسلامية ،١٣٧٠ هـ /١٩٥٣م وقد اعتمد في ذلك على ما ورد في كتابي بيوري (Bury) وميور

Bury, A History of The Later Roman Empire II, - (Muir) P. 269. - Sir William Muir, The Caliphate, Its rise, Decline and Fall. P. 140 .

كذلك نجد فازيليف (Vasiliev) يشير الى أن الانتصارات العسكرية الرائعة التي حققها العرب ،تعود الى ذلك التذمر الديني لدى سكان سورية ، وأن الاسلام كان متأثرا بالمذهبين النسطوري واليعقوبي، وأن علماء اللاهوت البيزنطيين نظروا الى الاسلام على أساس أنه مذهب من المذاهب المسيحية المنشقة ، ولذلك فان شعوب المنطقة دعمتهم ، ويؤكد البروفسور غريغوار (Gregoire) على الصلة بين الاسلام والموتوفيزية Monophysitism "وان يوتيخوس (Eutyches) أحد مؤسسي المذهب المونوفيزي هو الذى أوجد محمدا"

Vasiliev, Byzantium and Islam in Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization ed. Norman H. Baynes and H. St. B. Moss XI P. 309 .

(٨٢) : حتي ،تاريخ العرب مطول ،ج ١ ، ص ١٩٧.

../..

لا نستطيع في الواقع أن نطلق القول في هذه القضية منكرين له أو مؤمنين ، الا بعد أن نتتبع موقف العرب النصارى من حركة التحرير والفتح التي امتدت (اذا ما نحينا موئته وتبوك وبعث أسامة) بين ١٣ هـ /٦٣٤ م وهي السنة التي التقت فيها الجيوش الاسلامية بالروم في داثن ،(٨٣) ووادى عربة وبين سنة ١٩ هـ ، ٢٠ هـ /٦٤٠ م السنة التي استسلمت فيها قيسارية ، وفي خلال هذه السنوات استطاعت الجيوش الاسلامية أن تركز أقدامها في معارك قاسية ،أما بعد ذلك فقد كانت المقاومة يسيرة ليس فيها كبير جهد ، ولم تتخذ حركات الجيوش الاسلامية في الواقع شكل المعارك الكبرى ، الا بعد أن جاء خالد بن الوليد من العراق مددا لأهل الشام ، ومع امداد خالد تبدأ مرحلة جديدة في تطور الفتح العربي ، وتتمثل هذه المرحلة في مظاهر ثلاثة : توحيد جيوش المسلمين ، توحيد القيادة تحت امرة خالد ،تغيير نظام التعبئة ، ويبدو من تتبع الفتوح أن فتح دمشق وهزيمة اليرموك كان يشبه اسلام زمام بلاد الشام والجزيرة الى المسلمين ، لانه مكن لهم أن يسيطروا على هذه المنطقة المتوسطة من الشام والتي تحمي ظهورهم بالبادية ، ثم أن يتابعوا هجماتهم في الشمال وفي الجنوب ، أما في الجنوب فانتهى بهم الأمر الى الاستيلاء على بيت المقدس ،بعد ثلاث سنوات من فتح دمشق سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م والى الاستيلاء على قيسارية وهي المدينة الساحلية التي أتاح لها مركزها الساحلي أن تتلقى المدد والعون من الروم بحرا ،ولكنها استسلمت في ولاية معاوية لجندى دمشق والاردن ، أما في الشمال ،فقد توالت الفتوح بعد حمص ،واستطاعت الجيوش الاسلامية أن تدخل حلب وانطاكيه حصن المسيحية الحصينَ في هذه المنطقة الشرقية ، ثم توجهت بعد ذلك الى الشرق نحو مدن الجزيرة ، فصالحها أهل الرها ونصيبين ، وكانت الجزيرة أسهل البلدان أمرا وأيسره فتحا ، وكانت تلك السهولة مهجنة عليهم وعلى من أقام فيها من المسلمين . (٨٤)

موقف عرب الشام : ان الروايات التي يمكنها أن تقدم صورة عن تلقي عرب الشام

---

(٨٣) : البلاذرى ،فتوح ص ١١٧ .
(٨٤) : الطبرى ،ج ٤ ص ٥٤ .

../..

للحركة الاسلامية ، تعطى المطالع للمرة الاولى انطباعا سيئا ، فأول هذه الاحداث هو قتل شرحبيل بن عمرو الغساني ، للحارث بن عمير الازدى ، رسول رسول الله (صلعم) الى ملك بصرى ، (٨٥) وفي موءتة في العام الثامن - ٦٢٩ م ، واجه زيد بن حارثه قائد الجيش الاسلامي الموءلف من ثلاثة آلاف مقاتل جيش الروم ، ويقتل زيد ، ثم جعفر بن أبي طالب ، وبعده عبد الله بن أبي رواحة ، ويستشهد من يستشهد ممن لم تحفظ لنا اسماوءهم ولا اعدادهم ، ويأخذ اللواء خالد بن الوليد فكان أكبر همه أن يستنقذ الجيش وأن ينقذ المسلمين من هزيمة محققة ماحقة " فيدافع عن القوم ويحاشي بهم وينحاز ويتحيز ". (٨٦) وأغلب الظن أن الروم لم يكونوا وحدهم هم الذين يحاربون بل كان العرب كذلك يحاربون العرب المسلمين ، ويقتلونهم ، ففي رواية محمد بن اسحاق عن عروة بن الزبير ، أن المسلمين نزلوا معان من أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضمت اليه المستعربة من لخم وجذام ، وبلقين وبهراء وبلي في مائة ألف منهم عليهم رجل من بلي اسمه مالك ، (٨٧) وفي تاريخ ابن عساكر ، عن رجل من أهل البلقاء ، أن الذين لقوهم يومئذ من أهل المشارق من النصارى من لخم وجذام وبلقين . (٨٨)

وفي عام الوفود ، أى في العام التاسع للهجرة ، بعد أن فتح الله على المسلمين مكة ، ومكّن لهم من البيت وبدأت الوفود تنطلق من كل صوب متجهة الى النبي (صلعم) لا نتبين فيما بين أيدينا من روايات الموءرخين صدى لذلك كله بين عرب الشام ، الا ما يذكره ابن هشام من اسلام فروة بن عمرو الجذامي الذى بعث الى رسول الله (صلعم) رسولا باسلامه وأهدى له بغلة بيضاء ، وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب ،

---

(٨٥) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٤ .

(٨٦) : الطبرى ، ج ٢ ص ٤٠ .

(٨٧) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٧ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ .

(٨٨) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٩ .

../..

وكان منزله بمعان وما حولها من أرض الشام ، ولكن الروم عندما بلغهم اسلامه حبسوه ثم صلبوه على ماء يقال له عفراء بفلسطين. (٨٩)

واذا نحن تجاوزنا هذه الفترة الاولى الى الفترة الثانية التي بدأ فيها الخليفة الاول تجهيز الجيوش وتوجيهها الى الشام ، نجد أن موقف العرب لم يكن في كثير من الأحيان استجابة أو تأييدا ، وأن الروم كانت تضرب البعوث على عرب الضاحية وكانت تستنفرهم فينفر اليها من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان. (٩٠) وكانت ولا شك تحارب بهم في المواقع المختلفة بل أنها كانت تجد منهم من تستخدمه في التجسس والتطلع ، ففي أجنادين أرسل قائد عسكر الروم رجلا عربيا من قضاعة من تزيد بن حيدان يقال له ابن هزارف ، وطلب منه أن يدخل بين العرب وأن يقيم فيهم يوما وليلة ثم يأتيه بأخبارهم. (٩١) وهناك رواية واحدة ينفرد بها سيف عن أولى مراحل الطريق الى الشام حين " أمر أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام اليه فأقام فاجتمع اليه جموع كثيرة ، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على عرب الضاحية البعوث ، وكتب خالد الى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم ونفر اليها من بهراء وكلب وسليح . . . فكتب اليه أبو بكر : أقدم ولا تحجم ، واستنصر الله ، فسار اليهم خالد ، فلما دنا منهم تفرّقوا وأعروا منازلهم ودخل عامة من كان تجمع له في الاسلام ". (٩٢) وهنا لا بد أن نتساءل عن قيمة هذه الرواية المفردة ، وهل في الوسع أن نتحقق من صحتها ، وهل دخل هؤلاء عامة في الاسلام وانضموا الى جيش التحرير؟ ربما يغنينا عن ذلك رواية ابن اسحق عن اليرموك وهو يصف قسوة المعركة واشتراك نساء المسلمين من قريش فيها ، اذ أنه يخص القبائل العربية بهذا النص ،

---

(٨٩) : ابن هشام ، السيرة النبوية — بيروت ١٩٧٥ ، ج ٤ ص ١٧٦.

(٩٠) : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٢ ص ٤٠٢ .

(٩١) : الطبرى ، ج ٣ ص ٤١٧ ، ٤١٨.

(٩٢) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ ، ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٠٢ ، تهذيب ، ج ١ ص ١٣١ ، ١٣٢.

../..

" وكان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لخم وجذام ، فلما رأوا جد القتال فرّوا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين ، (٩٣) وفي رواية البلاذري أن هرقل جمع جموعا كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية وولى عليهم رجلا من خاصته ، وبعث على مقدمته جبلة بن الايهم الغسّاني في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم وعزم على محاربة المسلمين ، فلما هزم الروم في اليرموك ، وعقد ابو عبيدة لحبيب بن مسلمة الفهري على خيل الطلب ، جعل يقتل من أدرك فانحاز جبلة بن الايهم الى الانصار فقال : " أنتم اخوتنا وبنو أبينا" (٩٤) وعندما بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد الى قنسرين بعد فتح حمص نزل بالحاضر ، حيث التقي بجيش الروم وقتل قائد الجيش ومعظم من معه ، فأرسل أهل الحاضر الى خالد أنهم عرب وأنهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم ، (٩٥) ولكن عندما أغزى هرقل ثانية جيشا عظيما توجه نحو حمص واستمد أبو عبيدة خالدا الذي كان قد عينه على قنسرين ، أمده خالد بمن معه ، " فكفر أهل قنسرين وكان اكفر من هناك تنوخ " (٩٦)

أما قبيلة تغلب بن وائل فقد حاربت في البدء ضد جيش المسلمين وذلك لما اجتمع المسلمون بالفراض (٩٧) سنة ١٢ هـ ، " وحميت الروم واغتاظت واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس ، واستمدوا تغلب واياد والنمر " ، (٩٨) ولكن تغلب عادت وقاتلت مع العرب في سنة ١٣ هـ حين رأوا نزول العرب بالعجم فقالوا : " نقاتل مع قومنا " (٩٩)

---

(٩٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٥٧١ .

(٩٤) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٩٥) : الطبري ، ج ٣ ص ٦٠١ .

(٩٦) : ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن حبيش ، الفتوح ، ص ١٤٧ .

(٩٧) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٨٣ ، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة .

(٩٨) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٩٩) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٦٤ .

../..

موقف عرب الضاحية يبدو اذن موقفا واضحا فهم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالترحاب بها والانضمام اليها وهم كذلك لم يولوها العطف والحدب ، وقد قاتلوا الى جانب أهل أرمينية والروم ، فهل كان هذا كله اضطرارا واكراها ؟ وكيف نفسر لحاق بعض القبائل بهرقل ومضيها معه الى بلاد الروم ، فقد لقي ميسرة بن مسروق العبسي عندما سلك درب بغراس من أعمال انطاكية الى بلاد الروم ، جمعا للروم معهم عرب من غسّان وتنوخ يريدون اللحاق بهرقل ، (١٠٠) كما ارتحلت قبيلة اياد بن نزار الى أرض الروم ، فكتب عمر الى ملك الروم يطلب منه اعادتهم ، فأخرجهم ملك الروم فخرجوا ، فتمّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدى بن زياد ، وخنس بقيتهم فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الشام. (١٠١)

* موقف النصارى عامة :

لا يتميز موقف الروم بأكثر من أنه كان محاولة جاهدة عنيفة للوقوف دون امتداد هذه الموجة الجديدة العارمة ، ومن الطبيعي أن يدرك الروم مركز بلاد الشام من امبراطوريتهم ، وأن اقتطاعها سيؤدى بالتالي الى اقتطاع مصر أيضا وأنها كذلك تهديد لهم ، فهم لهذا لن يتنازلوا عنها بيسر وبساطة ، جهزوا كل ماقدروا عليه من جيوش ، وخاضوا كل ما استطاعوا أن يخوضوا من معارك ، واستنفروا كل ماكان في وسعهم أن يستنفروه من العرب ، وأهل أرمينيا وسكان المقاطعات الأخرى ، كما أن الروم لجأوا الى استثارة مشاعر الجماعة الدينية ، واستثمروا في ذلك رجال الدين ، وتطالعنا التفاصيل التي وردت في بعض روايات المؤرخين ، أن قواد الروم كانوا يقدمون أمامهم الشمامسة والرهبان والقسيسين ليغروهم ويحضضوهم على القتال ، (١٠٢) وأن هؤلاء الشمامسة والقساوسة كانوا جزءًا من الجيش ، وسلاحا

---

(١٠٠) : ابن الاثير ، ج٢ ص ٤٩٦ .

(١٠١) : الطبرى ، ج٤ ص ٥٤ ، ٥٥ .

(١٠٢) : المصدر السابق ، ج٣ ص ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، تهذيب ج ١ ص ١٦٤ . ابن حبيش ، الفتوح ، ص ١٨٥ .

من أسلحته ، يقيمون اذا أقام ويرتحلون اذا ارتحل ، ويخندقون اذا خندق ، يثيرون فيه حماسة الدين " اذ ينسون له النصرانية "(١٠٣) ويبدو هذا الطابع الديني واضحا في صنيع أشراف الروم الذين كانوا يرون أنهم في هذه الحروب انما يحمون النصرانية، فاذا لم يستطيعوا منعها ، فلا عليهم أن يتخطفهم الموت ، وقد لفوا رؤوسهم " لا يحبون أن يروا يوم السوء اذا لم يستطيعوا أن يروا يوم السرور " وقد حدث هذا غير مرة تجلل الفيقار وأشراف من أشراف الروم في معركة اليرموك وأصيبوا في تزملهم .(١٠٤)

ولم يكن ذلك موقف القادة ورجال الدين ، ولكنه كان موقف النصارى بشكل عام ، فقد استطاع الروم استثارة العاطفة الدينية لدى العرب أكثر مما استطاعوا ذلك لدى النبط ، اذ نجد تكرارا عند ابن الاعثم حول استخدام الروم لمن يليهم من نصارى العرب في حين أن المسلمين كانوا يستخدمون الانباط كجواسيس ، وهؤلاء الانباط قوم نصارى كما يقول ابن الاعثم ، " غير أنهم كانوا الى المسلمين لبرهم أميل فكانوا فيوجا (١٠٥) للمسلمين وجواسيس وكان الروم لا يتهمونهم في شيء من ذلك ".(١٠٦)

على أن موقف النصارى لم يكن موقفا جامدا ، ولم تلازمه هذه الصلابة في كل مراحل الفتح ، فبعد أن كانت هزيمة اليرموك وبعد أن أمسك المسلمون بزمام الموقف حين تم لهم الاستيلاء على الأقسام الوسطى من الشام وأضحى تقدمهم نحو الجنوب باتجاه القدس ونحو الشمال باتجاه الجزيرة أمرا مضمون النتائج ، بعد هذا أخذت النصرانية سبيلا آخر في

---

(١٠٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٥ .

(١٠٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٠٠ — تهذيب ج ١ ص ١٧٤ .

(١٠٥) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ١ ص ١٤٤ ، الفيج هو رسول السلطان الذي يسعى على رجليه ، فارسي معرب .

(١٠٦) : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ابن حبيش ، الفتوح ، ص ١٣١ .

../..

مداراة الفاتحين المسلمين ، فارتضى أهل ايلياء الصلح ، وقبل أنهم طلبوا أن يتولى الخليفة نفسه العقد ، (١٠٧) واذا كان بطريك اورشليم صفرونيوس قد استقبل عمر وطاف به على أنحاء البلدة وأراه الاماكن المقدسة ، (١٠٨) فان أرطبون الروم والتذارق لحقا بمصر. (١٠٩)

أما الجزيرة فكانت أسهل البلدان وأيسرها فتحا ، (١١٠) اذ سرعان ما صالح أهل الجزيرة على الجزية ، (١١١) وليس من شك في أن الموقع الجغرافي للجزيرة بين العراق والشام وقد خضعا للمسلمين ، يجعل من اليسير تطويقهم وامداد كل من الجيشين في الشام والعراق أحدهما للآخر ، وكان ذلك أحد العوامل الكبرى التي أملت على النصارى هذا الموقف ، وليس أدل على ذلك من رواية سيف عن السرى عن شعيب : "أنه حين كتب عمر الى سعد بتوجيه القعقاع في أربعة آلاف من جنده مددا لأبي عبيدة حين قصدته الروم وهو بحمص ، سلك سهيل بن عدى وجنده طريق الفراغ ، حتى انتهى الى الرقة ، وقد ارفض أهل الجزيرة عن حمص الى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة فنزل عليهم فحاصرهم حتى صالحوه ، وذلك أنهم قالوا فيما بينهم " أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء ، فبعثوا في ذلك الى عياض وهو في منزل وسط من الجزيرة فرأى أن يقبل منهم " . (١١٢)

وهكذا نرى أنه من العسير أن يطمئن الانسان الى أن الخلاف المذهبي بين أتباع الكنيسة السورية المونوفيزية التي تؤمن بأن للمسيح طبيعة الهية واحدة والكنيسة البيزنطية التي تؤمن بما أقر مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م من اقرار طبيعتين للمسيح الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية كان له من أثر في الترحيب بالمسلمين ، وتسهيل مهمتهم أو الميل اليهم ،

---

(١٠٧) : الطبرى ، ج ٣ ص ٦٠٧ ، ٦٠٨ .

(١٠٨) : حتي تاريخ العرب مطول ، ج ١ ص ٢٠٨ نقلا عن تيوفانس .

(١٠٩) : الطبرى ، ج ٣ ص ٦٠٨ .

(١١٠) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٤ .

(١١١) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٣ .

(١١٢) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٤ .

../..

وأن العداء استفحل الى أن يفسح المجال لدين جديد أقل ما يوصف به أنه لا يرتضي المذهبين معا وانما كان يحل المسيح عليه السلام محل الايمان بنبوته وكتابه ولكنه يجرده من الوهيته بطبيعتها او بطبيعتيهما كلتيهما ، فلا يرى فيه غير ما يرى في محمد بشرا رسولا ، وصحيح أن الاسلام قد أتاح لهؤلاء النصارى قدرا من الحرية لم يجدوه عند البيزنطيين ، ولكن هل كان نصارى العرب يعرفون مسبقا كيف سيسير المسلمون بهم وكيف سيعاملونهم ؟ . ان من واجبنا أن لا ننسى التفريق بين النظر الى الامور قبل وقوعها وبين النظر اليها بعد أن تقع .

لقد دخل الاسلام بلاد الشام فلقى من مقاومة النصارى مثل مالقي من مقاومة العرب على اختلاف من البواعث وتباين في الاغراض ، ولعل حركة الفتح وجدت منفذا من خلال هذا الاختلاف والتباين ، أما الاسباب الكثيرة التي يحاول المؤرخون أن يفترضوها سواء ما اتصل منها بالروم او العرب او النصارى عامة فهي لا تعدو أن تكون أسبابا واهية ، لا تدل على الحقيقة التي تكمن في أنه كان في حركة الاسلام دعوة ، وأن أصحابها يتمتعون بروح معنوية رفيعة لم تكن موجودة لدى القوى المعادية فالروم ومرتزقتهم يوقنون أن الارض لم تكن أرضهم ، والعرب يظنون أن المهاجرين سيقاسمونهم نعمة العيش ، فاذا جد الجد فسيلتقون معهم بحبل من قرابتهم لهم ولذلك فانه ما أن ثبتت أقدام المسلمين في المنطقة ورأوا معاملتهم الجيدة ووفاءهم لأهل الذمة ، انقلبوا من أعداء الى مؤيدين ، فمن أبي حفص الدمشقي أن المسلمين عندما أرادوا أن يردوا على أهل حمص ماكانوا أخذوا من الخراج لأنهم لن يستطيعوا نصرتهم والدفع عنهم ، قال أهل حمص ، " لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ". (١١٣)

* موقف اليهود والسامرة :

ليست لدينا اشارات يمكنها أن تعطينا صورة واضحة عن موقف اليهود والسامرة

---

(١١٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٣ .

../..

من حركة التحرير العربية الاسلامية ، الا أن معاملة أبي عبيدة الفاتحة للسامريين ، وأسكان معاوية اليهود في طرابلس ومدن ساحلية أخرى ، تجعلنا نميل الى الاعتقاد بأن العداء كان مستحكما بين هؤلاء والروم البيزنطيين ، وتعود جذور العداء مع اليهود ا عهد الرومان عندما هدم تيتس (Titus) سنة ٧٠ م مدينة القدس ، وعندما أعاد هادريان بناء المدينة وأطلق عليها اسم ايليا كابيتولينا ، وهو الاسم الذى يرد في مصادرنا (ايلياء) وبنى هيكلا لجوبيتر مكان الهيكل القديم ، مما أدى الى اندلاع ثورة قضي عليها سنة ١٣٥ م وأعدم الاسرى أو بيعوا كرقيق ، ومنعوا من الاجتماع للصلاة، أو من دخول القدس وأطلق على منطقة يهوذا اسم فلسطين السورية ria Palaestina وبعد انتشار المسيحيه تأثر اليهود من الاعتراف الرسمي لمنافسيهم المسيحيين كما أنهم أبعدوا بعد سنة ٤٢٨ م عن الوظائف المدنية والعسكرية . (١١٤)

ويبدو أن اليهود بقوا مبعدين عن القدس ، اذ نلاحظ في النص الذى يورده الطبرى أنه من ضمن الشروط التي منحها عمر بن الخطاب لأهل ايلياء " أن لا يسكن بايلياء أحد من اليهود " . (١١٥) كما يرد في الروض المعطار أنه بعد أن تم الاتفاق ما بين أهل بيت المقدس وأبي عبيدة بن الجراح على أن تسلم مفاتيح المدينة الى الخليفة نفسه ، كتب عمر كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وذراريهم ونسائهم وكنائسهم ، واشترطوا أن لا يساكنهم اليهود فيها . (١١٦)

ان هذه الروايات على قلتها تشير الى ذلك التوتر الذى كان قائما بين اليهود والسلطة الحاكمة منذ عهد الرومان حتى الفتح العربي ، ولذلك لا نشك

---

(١١٤) : E. B. Art. Syria, History of Syria.

(١١٥) : الطبرى ج ٣ ص ٦٠٩ .

(١١٦) : عبد المنعم الحميرى ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٨ م ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

../..

بأن اليهود رحبوا ضمنيا بمجيء المسلمين وان لم تكن لدينا روايـات تؤكد ذلك الا أنه عندما ردّ المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوا من الخراج لأنه بلغهم أن هرقل قد جمع الجموع ، نهض اليهود وقالوا : " والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد ، فأغلق اليهود وسكان حمص من النصارى الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ". (١١٧)

أما السامريون فهم الذين يدّعون بأنهم ينتمون الى قدماء اليهود الذين كانوا مقيمين في السامرة والذين لم يتعرّضوا للسبي الأشوري سنة ٧٢١ ق . م لذلك فهم يدعون أنفسهم أبناء اسرائيل (Bene Yisrael) أما اليهود فانهم يدعونهم بالسامريين بينما يطلق عليهم في التلمود اسم كوثيم (Kutim) دلالة على أنهم من سلالة الكوثيين (Cuthaeans) الذين كانوا مقيمين في بلاد ما بين النهرين ثم نقلهم الاشوريون الى السامرة بعد غزو سورية ليحلوا محل اليهود الذين تم سبيهم الى أماكن بعيدة ، وقد تمّ انعزال هذه الطائفة كليا عن المجتمع اليهودي بعد رجوع اليهود من السبي البابلي ، ولم يسمحوا لهم بأن يشاركوا في بناء الهيكل الثاني في القدس ، ونتيجة لذلك بنى السامريون في القرن الرابع ق . م هيكلهم الخاص في نابلس عند جبل جريزيم ، (Mt. Gerizim) (١١٨) وفي رواية للبيروني أن السامريين أعانوا نبوخذنصر ودلوه على نقاط الضعف عند اليهود حين غزا مملكة يهوذا وسبى اليهود الى بابل لذلك لم يمسهم بأى أذى " وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بني اسرائيل فلم يحركهم ولم يقتلهم ولم يسبهم وانزلهم فلسطين من تحت يده . . . " (١١٩)

وبالرغم من العداء بين اليهود والسامريين ، الا أن وضع السامريين لم يكن

---

(١١٧) : البلاذرى ، فتوح ص ١٤٣ .

(١١٨) : E. B. Art. Samaritan .

(١١٩) : البيروني ـ الآثار الباقية في القرون الخالية ، طبعة ليبزيغ (Leipzig) عام ١٩٣٢م ص ٢١ .

../..

بأفضل من وضع اليهود ، وكان أحلك عصر مرّ بالسامرة هو العهد الذي بدأ بهادريان وانتهى بقضاء العرب على سلطان البيزنطيين في الشام (١٢٠) وقد قام السامريون بثورات زمن الامبراطور زينو (٤٧٤ — ٤٩١) م فطردهم من مقرهم في جبلهم المقدس جريزيم وبنى فيه كنيسة ، وثاروا زمن الامبراطور جوستنيان ، فنكّل بهم ودمّر معبدهم ، وأقام كنائس في المدينة ، ولذلك فلا شك أن السامريين قد رحبوا بفتح العرب لفلسطين أحرّ ترحيب لأن هذا الفتح حرّرهم من ربقة الحكام البيزنطيين والكنيسة وخلصهم من استبداد هؤلاء وتعطشهم الى الانتقام. (١٢١)

---

(١٢٠) : دائرة المعارف الاسلامية المترجمة عن الاصلين الانجليزى والفرنسي — طبعة انتشارات جهان مهران بوذرجمهرى ، مادة السامرة .

(١٢١) : المصدر السابق ، مادة السامرة .

الفصل الثاني

توزع العناصر السكانية في الشام

بعد الفتح

من الأمور التي تسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرات القبلية ، أن القبائل لم تسر في هجرتها وفق خطة موضوعة تحدد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها ، وذلك لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح ، فالقبائل التي تندب لفتح قطر كان الأمر ينتهي بها غالبا الى الاستقرار فيه ، وهي لذلك كانت خليطا من قبائل شتى ، فاذا نزلت هذه القبائل أحد المواطن لتستقر به احتلت كل قبيلة خطة لها فيه ، وبعد استقرار القبائل في خططها ربما لحقت بها جماعات أخرى ، فتنزل كل جماعة في خطة قبيلتها ثم تندب القبائل لفتح مناطق أخرى فتفد من الجزيرة العربية موجات قبلية جديدة ، وقد تنضم اليها جماعات من القبائل التي سبقت هجرتها ، فاذا حققت الحملة الجديدة غايتها من الفتح التمست لها موطنا تستقر فيه ، وهكذا نجد أن حركة الاستيطان القبلي لم تكن تسير وفق خطة ملتزمة ، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيلة الواحدة مواطن شتى ، ولو أن هذه الهجرات لم تكن مرتبطة بحركة الفتح لكان من المحتمل أن نجد القبيلة برمتها في موطن واحد حرصا على وحدتها وسلامتها ، ومن ثم كان لهذه الهجرات الجماعية ولاستيطان قبائل العرب الأمصار المحدثة والأقطار المفتوحة آثارا بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة وفي المجتمع القبلي خاصة ، ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في اطار روابط النسب الواسعة كالعدنانية والقحطانية ، والمضرية والربعية ، ومنها تصدع الوحدة القبلية لأن القبيلة الضخمة العدد قلما كانت تنزل برمتها في موطن واحد ، وانما كانت تتفرق بطونها في مواطن متعددة .

وكانت جيوش المسلمين التي قدمت لفتح بلاد الشام نواة القبائل التي استوطنت الشام ومصر بعدئذ ، وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا الى معرفة القبائل

../..

الضريبة التي نزلت ببلاد الشام وعددها عند الفتح وبعده ، الا أننا نستطيع استخلاص احصاء تقريبي القبائل العربية التي كانت بالشام بعد الفتح عن طريق تتبع جيوش الفتح والامدادات واعتمادا على أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين ابان الفتنة الأولى والثانية والثالثة ، واعتمادا على ما نجده في بعض المصادر التاريخية ، ففي كتاب الفتوح للبلاذرى ، نجد أن أبا بكر عقد لكل أمير في بادئ الأمر على ثلاثة آلاف رجل ، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة ، ثم تتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفا . (١) وعن عبد الرحمن بن جبير أن أبا بكر جهّز الجيوش الى الشام فاجتمع له أربعة وعشرون ألفا من المهاجرين والأنصار ومسلمة الفتح وامداد اليمن وأهل العالية ، (٢) وفي رواية الطبرى أنه قدم على أبي بكر أوائل مستنفرى اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع ، وقدم عليه عكرمة قافلا وغازيا فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين ، (٣) ونجد لدى ابن الأعثم تفصيلا لمن توجه مع عمرو بن العاص الى الشام بعد أن عسكر بازاء المدينة ، فقد خرج اليه سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وابن أخيه عكرمة بن أبي جهل في ثلاثة آلاف فارس من قومهم ومواليهم ، وخرج اليه أبو الاعور السلمي ، ومعن بن يزيد ابن عمه في ألف وسبعمائة فارس ، وخرج اليه الضحاك بن قيس الفهرى في ثلاثمائة وعمير بن حرام المرادى في مائتي فارس . (٤)

وما أن دخلت جيوش المسلمين أرض الشام حتى كتب أبو عبيدة بخبر الخليفة أن هرقل قد نزل أنطاكية وأنه بعث الى أهل مملكته فحشرهم وأنه قد اجتمع اليه منهم

---

(١) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١١٦ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) : تهذيب ، ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) : الطبرى ، ج ٣ ص ٣٨٩ ، ابن حبيش ، الفتوح ، ص ١١٩ .

(٤) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ١ ص ١٢٣ .

../..

خلق كثير يزيدون عن ثمانين ألفا سوى مافي سائر المدن بالشام من الخيل والجنود ، (٥) فأمده أبو بكر بهاشم بن أبي عتبة بن أبي وقاص الذى انضم اليه خلق كثير من همدان وأسلم وغفار ومزينة ومراد والأزد وجميع القبائل ، (٦) ثم لا يلبث أبو بكر أن يطلب من خالد بن الوليد التوجه الى الشام لدعم اخوانه هناك ، وهنا تختلف الروايات في عدد المقاتلة ، فالبلاذرى يذكر أن خالدا سار من العراق في ثمانمائة ويقال في ستمائة ويقال في خمسمائة ، (٧) أما الطبرى في رواية السرى عن شعيب عن سيف ، فيشير الى أنه قدم على المسلمين في تسعة آلاف ، (٨) بينما ذكر ابن الاعثم أن خالدا جمع أصحابه الذين تقدم بهم من الحجاز واليمامة ، فكانوا سبعة آلاف فارس فخرج بهم خالد من الحيرة متوجها الى الشام . (٩) وأعتقد أن الروايتين اللتين يوردهما الطبرى وابن الاعثم أقرب الى المنطق والواقع ، اذ لا يعقل أن يطلب أبوبكر من خالد أن يتوجه لمساعدة المسلمين في الشام فيمدهم بهذا العدد الضئيل . ونتيجة لهذا الاختلاف في عدد المقاتلة الذين قدموا مع خالد اختلفت الروايات تبعا لذلك في عدد المقاتلة المسلمين في معركة اليرموك ، فهم أربعة وعشرون ألفا عند البلاذرى ، (١٠) وستة وثلاثون ألفا عند الطبرى بانضمام خالد اليهم ، (١١) أما ابن الأعثم فيشير الى أن عساكر المسلمين التي اجتمعت بدمشق وقبل موقعة اليرموك كانوا سبعة وثلاثين ألفا ، ثم قدم عليهم عامر بن حذيم في ثلاثة آلاف فصار المسلمون في أربعين ألفا ، (١٢) ولم يلبث أن وصل مدد آخر من الخليفة بقيادة سويد بن الصامت " ممن كان

---

(٥) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ١ ص ١٠١ .

(٦) : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤ ، هذه القبائل المذكورة كلها يمانية ، فهمدان من قبائل كهلان ، وأسلم من بطون خزاعة من الأزد من الخزرج ومراد من بطون مذحج ، والأزد من أعظم قبائل كهلان ، (ابن عبدربه ج ٣ ص ٣٨٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٥ .

(٧) : البلاذرى ، فتوح ص ١١٨ .

(٨) : الطبرى ، ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٩) : ابن الاعثم ، فتوح ج ١ ص ١٣٤ .

(١٠) : البلاذرى ، فتوح ص ١٤١ .

(١١) : الطبرى ، ج ٣ ص ٣٩٤ .

(١٢) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ١ ص ٢٢٨ .

../..

بالمدينة ممن يصلح أن يوجه به الى العدو فعرضهم فكانوا ثلاثة آلاف " ، فكان عدد المسلمين الذين اشتركوا في معركة اليرموك ثلاثة وأربعين ألفا .(١٣) أما القبائل التي اشتركت في معركة اليرموك ، فيرد ذكرها في تاريخ دمشق ومخطوطة ابن حبيش ، فقد شكل الأزد وفق هذه الرواية ثلث الناس ، وفيها حمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم وفيها كنانة وقضاعة وجذام وكندة وحضرموت ، وليس فيها أسد ولا تميم ولا ربيعة لأن تلك الأماكن لم تكن دارهم وانما كانت دارهم عراقية ، فقاتلوا أهل فارس بالعراق ، وفي معركة اليرموك استحر القتل في الأزد فأصيبوا بما لم يقتل مثله من القبائل .(١٤) ونلاحظ من هذه الرواية ومن مواطن القبائل فيما بعد أن القبائل اليمانية كانت تؤلف الاكثرية في هذا الجيش ولعبت الدور الأكبر في فتوح الشام ، ذلك أن القبائل كانت تفصح في بعض الأحيان عن ايثارها منطقة دون أخرى وقتال قوم من المشركين دون آخرين ، ووراء هذا الاختيار تكمن نزعات قبلية وعوامل أخرى تتصل بالبيئة والجوار والعادات المألوفة وغير ذلك ، وعندما سأل عمر سروات بجيلة ووفده : " أي الوجوه أحب اليكم ؟ " قالوا : " الشام ، فان أسلافنا بها . " فقال : " بل العراق فان الشام في كفاية " . فلم يزل بهم ويأبون حتى عزم على ذلك وجعل لهم ربع خمس ماأفاء الله على المسلمين الى نصيبهم من الفيء .(١٥) وحين أراد عمر ندب الناس مع سعد بن أبي وقاص أراد أهل اليمن من النخع التوجه الى الشام وكرهوا المسير الى العراق ، فاضطر عمر ازاء اصرارهم الى توجيه نصفهم الى العراق والنصف الآخر الى الشام .(١٦) ولوحظ بصورة عامة أن أهل اليمن كانوا ينزعون الى الشام ،

---

(١٣) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(١٤) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٦٣ ، ابن حبيش ، الفتوح ، ص ١٧٤ .

(١٥) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٦٢ .

(١٦) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨٤ .

(١٧) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨٧ .

../..

ومضر تنزع الى العراق. (١٧) ونظرا لنزول القبائل الربعية منذ العصر الجاهلي على حدود فارس ، ولما كان لها من تجارب سابقة في قتال الفرس ، لم يكن أجرأ على فارس من ربيعة، (١٨) ومن ثم كانت طلائع جيوش العرب في قتال أهل فارس كلها من هذه القبيلة ، (١٩) وعندما توجه سعد بن أبي وقاص الى العراق لحرب الفرس كان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة ، ستة آلاف من بكر بن وائل وألفان من سائر ربيعة . (٢٠)

كانت القبائل العربية الوافدة الى بلاد الشام تتفرق في حواضرها وتنزل المنازل التي جلا عنها أهلها أو يقاسمونهم منازلهم أحيانا ، (٢١) وكانت المدن أحيانا تقسم خططا بين المسلمين كما فعل السمط بن الأسود الكندى بحمص ، (٢٢) أما الطبرى، (٢٣) فيشير الى أن أبا عبيدة عندما صالح أهل حمص أنزلها السمط بن الأسود الكندى في بني معاوية ، (٢٤) والأشعث بن مئناس في السكون (٢٥) والمقداد بن الأسود في بلي ، (٢٦) ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ، وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادى من قيس ، (٢٧) كما نجد اهتماما بالغا باسكان المقاتلة المدن الساحلية ، اذ كتب عمر الى أبي عبيدة أن يرتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة

---

(١٨) : الطبرى ، ج ٣ ص ٤٨٧ .

(١٩) : البلاذرى ، فتوح ص ٢٤٢ .

(٢٠) : الطبرى ، ج ٣ ص ٤٨٦ .

(٢١) : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٢٢) : البلاذرى ، فتوح ص ١٣٧ .

(٢٣) : الطبرى ، ج ٣ ص ٦٠١ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٤٩٢ .

(٢٤) : بنو معاوية من كندة من قبائل اليمن ، (ابن عبد البر ، الانباه على قبائل الرواة ص ١١٣ ، ١١٤) .

(٢٥) : السكون من كنده كذلك ، (ابن عبد البر ، المصدر السابق ص ١١٥) .

(٢٦) : بلي من قضاعه ، (ابن عبد البر ، المصدر السابق ص ١٢٢) .

(٢٧) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥٥ .

../..

ويجعلهم مرابطة ، (٢٨) واهتم معاوية بشكل خاص سواء في خلافة عمر أو في خلافة عثمان عندما ولي الشام والجزيرة بالمدن الساحلية وشحنها بالمقاتلة كما فعل باللاذقية، (٢٩) وبأنطرطوس وبانياس ، (٣٠) وعن الواقدي عن مشايخ من أهل الشام أن معاوية رم عكا عند ركوبه الى قبرص ورم صور ، وأنهم نزلوا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ، ثم لم يلبث أن نزع اليهم أهل بلدان شتى فنزلوها معهم وكذلك جميع السواحل. (٣١)

وعندما حدثت الأحداث بالمدينة في خلافة عثمان ، خرج منها رجال الى الأمصار مجاهدين ، فمنهم من أتى البصرة ومنهم من أتى الكوفة ومنهم من أتى الشام ، وقد بقي من كان بالشام بينما رجع الباقون جميعا الى المدينة ، (٣٢) وبعد مقتل عثمان خرج ربيعة بن عاصم العقيلي مع قبيلته قيس من الكوفة يريدون معاوية ، فمر بالجزيرة هو وقيس ، فرأوا بلادا خصيبة ريفية ومزدرعا واسعا وقلة أهل ، فلما وصلوا الى معاوية ردّهم الى أرض الجزيرة وأسكنهم بها ، (٣٣) كما ترك بنو الأرقم بن النعمان بن عمرو من آل كندة الكوفة وتوجهوا الى معاوية لأنهم كانوا عثمانيين وقالوا :"لا نقيم ببلد يسب فيه عثمان"، فأنزلهم معاوية الرها . (٣٤) اذ أن معاوية في خلافة عثمان كان واليا على الشام والجزيرة وثغورهما (٣٥) وكانت الجزيرة في خلافة معاوية تابعة اداريا الى قنسرين ، ثم جندها عبد الملك ، فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها ، (٣٦) وكذلك نزل خالد بن عقبة بن معيط الجزيرة أثناء الفتنة وولده بها . (٣٧)

---

(٢٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٣ .

(٢٩) : المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٣٠) : المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٣١) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٣٢) : الطبري ، ج ٤ ص ٢٩٨ .

(٣٣) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٩٨ ، تهذيب ، ج ٥ ص ٣٠٧ .

(٣٤) : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٠٠ .

(٣٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣٦) : المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٣٧) : الكلبي ، جمهرة النسب ، مخطوطة في مركز الوثائق والتوثيق ، الجامعة الأردنية رقم ٣٨٢ ، ص ١٧ آ .

../..

ويؤخذ من تعداد ألوية القبائل التي كانت مع معاوية يوم صفين ومن تعبئة جيشه أن جل من قاتل معه كانوا من القبائل اليمانية والقضاعية ، والعنصر الغالب في القبائل المضرية التي كانت معه هو العنصر القيسي ، أما ربيعة فلم يكن في جيش معاوية أحد منها أو كانوا قلة لا يعتد بها ، وأبرز القبائل التي شاركت في القتال معه ، حمير وقضاعة (كلب ، بهراء ، تنوخ ، لخم ، وجذام) وهمدان وخثعم ، وغسان ومذحج وعك والأشعريين وكندة والأزد ، (٣٨) ويبدو أن الأزد كانوا يشكلون نسبة كبيرة في الشام كما نستخلص من قول معاوية لرجل طلب منه أن يجعله حيث شاء فقال : " عليك بهذه الأزد الطويلة العريضة الكثير عددها . " (٣٩)

وفي أثناء الفتنة الثانية عندما نزل عبدالله بن الزبير دار البلاط بمكة وجعلها دار امارته ، تفرق من كان بمكة من شيعة بني أمية خوفا على أنفسهم فصاروا الى الشام . (٤٠) كما أخرج أهل المدينة من كان مع عمرو بن سعيد بن العاص من بني أمية . (٤١)

ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولهم بلاد الشام تزايدا سريعا ، فقد بلغ عدد المسجلين في ديوان العطاء في حمص في خلافة مروان بن الحكم من اليمانية فقط عشرين ألفا . (٤٢) وفي ديوان دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك خمسة وأربعين ألفا ، (٤٣) وبلغ أهل دمشق من العرب أربعا وثمانين ألفا في سنة ١٢٦ هـ ومقاتلتهم خمسين ألفا . (٤٤) وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل ، (٤٥) ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل العرب الوافدين الى بلاد الشام

---

(٣٨) : نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، القاهرة ، ١٣٦٥ هـ / ص ٢٣٢ ، ٢٩٩ . خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٢٢ ، الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٧٢ .

(٣٩) : الأغاني ، ج ١٦ ص ٤٠١ .

(٤٠) : ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٥ ص ٢٠٩ .

(٤١) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٠٩ .

(٤٢) : الأغاني ، ج ١٦ ص ٣٤ .

(٤٣) : مؤلف مجهول ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، ص ٥ .

(٤٤) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٦٧ ، تهذيب ، ج ٧ ص ٦٢ .

(٤٥) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٨٢ .

../..

وحدهم وانما تمثل أيضا من انضم اليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم أسلموا وانضموا بعد ذلك الى جيوش المسلمين .

واتبع في توزيع القبائل العربية في الشام وتجنيدها نظام يختلف عن نظام الأخماس والأسباع الذى اتبع في العراق ، وهو نظام الاجناد ، فقد وزعت الجيوش العربية أجنادا تعسكر قرب مدن الشام الرئيسية ، وكل جند كان ينسب الى المكان الذى هو فيه ، لا الى القبائل التي يتألف منها ، فيقال ، جند دمشق وجند الأردن وجند قنسرين ونحو ذلك ، وبينما نجد عمر يكتب الى أبي موسى الأشعرى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ومساجد للقبائل ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة ، ويكتب الى سعد بن أبي وقاص على الكوفة والى عمرو بن العاص في مصر بمثل ذلك ، فاننا نراه يكتب الى أمراء الأجناد في الشام ألا يتبددوا الى القرى وأن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا في كل مدينة مسجدا واحدا ولا تتخذ القبائل مساجد ، فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده . (٤٦)

أما مواطن القبائل العربية بالشام بعد الفتح فنستطيع تحديدها على وجه التقريب اعتمادا على ماانتهى الينا من المصادر التاريخية والجغرافية ، ففي فلسطين استقرت قبائل من لخم وجذام، (٤٧) وعاملة وكندة وقيس وكنانة ،(٤٨) وفي الأردن نجد بطونا من غسّان ومذحج وهمدان وكلب والسكاسك والسكون ، (٤٩) وأغلب القبائل التي نزلت دمشق كانت من اليمانية الى جانب قلة من قيس ، وقريش ، بينما نزلت قبائل قيسية ولا سيما

---

(٤٦) : المقريزى ، الخطط ، دار التحرير للطباعة والنشر عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج ٣ ص ١٠٥
E. I. ed. 1936. Art., Masdjid .

(٤٧) : البلاذرى ، أنساب الاشراف ، مؤسسة الدراسات الشرقية ، الجامعة العبرية ، القدس ١٩٣٦ ج ٥ ص ١٢٨ ،

(٤٨) : خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٢٢ ، اليعقوبي ، البلدان ، ليدن ١٨٩١م ص ٣٢٩ .
ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٤٩) : خليفة ج ١ ص ٢٢٢ ، الطبرى ج ٥ ص ٥٣٥ ، ٥٤٧ ، المسعودى ، مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٩ .

../..

بني مره في الغوطة وحوران والثنية وفي الظاهر والغور والجولان ووجدت غسّان في الغوطة وكلب في السويداء (٥٠) وجل أهل حمص كانوا يمانية قضاعية، من طيء وكندة وحمير وهمدان وكلب وبهراء وتنوخ مع قلة من قيس، واياد في جبلة وايادي فويهيران رتاحتين. (٥١) ولكثرة القبائل اليمانية في جند حمص ضرب المثل بذلة القيسي فيها، (٥٢) وكانت مواطن قيس قنسرين وما حولها، (٥٣) بالاضافة الى تنوخ وطيء. (٥٤) واحتلت قبيلة كلب البقاع ودعي بقاع كلب، ومنهم بنو عامر الذين نزلوا المرج الفلسطيني المنسوب اليهم (مرج ابن عامر). (٥٥)

أما منطقة الساحل فنظرا لعدم تجاوب أهلها في بادئ الأمر لتأثرهم بالصبغة الرومية، فقد اضطر معاوية الى نقل قوم من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الأردن وصور وعكا سنة ٤٢ هـ، (٥٦) ونقل من أساورة البصرة والكوفة الى انطاكية، (٥٧) ونقل سنة ٤٩ أو سنة ٥٠ هـ قوما من زط البصرة والسيابجة (٥٨) الى سواحل انطاكية. (٥٩)

---

(٥٠): اليعقوبي، البلدان ص ٣٢٥، ٣٢٦، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ١٨٩.

(٥١): اليعقوبي، البلدان ٣٢٤، خليفة، ج ١ ص ٢٢٢، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٤٧.

(٥٢): أبو الفضل النيسابوري، مجمع الأمثال، القاهرة، ١٣٥٢ هـ. ج ١ ص ٢٦٤.

(٥٣): الطبري، ج ٥ ص ٥٣٥، ٥٣٨.

(٥٤): البلاذري، فتوح ص ١٥٠، ١٥١، المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٤٩. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٠٤.

(٥٥): تهذيب، ج ٣ ص ١٧٩، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ١، القسم الأول ص ٧١٤.

(٥٦): البلاذري، فتوح، ص ١٢٤.

(٥٧): المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٥٨): السيابجة قوة فارسية كانت عند البحرين والخط والطفوف، (الطبري، ج ٣ ص ٣٠٤). وينقل كايتاني رأي دي غويه أن السيابجة أصلهم من الهند، وجزر الهند الشرقية وأنهم كانوا يقومون بالملاحة بين ساحل الخليج الفارسي وشرقي آسيا.

Caetani, L. Annali dell Islam, Milan, Vol. III P. 920

(٥٩): البلاذري، فتوح ص ١٦٦، ٣٦٩.

./..

وأسكن معاوية جماعة كبيرة من يهود الأردن طرابلس، (٦٠) ويذكر اليعقوبي أن كورة عرقة فيها قوم من الفرس ناقلة ، وكذلك طرابلس أهلها قوم من الفرس ، كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم اليها ، وكذلك جبيل وصيدا وبيروت ، فأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيان . (٦١)

وأقطع عبد الملك فرس بعلبك الخمس في مدينة طرابلس ، فسكنوها وسكنوا غيرها من مدائن الساحل ، (٦٢) ونقل الوليد بن عبد الملك الى انطاكية قوما من زط السند ممن حملهم محمد بن القاسم الى الحجاج ، فبعث بهم الى الشام . وفي القرن الثالث الهجرى كان بانطاكية محلة تعرف بالزط وبوقا من عمل أنطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط ، (٦٣) ومما يثير الانتباه أن سكان جند دمشق الساحلية كان معظمهم من الفرس واليهود ، بينما يشكل العرب الاكثرية الساحقة في كور جند حمص الساحلية ، فقد سكن مدينة اللاذقية قوم من يمن وسليح وزبيد وهمدان ويحصب ، كما سكنت همدان في مدينة جبلة مع قوم من اياس ومن اياد ، وأهل انطرطوس كانوا من كندة في حين أن مدينة بلنياس فقط كان أهلها أخلاط . (٦٤)

أما الجراجمة الذين كانوا يقطنون الجرجومة من جبل اللكام ، فقد تفرّق قسم منهم في خلافة عبد الملك بن مروان بقرى حمص ودمشق ، أما اكثريتهم فقد رجعوا الى مدينتهم باللكام بعد ثورتهم والقضاء عليها ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك أخرب مسلمة بن عبد الملك مدينتهم لكثرة ما كانوا يكاتبون الروم ويمالئونهم ، وأسكنهم جبل الحوّار وعمق تيزين ، (٦٥) وصار بعضهم الى حمص ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه انطاكية ثم هرب الى بلاد الروم ، ويبدو أن بعضهم بقي مقيما في انطاكية . (٦٦) أما تيوفانس فيذكر أن جستنيان الثاني نتيجة

---

(٦٠) : البلاذرى ، فتوح ص ١٣٣ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ، ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٣١ .
(٦١) : اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٧ .
(٦٢) : تهذيب ، ج ٦ ص ١٨٧ .
(٦٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٦٦ ، ٣٦٩ .
(٦٤) : اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٥ .
(٦٥) : عمق تيزين ، تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب ، كانت تعد من أعمال قنسرين ثم صارت في أيام الرشيد من العواصم مع منبج وغيرها (ياقوت الحموى ، معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦) .
(٦٦) : البلاذرى ، فتوح ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

٠٠/٠٠

للصلح الذى عقده مع عبدالملك نقل ١٢ ألف من المردة وأسكنهم آسيا الصغرى .(٦٧)

هذه صورة للعناصر السكانية في بلاد الشام في صدر الاسلام ، وهي تشير بوضوح الى أمرين ، أولهما أن العنصر العربي قد أصبح الغالب بعد هجرة الروم بحيث أن اليعقوبي الذى زار هذه المنطقة في القرن الثالث الهجرى ، لا يذكر الروم على الاطلاق ، وانما يطلق اسم العجم عليهم ، ولا نجد لهم ذكرا في الأجناد الشمالية وانما في جندى الأردن وفلسطين فقط حيث يذكر وجود العجم في عكا وقدس وبيسان ، وفحل وجرش من كور الأردن ، وفي كورة ايلياء ولدو عمواس من جند فلسطين ، أما الأمر الثاني فهو أن قبائل قضاعة (٦٨) واليمن كانت تستوطن الجانب الأكبر من بلاد الشام ، ولما كانت قضاعة وكلب خاصة هي أضخم الكتل القبلية في بلاد الشام في العصر الاموى ، كان انحياز هذه الكتلة الى أى حزب سياسي خليقا بترجيح كفته ومنحه تأييدا حربيا وسياسيا له شأوه ، وكذلك كان انحياز هذه القبيلة الى احدى الكتلتين العدنانية والقحطانية خليقا بترجيح كفتها العددية ، وباختلال ميزان القوى القبلية . ومن هنا احتدم النزاع حولها وتجاذبتها العدنانية والقحطانية ، وقام نسابو كل من الكتلتين والاخباريون فيهما بمحاولات كثيرة منذ مستهل العصر الأموى حتى منتصف العصر العباسي في ضم هذه القبيلة الى شجرتهم النسبية ، وذهب بعض نسابي اليمن الى أن

---

(٦٧) :

Sir George Hill, The History of Cyprus, Vol.II P.286.
Archibald Lewis, Naval Power & Trade in the Mediterranean P. 80.

(٦٨) : قبائل قضاعة ، كلب ، تنوخ ، بلي ، بهراء ، خولان ، اسلم ، جهينه ، عذره ، نهد ، بنو القين ، سليح ، ابن عبدالبر النمرى ، الانباه ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ٢٠١ .

../..

قضاعة نسبت الى معد أيام العصبية ، وفي زمن معاوية وابنه يزيد بوجه خاص ، وأن معاوية وابنه بذلا لرؤساء قضاعة أموالا جسيمة لقاء الانتفاء من اليمن والانتساب الى معد ، ولكن قضاعة كما يبدو تغضب غضبا شديدا لشيوع هذا القول وتنكره أشد الانكار ، ثم تجمع جموعها وتدخل مسجد دمشق يوم الجمعة وهي ترتجز بقول شاعرها :

يا أيها الداعي ادعنا وبشر

وكن قضاعيا ولا تنزر

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر

قضاعة بن مالك بن حمير

النسب المعروف غير المنكر

من قال قولا غير ذا يبصر (٦٩)

ويرد الشرقي بن القطامي ومحمد بن حبيب هذا الاضطراب في نسب قضاعة الى الحرب التي ثارت بين قيس وكلب اثر معركة مرج راهط ، فيذكر أن خالد بن يزيد أشار على أخواله من كلب بمحالفة اليمن والانتساب اليهم لاذلال بني مروان ومن انحط في هواهم من قيس ، فأجابه الى ذلك بعضهم وعصاه آخرون ، فكان بعضهم يقولون حالفنا اليمن وبعضهم يقول بل نحن منهم ، (٧٠) كما يذكر الشرقي بن القطامي أن أول من ألحق قضاعة بحمير عمرو بن مرة الجهني ، وكانت له صحبة وسابقة

---

(٦٩) : البلاذري ، أنساب الاشراف ، ج ١ ص ١٨ ، وينسب هذا الرجز الى أفلح بن يعبوب القضاعي ، نشوان الحميرى ، منتخبات في أخبار اليمن ، ليدن ١٩١٦ ، تحقيق عظيم الدين أحمد ص ٨٧ .

(٧٠) : ابن عبد البر ، الأنباه ص ٦٠ ، ٦١ .

في الاسلام وطاعة في قومه ، (٧١) ولكي يؤيد كل فريق دعواه عمد الى وضع الأحاديث على لسان الرسول ، فوضعت نزار حديثا ينسب فيه الرسول قضاعة الى معد بل يجعله بكر ولده (٧٢) ووضع أهل اليمن أحاديث تنقض هذا القول وتؤيد نسبة قضاعة الى حمير ، (٧٣) وكذلك دعم الفريقان دعواهما بأبيات من الشعر لشعراء قدماء ومحدثين .

ولقد لاقى القول بانتماء قضاعة الى حمير والجذم اليماني هوى في نفوس القضاعيين ، لأن في انتسابهم الى حمير ذات الماضي العريق في الحضارة والملك مايرفع من شأنهم عند مفاخرة القبائل النزارية ، فأخذ الشعراء يؤكدون هذه النسبة في أشعارهم ويفخرون بنسبهم اليماني ، وأجابهم شعراء نزار ساخرين تارة ومعاتبين أخرى . (٧٤)

ومن القبائل التي تنازعتها القحطانية والعدنانية أيضا ، جذام ، وهي عند نسابي اليمن قحطانية النجار ، ولكن نسابي مضر يزعمون أن جذام هو ابن أسدة بن خزيمة أخي أسد ويحتجون على دعواهم ببيتين ينسبونهما الى امرئ القيس أو لبشر بن أبي خازم الأسدي ، (٧٥) ويبدو أن القول بانتماء جذام الى مضر ، انما شاع كذلك في العصر الأموي ، وأن بني أمية أرادوا تألف هذه القبيلة التي كان لها عدد وقوة بالشام ، فأغروا بعض رؤسائها بالانتماء الى معد ، ووافقهم في ذلك روح بن زنباع الجذامي والشاعر العاملي عدي بن الرقاع ، ولكن هذا النبأ ماكاد يبلغ أسماع الجذاميين المتعصبين لأصلهم اليماني حتى قدموا على يزيد وعلى رأسهم سيدهم ناتل بن قيس الجذامي الذي أعلن أنهم يمانون من قحطان

---

(٧١) : ابن عبد البر ، الأنباه ص ٠٦٠ .

(٧٢) : المصدر السابق ، ص ٥٩ ، البلاذري ، أنساب ، ج ١ ص ١٦ .

(٧٣) : المصدر السابق ، ص ٠٦٠ .

(٧٤) : المصدر السابق ، ص ٠٦٢ .

(٧٥) : المصدر السابق ، ص ١٠٤ ، البلاذري ، أنساب ، ج ١ ، ص ٠٣٦ .

٠٠٠/٠٠٠

وأنهم ليسوا بمتخلين من نسبهم وشتم روحا لمحاولته نسبة قومه الى غير أصلهم واضطر روح الى التراجع ، وكذلك رجع عدى بن الرقاع العاملي عن مقالته ، وقال في تأكيد نسبته الى قحطان أبياتا منها قوله :

قحطان والدنا الذى ندعى لـه

وأبو خزيمـة خنـدف بن نـــزار. (٧٦)

وما قيل في جذام قيل مثله في أختها لخم ، فقد جعلها نسابو مضر معدية وقرنهـا أكثرهم بجذام في انتمائها الى أسدة بن خزيمة بن مدركة ، وذهب بعضهم الى أن قنص بن معد هو أبو لخم وأيدوا قوله بما نقلوه من النسابة القرشي جبير بن مطعم من نسبته ملك الحيرة اللخمي ، النعمان بن المنذر ، الى أشلاء قنص بن معد . (٧٧) ويظهر أن القحطانية لما فاخروا العدنانية بملوكهم في الجاهلية ادّعت العدنانية هذه الدعوى لتضم الى شجرة نسبها آل نصر ملوك الحيرة ولا سيما النعمان بن المنذر الذى كان لاسمه دوي يملأ أرجاء الجزيرة العربية .

ان هذا الخلاف في ادّعاء كل من النسابين من مضر وقحطان بالحاق هذه القبائل بهم تظهر المكانة الكبيرة التي كانت لهم ، وتلقي الأضواء على بعض الأحداث التي ستـرد في الفصول القادمة ، وان كانت المصادر التاريخية ، عندما تتكلم من الأحداث في العصر الأموى ، تدخل قضاعة ضمن اليمن .

---

(٧٦) : الأغاني ، ج ٩ ص ٣١٤ .

(٧٧) : البلاذرى ، أنساب ، ج ١ ص ٢٣ ، ابن عبد البر ، الأنباه ، ص ١٠٤ .

=======

===

=

الفصل الثالث

طبقات المجتمع ودورها في الادارة والحكم

المسلمون من العرب :

من المبادئ الاصيلة في الدعوة الاسلامية عدم المفاضلة بين الناس على أساس الانساب ، والمفاضلة انما تكون بالتقوى ، وعليه الآية الكريمة " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم " ، (١) وأكد الرسول هذا المعنى في خطبة الوداع : " تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم وأن المسلمين أخوة " (٢) ولكن الرسول أدرك كذلك بثاقب بصره أن حرص زعماء القبائل على مراتب الشرف التي يتبوءونها في قومهم ، والمنافع المادية التي تحققها لهم مناصب الرئاسة هي عقبة كؤود تعترض سبيل انتشار الدعوة الاسلامية واعتناق القبائل العربية لها . ورأى أن تذليل هذه العقبة لا يأتي الا من طريق اصطناع رؤساء القبائل وتألفهم ، فكان لذلك يؤثر من كان منهم بالعطاء والهبات ويقسم لهم نصيبا أوفى من الغنائم . وكانت خطته هذه مدعاة لاستياء أنصاره في بعض الأحيان . (٣) جاء في الطبري عن أبي سعيد الخدري أنه لما أعطى رسول الله ما أعطى للمؤلفة قلوبهم – وكانوا أشرافا من أشراف الناس يتألفهم ويتألف به قلوبهم – ولم يكن في الأنصار منها شيء . وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ، (٤) فكان جواب الرسول لهم بأنه انما تألف بها قوما ليسلموا ووكلهم الى اسلامهم ، وبأنه لو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلك رسول الله (صلعم) شعب الأنصار . (٥)

---

(١) : سورة الحجرات ، آية : ٢ .

(٢) : الطبري ، ج ٣ ص ١٥١ .

(٣) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٠ ، البخاري ، الجامع الصحيح ، ليدن ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٤) : الطبري ، ج ٣ ص ٩٣ .

(٥) : الطبري ، ج ٣ ص ٩٤ .

وبالرغم من أن الاسلام جعل مدار التفاضل بين الرجال على التقوى ، والايمان لا على الاحساب والأنساب فانه لم يلغ مراتب الشرف القبلية الغاء تاما ، وانما جعلها منوطة بحسن الايمان وقوة العقيدة ، فحين سأله قوم عن اكرم العرب كان جوابه : "الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا". (٦) وقد جرى خلفاء الرسول على الموقف نفسه الذي وقفه الرسول من الروح الجاهلية والعصبيات القبلية ، فاتخذ أبو بكر موقفا صارما لا هوادة فيه من حركة الردة ، وأمر بقمعها بكل وسيلة لأنه وجد فيها خطرا على كيان الدولة الاسلامية الناشئة ، كما رأى فيها ظاهرة قبلية خطيرة ، تهدد بعودة العرب سيرتها الأولى في الجاهلية من التنابذ والتفرقة ، وكان عمر بن الخطاب أشد عنفا من سلفه في قمع الدعوة العصبية والنزعات القبلية وفي تجاهل امتيازات الشرف الموروثة من الجاهلية ، وكان يأذن في مجلسه للموالي الذين عرفوا بسبقهم الى الاسلام كصهيب وبلال قبل أن يأذن للاشراف الذين لم يكن لهم سابقة في الاسلام أمثال عيينه بن حصين الفزاري والأقرع بن حابس التميمي . (٧) وحين فرض عمر العطاء للمسلمين وغضب بعض أشراف قريش أن يكون نصيبهم دون نصيب غيرهم ، أجابهم أنه أعطى على السابقة في الاسلام لا على الأحساب . (٨) ووقف عمر من الأنساب موقف الرسول قبله ، اذ حض القوم على رعايتها لا ليتعصبوا لها ، وانما ليصلوا أرحامهم ، ويعرفوا روابط القربى التي تصل بينهم ، ومن المحتم في مجتمع كانت تسوده المفاهيم والتقاليد القبليـة أن يقوم الصراع بين الاتجاهات الاسلامية وبين التقاليد القبلية سواء أكان ذلك واضحا مكشوفا أو خفيا مستورا ، ومن المتعذر فهم تاريخ صدر الاسلام ان لم يلاحظ هذا التصادم والاحتكاك .

ونحن اذا أتينا الى العرب المسلمين في الشام نجد أن عاملين اثنين كان لهما دور هام في تحديد مكانتهم الاجتماعية ، وهما عامل العطاء منذ فرضه الرسول ونظمه عمر

---

(٦) : البخاري ، الجامع الصحيح ، ج ٢ - كتاب المناقب ، ص ٣٨١ .

(٧) : الجاحظ ، العثمانية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ص ٢١٧ .

(٨) : الطبري ج ٣ ص ٦١٣ .

../..

وعامل صحبة الرسول ونصرته في دعوته ، وماكان من أثره في نشأة طبقة الصحابة التـــي انشطرت بدورها شطرا اتجه الى المعرفة وشطرا اتجه نحو السياسة والحكم ، فقد عاش صحابة الرسول في ذاكرة الجماعة الاسلامية ووجدانها على أنها امتداد لحياته الشريفة ، وتمثيل لها وتعبير عن دعوته وتجسيم لهذه الدعوة ، وعاشت نثرة العطاء رمزا للمكانـــة الاجتماعية وتعبيرا عن المسابقة الى النصرة ، (٩) ثم تعبيرا عن الشجاعة والبـــلاء في تلك الحروب الخطيرة التي ســـاهموا فيها ، فقد كان عطاء المقاتلة الذين اشتركوا في معركة اليرموك ألفين ، (١٠) وفرض عمر لأهل البلاء البارع منهم في ألفين وخمســـمائة ثم تدرّج العطاء مابين ألف الى تسعمائة الى خمسمائة الى ثلاثمائة . (١١)

وكان الحد الأعلى للعطاء ويدعى شرف العطاء محددا بألفين وخمسمائة في العهد الراشدي ، (١٢) ثم انتقصه معاوية وجعله ألفي درهم ، (١٣) وكان الأشراف في الشـــام الذين عطاؤهم ألفين يأخذون بالاضافة الى عطائهم قطيفة ، (١٤) ولا نجد اشـارة لذلك في العراق ومصر ، وربما تأثر معاوية بما كان يجري في الدولة البيزنطية حيث كان الموظفون الكبـــار يأخذون بالاضافة الى أرزاقهم عطـــاء نقديـــا وملابس وكان العطـــاء والملابس توزع مرة في الســـنة . (١٥)

---

(٩) : الطبري ، ج ٣ ص ٦١٤ ، البلاذري ، فتوح ص ٤٣٧ .

(١٠) : الطبري ، ج ٣ ص ٦١٤ .

(١١) : البلاذري ، فتوح ، ص ٤٣٨ .

(١٢) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٥٥ ، ج ٦ ص ١٥١ .

(١٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٥٥ ، البلاذري ، انساب ، ج ٥ ص ١٣٦ ، الطبري ج ٥ ص ٢٤٢ .

(١٤) : ابن سعد ، ج ٥ ص ٢٥٥ ، البلاذري ، انساب ، ج ٥ ص ١٣٦ .

(١٥) : Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization, ed. Norman H. Baynes and H. St. L. Moss, Oxford, The Clarendon Press, p. 75.

../..

وكان شرف العطاء يمنح لمن يقوم ببعض الأعمال الادارية أو القيادية ، (١٦) أو من يبدى بسالة في الحروب ،وقد استمرت هذه القواعد في العصر الأموى ، الا أن عامل الدعم لمعاوية وللحكم الاموى في الشام أصبح عاملا أساسيا في منح الشرف في العطاء ففي الأخبار الطوال للدينورى ، أن معاوية قال لعمرو في معركة صفين : " قدم عك والاشعريين فانهم كانوا أول من انهزم في هذه الجولة ،فأتاهم عمرو فبلغهم قول معاوية ، فقال رئيسهم مسروق العكي ،انتظروني حتى آتي معاوية ، فأتاه فقال : افرض لقومي في الفين الفين ،ومن هلك منهم فابن عمه مكانه ،قال : ذلك لك ". (١٧) وكان يفرض أحيانا لأشخاص في شرف العطاء لاعجاب الخلفاء بتصرفاتهم ، فهذا معاوية يأمر ليزيد بن شجرة الرهاوى بخمسمائة الف درهم ويأمر بزيادة عطائه ألفا ،ويقول : " لقد ظلمك من جعلك في الف من العطاء وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين وكماة او حماة أهل صفين " وما ذلك كما يقول الجاحظ الا لأنه وفاه حق الرياسة وأحسن الاصغاء اليه ولم يهتم بالدم الذى سال على وجهه بسبب حجر عائر . (١٨)

ويمكننا أن نستنتج من نص يورده البلاذرى أن من بلغ سنا يجب أن يعطى شرف العطاء ،لاسيما وأن في الطبرى نصوصا تشير الى مكانة ذوى السن . (١٩) فقد كتب أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الى عمر بن عبد العزيز : " ان قوما من الأنصار قد بلغوا أسنانا ولم يبلغ عطاؤهم الشرف ،فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر اثباتهم في

---

(١٦) : الطبرى ،ج ٨ ص ١٧٧ ، ١٧٨ ،الازدى ،تاريخ الموصل ،تحقيق علي حبيبة ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ص ٢٥٦ . ابن عبد الحكم ،فتوح مصر وأخبارها ،ليدن ١٩٣٠ م ص ١٤٣ . البلاذرى ،فتوح ص ٤٤٢ .

(١٧) : الدينورى ،الأخبار الطوال ،تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة والارشاد ، الاقليم الجنوبي ، ص ١٨٦ . (كان ما فرض لعك في أيام عمر بن الخطاب ٣٠٠ درهم) الطبرى ج ٤ ص ٩١ .

(١٨) : الجاحظ ،التاج في أخلاق الملوك ،بيروت ١٩٧٠ ص ٦٢ .

(١٩) : الطبرى ،ج ٤ ص ١٣٠ ،ج ٤ ص ٣١٩ .

٠٠/٠٠

شرف العطاء تليفعل". فكتب اليه عمر " ..... وأما ما ذكرت من أمر الرجال الذين بلغوا سنا ولم يبلغ عطاؤهم الشرف ، فانما الشرف شرف الآخرة والسلام". (٢٠)

وبالرغم من أن مقدار مايدفع في شرف العطاء لم يكن بالدرجة التي تجعل من يأخذه غنيا الا أنه كان يعتبر شرفا عظيما يستحق التسجيل ، وقد استدعى فرض نظام العطاء الى تصنيف الناس حسب قبائلهم وأصولهم ، فنشط النسابون لتدوين الانساب ، وتصنيف القبائل حسب أصولها وأجدادها فتجددت معالم الرابطتين العدنانية والقحطانية . وكان لهذا التدوين أثره في عناية القبائل بأنسابها وحرصها على تدوينها ، وأدى ذلك الى تعصبها لنسبها واعتزازها به ووصلها الى القبائل التي تربطها بها رابطة النسب والقربى ، وهكذا نرى أن وضع ديوان العطاء قد أدى من طريق غير مباشر الى ظهور الروابط القبلية وشيوع المعارف النسبية وأدى بالتالي الى ظهور العصبية في صورها المختلفة .

وأما عامل صحبة الرسول ونصرته لدعوته ، فقد كان له أثره في الشام واضحا لا سيما زمن الخلافة الراشدة والفترة السفيانية ، وما أكثر الصحابة الذين اشتركوا في الفتح من المهاجرين والأنصار ، وقد بلغ عددهم حسب ماورد في كتاب الطبقات ١١٣ صحابيا (٢١) ويبدو أن حمص كانت ملتقى لأصحاب الرسول ، فمن أبي مسلم الخولاني أنه دخل مسجد حمص ، فاذا فيه نحوا من ثلاثين كهلا من أصحاب النبي (صلعم) (٢٢) وأدرك كثير بن مرة الحضرمي في حمص سبعين بدريا من أصحاب رسول الله ، ولذلك كان يسمى الجند المقدم (٢٣)

وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصحابة مجاهدين وتوزعهم في الاجناد دور كبير في ارساء قواعد الدين وتفقيه الناس وتعليمهم دينهم وسننهم ، فكانوا أساتذة لمن

---

(٢٠) : صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩م ، ص ١٥٣ ، عن البلاذري ، أنساب الاشراف ج ٣ ص ١٣٩ ، مخطوطة القاهرة .

(٢١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ قسم ٢ ص ١١١ – ١٥١ .

(٢٢) : المصدر السابق ج ٧ قسم ٢ ص ١١٥ .

(٢٣) : المصدر السابق ج ٢ قسم ٢ ص ١٥٧ . وقد جاء في مخطوطة ابن حبيش أن جند حمص انما سمي بالجند المقدم لأنها كانت ادناها من الروم ودمشق والاردن وفلسطين كلهن وراءها ، ابن حبيش ، الفتوح ص ١٨٤ .

../..

خلفهم ، وقد تفقه معظم أفراد الطبقة الأولى من التابعين في الشام على يد عبادة بن الصامت وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل ، (٢٤) وكلهم من الأنصار ، بالاضافة الى أخذهم الحديث عن أبي بكر وعمر ، فمنذ أن كتب يزيد بن أبي سفيان الى عمر بن الخطاب " أن أهل الشام كثير ، وقد احتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم " ، أرسل عمر معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء ، وطلب منهم أن يبدأوا بحمص ، ثم أن يخرج واحد منهم الى دمشق وآخر الى فلسطين ، فأقام عبادة في حمص وخرج أبو الدرداء الى دمشق ومعاذ الى فلسطين ، (٢٥) واتبع عمر في الشام سياسة خاصة لنشر الدين وهو بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة ، (٢٦) ولذلك انتشرت المساجد في بلاد الشام ، وتابع الأمويون هذه السياسة في بنائها ، (٢٧) وأصبحت المساجد هي دور العلم في العصر الأموي ، والمراكز التي يتدفق عليها الناس طلبا لسماع الحديث ، ولا نجد ذلك في مساجد مراكز الاجناد فقط بل في الساحل كذلك ، فعن شراحيل العنسي قال : " أتيت بيروت أنا وعمير بن هاني العنسي ، فاذ نحن برجل عليه الناس في المسجد ، فاذا عليه قميص كرابيس

---

(٢٤) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ص ٢١٣ ، ج ٦ ص ٢٩٠ ، ج ٦ ص ٣٤٣ .

(٢٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢١٣ .

(٢٦) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ١ ص ٥٢١ .

(٢٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ولعل أهم المساجد التي بنيت في الشام هي قبة الصخرة ، المسجد الأقصى ، ومسجد بني أمية ، ومسجد الرملة ، وقد أظهرت النقوش التي كانت تزين داخل قبة الصخرة بوضوح روح مناظرة المسيحية ، فالكتابات بالرغم من تأكيدها على نبوة المسيح وأنه نبي حق فان عبارة " لا شريك له " قد تكررت خمس مرات في هذه النقوش ، كذلك سطرت الآيات ٣٤-٣٧ من السورة ١٩ (سورة مريم) هذه الآيات التي تنكر بشدة بنوة عيسى الى الله ، وكتب بعناية فائقة دعاء " اللهم صلّ على رسولك وعبدك عيسى بن مريم " وهذا دليل على أن مناظرة المسيحية والرغبة في اظهار روح رسالة الاسلام كانتا واردتين أثناء تشييد قبة الصخرة الشهيرة . (جواتيابن ، س . د دراسات في التاريخ والنظم الاسلامية ، تعريب وتحقيق الدكتور عطية القوصي ، الكويت ١٩٨٠ ص ٤٤ . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ١ القسم الأول ص ٣١ .

../..

الى نصف ساقيه ،وقلنسوة صغيرة ،يقال له حيان بن وبرة المرى ، فقلت لعمير بن هانئ ، أمن أصحاب رسول الله (صلعم)هو ؟ قال : . لا ولكنه صاحب لأبي بكر " (٢٨) وقد أمدّ الله بعمر بعض هؤلاء الفقهاء من الصحابة ،فقد توفي واثلة بن الاصقع بن عبد العزى سنة ٨٥ هـ وقيل سنة ٨٣ هـ وكان ينزل بيت المقدس ومات فيها ، ولكنه كان يعمر بدمشق وحمص حين يشهد المغازى ،(٢٩) وكان آخر من توفي بالشام من أصحاب رسول الله (صلعم) عبدالله بن بسر المازني توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك ، (٣٠) وتوفي أبو أمامة الباهلي قبله بسنتين ٨٦ هـ ،(٣١) وكان عمرو البكائي يعتبر أفقه من بقي على وجه الأرض من أصحاب رسول الله (صلعم). (٣٢)

بالاضافة الى هؤلاء الصحابة من الفقهاء الذين كان يعوطهم المسلمون بكثير من الاحترام والرعاية كان للصحابة المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة كأبي عبيده بن الجراح ،وخالد بن الوليد ،ويزيد بن أبي سفيان ،وشرحبيل بن حسنه وعياض بن غنم ،وسعيد بن عامر بن حذيم ،وعمير بن سعد ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وقد توفي أبو عبيدة ويزيد وشرحبيل في طاعون عمواس ،وتوفي الباقون في أواخر خلافة عمر وأوائل خلافة عثمان ،أما معاوية الذى كان له الدور الاكبر في فتح عدد كبير من مدن الساحل ، فقد استطاع أن يحتل مكانة رفيعة في الشام فهو من أصحاب رسول الله ، كما انه حصل على ثقة أبي بكر وعمر وعثمان ، فولاه عمر جند دمشق والاردن اثر وفاة أخيه ، (٣٣) ثم جمع له عثمان الجزيرة والشام كلها (٣٤)

---

(٢٨) : تهذيب ، ج ٥ ص ٢ ، ٢٢ ،القاضي عبد الجبار الخولاني ، تاريخ داريا ، تحقيق سعيد الأفغاني ،مطبوعات المجمع العلمي العربي ، ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠م ص ٩٤ .

(٢٩) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٧ قسم ٢ ص ١٢٩ ،

(٣٠) : المصدر السابق ،ج ٧ قسم ٢ ص ١٣٣ ،

(٣١) : المصدر السابق ،ج ٧ قسم ٢ ص ١٣١ ،

(٣٢) : المصدر السابق ،ج ٧ قسم ٢ ص ١٣٨ ،

(٣٣) : الطبرى ،ج ٤ ص ٦٢ ،ص ٢٨٩ ،

(٣٤) : البلاذرى ،فتوح ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،

../..

وتمتع معاوية في خلافة عثمان بصلاحيات واسعة ، (٣٥) استطاع أن يستغلها في جعل ولاية الشام وحدة منسجمة تنقاد له ، (٣٦) وجعل ولاته على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة أو أبنائهم . فقد عين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد" لعظم قدره في أهل الشام ولما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد"، (٣٧) على جند حمص ، (٣٨) وولى على قنسرين حبيب بن مسلمة الفهري القرشي ، (٣٩) وعلى الأردن ابو الأعور السلمي ، (٤٠) عمرو بن سفيان من بني سليم من بطون قيس عيلان ،(٤١) وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني (٤٢) وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري ، (٤٣) وعلى القضاء أبو الدرداء ، (٤٤) ونلاحظ أن ولاة معاوية في خلافة عثمان كانوا كلهم من القيسية وأنه عينهم في المناطق التي كان

---

(٣٥) : الطبري ج ٤ ص ٣٣١ .

(٣٦) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٦٢ ، ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٩٧ ، القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٦ .

(٣٧) : مصعب الزبيري ، نسب قريش ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣٨) : الطبري ، ج ٤ ص ٣٢١ ، ٣٢٦ .

(٣٩) : حبيب بن مسلمة له صحبة وزواية ، وجاهد في خلافة أبي بكر وشهد اليرموك أميرا (الذهبي ، سيرة اعلام النبلاء ج ٣ ص ١٨٨) وولاه أبو عبيدة انطاكية واستعمله عمر بن الخطاب على عجم الجزيرة وحربها (الطبري ج ٤ ص ٣٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ص ٣٧).

(٤٠) : الطبري ج ٤ ص ٤٢١ .

(٤١) : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٣ ، وهو من قادة الفتوح اشترك في معركة اليرموك (الطبري ج ٣ ص ٣٩٦) وكان من القادة الذين وجههم أبو عبيدة الى فحل والذي صالح أهل طبرية ، (الطبري ج ٣ ص ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٦٠٥).

(٤٢) : الطبري ج ٤ ص ٤٢١ وعلقمة بن حكيم قائد من الصحابة دخل دمشق مع خالد وتوجه مع مسروق الى ايلياء وعينه عمر بن الخطاب على نصف فلسطين وأنزله الرملة (الطبري ج ٣ ص ٤٤١ ، ٦٠٨ ، ٦١٠)

(٤٣) : الطبري ج ٤ ص ٤٢١ .

(٤٤) : عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي ، أبو الدرداء ، وفي الحديث ، عويمر حكيم أمتي ، ونعم الفارس عويمر ، ولاه معاوية القضاء في دمشق بأمر من عمر بن الخطاب ، (الذهبي ، سير اعلام النبلاء) ج ٣ ص ٣٣٥ - ٣٥٢ .

../..

لهم فيها ذكر نابه كما يتبين لنا ذلك من تتبع أعمالهم ،أما أبو الدرداء فقد كان انصاريا خزرجيا ،وكان قد عينه قاضيا منذ خلافة عمربن الخطاب وبأمر منه .

وتد استطاع هؤلاء الولاة أن يفرضوا احترامهم على القبائل العربية التي رأينا أن منسابها كانت اما قضاعية أو يمانية ، بحيث أن الشام هي الولاية الوحيدة التي لم تشترك في الثورة على عثمان ،ونلاحظ أن عبدالرحمن بن خالدبن الوليد يدعم معاوية تجاه الذين أخرجهم أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم بأمر من عثمان الى معاوية لاقناعهم بالعودة الى جادة الصواب ،فلما أعياه ذلك وقف عبدالرحمن بن خالد موقفا حازما منهم حتى شعر أنهم تابوا . (٤٥) وخيرهم بين أن يقيموا أو بين أن يخرجوا ، وفي رواية ثانية أن عبدالرحمن أنزلهم الساحل وأجرى عليهم رزقا .(٤٦)

وعندما جمع عثمان الأمراء ليستشيرهم فيما قد صنع الناس ، كان معاوية الوحيد الذى أشار عليه أن يأمر أمراءه أن يكفيه كل رجل ماقبله" واكفيك أنا أهل الشام ".(٤٧) ذلك أنه كان واثقا من تضامن أهل الشام معه كافة بعكس بقية الأمراء الذين اقترحوا عليه آراء مختلفة ،وعندما تنقل عبدالله بن سبأ اليهودي الذى أسلم في خلافة عثمان يحاول ضلالة الناس لم يقدر على مايريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر.(٤٨)

بالاضافة الى المكانة التي احتلها الصحابة وقادة الفتوح وأبناؤهم في بلاد الشام فان معاوية أدرك بثاقب بصره منذ أن كان واليا على الشام مدى الفائدة السياسية التي يجنيها من مصاهرة قبيلة كلب أقوى القبائل القضاعية بالشام وأكثرها عددا ،فاختار له ميسون بنت بحدل الكلبي التي أنجبت له ابنه يزيد ،وقد حققت الاحداث بعدئذ سداد نظرة معاوية . اذ كان لقبيلة كلب اليد الاولى في تأييد خلافة يزيد وفي تثبيت دعائم

---

(٤٥) :الطبري ،ج ٤ ص ٣٢٢ .
(٤٦) : المصدر السابق ،ج ٤ ص ٣٢٦ .
(٤٧) : المصدر السابق ،ج ٤ ص ٣٤٠ .
(٤٨) : المصدر السابق ،ج ٤ ص ٣٤٠ .

.../...

الحكم الاموي في الشام ، ثم جرى خلفاء بني أمية على خطة مؤسس دولتهم في الأصهار الى القبائل القوية لكسب تأييدها ، وكانوا يؤثرون الأصهار اما الى قبيلة كلب القضاعية واما الى قبيلة قيس المضرية ، ويبرز من بين الاسر القيسية التي حرص بنو أمية على مصاهرتهم اسم آل عقيل بن علّفة المرّي ، وكانت أسرته من أعرق الأسر القيسية شرفاً وأنبهها ذكراً ومن هنا رغب الخلفاء من بني أمية وأمراؤهم وولاتهم في الأصهار اليه على الرغم مما عرف به من شدة الجفاء والعنجهية. (٤٩)

كذلك أدرك معاوية أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه أشراف القبائل بالاضافة الى أشراف أهل بيته ، فكان لا يقر أمرا قبل أن يستشيرهم ، ولذلك فانه عندما قتل عثمان وأرسل علي جريرا بن عبدالله البجلي يدعوه الى الدخول في طاعته والبيعة له أو الايذان بالحرب ، استعان معاوية بأشراف أهل بيته ، فنصحه أخوه عتبه أن يستعين على أمره بعمرو بن العاص الذي بيّن له أنه ليس لمعاوية مثل سابقة علي وقرابته ، (٥٠) وأنه لا يستطيع أن يتصدى لعلي ويدعو أهل الشام لبيعته ، الا بعد أن يحصل على دعم أشراف الشام له ، وأنه اذا حصل على تأييد شرحبيل بن السمط الكندي رأس أهل الشام فانه يحصل على تأييد أهل الشام كافة ، (٥١) وانه لمما يثير الدهشة اذا صدقت رواية الدينوري أن نرى تأثير شرحبيل على القبائل في الأجناد ، أما رواية سيف في الطبري فتشير الى أن معاوية استغل قميص عثمان المخضب بالدماء والذي وضعه على المنبر ، وكتب بالخبر الى الأجناد ، فثاب اليه الناس ، " وآلى الرجال من أهل الشام ألا يأتوا النساء ولا يمسهم الماء للغسل

---

(٤٩) : ابن حزم ، جمهرة الأنساب ، ص ٢٤١ . الأغاني ج ١٣ ص ٢٥٤ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ج ٣ ص ٤١٥ ، كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ، ج ٦ ص ٩٨ .

(٥٠) : الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٥٨ .

(٥١) : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

../..

الآ من احتلام ، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان" (٥٢) ووقفت القبائل العربية في الشام كلها الى جانب معاوية في معركة صفين ،قيسية ،ويمانية وقضاعية ، (٥٣) الا بعض الصحابة كأبي الدرداء ،وأبي أمامة الباهلي الذين رفضا الاشتراك ولحقا ببعض السواحل ولم يشهدا شيئاً من تلك الحروب . (٥٤) وبالرغم من أن أهل الشام كانوا قلة بالنسبة الى أتباع علي ،فقد كان مع معاوية قوم " لا يقولون اذا سكت ،ويسكتون اذا نطق ولا يسألون اذا أمر ،ومع علي قوم يقولون اذا قال ويسألون اذا سكت ،ولذلك فقليله خير من كثيره". (٥٥) وكذلك يشير القزويني الى أن معاوية قد تمشى له الأمر لأنه كان في أطوع جند بينما كان علي في أعصى جند وهم أهل العراق . (٥٦)

كان من نتيجة معركة صفين أن ازداد نفوذ القبائل اليمانية التي نصرت معاوية وليس أدل على ذلك مما قاله الضحاك بن المنذر بن سلامة بن ذي فايش الحميري لمعاوية : " نحن نصرناك ومنحناك يوم صفين ،ونصرناك على الانصار والمهاجرين ،وآثرناك على الامام التقي ، فهنا علوت المنابر ولولا نحن لم تعلها". (٥٧) ونجد أشراف قبائل اليمن وساداتها ،حيوة بن شريح الكلاعي ،وكريب بن أبرهة بن شرحبيل ،ويزيد بن حبيب المرادي ، وناتل بن قيس الجذامي ،وعروة بن المنذر الغساني كلهم يتخذون الموقف نفسه ويبينون له صراحة أنه اذا مالأ بني نزار ولم يأسُ بينهم وبين قومه فسوف يكون هو الخاسر ، لأنهم أكثر منه نفرا وجمعا .(٥٨) ولذلك نجد معاوية في خلافته ثم يزيدا من بعده يتجهان اتجاها مختلفا في تعيين ولاة الاجناد فيعمدان الى انتقائهم من زعماء القبائل حسبما توفر لهم من استقرار

---

(٥٢) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٦٢ .

(٥٣) : الدينوري ،الأخبار الطوال ، ص ١٧٢ .

(٥٤) : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٥٥) : الدينوري ،المصدر السابق ص ١٥٥ ،الذهبي ، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٤١ .

(٥٦) : القزويني ،آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٦ .

(٥٧) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ص ٣٠ .

(٥٨) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٣١ .

٠٠/٠٠

وكثره فكانت قنسرين والجزيرة بأيدي عمال من عرب الشمال أو القيسية بينما كانت حمص والأردن وفلسطين بأيدي عمال من عرب الجنوب أو قضاعة ، فكان زفر بن الحارث الكلابي عاملا لمعاوية ويزيد على قنسرين والجزيرة ، ومالك بن هبيرة السكوني على حمص في خلافة معاوية ، (٥٩) والنعمان بن بشير الأنصاري في خلافة يزيد وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي عاملا لمعاوية ثم ليزيد على فلسطين والأردن . (٦٠) ونلاحظ أن معاوية لا ينقاد لليمانية تماما لأنه استطاع بمصاهرته لقبيلة كلب أن يحقق نوعا من التوازن ، وانضمام قضاعة اليه منحه تأييدا عربيا وسياسيا عظيم الخطر ، الا أن هذا التأييد كان له شروطه ، وهو أن يفرض معاوية لألفي رجل منهم ألفين ألفين ، وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه ، وأن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي ومشورة منهم ، (٦١) ولكن معاوية الرجل الاداري يعمد الى الاستفادة من كل أصحاب الكفاءات من القبائل المختلفة أو من شيعته المخلصين ، فكان كاتب رسائله غسّانيا ، واستخدم حميريا على ديوان الخاتم وهو عبد الله بن محصن الحميري ، وعلى ديوان الجند عمرو بن سعيد بن العاص . (٦٢) وعلى شرطته قيس بن حمزة الهمداني ، ثم زمل بن عمرو العذري ، وهناك رواية تشير الى أن الضحاك بن قيس الفهري كان على شرطة معاوية قبل وفاته بينما تذكر رواية أخرى الى أنه كان واليا على دمشق ، (٦٣) أما في مجال القضاء فقد جعل معاوية الأولوية للصحابة والتابعين من الفقهاء ، فقد عين فضاله بن عبيد الانصاري ، (٦٤) فلما توفي سنة ٥٣ هـ استقضى أبا ادريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني . (٦٥) واشتهر

---

(٥٩) : الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٦ ص ١٤٥ .
(٦٠) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٣١ ، البلاذري ، انساب ، ج ٥ ص ١٢٧ .
(٦١) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٨٦ .
(٦٢) : الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ص ٢٤ .
(٦٣) : الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٣ ص ٢٤٢ .
(٦٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١١٤ - ١١٦ .
(٦٥) : خليفه بن خياط ، ج ١ ص ٢٧٦ ، الطبري ج ٥ ص ٣٣٠ ، الجهشياري ، ص ٢٤ ، وأبو ادريس الخولاني ، تابعي فقيه وكان عالم أهل دمشق (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٧٢ ، ٢٧٦) .

٠٠/٠٠

عدد من القادة كأمراء للصوافي والشواتي ،وكان معاوية يعينهم حسب كفاءاتهم القيادية دون النظر الى انتماءاتهم القبلية ،فكان منهم عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، (٦٦) ومالك بن هبيرة السكوني من رؤساء كنده ،(٦٧) وفضالة بن عبيد الأنصاري سنة ٥٠ ،٥١ هـ . (٦٨) وسفيان بن عوف الازدي الذي كان من الصحابة القادة فقد كان مع أبي عبيدة حين افتتحت دمشق ،وولاه معاويه الصوائف ،وعندما أدركه أجله في أرض الروم استخلف على الناس عبدالرحمن بن مسعود الفزاري. (٦٩) بالرغم من أنه أبعد العرب نسبا منه وذلك " لأن له نية حسنة وعفافا " : ولما بلغت وفاته معاوية كتب الى أمصار المسلمين وأجناد العرب ينعاه ، نبكى الناس عليه في كل مسجد ،وكان معاوية بعد ذلك اذا رأى خللا في الصوائف قال " واسفياناه ولا سفيان لي". (٧٠)

سار يزيد على خطى والده في تعيين ولاة الأجناد من سادات القبائل ، كما أنه كان يستشيرهم في القضايا التي كانت تعترضه ،فعندما بلغ يزيد بن معاويه مافيه عبدالله بن الزبير من بيعة الناس واجتماعهم اليه دعا بعشرة من وجوه أصحابه وهم يمثلون مختلف القبائل في الشام ،النعمان بن بشير الانصاري ،وشريك بن عبدالله الكناني ، وزمل بن عمرو العذري ،ومالك بن هبيرة السكوني ،وعبدالله بن عضاة الأشعري ،وروح بن زنباع الجذامي ،وابوكبشه السكسكي ،وسعيد بن عمرو الهمداني ، وعبدالله بن مسعدة الفزاري ، وعبدالرحمن بن مسعود الفزاري ، (٧١) وطلب منهم التوجه الى الحجاز وأن يعظموا حق ابن الزبير وحق أبيه وأن يخبروه بالذى بلغ يزيد عنه ، ثم أن يسألوه بعد ذلك أن يلزم

---

(٦٦) : الطبرى ج ٥ ص ١٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧.

(٦٧) : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٢٧ ، ٢٢٩.

(٦٨) : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٥٣.

(٦٩) : تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٨٤.

(٧٠) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ١٨٥.

(٧١) : البلاذرى ،انساب ،ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠ ،ابن الاعثم ، فتوح ٥ ص ٢٧٩.

٠٠/٠٠٠

الطاعة ولا يفارق الجماعة ،(٧٢) وبرهن يزيد بعمله هذا عن رغبة صادقة في التفاهم مع عبدالله بن الزبير ،وأخذ البيعة منه بالرفق ،وأشهد على ذلك أفراد الوفد كله ، ومن ثم وقفت الأجناد كلها الى جانب يزيد في حربه ضد أهل المدينة و عبدالله بن الزبير (٧٣) وبالرغم من أن سادات القبائل وأشرافهم بقيت لهم مكانتهم في العهد المرواني (٧٤) الا أن اخراج الامويين وشيعتهم من المدينة ومكة وتوجههم الى الشام ومعركة مرج راهط وما نجم عن ذلك من استخدام للعصبيات دفعت عبدالملك رغبة منه في ابقاء الوحدة الداخلية لما لها من أهمية كبرى في تثبيت دعائم الحكم ، لأن يوسد امارة الاجناد الى أبنائه واخوته ، أو أفراد من الفرع المرواني ،(٧٥) واتبع الوليد أسلوب والده فاسند جند دمشق والاردن وحمص الى ابنائه عبدالعزيز ،وعمر بن الوليد ،وعباس بن الوليد ، أما جند فلسطين فقد ولى عليه أخاه سليمان بن عبدالملك ،(٧٦) وتابع الخلفاء هذا النهج ماعدا عمر بن عبدالعزيز الذي اتبع أسلوب معاوية في تعيين عمال وفق الاكثرية القبلية في المنطقة ، فعين عبيد بن المهاجر المذري على دمشق ،وعبادة بن نسي الكندي على الاردن ، والنضر بن مريم بن ابرهة الصباح على فلسطين ،ويزيد بن حصين السكوني على حمص والوليد بن هشام بن الوليد بن عقبة على قنسرين ،أي أن الولاة كلهم من قبائل يمانية أو قضاعية سوى والي قنسرين . (٧٧)

ونظرا لاعتماد الخلفاء على أمراء البيت الأموي في شوؤن الادارة والحكم وقيادة

---

(٧٢) : ابن الاعثم ،فتوح ،ج ٥ ص ٢٨٠.

(٧٣) : الطبري ،ج ٥ ص ٤٩٣ ،البلاذري ،انساب ،ج ٤ قسم ٢ ص ٣٣ ، اليعقوبي تاريخ ،ج ٢ ص ٢٥١ ،تاريخ الخلفاء لمؤرخ مجهول ،ص ١٩٧ ، ابن الاثير ج ٤ ،ص ١١٢ ،تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ٦٠.

(٧٤) : النويري ،نهاية الارب ج ٢١ ص ١٣١ (زفر بن الحارث وابناؤه هذيل وكوثر) تهذيب ،ج ٥ ص ٣٤٠ (روح بن زنباع الجذامي) ابن عبدربه ج ٣ ص ٣٨٢ ، الطبري ج ٥ ص ٤١٢ (قبيصة بن ذويب الخزاعي) .

(٧٥) : خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٩٣ ، ٣٩٤.

(٧٦) : المصدر السابق ج ١ ص ٤١٧.

(٧٧) : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٥.

../..

الحملات ، أصبح أفراد البيت الأموي يتمتعون بامتيازات متعددة ، فكانت لهم جوائز وأرزاق لحراسهم وقطائع ، (٧٨) وكثر عدد من سكن بدمشق من بني أمية ،وأصبحت منازلهم وقصورهم أكثر منازل دمشق ،(٧٩) كما انتشرت القصور الاموية في بلاد الشام انتشـــارا واسعا ، ولم تكن مقتصرة على منطقة معينة ،بل نجدها تمتد من جنوبي الاردن الحالـي ، الى الجزيرة الفراتية شمالا ،ومن جوف الصحراء شرقا حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط. (٨٠) ولكن الآثار الباقية للقصـور الأموية تعود كلها الى فترة الوليد بن عبد الملك ومابعدهـا ، أى في الفترة التي تحقق فيها المجد السياسي والتوسع الأقصى للدولة الاسلامية شرقـا وغربـا ،وماتبع ذلك من ازدهـار اقتصادى وغنـى مادى ، كما أن كثرة القصــور التي وجدت أطلالها في البادية تشير الى شدة صلة الخلفاء والأمراء من بني أمية بالباديـة ، مما دفع بعض المستشرقين والمؤرخين العرب الى القول بأن الخلفـاء الامويين أولا ثـم امراءهم ورجالات دولتهم ثانيـا تركوا المدن واتجهـوا الى البـاديـة لسـببيـن ، هروبهم من أوبئـة المدن ،ومناخاتها الفاسـدة ، ثم حبهـم للبادية حيث يتعلم الامراء اللغة العربية الفصحى (٨١) بالاضافة الى متعة الصيد الصحراوى ،ويشير كريزول في كتابه ،أن الامويين لم يطمئنوا الى حياة المدن تماما كالعرب البداة ، كما أن غرائزهـم كانت بدويـة ،كما يتكلم عن الحيـاة نصف البدويـة للخلفـاء الأمويـين

---

(٧٨) : ابن عبد الحكم ،سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٥ ؛ ابن قتيبة ،الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٢١ .

(٧٩) : اليعقوبي ، البلدان ص ٣٢٦ .

(٨٠) : فؤاد أحمد طوقـان ،الحائر ،بحث في القصور الاموية ، عمـان ١٩٧٩ ، ص ٥٧ — ١٠٩ .

(٨١) : حتي ،تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ص ٢٣٨ ، عبد الحق ، اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق ، الحوليات الأثرية السورية ، العدد الاول ١٩٥١ ص ٧ .

٠٠/٠٠

المتأخريــن . (٨٢)

أما غرترود بل (Gertrud Bell) فانها حين تتكلم عن تبدى الامويين تقـول : هذه المقرات الصحراوية ، انما هي حاصل طبيعي منطقي لفترة التحـــــول الحضارى التي برز الامويــون خلالها وهي فتــرة الانتقــال الصعب من حياة البـداوة الى حياة الاســتقرار ، هذه المقرّات تشــهد على أن دعــوة القفــار الفســـيحة كانت ملحــة ، تلك الدعــوة التي صــورها بأمانة شــعراء القرن الأول الهجــرى ورواة الأدب ، وقد كانت الصحــراء بالنسبة للعربي أكثر من مكان للســكنى كانــت حامي تقاليـده القديمة ، تلك التقاليـد الاكثر رســوخا من الاســلام نفسه . . . ، ثم تقـول : أما الخلفاء الامويون فقد رجعوا الى ســيرة آبائهم الأولين ، فهربوا الى البادية الى المراعي الربيعيه في البرارى المتصلة ، (٨٣) ان بعض الأسباب التي يذكرها هؤلاء المؤرخون و علماء الآثــار صحيحة ، وبعضها بعيد عن الدقة العلمية ، فالتبدى والهروب من الطاعون والاوبئة عبارات تتردد في مصادرنا العربية ، ففي الطبرى على لســـان أحمد بن زهير أن هشاما كان ينزل الرصافة ، وكان سبب نزوله اياهــا أن الخلفاء وأبنــاء الخلفاء كانوا يتبدون ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجا عن النــاس . (٨٤) كما يذكــر الطبرى في احداث سنة ١٢٦ هـ أن الشام كانت وبية فخرجوا الى البـوادى وكان يزيد بن الوليد متبديا ، كما أن عامل الوليد بن يزيد على دمشق ، خاف الوباء فنزل قطنا. (٨٥)

---

(٨٢) : Creswell. Early Muslim Architecture, Oxford, The Clarendon Press. 2nd. ed. Vol. I PP. 402 - 403.

(٨٣) : Gertrud Bell. Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, The Clarendon Press, 1914, P. 55.

(٨٤) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٢٢ .

(٨٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٠٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ؛ بلاذرى ، فتوح ، ص ١٨٤ ؛ ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ١٠٥ .

../..

أما افتراض علماء الآثار الاسلامية أن الأمويين كانوا بدوا قبل توليهم الخلافة، ولذا كان حنينهم الى الصحراء التي انبتتهم، فان بني أمية في الجاهلية والاسلام كانوا أهل حاضرة ومدنية، كانوا ارستقراطية مكة واكثر شخصياتها أخذا بأسباب الحضارة والمدنية، ولعل الأمويين لم يخرجوا من مكة الآ الى الطائف، (٨٦) التي كانت تعتبر مصيفا لأهل مكة، أما الصحراء فكانت طريقهم الشاقة التي تسلكها قوافلهم، فاذا أتينا الى قضية خروج الامويين الى البوادي طلبا للعربية الفصحى، فقد ارسى علماء اللغة قواعد راسخة بخصوص صفاء اللغة العربية، وقرروا بالاجماع أن الذين ينطقون اللغة العربية الفصحى هي ست قبائل، ثلاث منها رئيسية وثلاث تليها مرتبة من حيث الفصاحة والسلامة في اللغة، وهي قيس وتميم وأسد ثم تليها هذيل، وبعض كنانه، وبعض الطائيين، (٨٧) أي أن علماء اللغة اعتمدوا على كلام القبائل في قلب جزيرة العرب وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الاعاجم. (٨٨) فلم يأخذوا عن غسّان أو تغلب أو اياد لأنهم جاوروا الفرس والروم والسريان. (٨٩) ولم يأخذوا شيئا من أهل اليمن، "لأنهم ذوو لسان ما هو بلساننا" (٩٠) ولو تفحصنا مجموع القبائل المقيمة في البادية الشامية لرأينا أن معظمها من يمن وقضاعة كغسان وكلب، وهؤلاء نقضوا شرطا هاما وهو مجاورتهم للاعاجم،". وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية" (٩١) واعتقد أن التعليل الذي قدمه الدارسون للآثار في سورية للأسباب التي دفعت الامويين الى بناء هذه القصور في أماكن حساسة

---

(٨٦) : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤ ص ١٢.

(٨٧) : السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد صبحي فرزات، استانبول، مطبعة كلية الآداب، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م ص ٢٧، ٢٨.

(٨٨) : سعيد الافغاني، في أصول النحو. دمشق، ١٣٧٠ هـ ١٩٥١م ص ١٥.

(٨٩) : السيوطي، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٩٠) : الجمحي، طبقات الشعراء، ص ٤.

(٩١) : السيوطي، المصدر السابق، ص ٢٨.

../..

من البادية هي أسباب منطقية ، فقد تبين لهم أن هذه القصور كانت تلعب أدوارا عديدة ، منها عمران البادية ، الاشراف على النظام والامن ، وتسهيل السفر بايجاد محطات ومنازل فيها ، كما أن هذه القصور كانت منتجعا للقبائل وزعمائها يلتقون فيها بالخلفاء والامراء الامويين ، الذين كثيرا ماكانوا يحتكون بأمراء القبائل فيحلون مشاكلهم ويختلطون بهم ويتزوجون منهم ليكسبوا قوة في البادية توآزرهم وتحميهم . (٩٢)

ويستنتج سوفاجيه (Sauvajet) بعد مسح أثرى للمواقع الاموية في بوادى حماة وتدمر وحلب والبلقاء وشمال سورية والجزيرة الفراتية أن جميع تلك المنشآت الأموية لها طابع ثابت محدد هو : " قصر تلازمه مجموعة أبنية وتوجد فيه آثار استغلال زراعي " . (٩٣) ويؤكد سوفاجيه على نظريته مستندا الى نصوص تاريخية ، تذكر الاقطاعات التي كان الخلفاء يقتطعونها لأمراء البيت الاموى ولاشراف القبائل وكبار رجالاتها ، ويورد الدكتور عبد العزيز الدورى أمثلة كثيرة من هذا الاتجاه في منح الامراء والاشراف الضياع والاقطاع التي أدت الى ظهور طبقة جديدة من الملاكين الكبار من العرب في الشام وأن الاشراف تحولوا الى ارستقراطية ملاكه . (٩٤) كما أن الدكتور الدورى يشير الى اهتمام القبائل في نهاية العصر الأموى بالزراعة وانتقالهم من ملاكين غائبين أو مقاتلين متمركزين في مراكز معينة الى طور الاهتمام بالزراعة ومزاولتها ، ولئن كانت المشاكل القبلية أيام الرشيد سببا لتعريفنا بهذه القرى ، فان استقرار القبائل على الأرض لم يقتصر على منطقة دمشق بل شمل مناطق أخرى مثل منطقة حمص وفلسطين (٩٥) .

---

(٩٢) : دليل المتحف الوطني بدمشق ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٩٣) : Jean Sauvajet, " Châteaux Omayyades de Syrie, Contribution a l'étude de la Colonisation Arabe aux Ier. et II er. Siecles de l' Hégire, Revue des Etudes Islamiques XXXV 1967, PP. 1 - 52.

(٩٤) : د . عبد العزيز الدورى ، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام ، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، ١٩٧٤ ، ص ٣٠ .

(٩٥) : المصدر السابق ، ص ٣١ .

../..

تميزت الفترة المروانية كذلك بازدياد اعتماد الخلفاء الامويين اما على امراء من الفرع المرواني أو على ولاة من أهل الشام لادارة الولايات ذات الأهمية الكبرى ، فقد عين عبدالملك أخاه بشر بن مروان واليا على الكوفة وخلّف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام ،منهم روح بن زنباع الجذامي . (٩٦) ومين خالدبن عبدالله بن خالد بن أسيد الأموى القرشي على البصرة ثم عزله وضم البصرة لأخيه بشر ، ثم لم يلبث أن ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي الذي يمكن أن نعتبره في عداد أهل الشام بالرغم من أنه ولد ونشأ في الطائف ، الا أنه انتقل الى الشام فلحق بروح بن زنباع فكان في عديد شرطته . (٩٧) ثم مازال يظهر حتى قلده عبدالملك أمر جنده ولذلك فان له دورا بدمشق منها دار الزاوية ،(٩٨) وبعد قتاله على عبدالله بن الزبير ولاه مكة والمدينة والطائف . (٩٩) ثم أصبح واليا على العراق سنة ٧٥ هـ والمشرق كله . ورغم تحامل معظم المصادر على الحجاج ، الا أنها تكاد تجمع على أمانته و عدم تلاعبه بأموال الدولة أو محاباته لأقربائه وأصهاره والمقربين اليه ، وأنه كان يؤثر مصلحة الدولة على أى اعتبار آخر ، (١٠٠) واستطاع الحجاج بعد اخماده لثورات الخوارج ثم لثورة ابن الاشعث في خلافة عبدالملك أن يقطف ثمار جهده الطويل وأصبح العراق ترفرف عليه رايات السلام والهدوء وانصرف الحجاج الى الاصلاح والاعمار لا سيما وأن الفتن والثورات قد خرّبت الكثير ،وأصبح الالتفات الى الناحية العمرانية أمرا ضروريا ،وكان الحجاج كالخليفة الوليد يحب العمران وتحسين الضياع وتنظيم الرى وتعمير الأرض وكرى الترع والانهار وتجفيف المستنقعات ، وقدانتج في هذا الحقل انتاجا خصبا نجد ثبتا موسعا له في الطبرى والبلاذرى ،مما لا ضرورة لذكره هنا ،والكثير من الفتوحات العسكرية التي تمت زمن الخليفة الوليد ، كان الحجاج صاحب الفضل في المبادرة للتمام

---

(٩٦) : المسعودى ، مروج الذهب ،ج ٣ ص ١١٠ .

(٩٧) : ابن عبدربه ، العقدالفريد ،ج ٥ ص ١٤ ،ابن خلدون المقدمة ، ج ٢ ص ٨١٨
ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ١١٢ .

(٩٨) : تهذيب تاريخ دمشق ،ج ٤ ص ٥١ .

(٩٩) : الطبرى ،ج ٦ ص ١٩٣ .

(١٠٠) : احسان صدقي العمد ،الحجاج بن يوسف الثقفي ،بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٧٠ .

../..

بها ،فهو الذى بعث قتيبة بن مسلم الباهلي عامله على خراسان لفتح منطقة ماوراء النهر ،فأتم قتيبة ماندب من أجله ووصل الى حدود الصين ، وهو الذى سير محمد بن القاسم الثقفي لفتح حوض نهر السند بالهند ، كما أنه هو الذى جهز الجيوش وسيّرها للفتح ، وهو الذى كان يجمع الأموال التي تنفق على هذه الجيوش من ولايته وهو الذى كان يحث القادة العسكريين على المضي قدما في غزوهم ويمدهم بآرائه ونصائحه ،وأغلب الظن أنه لولا كل هذا الذى قام به الحجاج لما استطاع عبد الملك وابنه الوليد من بعده أن يسجلا للدولة الأموية في زمنهما كل هذه المفاخر في التوسع واستتباب الأمن ، وقد استمرت ولاية الحجاج على العراق مدة عشرين سنة ومات في خلافة الوليد بن عبد الملك ،وكان المنصور يتمنى لو أن الله هيأ له حكاما كالحجاج في اخلاصه وطاعته للوليد .(١٠١)

لم يكن الحجاج الوالي الشامي الوحيد الذى حكم العراق ،بل ان كل ولاة العراق باستثناء يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ) كانوا من أهل الشام فعدي بن ارطاة الفزارى الذى عينه عمر بن عبد العزيز واليا على البصرة كان من أهل دمشق ،(١٠٢) وكذلك عمر بن هبيرة الفزارى (١٠٣) الشامي الذى ولي العراقين ليزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ) بعد عزل أخيه مسلمة بن عبد الملك .(١٠٤) فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) عزل عمر بن هبيره وعين خالد بن عبد الله القسرى واليا على العراق (١٠٥ - ١٢٠هـ) وكان جده يزيد من صحابة رسول الله قد نزل الشام .(١٠٥) ويذكر ابن عساكر أن خالد بن عبد الله القسرى من أهل دمشق ،

---

(١٠١) : تهذيب تاريخ دمشق ج ٤ ص ٧١ .

(١٠٢) : الزركلي ، الاعلام ج ٥ ص ٨ ، الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٥ ص ٥٣ .

(١٠٣) : الذهبي ،المصدر السابق ،ج ٤ ، ص ٥٦٢ .

(١٠٤) : الطبرى ،ج ٦ ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

(١٠٥) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٧ قسم ٢ ص ١٢٣ .

../..

وداره بدمشق واليه ينسب الحمام الذي يقابل باب قنطرة سنان بباب توما . (١٠٦) واستعمل هشام كذلك جديد بن عبدالرحمن بن عمرو بن الحارث من أهل دمشق على السند وخراسان ، (١٠٧) وولي الحارث بن عمرو الطائي الذي كان قد ولي امرة البلقاء في خلافة عمر بن عبدالعزيز على ارمينيه سنة ١٠٧ هـ وأضاف اليه اذربيجان سنة ١٠٨ هـ (١٠٨) وفي سنة ١٢٠ هـ عزل هشام بن عبدالملك خالد بن عبدالله القسري ، وولى يوسف بن عمر الثقفي الذي كانت منازل أهله في البلقاء ، (١٠٩) على العراق واستمر واليا على العراق وخراسان حتى زمن يزيد بن الوليد بن عبدالملك الذي ولّى منصور بن جمهور الكلبي من سكان المزّة من ضواحي دمشق ، (١١٠) على أن ولا يتعلم تطل اذ أن يزيدا عزله وأرسل عوضا عنه عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز وكان محبوبا من العراقيين وله بين الناس مكانة مستمدة من مكانة أبيه ، (١١١) وكان آخر ولاة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ، (١١٢) من قنسرين ، (١١٣) من رجال مروان البارزين .

أما في مصر ، فكان أول وال شامي عليها سعيد بن يزيد الازدي من أهل فلسطين عيّنه يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ بعد وفاة مسلمة بن مخلد ، فلما قدم سعيد واليا على مصر تلقاه عمرو بن قحذم الخولاني ، فقال : " يغفر الله لأمير المؤمنين أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولي علينا أحدهم " (١١٤) وقد بقي سعيد بن يزيد واليا على مصر حتى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، فلما دعا ابن الزبير لنفسه بعث بعبدالرحمن بن جحدم الفهري فقدمها في طائفة من الخوارج فاعتزلهم سعيد بن يزيد ، وعندما بويع مروان بن الحكم

---

(١٠٦) : تهذيب ج ٥ ص ٧١ ؛ مصعب الزبيري ، نسب قريش ص ٩ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ص ٢٧٩ .

(١٠٧) : تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ٤١٥ .

(١٠٨) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٥٦ .

(١٠٩) : الزركلي ، الاعلام ج ٩ ص ٣٢٠ .

(١١٠) : ابن حزم ، الجمهرة ، ص ٤٢٨ ، الزركلي ، الاعلام ج ٩ ص ٣٢٠ .

(١١١) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٨٤ .

(١١٢) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٣٧٦ .

(١١٣) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٣٧ .

(١١٤) : الكندي ، الولاة والقضاة ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨ ص ٤٠ .

٠٠/٠٠

بالشام في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ سار مروان الى مصر ومعه خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وحسان بن مالك بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني وعدد كبير من أشراف الشام. (١١٥) فدخلها في جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ وجعل ولايتها لابنه عبد العزيز الذي بقي واليا عليها (٢٠) سنة حتى وفاته سنة ٨٥ هـ، (١١٦) واذا تركنا جانبا من ولي مصر من أمراء بني أمية، (١١٧) لوجدنا أن ولاتها الشاميين كثيرون، منهم قرة بن شريك القيسي القنسريني، (١١٨) والذي كان كاتبا للوليد بن عبد الملك، (١١٩) ويعتبر قرة من أقدر ولاة مصر، دخلها في شهر ربيع الاول سنة ٩٠ هـ، (١٢٠) وبقي واليا حتى وفاته سنة ٩٦ هـ، وكان من أهم أعماله تدوين الديوان، وهو التدوين الثالث في مصر وعين يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان الكلبي الدمشقي واليا على مصر سنة ١٠١ هـ، (١٢١) ويعود لبشر هذا الفضل في التدوين الرابع في مصر، وهو الذي رأى افتراق قضاعة في القبائل فكتب الى يزيد بن عبد الملك يسأله الاذن في استخراج من كان في القبائل منهم فيجعلهم دعوة منفردة فأذن له يزيد في ذلك، فأخرج مهرة من كنده، وأخرج تنوخا من الازد وجهينة مع أهل الراية فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة. (١٢٢) وفي سنة ١٠٢ ورد كتاب يزيد

---

(١١٥) : الكندي، ص ٤٢.

(١١٦) : المصدر السابق، ص ٤٩ — ٥٠.

(١١٧) : بالاضافة الى عبد العزيز بن مروان وليها عبد الله بن عبد الملك (الكندي ص ٥٨) ومحمد بن عبد الملك (المصدر السابق ص ٧٢) والحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم وليها لهشام بن عبد الملك ثلاث سنين (المصدر السابق ص ٧٤).

(١١٨) : الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٠، الكلبي، جمهرة النسب ص ١٨٢ / آ.

(١١٩) : النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٣٣٥.

(١٢٠) : الكندي، ص ٦٤.

(١٢١) : تهذيب تاريخ دمشق، ج ٣ ص ٢٤٥، ويبين أن ابن يونس في كتابه تاريخ الغرباء يذكر أنه دمشقي.

(١٢٢) : الكندي ص ٧٠.

../..

بن عبد الملك على بشر بتأميره على افريقيا فاستخلف أخاه حنظلة وهو من أهل دمشق كذلك ، (١٢٣) فأقرّه يزيد ، فلما مات وخلفه هشام بن عبد الملك صرفه سنة / ١٠٥/هـ ،(١٢٤) ثم اعاده سنة ١١٠ هـ (١٢٥) فأقام الى سنة ١٢٤ هـ عندما ورد كتاب هشام بتوليته افريقيا .

وكان أول من دخل افريقيا من أهل الشام في زمن بني أمية حسّان بن النعمان الغسّاني ، (١٢٦) وكان له الدور الاكبر في توطيد الفتح في افريقيا ، فقد استقامت له بعد القضاء على الكاهنه ، (١٢٧) وعمد الى تدوين الدواوين وتنظيم الخراج وفرضه على عجم افريقيا وعلى من أقام معهم على دين النصرانية ، (١٢٨) واتجه الى انشاء قاعدة بحرية جديدة تحل محل قرطاجنة ويتوافر لها الحماية والابتعاد عن غارات البيزنطيين ، وهذه القاعدة البحرية هي تونس التي تتميز بأنها غير مفتوحة على البحر مثل قرطاجنة ، (١٢٩) ولم يكتف حسّان ببناء مدينة تونس وانما طلب من عبد الملك بن مروان أن يرسل اليه من مصر دار الصناعة بتونس ويعلم المسلمين صناعة السفن في المغرب ، فكتب الخليفة عبد الملك الى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه لتونس الف قبطي بأهله وولده ، وأن يعطيهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش أى تونس . (١٣٠) وأكمل موسى بن نصير ، (١٣١) فتح المغرب كله وفتح الاندلس وساهم موسى في نشر الاسلام في المغرب الأقصى ، فترك في

---

(١٢٣) : تهذيب ج ٥ ص ١٤ .

(١٢٤) : الكندى ص ٧٢ .

(١٢٥) : المصدر السابق ص ٨٠ .

(١٢٦) : المالكي ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقيا ، تحقيق حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م ص ٣١ .

(١٢٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٧٣ . المالكي ، رياض النفوس ص ٣١ ، ٣٢ ، ابن عذارى ج ١ ص ٣٣ .

(١٢٨) : ابن عبد الحكم ص ٢٠١ ، ابن عذارى ج ١ ص ٣٩ .

(١٢٩) : سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، دار المعارف بمصر ، ص ٢٠٢ .

(١٣٠) : ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ، ١٣٨٦ هـ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(١٣١) : موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي ، المختلف على أصله بين عربي صريح أو مولى . كان أبو نصير على حرس معاوية (ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٢٤) ونشأ موسى في دمشق وكان على خراج البصره ثم التحق بعد ذلك بعبد العزيز بن مروان (ابن عذارى ج ١ ص ٣٢) ، (الاعلام ج ٨ ص ٢٨٥) .

. . / . .

في طنجة سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الاسلام ،(١٣٢) وعمد موسى كذلك الى توسيع دار الصناعة وشق القناة التي توصل بين ميناء رادس وبين تونس على طول اثني عشر ميلا ، وبفضل تلك القناة أصبحت المدينة مشتى للمراكب تحميها من العواصف والانواء ، (١٣٣) كما أنه أمر بصناعة مائة مركب ، (١٣٤) واهتمام ولاة بني أمية بدار الصناعة بتونس هو الذى مهّد وساعد على غزو صقلية في أيام زيادة الله الأول بن ابراهيم الاغلبي . (١٣٥)

وقد رأينا أن بشر بن صفوان ولي افريقيا سنة ١٠٣هـ ، وعندما وفد سنة ١٠٥هـ على يزيد بن عبد الملك وجده قد هلك ، فردّه هشام سنة ١٠٥ هـ الى افريقيا حيث بقي واليا حتى وفاته سنة ١٠٩ هـ فكانت ولايته سبع سنين ، وكان من أهم أعماله غزوه لصقلية ، (١٣٦) ثم عين هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلّمي وهو ابن أخي ابي الأعور السلمى صاحب خيل معاوية بصفين ، فقدم افريقيا سنة ١١٠ هـ وعزل سنة ١١٤هـ حيث توجه الى الشام بهدايا وتحف عظيمة ، (١٣٧) وعندما انتقض البربر سنة ١٢٢هـ في ولاية عبيد الله بن الحبحاب أرسل هشام كلثوم بن عياض القشيرى أمير مدينة دمشق واليا على افريقيا والمغرب ، فلما قتل في المعركة التي قادها ضد البربر بعث هشام الى افريقيا سنة ١٢٤هـ حنظلة بن صفوان الكلبي عامله على مصر منذ سنة ١١٩ هـ حيث استطاع القضاء على الخوارج في معركتين هما معركتا القرن والأصنام ، وبقي واليا حتى دعا عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الى نفسه ، وأراد حنظلة الخروج اليه والزحف لقتاله ، ثم كره قتال المسلمين ، اذ أنه كان كما يقول ابن عذارى ، ذا ورع ودين فترك افريقيا سنة ١٢٩ هـ . (١٣٨)

---

(١٣٢) : ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٣٢ .

(١٣٣) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٥٧ .

(١٣٤) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧ .

(١٣٥) : المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ٥ .

(١٣٦) : ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ .

(١٣٧) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٥ .

(١٣٨) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٢ .

../..

وهكذا نرى كثرة الولاة من العرب الشاميين في العراق ومصر وافريقيا ودورهم الكبير في التنظيم والادارة ، والفتوح وعمران الارض ونشر الاسلام في ربوع الدولة الاسلامية وفي دعم حكم بني أمية فيها .

الموالـــي :

الموالي في نظر مؤرخي التاريخ الاسلامي هم المسلمون من غير العرب ، فكان كل فرد من غير العرب من أبناء الدولة الاسلامية يصبح مولى اذا اعتنق الاسلام ويقف على قدم المساواة مع أخيه العربي المسلم لا فرق بينهما ولا فضل لأحدهما على الآخر الا بالتقوى ، وقد تجلت معالم المساواة بين العرب والموالي منذ فجر تاريخ الدولة الاسلامية عندما فرض عمر بن الخطاب لسلمان الفارسي في أربعة آلاف درهم وفرض للهرمزان في الفين من العطاء . (١٣٩) كما فرض عمر لكبار دهاقين فارس والعراق الذين أسلموا ، تقديرا لخدماتهم للدولة الفتية ، (١٤٠) وكتب عمر بن الخطاب الى أمراء الأجناد " ومن اعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ماعليهم ، وان أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوة في العطاء . (١٤١) وعندما بلغ عمر بن الخطاب أن قوما قدموا على عامل فأعطى العرب وترك الموالي ، كتب اليه " أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام " (١٤٢) أي أن عامل العطاء كان له دوره في تحديد المساواة بين العرب والموالي وتحديد مكانتهم الاجتماعية ، فالى أي مدى طبقت هذه المساواة في الشام في العصر الأموي .

الروايات المتعلقة بالموالي في الشام محدودة اذا قيست بتلك المتعلقة بالعراق والجناح الشرقي ، ذلك أن القبائل العربية المتنصرة كانت تشكل نسبة لا

---

(١٣٩) : البلاذري ، فتوح ص ٤٤٣ .

(١٤٠) : المصدر السابق ص ٤٤٢ .

(١٤١) : المصدر السابق ص ٤٤٤ .

(١٤٢) : المصدر السابق ص ٤٤٣ .

../..

يستهان بها كما رأينا ، وعندما دخل أفراد هذه القبائل بالاسلام أصبحت مرتبتهم كالعرب المسلمين سواء بسواء ، ومن أسلم من أهل الذمة من غير العرب على أرض الخراج رفعت الجزية عن رأسه وانتقلت أرضه الى أصحابه من أهل قريته يؤدون خراجها عنها وأسلموا له ماله ورقيقه وفرضوا له في ديوان المسلمين . (١٤٣) وهؤلاء كانت نسبتهم قليلة لأن دخولهم في الاسلام كان بطيئا كما سنشير الى ذلك أثناء الكلام من أهل الذمة ، أما الروايات القليلة التي تشير الى الروم الذين دخلوا في الاسلام فليس فيها ما يوحي بأنه كان يستهان بهم وليس فيها اشارات الى أنهم نظموا حياتهم الاجتماعية في بادئ الأمر بالانضمام الى أقوى القبائل العربية كما فعل الاساورة مثلا الذين انضموا الى بني تميم لأنهم أقرب الأحياء نسبا الى رسول الله ،(١٤٤) وانما كونوا قبيلة وحدهم ،واذا اعتمدنا رواية الواقدى ، نجد أن حاكم قلعة حلب دخل في الاسلام ودخل معه من كان يخدمه بحلب وأن ثلاثة آلاف فارس من فرسان الروم قد دخلوا في الاسلام واشتركوا في فتح الساحل ،(١٤٥) ودخل مع عمرو بن العاص من الشام قوم من العجم يقال لهم الحمراء وهم قوم من الروم فيهم بنو ينة ، وبنو الأزرق ، وبنو روبيل ،فنزل هؤلاء كما يقول ابن عبد الحكم الحمراء التي بالقنطرة (١٤٦) ويبدو أن الجماعات الفارسية التي أسكنها معاوية الساحل الفت قبائل وحدها كذلك ، اذ ليست لدينا اشارات الى انضمامهم الى قبائل عربية ،وهذا دليل على عدم لجوء كل المسلمين من غير العرب الى الولاء في الشام منذ البدء ،بعكس ما حدث في العراق ، فهل يعني ذلك أن هؤلاء المسلمين كانوا يشعرون من جهة أن سيطرة الدولة واعتبارها الضمان للمشاركة

---

(١٤٣) : ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،المجلدة الاولى ص ٥٩٣ .

(١٤٤) : البلاذرى ،فتوح ص ٣٦٦ ،الطبرى ج ٤ ص ٩٠ ،ويذكر البلاذرى في صدد الحديث من تمصير الكوفة أنه كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شاهنشاه ، فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء ، فأعطوا الذى سألوه ،وحالفوا زهرة بن حوية السعدى من بني تميم ، وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في الف الف .

(١٤٥) : الواقدى ،فتوح الشام ج ٢ ص ١٧ .

(١٤٦) : ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ص ١٢٩ .

../..

كان أقوى في الشام منه في العراق ،وأن العصبية القبلية كانت متغلغلة في الشام ، وأن قيم المبادئ الاسلامية التي تؤكد على المساواة كانت واضحة جلية فيها (١٤٧) ؟ هذا فيما يتعلق بالجماعات ، أما الأفراد فكان منهم من يلجأ الى الولاء ومنهم من لا يلجأ ، حين فتح دمشق وأصبح اسمه أبا سعيد القرشي مولى خالد بن الوليد فالادركون كان قسيسا أسلم على يد خالد بن الوليد/والى أحد أحفاده سنان تنسب قنطرة سنان بنواحي باب توما (١٤٨) بينما نجد أن أبا عبد رب الزاهد كان روميا اسمه قسطنطين ، فلما أسلم تسمّى عبد الرحمن ، (١٤٩) ويبدو أن موالي العتاقة هم الذين كانوا يحطون اسم عشيرة سيدهم مرفقة بكلمة مولى اشارة الى أن رابطتهم هي رابطة اجتماعية لا رابطة دم ، (١٥٠) وأغلب الظن أن نسبة كبيرة من الموالي في الشام كانوا موالي عتاقة ،اما من الرقيق الذى كان موجودا قبل الفتح أو من الرقيق الذى كان يؤلف الخمس من الاسرى أو السبي والذى كان يرسل الى المدينة أولا ثم الى دمشق بعد أن أصبحت عاصمة للدولة الاسلامية ، ولذلك فان هؤلاء كانوا من أصول مختلفة ،فارسية ،رومية ،بربرية ، تركية ، وكان لموالي العتاقة مكانتهم عند خلفاء وامراء بني أمية ،فهذا أبو حفصة يزيد من سبي اصطخر اشتراه عثمان فوهبه لمروان بن الحكم ،فشهد أبو حفصة الدار مع مروان ، (١٥١) فلما جرح يومئذ احتمله أبو حفصه وداواه حتى برئ ، فأعتقه مروان وزوجه أم ولد يقال لها سكر ،

---

(١٤٧) : عندما يتكلم الدكتور عبد العزيز الدوري عن الموالي في العراق يشير الى أن ظاهرة عدم اللجوء الى الولاء هي ظاهرة بدأت في العصر الأموي في العراق وليس كما هو الأمر في الشام . مقدمة في التاريخ الاقتصادي ،بيروت ، ١٩٦٩م ص ٤٢ ، ٤٣ .

(١٤٨) : ياقوت الحموي ،معجم البلدان ،ج ٤ ص ٤٠٦ .

(١٤٩) : أبو زرعة ،تاريخ ابي زرعة ،ج ١ ص ٢٤٧ ، ٣٦٨ .

(١٥٠) : كتب عمر الى بعض عماله : الموالي ثلاثة ،مولى رحم ، ومولى عتاقه ، ومولى عقد ، فمولى الرّحم يرث ويورث ، ومولى العتاقه ،يورث ولا يرث ،ومولى العقد لا يرث ولا يورث وميراثه لعصبته . (ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،ج ٤ ص ٤٣٦).

(١٥١) : الطبرى ،ج ٤ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

../..

كانت له منها بنت يقال لها حفصة ، فحضنها فكني أبو حفصة ، فحفصة بنت مروان ، وكان مروان اذا ولي المدينة وجه أبا حفصة الى اليمامة ، وكانت مضافة الى المدينة ليجمع مافيها من المال ويحمله اليه ، (١٥٢) وكان لأبي حفصة مولى مروان بن الحكم ابن يقال له مروان وكان شجاعا مجرّبا أمدّ به عبدالملك بن مروان الحجاج وقال له : قد بعثنا اليك مولاى ابن أبي حفصة ، وهو يعدل الف رجل فشهد معه محاربة ابن الاشعث ، فأبلى بلاء حسنا وعقرت تحته عدة خيول ، فاحتسب بها الحجاج عليه من عطائه ، فشكاه الى عبدالملك ، فعوّضه ماكان أغرمه الحجاج ، (١٥٣) وعندما خطب يحيى بن أبي حفصة الى مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى ، ابنته وأخته ، أنعم له بذلك ، وبعث الى بنيه سليمان وعمر وجميل فزوجهن بنيه ، (١٥٤) وكان ميمون الجرجماني عبدا روميا لبني أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان وهم ثقفيون ، وانما نسب الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم ، فبلغ عبدالملك عنه بأس وشجاعة ، فسأل مواليه أن يعتقوه ، ففعلوا فعهد اليه بقيادة جماعة من الجند وصيره بأنطاكية ، فغزا مع مسلمة بن عبدالملك وهو على ألف من أهل انطاكية ، (١٥٥) واعتمد سحيم بن المهاجر في القضاء على ثورة الجراجمة في جبل اللكام في خلافة عبدالملك بن مروان بجيش من موالي عبدالملك وموالي بني أمية بالاضافة الى جند من ثقات جنده ، (١٥٦) وأرسل عبدالملك أربعين رجلا من أهل فرغانه مع رجل من بصرى للقبض على الحارث الكذّاب الذى ادّعى النبوة وطلب منهم أن ينطلقوا معه ويطيعوه ، (١٥٧) وفي رواية عن ابن لهيعة أن معاوية فرض للموالي خمسة عشر

---

(١٥٢) : الأغاني ، ج ١٠ ص ٧٥ .

(١٥٣) : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٧٥ .

(١٥٤) : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٧٥ .

(١٥٥) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥٥ .

(١٥٦) : ابن الاثير ، ج ٤ ص ٣٠٤ .

(١٥٧) : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٢٤ .

../..

فيلغ ... عبد الملك عشرين ثم بلغ بهم سليمان خمسة وعشرين ، ثم قام هشام فأتم للأبناء منهم ثلاثين . (١٥٨) وأغلب الظن أن هذا المبلغ هو بالدينار وأنه فريضة موالي العتاقة ،فعن أبي بكر بن أبي مريم أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء غير انه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين دينارا ، (١٥٩) وفي تاريخ أبي زرعة أن عمر بن عبد العزيز أجرى على عمرو بن المهاجر كل شهر عشرين دينارا ،وعمرو بن المهاجر مولى أسماء ابنة يزيد بن السكن الانصارى ،(١٦٠)مولى الانصار ، وهذا يشير الى أن موالي العتاقة كانوا يأخذون العطاء اذا سجلوا في ديوان المقاتلة ، وكان هؤلاء يسجلون ضمن القبائل التي ينتسبون اليها ،فعن رجاء بن حيوة أنه قال : أنا ممن أنعم الله عليه بالاسلام وعدادى في كندة ، (١٦١) وكان مكحول فيمن افترض في العطاء فكان يأخذه ويتقوى به على جهاد العدو. (١٦٢) وكان بكير بن ماهان من موالي بني مسلية يسكن الاردن من الشام وكان من أهل الديوان قبل أن يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت،(١٦٣)وألحق الاوزاعي في الديوان وضرب عليه بعث الى اليمامة وهناك التقى بيحيى بن أبي كثير فقرر متابعة علمه فترك الديوان . (١٦٤)

كان للفقهاء من الموالي مكانة كبيرة لدى الخلفاء ،والامراء وأهل

---

(١٥٨) : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ،ج ٤ ص ٤٠ .

(١٥٩) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٥ ص ٢٧٧ .

(١٦٠) : أبو زرعة ،تاريخ ،ج ١ ص ٢٧٧ .

(١٦١) : المصدر السابق ،ج ١ ص ٣٣٧ .

(١٦٢) : المصدر السابق ،ج ١ ص ٣٢٨ ،ابن سعد ،الطبقات ،ج ٢ قسم٢ ص ١٦١ ، ومكحول الدمشقي من أهل كابل وكان لعمرو بن سعيد بن العاص فوهبه لرجل من هذيل بمصر فأعتقه .

(١٦٣) : أخبار الدولة العباسية ،أخبار العباس وولده ،تحقيق د . عبد العزيز الدوري ، د . عبد الجبار المطلبي ، بيروت ص ١٩١ .

(١٦٤) : الذهبي ،سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ١٠٩ ،يعتبر محمد بن سعد ،الاوزاع بطن من همدان وان الاوزاعي هو من أنفسهم ،أما البخاري ،والهيثم بن خارجة فيرون أنه لم يكن من الاوزاع بل نزل فيهم ويذكر أبوزرعة الدمشقي أن أصله من سبي السند ، وأنه ولد سنة ٨٨ هـ ،الذهبي ،ج ٧ ص ١١٦ .

../..

الشام ، فهذا رجاء بن حيوة مولى بني كنده ، (١٦٥) كان زاهد بني أميه وهو الحاكم في دولتهم برأيه (١٦٦) ومن مسلمة بن عبد الملك ان في كنده لثلاثة ان الله عزوجل ينزل بهم الغيث وينصر بهم الاعداء ، رجاء بن حيوة ، وعباده بن نسي ، وعدى بن عدى ، وكان رجاء بن حيوة يعتبر سيد أهل فلسطين ، كما اعتبر عبادة بن نسي سيد أهل الاردن ، وعدى بن عدى سيد أهل الجزيرة. (١٦٧)

وكان ميمون بن مهران عالم الجزيرة ومفتيها اعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة فنشأ بها ثم سكن الرقة ، (١٦٨) وكان يعتبر مع مكحول والحسن البصري والزهري علماء الناس في زمن هشام بن عبد الملك ، وكل هؤلاء الفقهاء من الموالي الا الزهري ، وعندما اتهم الزهري بأنه لا يحدث من الموالي قال : اني لأحدث عنهم ، ولكن اذا وجدت أبناء أصحاب رسول الله (صلعم) من المهاجرين والانصار فما أصنع بغيرهم ، (١٦٩) أى أن الزهري يؤمن بأن المكانة الأولى في نقل الحديث انما هي لأبناء المهاجرين والأنصار ومن ثم للفقهاء من الموالي .

ازداد الاعتماد في الشؤون الادارية ولا سيما في الدواوين على الموالي في الفترة المروانية ، فكان أبو الزعيزعة مولى عبد الملك على الرسائل وسليمان بن سعد مولى خشين على الخراج والجند بعد أن ترجم ديوان الشام الى العربية ، (١٧٠) وبقي سليمان بن سعد على الخراج والجند في خلافة الوليد وسليمان ابني عبد الملك ، (١٧١) وكان جناح مولى الوليد بن عبد الملك على الرسائل ، وعمرو بن الحارث مولى عامر بن لؤى على الخاتم ، ثم جمع الوليد لجناح مولاه الرسائل والخاتم ، (١٧٢) وكان ليث بن أبي رقية مولى ام الحكم بنت أبي سفيان كاتب الرسائل للخليفة سليمان بن عبد الملك ،

---

(١٦٥) : أبو زرعه ، تاريخ ، ج ١ ص ٣٣٧ .
(١٦٦) : العيون والحدائق ج ٤ ص ٣٨ ، ٩٠ .
(١٦٧) : أبو زرعة ، المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٧ ، الذهبي — سير اعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٢٤
(١٦٨) : الذهبي — المصدر السابق ، ج ٥ ص ٧١ .
(١٦٩) : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤٤ .
(١٧٠) : خليفه بن خياط — تاريخ — ج ١ ص ٣٩٥ .
(١٧١) : المصدر السابق ج ١ ص ٤١٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ .
(١٧٢) : المصدر السابق ج ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

../..

ونعيم بن أبي سلامة مولى لأهل اليمن على الخاتم و عبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لؤي على بيوت الأموال والرقيق والنفقات . (١٧٣) وبقي الليث بن أبي رقية كاتبا للرسائل في خلافة عمر بن عبد العزيز ، (١٧٤) ثم أصبح سالم مولى سعيد بن عبد الملك كاتب الرسائل في خلافة هشام بن عبد الملك ، وعبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول على الخراج والجند ، ثم ولاه خراج مصر وجعل مكانه سعيد بن عقبة مولى بني الحارث بن كعب ، وعلى الخاتم الربيع بن شابور مولى بني الحريش ، وعلى الخاتم الصغير والخاصة اصطخر ابو الزبير مولاه ، (١٧٥) وكان من أشهر من نبغ من الكتاب الموالي عبد الحميد يحيى بن سعد العامري بالولاء المعروف بالكاتب وتلميذ سالم مولى هشام بن عبد الملك . (١٧٦)

كذلك ازداد اعتماد الخلفاء على الموالي الشاميين في ادارة ولاية افريقيا ، فقد عين سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش من الشام واليا على افريقيا ، فكانت ولايته سنتين وأشهر وسار كما يقول ابن عذارى " احسن سيرة وأعدلها في افريقيا ." (١٧٧) وفي سنة ١٠٠ هـ . ولى عمر بن عبد العزيز اسماعيل بن أبي المهاجر ، أبو عبد الحميد الدمشقي مولى بني مخزوم ، (١٧٨) ولاية افريقيا " وبها من بها من قريش وغيرهم " (١٧٩) وكان قبل ذلك مؤدبا لاولاد عبد الملك من عاتكة ، يزيد ومعاوية ومروان ، (١٨٠) وكان من أهم أعماله حرصه على نشر الاسلام بين البربر ، حتى أسلم بقية البربر بافريقية على يديه ، كما أنه علم أهل افريقيا الحلال والحرام وبعث معه عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين أهل علم وفضل . (١٨١)

---

(١٧٣) : خليفة بن خياط ج ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

(١٧٤) : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٨ .

(١٧٥) : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٤٥ .

(١٧٦) : الذهبي - سير اعلام النبلاء ج ٥ ص ٤٦٢ .

(١٧٧) : ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤ ، ٤٥ .

(١٧٨) : الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢١٣ ، ابوزرعة ، ج ١ ص ٣٢٨ .
ابن عذارى ج ١ ص ٤٥ .

(١٧٩) : ابوزرعة ، ج ١ ص ٣٤٨ .

(١٨٠) : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٨ .

(١٨١) : ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٦ .

../..

وفي خلافة هشام بن عبد الملك أصبح عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول ،(١٨٢) عاملا على الخراج في مصر وظل عاملا على الخراج الى أن عين واليا على افريقيا سنة ١١٦ هـ(١٨٣) وقد امتد نفوذه الى عزل الولاة في مصر وتوليتهم برضى الخليفة ، (١٨٤) ويعود لعبيد الله بن الحبحاب الفضل في نقل قيس الى مصر سنة تسع ومائة ، (١٨٥) ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك ، الا ماكان من فهم وعدوان ، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل الي مصر منهم أبياتا فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على الا ينزلوهم الفسطاط ، (١٨٦) وقد ساعد وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالي ، وكان لهذا الاختلاط أثره في انتشار الاسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالاة بينهم وبين الأهالي ، ولذلك يقول المقريزى " ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما انزل عبيد الله بن الحبحاب قيسا بالحوف الشرقي ، فلما كان بالمائة الثانيه من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . (١٨٧) ويرى لين بول (Lane Poole) ان الذى دعا عبيد الله بن الحبحاب الى احضار قيس الى مصر هو ماراه من عدم انتشار الاسلام بين الاقباط . (١٨٨)

وعندما قدم عبيد الله بن الحبحاب افريقيا واليا ، أرسل حبيب بن أبي عبيده على رأس جيش الى السوس وأرض السودان ، كما يبدو أنه قام بعمليات تنظيمية في المغرب الأقصى بتقسيمه الى قسمين ، السوس الأدنى وهو طنجه وماوالاها والسوس الأقصى في الجنوب . (١٨٩)

---

(١٨٢) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٤٥ .
(١٨٣) : ابن عذارى ج ١ ص ٥٠ .
(١٨٤) : الكندى ، ص ٧٤ ، ٧٥ .
(١٨٥) : المقريزى ، الخطط ج ١ ص ١٤٦ .
(١٨٦) : الكندى ص ٧٦ ، ٧٧ ، المقريزى ، الخطط ج ١ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(١٨٧) : المقريزى ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، القاهرة ١٣٥٦ هـ ص ٥٠ - ٥١ .
(١٨٨) : Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, P. 28.
(١٨٩) : ابن عبد الحكم - فتوح مصر ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

../..

وهكذا نرى أن الولاة من الموالي الشاميين قد حققوا كالولاة الشاميين من العرب الكثير في مجال التنظيم الاداري وميدان نشر الاسلام ،كما يتبين لنا بالاستناد الى الروايات التي بين أيدينا على قلتها المكانة التي كانت للموالي في الشام ، ولم يكن الأمر يختلف في العراق عما هو في الشام بالرغم من أن عددا من المستشرقين ومن مؤرخينا العرب المحدثين قد حاولوا البرهنة بالاعتماد على روايات وأخبار متفرقة وردت في العقد الفريد وبعض الأخبار القليلة المبعثرة في كتاب الأغاني أو في مصادر أخرى أن الأمويين كانوا يتعصبون للعرب وأن الموالي كانت طبقة مستغلة مضطهدة محتقرة، (١٦٠) هذه الأخبار في الواقع تسجل حالات فردية لا يمكن أن نستخرج منها قاعدة تصف سياسة الدولة أو الرأى العام ، كما أن جل الأخبار الوارده كما يقول الدكتور الدوري هي أخبار تتصل بالبيئات القبلية ومفاهيمها ،وهي بيئات لا تحترم الحرف اليدوية والفلاحة ،وتعتز بالفروسية وبفن القتال ، وطبيعي أن تكون نظرة هؤلاء الى الموالي من فلاحين وصناع نظرة لا تتسم بالاحترام (١٦١) ثم اننا يجب أن لا ننسى كثرة الموالي في العراق ،فقد كان عددهم في الكوفة

---

(١٦٠) : ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،ج ٣ ،باب المتعصبين للعرب ص ٤١٢ ، ٤١٧ .

Von Kremer, Kulture Geschichtlische Streifzuge auf dem Gebeit des Islames, Calcutta, 1950, PP. 78 - 82 .

Brown, A Literary History of Persia, London, 1959, PP. 232 - 240 .

فان فلوتن ،الشيعة والاسرائيليات ،لاسيما صفحات ٢١ ومابعدها ،و ٣٥ وما بعدها عندما يتكلم عن أوضاع الموالي السياسية والاجتماعية .

جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ،ج ٢ ،ص ٢١ ،ج ٤ ص ٥٨ - ٦١

فيليب حتي ،تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٢٩٦ - ٣٠٠ .

الخربوطلي ،تاريخ العراق في ظل الحكم الاموى في بحث الموالي خاصة ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ،ج ١ ص ١٣ ، ١٤ ، ص ١٤٧ ومابعدها ، ص ٢٦٢ ، بعنوان تعصب الامويين للعرب .

(١٦١) : د. عبد العزيز الدوري ،مقدمة في التاريخ الاقتصادى ص ٤٢ .

../..

زمن معاوية ٢٠ ألفا ،(١٩٢) ولا شك أن هذه الاعداد قد ازدادت مما جعل العرب يشعرون في قرارة نفوسهم أن معظم الموالي لم يعتنقوا الاسلام لاقتناعهم بمبادئه القويمة ، ولكن لمصالح شخصية ذاتية ،ولذا لم يقتنع العرب بما نادى به الموالي أن اسلامهم قد ساواهم بالعرب وشعروا أن ازديادهم ومساواتهم بالعرب قد يشكل خطرا عليهم يتهددهم ، هذا مانفهمه من قول ابن مطيع عامل عبدالله بن الزبير على الكوفة " وانما ذهب عزكم وسلطانكم وتغيّر دينكم حين يكثرون" . (١٩٣)

أما ولاة بني أمية فقد اعتمدوا على الموالي في وقت مبكر ، فهذا زياد بن أبيه يكتب الى معاوية يوصيه باستخدامهم لأنهم أنصر وأعفر وأشكر، (١٩٤) كما استخدمهم في جباية الخراج ، وكذلك فعل عبيدالله لأنه وجد الدهاقين " أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون على المطالبة" .(١٩٥) وعين الحجاج صالح بن عبدالرحمن على ديوان الخراج بعد أن عرّبه ،(١٩٦) كما ولىّ سعيد بن جبير القضاء. فلما ضج أهل الكوفة وقالوا : لا يصلح القضاء الا لعربي ،ولى أبا بردة وأمره ألا يقطع أمرا دونه ، (١٩٧) وجعله كاتبا ووزيرا له ،(١٩٨) ولكن أهل الكوفة يقبلون بعد ذلك بعامر الشعبي قاضيا في خلافة عمر بن عبدالعزيز ،كما أن الحسن بن أبي الحسن البصري تولى قضاء البصرة في هذه الفترة ،وكلاهما من الموالي ، (١٩٩) وكانت منزلة الكتاب ورجال العلم من الموالي محترمة حتى في الاوساط القبلية ،فقد عاش الحسن البصري عيشة الزعماء في البصرة ،ولقي احترام الجميع واجلال السلطة ورجالها ،

---

(١٩٢) : الدينوري ،الاخبار الطوال ص ٢٨٨ .

(١٩٣) : الطبري ،ج ٦ ص ٢٥ .

(١٩٤) : البلاذري ،انساب ،ج ٤ قسم ١ ص ٢٣ .

(١٩٥) : المصدر السابق ،ج ٤ قسم ٢ ص ١٠٩ .

(١٩٦) : البلاذري ،فتوح ص ٢٩٨ ،وكان ابوصالح من سبي سجستان .

(١٩٧) : البلاذري ،انساب ،ج ٤ قسم ١ ص ٣٩ .

(١٩٨) : ابن قتيبة عيون الأخبار ،ج ١ ص ٦٢ ،ابن خلكان ،ج ١ ص ٢٠٥ .

(١٩٩) : الطبري ،ج ٦ ص ٥٥٤ .

../..

ويذكر ــــــــــــــــــــــ لكان أنه عندما توفي الحسن البصري تبع الناس كلهم جنازته ، واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر بالجامع ، ولا أعلم كما يقول" أنها تركت منذ كان الاسلام الا يومئذ لأنهم تبعوا كلهم الجنازه ولم يبق من يصلي العصر" (٢٠٠) والأمثلة على الاحترام الذي كان يلاقيه الموالي من العلماء كثيرة يكفي أن نقرأ كتب الرجالات حتى نتبين أن مكانة هؤلاء العلماء كانت واحدة سواء كان العالم الفقيه عربيا أو مولى .

واذا كانت لدينا روايات تشير الى أن اشراف الكوفة كانوا يرفضون اشراك موالي العتاقة في الديوان ، فليس معنى هذا أن موالي العتاقة لم يكونوا يسجلون أو لم يكن يفرض لهم ، فقد ورد في البلاذري أن عبيدالله بن زياد سبى خلقا من أهل بخارى وأنه أسكنهم البصرة وفرض لهم . (٢٠١) كما أننا عندما نقرأ بأن الحجاج بعث الى شبيب الخارجي ، أبا الضريس مولى بني تميم في ألف من الموالي ، (٢٠٢) وأن الحجاج عمل على أن يسقط ديوان الموالي لاشتراكهم في ثورة ابن الاشعث ، (٢٠٣) فاننا لا نستطيع أن نفترض بأن هؤلاء الموالي كلهم كانوا موالي حلف وأنه ليس بينهم موالي عتاقة ، أما في المشرق فاننا اذا استثنينا الحكام المحليين الذين أسلموا واستمروا يمارسون سلطانهم تحت اشراف العمال العرب ، والذين يمكن أن نفترض بأنهم كانوا يعتمدون على أبناء المنطقة في تسيير شؤون ادارتهم ، فان القادة العرب اعتمدوا على رجال من الموالي من أصحاب الرأي والمشورة مثل الفضل بن بسام مولى بني الليث ، وعبدالله بن أبي عبدالله مولى بني سليم والبختري بن مجاهد مولى بني شيبان ، (٢٠٤) وكان البختري مستشار نصر بن سيار وكاتبه وصاحب أمره ، (٢٠٥) وكان هارون بن السياوش قائد خراسان ، (٢٠٦) ونيزك

---

(٢٠٠) : ابن خلكان ج ١ ص ١٢٩ .

(٢٠١) : البلاذري ، فتوح ص ٣٦٩ ، ٤٠١ ، الطبري ، ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٢٠٢) : ابن ابي الحديد ، ج ٤ ص ٢٤٨ .

(٢٠٣) : ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج ٤ ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

(٢٠٤) : الطبري ، ج ٧ ص ٧٩ .

(٢٠٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٥٥ / ١٥٩ / ٣٨٤ .

(٢٠٦) : المصدر السابق ج ٧ ص ١٧٦ / ١٩٥ .

../..

بن صالح حاكم الشاش من الموالي ، (٢٠٧) وفي ولاية قتيبة على خراسان وجد مايزيد من ٣٠ ألف مقاتل عربي وسبعة آلاف من الموالي وعليهم حيان النبطي مولى بني شيبان ،(٢٠٨) وليس هناك اشاره الى أن هؤلاء المقاتلة من الموالي لم يكن لهم عطاء والا لذكر ذلك .

ثم ان الثورات التي قامت في العصر الاموي في الشرق هي ثورات عربية ولا نجد ثورة للموالي تستحق الذكر قامت تحت رايتهم أو بدعوتهم وانما شارك فيها الموالي مع حلفائهم (مواليهم) او مع رؤساء قادة الاحزاب ، ولذلك فاننا عندما ندرس الروايات التاريخية يجب علينا أن ننتبه الى اختلاطها في مطلع القرن الثاني للهجرة بسبب ظهور الفرق الدينية السياسية ونشوب الفتن بين المسلمين ، كما يجب الانتباه كما يقول الدكتور فاروق عمر الى مبالغات الشعوبية ومغالطاتها ، وبالرغم من أننا لا ننكر وقوع حالات من الضغط الاقتصادي والتمييز الاجتماعي الا أنها لم تكن في الحقيقة تدل على الوضع العام للموالي فقط لأنها أصابت العجم الضعفاء كما أصابت العرب الضعفاء كذلك . (٢٠٩)

أهل الذمـة :

أهل الذمة هم الذين شملهم الاسلام من النصارى واليهود بعهده وأمانه ثم اولئك الذين طبق عليهم المسلمون فيما بعد قواعد ونظام أهل الذمة ، وكان الرسول أول من طبق عليها قواعد نظام أهل الذمة على النصارى واليهود في الحجاز ثم على مجوس البحرين ، اذ فرض الجزية على النصارى واليهود ثم قررها أيضا على المجوس قائلا : " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " (٢١٠) وكانت الجزية مقابل المنعة وتعهد المسلمين بالمحافظة على أرواح السكان وأموالهم ودياناتهم واعفائهم من الخدمة العسكرية ، ولم تكن كما يحاول

---

(٢٠٧) : الطبري ، ج ٧ ، ص ١٧٧ .
(٢٠٨) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥١١ .
(٢٠٩) : د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م ، ص ١٣٢ .
(٢١٠) : البلاذري ، فتوح ص ٢٦٦ .

../..

البعض توضحها نوعا من العقوبة والجزاء ،وكيف تكون كذلك وقد فرضت على الذكـور البالغين من أهل الذمة ولم تفرض على النساء والأطفال والشيوخ ،وكيف يمكن اعتبارهـا عقوبة وهذا خالد يطرح الجزية من كل شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفـات أو كان غنيا فافتقر ؟ ولم يكتف بطرح الجزية من هؤلاء بل جعل بيت مال المسلمين مسؤولا عن اعالتهم واعالة عائلاتهم ما أقاموا بدار الهجرة ودار الاسلام . (٢١١)

وقد ادرك المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشام أن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم هو أول ما يجب أن يشيع في نفوس السكان وأن يملأ عليهم آفاقهم حتى يعيشـوا في أجواء مسالمة لا يفسدها الخوف والقلق ،وحين تتوافر لهم هذه الاجواء فانمـا تتوافر لهم الثقة بأصحاب الدعوة والاعجاب بما يؤمنون به ، وقد يكون الاعجاب طريقا للمشاركة والوحدة ،ومن أجل هذا كان أول ما كان في كتب الصلح المختلفة أن يعطي القائد أو الخليفة للسكان الامان على انفسهم واموالهم واولادهم وكنائسهم ومنازلهم ، جاء هذا في كتاب خالد لأهل دمشق ، (٢١٢) وفي كتاب عمرو بن العاص لأهل غزة وسبسطية ونابلس ، (٢١٣) وكتاب أبي عبيدة لأهل بصرى وحمص وبعلبك ، (٢١٤) وكتاب شرحبيل بن حسنة لأهـل طبرية (٢١٥) وفي كتاب عمر بن الخطاب الى أهل بيت المقدس ، وبذلك استطاع هؤلاء السكان أن ينتظموا في جو ... ، فالأنفس والأموال في عرف المسلمين آمنة والاموال كلها مدنية تتصل بالأرض والمنازل ودينية تتصل بالكنائس والصلبان ،والأنفس كلها ضعيفها وقويها ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها ، فلهذه الأنفس جميعا مكانها في المجتمع الجديد ،لا يضطهد ضعيفها ،ولا يهمل مريضها ،ولا تنسى فيه حقوق ولا واجبات،وتدرج كتاب الصلح الذي كتبه عمر

---

(٢١١) : محمد حميد الله ،مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ م ،ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٢١٢) : البلاذري ،فتوح ، ص ١٢٨ .

(٢١٣) : المصدر السابق ،ص ١٤٤ .

(٢١٤) : المصدر السابق ص ١٢٠ ، ١٣٧ ، ١٣٦ .

(٢١٥) : المصدر السابق ،ص ١٢٣ .

../..

لأهل ايلياء تدرجا رائعا فهو لم يقتصر على منح الامان لسكان البلاد وحدهم وانما منح هذا الامان للروم كذلك ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ،ومن أقام فهو آمن ،وعليه مثل ما على أهل ايلياء ،ووقف كتاب الصلح مثل هذا الموقف أيضا ممن كان بايلياء من أمم الأرض جميعا لم يهمل شأنهم وأتاح لهم الامان ماأتاح لغيرهم ،وآمنهم أن يلحقوا بأرضهم أو يظلوا في مكانهم أو يلتحقوا بالروم " ومن كان بها من أهل الأرض ... فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله". (٢١٦)

ووقف الاسلام من النصرانية في الشام موقف التحبب والود ،فتفهم الاسلام وتقديسه للأديان السابقة وايمانه بالأنبياء الذين تقدّموا محمدا (صلعم) واعتباره ذلك شرطا في صحة العقيدة ،كل ذلك كان كفيلا ،أن يكون مرحلة في التطور الديني ، وتقبله واعتناقه والاندماج في أصحابه ،ولما كان شعار الاسلام أن لا اكراه في الدين فان أهل الشام تمتعوا بحرية لم تتح في ذلك الوقت في العالم الا في أضيق الحدود ، وقد آمنهم عمر على عقائدهم وآمنهم كذلك على كل مايتصل بهذه العقائد من مقدسات وصلبان وكنائس ، ووقف بذمته بينها وبين " ان تسكن أو تهدّم أو ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ... " وأباح لهم أن يستمتعوا بمايعتقدون في مدى واسع من الحرية ، فلا يتطلع اليهم أحد باكراه ولا ينالهم من أحد اجبار " ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ". (٢١٧) وما اكثر الروايات التي تشير الى اهتمام عمر بأهل الذمة وتخفيف الجزية على من لا يطيقها واعانة من عجز على دفعها. (٢١٨) وأوصى عمر بن الخطاب عند وفاته بذمة رسول الله (صلعم) أن يوفى لهم بعهدهم

---

(٢١٦) : الطبرى ،ج ٣ ص ٦٠٩ من عهد عمر لأهل ايلياء.

(٢١٧) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٦٠٩ ، ٦١٠ .

(٢١٨) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٨٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٣٤ .

../..

وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم ". (٢١٩)

بالرغم من سياسة التسامح هذه تجاه أهل الذمة ، فان عمر اضطر أن يتخذ موقفا معينا من عرب الشام والجزيرة ،فعرب الشام قبل الفتح كانوا كلهم على الدين المسيحي ،وكان للغساسنة مكانة رفيعة بينهم ، ولذلك فان الروايات المتعلقة بجبلة بن الايهم يشير بعضها الى اسلامه ثم ارتداده (٢٢٠) وبعضها الآخر على اقامته على دينه وابائه من دفع الجزية انفة (٢٢١) ولكنها كلها تشير الى دخوله الى أرض الروم مع أتباعه وقومه وأن هرقل أقطعه حيث شاء واجرى عليه من النزل ماشاء وجعله من سماره ،ويرى الدكتور جواد علي أن جبلة لم يدخل في الاسلام أبدا وأن ماروى عن اسلامه وعن زيارته ليثرب أو مكة ليس الآ من قصص القصاص وضعوه فيما بعد . (٢٢٢)

ان موقف جبلة هذا دفع عمر بن الخطاب الى أن يضعف الصدقة (٢٢٣) على قبيلة تغلب عندما رفضت الدخول في الاسلام وأبت كذلك دفع الجزية ، وهمّ أفرادها باللحاق بأرض الروم ،(٢٢٤) ويبدو أن قبائل أخرى اقتدت بتغلب فرضيت بدفع الصدقة مضاعفة ، مفضلين اياها على دفع الجزية لكي لا تكون في مصاف الأعلاج . (٢٢٥)

واذا كانت قبيلة تغلب قد نجحت في مسعاها فان مكانة العرب النصارى الاجتماعية بقيت دون مكانة العرب المسلمين ،وبالرغم من أن الأخطل كان مقربا الى عبد الملك وكان يعتبره أشعر العرب ، وشاعر بني أميه الا أنه كان يتمنى ان يسلم فيفرض له في الفيء

---

(٢١٩) : ابو يوسف ،كتاب الخراج ،القاهرة ١٣٤٦ ،المطبعة السلفية ،ص ١٦ ،١٤٩ ، ١٥٠ ،١٥١ ،البخاري ،الجامع الصحيح ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٢٢٠) : الأغاني ،ج ١٥ ص ١٦٢ ، ١٦٤ ، البلاذري ،فتوح ص ١٤٢ .

(٢٢١) : البلاذري ،فتوح ،ص ١٤٢ .

(٢٢٢) : جواد علي ،المفصل في تاريخ العرب ،ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٢٢٣) : البلاذري ،فتوح ،ص ١٨٦ .

(٢٢٤) : المصدر السابق ،ص ١٨٦ ،الطبري ،ج ٤ ص ٥٤ .

(٢٢٥) : البلاذري ص ١٨٦ ، قالوا : (أما اذا لم تكن جزية كجزية الاعلاج فانا نرضى ونحفظ دينا) و عن الزهري ،قال: ليس في مواشي أهل الكتاب صدقة الا نصارى بني تغلب اوقال نصارى العرب الذين عامة اموالهم المواشي فان عليهم ضعف ما على المسلمين .

./..

أى في شرف العطاء ، (٢٢٦) ويعير جرير الأخطل بأنه ممن ضربت عليه الذلة وباء بغضب من الله وأدّى الجزية عن يد وهو صاغر،(٢٢٧) وعندما دخل على عمر بن عبد العزيز قوم من تغلب وطلبوا منه أن يفرض لهم لأنهم عرب ،رفض لأنهم نصارى ، (٢٢٨) أى أنهم بمثابة أهل الذمة ،ويجب أن تطبق على العرب النصارى الانظمة التي تطبق على النصارى من غير العرب فهم في نظره سواء .

ارتبطت قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية والجنائية والقضائية برؤسائهم الروحيين ، الا اذا كانت القضية تمس المسلمين (٢٢٩) وقد عبس القس الأخطل في كنيسة دمشق لأنه يشتم الناس ويهجوهم ،ولما سئل عن سبب هذا الخضوع والاستخذاء الذى يظهره للقس بالرغم من مهابة الناس له واكرام الخليفة لشخصه جعل يقول : " انه الدين انه الدين" (٢٣٠) وكان يسمح للذمي أن يوصي للكنيسة أو يوقف لها وقفا من ماله (٢٣١) كما أنه من كان له عهد أو ذمة فديته دية المسلم (٢٣٢) الا أن دية المعاهد كان يدخل نصفها بيت المال ويأخذ الخليفة النصف الآخر ، فعندما قتل خالد بن المهاجر ومولاه نافع ابن أثال وكان طبيبا متقدما من الأطباء المتميزين في دمشق غضب معاوية وأمر بضرب نافع مائة سوط والزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر الف درهم ، فأدخل بيت المال ستة آلاف درهم وأخذ ستة آلاف . (٢٣٣) فلم يزل ذلك يجرى في دية المعاهد حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فأبطل الذى يأخذه الخليفة لنفسه وأثبت الذى يدخل بيت المال . (٢٣٤)

---

(٢٢٦) : الاغاني ،ج ٨ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢٢٧) : المصدر السابق ج ٨ ص ٢٦٢ .

(٢٢٨) : الطرطوشي ، سراج الملوك ،ص ١١٨ .

(٢٢٩) : العيون والحدائق ،ص ٦٠ .

(٢٣٠) : الأغاني ،ج ٨ ص ٣٠٩ .

(٢٣١) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٥ ص ٣٦٢ .

(٢٣٢) : يحيى بن آدم القرشي ،الخراج ،ص ٧٦ ، الفقره ٢٣٩ .

(٢٣٣) : ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢٣٤) : المصدر السابق ،ص ١٧٤ .

٠٠/٠٠٠

حافظ خلفاء بني أمية على كنائس المسيحيين وفقا لما ورد في العهود المختلفة ، وعند ما هدمت الزلازل جانبا من بيعة الرها الكبرى أمر معاوية بترميمها واعادتها الى سابق عهدها ، (٢٣٥) وأسماء ساوية من زيادة كنيسة يوحنا في الجامع عند ما أبى النصارى ذلك ، وبذل لهم عبدالملك مالا كثيرا لكي يتخلوا عنها فرفضوا ، (٢٣٦) فلما كان عهد الوليد بن عبدالملك وكثر المسلمون وضاق بهم المسجد تأبوا عليه ، بالرغم من أنه حاول أن يقطعهم قطائع كثيره وأن يبذل لهم الأموال ، (٢٣٧) وفي تاريخ دمشق لابن عساكر أنه عرض عليهم أن يبني لهم كنيسة حيث شاؤوا بدمشق وان شاؤوا دفع ثمنها لهم ، وأضعف لهم الثمن ، وعند ما رفضوا هدد بأن يهدم كنيسة توما ويبني المسجد فيها لأنها لم تكن في العهد فقبلوا (٢٣٨) وفي رواية ابن شداد أن الوليد أخذ كنيسة يوحنا وأعطاهم مقابل ذلك أربع كنائس (٢٣٩) وعند ما أبى الفعلة النصارى هدمها ، لم يجبرهم على ذلك وانما طلب من اليهود هدمها بعد أن بدأ هو ومن معه من وجوه أهل البلد ذلك (٢٤٠) وكان في حلب نيف وسبعون هيكلا للنصارى ، بقيت كذلك الى أن حاصر الفرنج حلب في ثماني عشرة وخمسمائة وملكها يومئذ الغازى بن أرتق صاحب ماردين ، وقام بأمر البلد ومن فيه القاضي أبو الحسن محمود بن يحيى بن محمد ، فعمد الفرنج الى قبور المسلمين فنبشوها ، فلما بلغ القاضي ذلك أخذ من كنائس النصارى التي كانت بحلب أربعا ، وجعل فيها محاريب ، منها كنيسة القديمة هيلانة ، فجعلها مسجدا ، فاستمرت على ذلك الى أن ملك الملك العادل نورالدين ، فأحدث فيها ايوانا وبيوتا وجعلها مدرسة لتدريس مذهب أبي حنيفة

---

(٢٣٥) : ترتون ، أهل الذمة في الاسلام ص ٤١ .

(٢٣٦) : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيره ، ص ٥١ .

(٢٣٧) : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٢٣٨) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٢٣٩) : ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٢٤٠) : تهذيب ، ج ١ ص ٢٠١ .

٠٠/٠٠

ووقف عليها وقفا (٢٤١) وأما الكنائس الباقية فقد حوّل قسم منها في العهد الايوبي الى مدارس لتعليم المذهب السنفي . (٢٤٢)

هذه الروايات تدل بوضوح أن المسلمين في كل العهود كانوا يفون للذمة بعهودهم ، يرعون مصالحهم ، يحافظون على كنائسهم ، فلما جاء الفرنجة وعاملوا المسلمين تلك المعاملة البشعة ، كان رد الفعل طبيعيا وهو تحويل هذه الكنائس الى مساجد أو مدارس .

تشير الروايات الى أن المسلمين كانوا على صلة مع أهل الذمة في حياتهم اليومية ، ولم يعيشوا منعزلين عنهم ، فقد سكن المسلمون مع النصارى في دور واحده وعندما تولى سمرة بن فاتك أخو خريم بن فاتك الصحابي قسمة المساكن في دمشق بين أهلها بعد الفتح ، كان يترك الرومي في العلو والمسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي ، (٢٤٣) كما أنه كانت لهم أسواق واحدة شريطة أن لا يبيعوا الخمر والخنازير فيها (٢٤٤) وكان المسلم يعود جاره النصراني اذا مرض ، فقد عاد أبو الدرداء جارا له نصرانيا ، (٢٤٥) وفي بيت لحم وفي الحنية التي اتخذها عمر بن الخطاب مسجدا للمسلمين ، جعل على النصارى اسراجها وعمارتها وتنظيفها ، (٢٤٦) ولم يزل المسلمون يزورون بيت لحم ويقصدون الى تلك الحنية ويصلون فيها وينقل خلفهم من سلفهم أنها حنية عمر بن الخطاب ، ولم يغيرها الفرنج عندما ملكوا البلاد . (٢٤٧) وكان الأخطل يدخل المسجد مرتديا جبة خز متقلدا صليبا من ذهب وينشد قصائده (٢٤٨) وكانت بكر بن وائل اذا تشاجرت في شيء رضيت الأخطل ، وكان يدخل المسجد فيقدمون اليه (٢٤٩)

---

(٢٤١) : ابن شداد ، المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢٤٢) : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٢٤٣) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ص ٦٤ .

(٢٤٤) : ابو يوسف الخراج ، ص ١٥٢ .

(٢٤٥) : ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، المجلد الثاني ، ج ٣ ص ٤٤ . ابن قيم الجوزيه ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ص ٢٠ .

(٢٤٦) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ١ ص ٥٢٢ ، وفي رواية ياقوت ، أن عمر بن الخطاب عندما ورد الى بيت المقدس ، أتاه راهب من بيت لحم فقال له : معي منك أمان على بيت لحم ، فقال له عمر ، ما أعلم ذلك ، فأظهره وعرفه عمر ، فقال له : الامان صحيح ، ولكن لابد في كل موضع للنصارى أن يجعل فيه مسجد ، فقال الراهب ، ان في بيت لحم حنية مبنية على قبلتكم ، فاجعلها مسجد للمسلمين ولا تهدم الكنيسة ، فعفا له عن الكنيسة وصلى الى تلك الحنية واتخذها مسجدا .

(٢٤٧) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٢٢ .

(٢٤٨) : الاغاني ، ج ٨ ص ٣٠٢ .

(٢٤٩) : المصدر السابق ، ج ٨ ص ٣٠٣ .

../..

كما أن أولاد المسلمين كانوا يتلقون الفلسفة على أيدي رجال الدين من النصارى فقد أثر من يعقوب الرهاوي (٦٤٠ - ٧٠٨ م / ٢٠ - ٩٠ هـ) أنه أفتى لرجال الدين النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم العالي ،(٢٥٠) ونتيجة للاحتكاك بين المسلمين والنصارى أخذوا يتحادثون ويتحاجون في العقائد ، يدلنا على ذلك أن أحد المؤلفين في هذا العصر واسمه يحيي الدمشقي ألف رسالة على هذا النمط " اذا قال لك العربي كذا فأجبه كذا " (٢٥١)

واشتهرت الأديار (٢٥٢) في الجاهلية بايواء المجتاز بها وضيافة اللاجئ والاحسان الى كل طارق محتاج ، ولم يكن فيها وقتئذ دور خاصة بالضيافة ، بل كان نزول الأضياف فيها في بعض الحجر ، ثم جاء الاسلام ، فأوجب على النصارى في جملة شروطهم أن لا يمنعوا كنائسهم من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار .(٢٥٣) وفي رواية أبي يوسف أن أبا عبيدة بن الجراح لما صالح أهل الشام اشترط عليهم أن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام ، (٢٥٤) فلم يكن من ثم بد من وجود مواضع في الديارات لمبيت الزوار وعابري السبيل ، ثم كثر الأضياف والمتنزهون في الأديرة ، لا سيما من الامراء وحاشيتهم ، فكان لا بد من بناء دور وحجر لهم خاصة الى جانب الاديار ينزل فيها كل من يغشاها من الناس المسافرين وتقام لهم فيها

---

(٢٥٠) : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، بيروت ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣١ ، ١٣٢

(٢٥١) : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٢٥٢) : يشترط في كل دير صغير أم كبير أن يكون فيه كنيسة كما يشترط فيه أن يحتوي على صوامع تستوعب من فيه من رهبان بالاضافة الى المخازن وبيوت الطعام وغيرها من المرافق ، والصوامع هي قلالي الرهبان ، فكانت في بعض الاديره تعد بالعشرات وفي بعضها بالمئات وجاوزت في بعضها الالف عدا ، اذ لا بد للراهب من صومعة يقيم فيها وحده ولا يجوز لزائر أن يقيم في صوامع الرهبان ذاتها ، ولذلك فان الديارات الجليلة الشأن لا تخلو من دور ضيافة وبيوت ينزلها زوار الدير (الشابشتي ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٩٥١ م ص ٣) .

(٢٥٣) : حبيب الزيات ، الديارات النصرانية ، ص ٥٨ . من أبي يعلي محمد بن الحسين بن محمد الفراء من مخطوطات الخزانة الشرقية .

(٢٥٤) : أبو يوسف ، الخراج ص ١٦٥ .

../..

الضيافات على أقدار كل منهم ،ومن أعظم هذه الاديرة في الشام ،دير مرّان ظاهر دمشق ، كان يزيد بن معاوية قد اتخذه منتزها ،(٢٥٥)ونزله أيضا جماعة من الخلفاء الامويين والعباسيين ،(٢٥٦) ودير البخت في دمشق على فرسخين منها وهو دير كبير حسن وكان يسمى دير ميخائيل فسمي بهذا الاسم لبخت كانت لعبد الملك بن مروان مقيمة هناك فعرف بها ،(٢٥٧) ودير صليبا مقابل باب الفراديس ،ويعرف بدير خالد بن الوليد لأن نزوله كان به عندما حاصر دمشق ،وكان الوليد بن يزيد كثير المقام به يخرج اليه ومعه حرمه استحسانا (٢٥٨)ودير يونا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق ،(٢٥٩) أقام الوليد بن يزيد فيه أياما ،ودير الرصافة ،رصافة هشام بن عبد الملك ،وهذه الديارات كانت كلها تقع في مناطق جميلة بين رياض مشرقة وأنهار متدفقة وأشجار كثيرة. (٢٦٠)

موقف الدولة من اليعاقبة والروم الملكيين :

يجمع كل مؤرخي النصرانية على أن لقب الملكيين نشأ في القرن الخامس الميلادى أطلقه اليعاقبة على من خالفهم من نصارى الشرق ووافقوا امبراطور بيزنطة على قبول مقررات المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١م (٢٦١) ولذلك كان الخلقيدوني مرادفا للملكي ،(٢٦٢)وكان انتساب الملكيين الى الامبراطور البيزنطي على أثر مجمع خلقيدونية سببا لاتهامهم

(٢٥٥) : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٩.

(٢٥٦) : شهاب الدين العمرى ،مسالك الابصار ،مطبعة الدار ، مصر ، ص ٣٥٥.

(٢٥٧) : الشابشتي ، الديارات ،ص ١٣٧.

(٢٥٨) : ياقوت الحموى ،ج ٢ ص ٥١٩ ،العمرى ، مسالك الابصار ، ص ٣٤٩.

(٢٥٩) : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ،ج ٢ ص ٥٠٢.

(٢٦٠) : ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة ،ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢.

(٢٦١) : Donner, The Early Islamic Conquests, P. 94.
L. Duchesne, Autonomie Ecclesiastique Eglises Separeec, 1896, P. 52.

(٢٦٢) : كان الخلقيدونيون عند السريان ينقسمون الى قسمين ، خلقيدونيين مكسيمية ، نسبة الى القديس مكسيموس ، الذى اشتهر بالنضال من المشيئتين.وخلقيدونيين مارونية أتباع بيت مارون أودير مارون.
Chronique de Michel Le Syrien, Edition et traduction de Y.B. Chabot, t. II PP. 492 - 496.

../..

بالحيل الى الروم والتجسس لهم ومطالعتهم بأخبار الفرس ، ثم بعد بأخبار المسلمين ،ولذلك كانوا يرغبون أحيانا على العدول عن مذهبهم الخلقيدوني ليدفعوا عن أنفسهم كل ظنة بالتحزب للبيزنطيين أعداء الفرس ثم العرب ،وقد ضيق الفرس على من كان في بلادهم من الملكيين ،قال ابن العميد : في السنة الثالثة للهجره ضيق كسرى على أهل الرها وطلب منهم أن ينتقلوا عن مذهب الملكية الى اليعقوبية لأن طبيبه يونان أوهمه أنهم ما داموا على مذهب الملكية ، فقد يميلون الى الروم ويكاتبوهم ،فعرض عليهم القتل أو الانتقال الى المذهب اليعقوبي فانتقلوا بأجمعهم." (٢٦٣) كما أمر كسرى بطرد الاساقفة الخلقيدونيين أي الملكيين من كل بلاد مابين النهرين وسورية وزال ذكرهم على حد قول ميخائيل من حد الفرات الى المشرق ،ولم يتمكنوا من العودة الى مذهبهم وكنائسهم الا بعد انتصار هرقل على الفرس(٢٦٤).

واتهام الملكيين بالتحزب للبيزنطيين هو الذي حمل الخلفاء الامويين على منع قيام بطاركة لهم في كراسيهم الثلاثة وجرأت اليعاقبة على التغلب عليهم ،فقد بقي الملكيون أكثر من ثمانين سنة بغير بطارك في مصر ، من عهد عمر بن الخطاب الى خلافة هشام بن عبد الملك فغلب اليعاقبة في هذه المدة على جميع الكنائس في مصر وأقاموا منهم أساقفة (٢٦٥) وكان البطريرك اسطفانوس هو أول بطريرك ملكي دخل انطاكية بعد شغورها مدة تنيف على أربعين سنة ،وقد فرض عليهم اسطفان لانه كان عزيزا على هشام بن عبد الملك. (٢٦٦)

ويظهر أن بطاركة بيت المقدس سبقوا بطاركة الاسكندرية وانطاكية في العودة الى كراسيهم واستقر أولهم بعد صفرونيوس في زمن الوليد بن عبد الملك، وهو البطريرك يوحنا الناسس (٧٠٦ - ٧٣٧ م / ٨٨ - ١٢٠ هـ).

---

(٢٦٣) : جرجس بن العميد ،تاريخ ابن العميد ، طبعة ليدن ص ١٢.

(٢٦٤) : Chronique de Michel Le Syrien, t II PP. 377, 378.

(٢٦٥) : المقريزي ،الخطط ج ٣ ص ٥٢٧.

(٢٦٦) : Theophanes, Bilderstreit und Arabersturm In Byzanz Das 8 Jahr hundert 717 - 813, aus der welt Chronik des Theophanes. Ubersetzt, eingeleited und erklart Von Leopold Breyer, Wien, 1957, P. 55.

../..

ويرى البعض أن أوجه مايعلل به هذا الرضى من الامويين بعد الامتناع الطويل هو النزاع الذى حدث بين الملكيين من روم بيزنطيين وروم بلديين عند مابدأت الحركة المعادية للايقونات (Iconclasm) في الامبراطورية البيزنطية زمن الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م / ٩٩ — ١٢٤ هـ) فضعفت ريبة هشام بن عبد الملك في رعيته من الروم وسمح لهم بالرجوع الى حقوقهم القديمة باقامة بطاركة لهم من الملكيين البلديين .

وبالرغم من أن المؤرخ تيوفانس (Theophanes) يذكر أن أول قرار ضد عبادة الايقونات لم يصدر في القسطنطينية بل في دمشق عاصمة الخلافة في خلافة يزيد بن عبد الملك (٢٦٧) ، (١٠١ — ١٠٥ هـ)، فانه يشير الى أن الخلفاء المسلمين كانوا أعلم وأنصف من ليون الايسورى وابنه قسطنطين الخامس الذى عمد الى اضطهاد الرهبان وقتلهم وتعذيبهم .(٢٦٨)

ومن يراجع تواريخ فرق اليعقوبية والنسطورية يقف فيها على عدة شهادات ناطقة بتحزبهم للاسلام وانتصارهم على النصرانية البيزنطية ، وتنظر الدعم النساطرة واليعاقبة للعرب كان من البديهي أن ينظر العرب اليهم بعين غير التي كانوا ينظرون بها الى الملكيين وهم أشياع أعدائهم بالأمس ، ولا يزال لقبهم ناطقا بالانتماء اليهم ، فكانوا من ثم يعتقدون فيهم قلة المناصحة ، ولم يكن العرب في ذلك مخطئين ، فان الجراجمة في جبل اللكام (وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم الموارنة) كانوا تابعين لبطريرك انطاكية قبل الفتح ، ولم يقاتل أهل الجرجومة حبيب بن مسلمة الفهرى ، بل بدروا الى طلب الامان والصلح ، فصالحوه على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم في مغازيهم ،(٢٧٠) ولكن الجراجمة كانوا

---

(٢٦٧) : في سنة ٧٢٣ م على حد زعم تيوفانس أصدر الاموى يزيد بن عبد الملك أمرا يقضي برفع الايقونات من جميع الكنائس الموجودة في أراضي امبراطوريته .

(٢٦٨) : Theophanes OP. Cit. PP. 46, 70, 71

(٢٦٩) : المقريزى الخطط ج ٣ ص ٥٣٦ ، ٥٣٧

Chronique de Michel Le Syrien t. II . P. 433 .

(٢٧٠) : البلاذرى ، فتوح ص ١٦٤ .

../..

يستقيمون للولاة مرة ويعرجون أخرى ، فيكاتبون الروم ويمالئونهم ، فلما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وخلافة عبد الملك بن مروان واستعداده للشخوص الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، توجهت خيل للروم الى جبل اللكام واستطاع قائد الجيش الرومي أن يتوجه الى لبنان ، وانضم اليه جماعة كبيرة من الجراجمة مما اضطر عبد الملك الى مصالحتهم على ألف دينار كل جمعة ويصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه كذلك ، واقتدى بصلحه بمعاوية حيث شغل بحرب أهل العراق ، ولكنه ما أن قضى على فتنة عمرو بن سعيد بن العاص وعلى مصعب بن الزبير حتى أرسل سحيم بن المهاجر الذى استطاع بالخديعة أن يقضى على القائد الرومي ومن معه من الروم ثم نادى في سائر من ضوى اليه بالامان فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم باللكام ، وعندما اجتمع الى الجراجمة سنة ٨٩ هـ قوم من الروم من قبل الاسكندرونة وروذس وجه الوليد بن عبد الملك اليهم أخاه مسلمة بن عبد الملك فافتتحها وقرر تخريب مدينتهم حتى لا يعودوا الى ممالأة الروم ، ولكنه منحهم مع ذلك ميزات متعدده ، اذ نجده يترك لهم حق اختيار المكان الذى يودون النزول فيه بالشام ، ويجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت وعلى ألا يكرهوا أحدا من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية. (٢٧١)

وبالرغم من ذلك الشك الذى كان يساور نفوس الخلفاء تجاه الملكيين ، فان اليعاقبة في الشام لم يستطيعوا التفوق على الملكيين كثيرا وغاية ما امتازوا به عليهم اطلاق الخلفاء المروانيين لهم حق اختيار بطاركتهم من رجال كنيستهم واختصاص هؤلاء البطاركة البلديين بالكرامة والحظوة ، في حين كان الملكيون محرومين من هذا الحق حذرا من قيام الغرباء بينهم ، ولما عقد اليعاقبة البطركية لاسقف أفاميه مار الياس ، وفد على الوليد بن عبد الملك فأحسن لقاءه وزاد في تشريفه بينما أخذ كنيسة الملكيين الكبرى بدمشق ليحولها جامعا. (٢٧٢) وفي السنة الأولى من خلافة يزيد بن عبد الملك أذن للبطريرك مار الياس ، فدخل انطاكية بموكب حافل من الرهبان والاتباع ، وذلك بعد مضي مائتين وثلاث سنوات من خروج ساويرس رأس شيعتهم منها ، قال ديونيسيوس تل محرى

---

(٢٧١) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٦٥.

(٢٧٢) : Chronique de Michel Le Syrien, t. II P. 480 .

فيما نقله عنه البطريرك ميخائيل الكبير : " ومنذ ذلك الحين لم يستطع أحد من بطاركتنا نحن الارثوذكس أن يطأ أرض انطاكية قبل مار الياس دخلها في هذا الزمن من دولة العرب". (٢٧٣)

وقبل أن أنهي البحث عن أهل الذمة لابد من أن أتطرق الى قضية ملابس أهل الذمة في صدر الاسلام لاسيما وأن الفقهاء يطلقون اسم الشروط العمرية ، حين يتعرضون لهذا الموضوع ليشيروا الى أنها من وضع عمر بن الخطاب ، وأول من نسب هذه الأوامر الى الخليفة عمر ، أبو يوسف (٢٧٤) المتوفى سنة ١٨٢ (هـ) وابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) في كتابه فتوح مصر. (٢٧٥) أما العهود الواردة في البلاذري والطبري وابن الأعثم فانها خالية من الاشارة الى الملابس ، مما يدفع الانسان الى الشك في حقيقة اصدار عمر لهذه الأوامر ، لأن الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس هو سهولة التمييز بين النصارى والمسلمين ، وهذا أمر لا يرقى اليه الشك عند كل من أبي يوسف وابن عبد الحكم (" هكذا كان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي ، حتى يعرف زيهم من زي المسلمين". (٢٧٦) على أنه يجب أن نلاحظ أنه لم يكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى لبس نوع من الثياب يخالف مايلبسه المسلمون ، اذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة ، فمثلا كان النصارى قبل الاسلام يتزينون بالزنانير المحلاة بالذهب والفضة ويتباهون بلبسها ، وكان النعمان بن المنذر يركب في كل أحد الى دير اللج (٢٧٧) وفي كل عيد معه أهل بيته من آل المنذر ومن ينادمه من أهل دينه عليهم حلل الديباج المذهب وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب وفي أوساطهم الزنانير المحلاة بالذهب المفصصة بالجوهر، (٢٧٨) ونقل عن مار أمه (٢٧٩) أو أبا الجاثليق أنه كان أول من أمر الاسكلانيين بشد الزنانير

---

(٢٧٣) : Ibid P. 490 .

(٢٧٤) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢٧٥) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، مصر ص ١٥١ .

(٢٧٦) : ابو يوسف ، المصدر السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢٧٧) : دير اللج بالحيره بناه النعمان بن المنذر ابو قابوس في أيام ملكه ، ولم يكن في ديارات الحيره أحسن بناء ولا أنزه موضعا (ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ٥٠٣).

(٢٧٨) : الأغاني ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢٧٩) : Book of Governors, The Historia Monastica of Thomas, Bishop of Marga, A.D. 480. Tr. by E. A. Wallis Budge, London 1893 B. I Ch. XXIII P. 79.

../..

في أوساطهم ليتميزوا من غيرهم، (٢٨٠) فالزنار اذا كان معروفا عند النصارى قبل الهجرة والخليفة عمر بن الخطاب برئ من تهمة وضعه عليهم قصد اذلالهم، ولكن يبدو أن الحاجة استلزمت هذه الشروط شيئا بعد حينما أخذت الشعوب الخاضعة تعمل على الاقتداء بالعرب في لباسهم والتشبه بهم في ثيابهم، نستشعر ذلك مثلا في اتفاقية سنة ٨٩ هـ، بين المسلمين والجراجمة حيث تضمنت السماح للجراجمة بأن يلبسوا لباس المسلمين. (٢٨١)

واذا راجعنا ماوقع لنا من أخبار الأمويين والاشعار التي قيلت في عهدهم، لا نجد فيها ذكرا للزنار في أوصاف النصارى، الا فيما زعموه من أوامر عمر بن عبد العزيز وكتبه الى عماله في التضييق عليهم، وأكثر مايجيء التغزل بالزنار في خصور الغلمان في الأشعار العباسية، وهذا مايجعل المرء يعتقد أن شرط الزنار حدث في أوائل عهد العباسيين، وفي الشروط العمرية أن الزنار كان متوجبا على أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس، ولكن لم تشتهر به حقيقة الا النصارى وحدهم وقل جدا ذكر اليهود في الاوامر السلطانية بلبس الزنار، (٢٨٢) ومن الأبيات القليلة التي صرح فيها بلبسهم اياه قول أبي نواس وقد نزل في حانة خمار يهودي.

وفتيان صدق قد صرفت مطيّهم	الى بيت خمّار نزلنا به ظهـــــرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما	ظننا به خيرا فظنّ بنا شـــــرا
فقلنا على دين المسيح بن مريم	فأعرض مزوّرا وقال لنا هجـــرا
ولكن يهودي يحبك ظاهـــرا	ويضمر في المكنون لك الغـــدرا (٢٨٣)

وكان اليهود أكثر مايعرفون بالغيار أي في اللون الأصفر في عمائمهم، بينما كان النصارى يمتازون بالزنار في أوساطهم.

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز هو أول من أصدر أحكاما بشأن ملابس أهل الذمة، وأقدم النصوص التي تشير الى ذلك، النص الذي أورده كذلك أبو يوسف ثم ابن عبد الحكم في كتابه سيرة عمر بن عبد العزيز ونص ابن الحكم أكثر اختصارا، اذ يذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب الى الآفاق: " أن لا يمشين نصراني الا مفروق الناصية ولا يلبس قباء ولا يمشي الا بزنار من جلد، ولا يلبس طيلسانا

---

(٢٨٠): حبيب الزيات، سمات النصارى واليهود في الاسلام ص ٢٠١، عن تاريخ جثالقة النساطرة، مخطوط رقم ٦٦٥٣، باريس ص ١٨٠.

(٢٨١): البلاذري، فتوح ص ١٦٥، ١٦٦.

(٢٨٢): حبيب الزيات، المصدر السابق ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢٨٣): المصدر السابق ص ٢٠٣، ديوان أبي نواس، خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦ ص ١١٤.

../..

ولا سراويل ذات خدمة ولا نعلا لها عذبة". (٢٨٤) أما الرواية التي ينقلها أبو يوسف من عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه ، أن عمر بن عبد العزيز كتب الى عامل له : وامنع قبلك ، فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب ،(٢٨٥) وقد ذكر لي أن كثيرا من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم ، وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص". (٢٨٦)

وبالرغم من أن ابن عبد ربه يشير كذلك الى أن الخليفة حرّم على جميع الذميين لبس العمائم أو التشبه بالمسلمين في ثيابهم،(٢٨٧) وأن ابن عساكر يكرر رواية ابن عبد الحكم ، فانه مما يسترعي الانتباه ، أن ابن سعد في طبقاته ، وهو كاتب الواقدي المتوفي سنة ٢٠٧ هـ لا يشير الى هذه الشروط مع أنه لم يترك أمرا من الأمور المتعلقة بأحكام عمر بن عبد العزيز الا وذكره ، ثم ان أبا هلال في كتابه الأوائل يذكر أن أول من أمر بتغيير زي أهل الذمة هو المتوكل ، (٢٨٨) واذا كانت النصوص السابقة تشير الى ملابس المسلمين التي يمنع النصارى من ارتدائها فان أبا هلال يتعرض الى أزياء أهل الذمة وألوانها ، ثم ان ابن قيم الجوزية يذكر فقط أن عمر بن عبد العزيز أمر أن تهدم بيع النصارى المستجدة (٢٨٩) بينما يؤكد على التدابير التي اتخذها المتوكل بحق ملابس أهل الذمة،(٢٩٠) وهو في هذا يتفق مع ما ورد في الطبري عند ذكر كتاب عمر بن عبد العزيز الى عبد الرحمن بن نعيم : " لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ، ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار " (٢٩١) وانما كان من قرارات عمر عدم الاستعانة

---

(٢٨٤) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٦ .

(٢٨٥) : عصب ، برود يمانية يعصب غزلها أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج فيأتي موشيا لبقاء ما عصب منه أبيض ولم يأخذه الصبغ .

(٢٨٦) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢٨٧) : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٤ ص ٤٣٦ .

(٢٨٨) : أبو هلال العسكري ، الاوائل ، ج ١ ص ٣٩٥ .

(٢٨٩) : ابن قيم الجوزية ، احكام أهل الذمة ، ج ١ ص ٢١٣ .

(٢٩٠) : المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(٢٩١) : الطبري ، ج ٦ ص ٥٧٢ .

../..

بأهل الذمة " فان المسلمين استعانوا بهم في أول الأمر لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير فكان لهم في ذلك مدة قضاها الله ، " ولذلك طلب من عماله عزل الكتاب والعمال من أهل الذمة واستبدالهم برجال مسلمين ،(٢٩٢) ويؤكد هذا ما ذكره ساويرس من عمر بن عبد العزيز بأنه أعفى الاساقفة والكنائس من الخراج ، وعمّر المدن التي خرّبت وأبطل الجبايات ، فعاش القبط في أمن وهدوء ، ولكنه لم يلبث أن أرسل كتابا يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن أعمالهم في الدولة ما داموا على دينهم " أما من يريد الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد " .(٢٩٣) ويرد في كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية أن معاوية كتب الى عمر بن الخطاب : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فان في عملي كاتبا نصرانيا لا يتم أمر الخراج الا به فكرهت أن أقلده دون أمرك ، فكتب اليه " عافانا الله واياك ، قرأت كتابك في أمر النصراني ، أما بعد فان النصراني قد مات والسلام "(٢٩٤) أى ماذا نعمل اذا مات ؟ ألا تجدون حينئذ من يقوم مقامه ؟ ثم يضيف ابن الجوزى بأن الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة درجوا على ما طبقه الرسول و عمر بن الخطاب في عدم استخدام أهل الذمة في أعمال المسلمين ، فيذكر أسماء بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز والمنصور والرشيد والمهدي والمأمون ،(٢٩٥) وفي هذا اشارة الى أن خلفاء بني أمية كافة باستثناء عمر بن عبد العزيز استعانوا بأهل الذمة ، كما أنه يورد روايات مختلفة تظهر منع عمر بن الخطاب عماله من استخدام أهل الذمة ويطلب من المسلمين أن يتعلموا الكتابة فانما هي حلية الرجال ، (٢٩٦) وهذه الأقوال على ما أعتقد لا تنطبق على أحوال زمان الخليفة عمر بن الخطاب ، وما عرف عنه من اهتمام بأمور رعيته ، وكل عارف بأخبار عمر ومعاوية يعلم أن الدواوين وقتئذ كانت بالشام بالرومية ، وأن كل كتابات الخراج والجباية لم تكن تدون الا بالرومية ، فلم يكن بد للعرب من كتاب بلديين يجيدون فهم الرومية ، ولذلك لم يكن عند

---

(٢٩٢) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣٦ .

(٢٩٣) : ساويرس ، سير الآباء البطاركة ، باريس ١٩١٠ م ج ٥ ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢٩٤) : ابن قيم الجوزيه ، احكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٠ .

(٢٩٥) : المصدر السابق ج ١ ص ٢١٢ .

(٢٩٦) : المصدر السابق ج ١ ص ٢١١ .

٠٠/٠٠

معاوية كاتب نصراني واحد فقط بل مئات وآلاف من رجال القلم والملاحة والصناعة وكلهم من المسيحيين ، فلم يكن ثم من سبيل للاستغناء عن النصارى سكان البلاد ، وتد شهد عمر بن عبد العزيز بحاجة المسلمين الى النصارى كما رأينا ، ولذلك فان ما يذكره ابن الجوزية عن استئذان معاوية عمر في استخدام كاتب نصراني واحد واجابته بأن النصراني قد مات رواية لا يقبلها العقل والمنطق ، ولكن قد تقبل من الخليفة الناصر لدين الله العباسي الذى كتب من ابن زطينا النصراني كاتب ديوان الانشاء ببغداد حين أبى أن يفارق دينه النصراني ، " مات ابن زطينا والسلام " .

تشير المصادر العربية الى استخدام معاوية لسرجون بن منصور الرومي على الديوان وأمره كله ،(٢٩٧) واستخدامه ابن أثال النصراني على خراج حمص(٢٩٨) واستمر سرجون على ديوان الخراج حتى خلافة عبد الملك . وكان لسرجون مكانة كبيرة لدى الخلفاء ، ويقال أن الكنيسة التي كانت خارج باب الفراديس كانت محدثة بنيت بعد الفتح لسرجون (٢٩٩). وعندما نقل سليمان بن سعد الخشني مولى بني أمية الديوان من الرومية الى العربية كان أول مسلم ولي دواوين الخراج ، وكانت النصارى تلي الدواوين قبله ،(٣٠٠) وبالرغم من أن اللغة العربية أصبحت لغة الدواوين في عهد عبد الملك فان هذا لا يعني أن الأمويين لم يستخدموا الكتاب النصارى ، فقد أورد ابن العبري في كتابه " أن عبد الملك منع الكتاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية ولكن بالعربية "(٣٠١) وهذا دليل على أن الذين

---

(٢٩٧) : خليفة ابن خياط ج ١ ص ٢٧٦ ؛ الطبرى ج ٥ ص ٣٣٠ ؛ الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٢٤ ؛ سيرة يوحنا الدمشقي ، ص ١٢ .

(٢٩٨) : اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٢٣ ؛ الجهشيارى ، ص ٢٤ .

(٢٩٩) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ص ٧٣ .

(٣٠٠) : الجهشيارى ، ص ٤٠ ؛ تهذيب ، ج ٦ ص ٢٧٨ .

(٣٠١) : ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٤ .

../..

بجيدون العربية قد بقوا في وظائفهم ،واستمر استخدام الامراء والخلفاء للنصارى ، فقد قلد سليمان بن عبد الملك أمر النفقة على بناء الرملة ومسجدها الجامع لكاتب له نصراني من أهل اللد يقال له البطريق بن النكا (٣٠٢) وكان من كتاب هشام بن عبد الملك تاذرى بن أسطين النصراني ،الذى قلده ديوان حمص . (٣٠٣) ولا شك أن نسبة النصارى في الوظائف قلت لدخول قسم من سكان البلاد في الاسلام ونتيجة للتدابير التي اتخذها عمر بن عبد العزيز في خلافته ،الا أن تسامح خلفاء بني أميه وأمرائها بشكل عام مع أهل الذمة في الشام جعل انتشار الاسلام بطيئا ،وليس أدل على ذلك كثرة الاسقفيات والكنائس التي بقيت منتشرة في الشام، (٣٠٤) والاشارات الى كثرة المسيحيين واليهود في المناطق المختلفة في أوائل العصر العباسي (٣٠٥) ومن مقارنة ما ذكره اركولف (Arculf) في زيارته للمناطق المقدسة في فلسطين وقد زارها سنة ٦٧٠ م/٥٠ هـ وزيارة وليبالد (Willibald) ،(٣٠٦) لهذه المناطق سنة ٧٥٤ م/١٣٧ هـ نرى بوضوح أن المسيحية كانت لا تزال واسعة الانتشار ولا سيما في المنطقة الجنوبية من الشام ، كذلك بقي لبنان نصراني المذهب سرياني اللغة الى ما بعد الفتح بأجيال طويلة،(٣٠٧) ويشير المقدسي (ت ٣٨٠ هـ) الى كثرة أهل الذمة في عصره في منطقة الشام،(٣٠٨) ويعلق قائلا : أقل ما ترى في الشام فقيها له بدعة ، أو مسلما له كتابة ، الا بطبرية ،فانها مازالت تخرج

---

(٣٠٢) : البلاذرى ،فتوح ص ١٤٩ ،الجهشيارى ص ٤٨ .

(٣٠٣) : الجهشيارى ص ٥٩ .

(٣٠٤) : يوسف الدبس ،تاريخ سوريا ،ج ٣ المجلد الخامس ،ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،وهو يشير الى وجود اسقفيات في حماه وبيروت وصيدا ودمشق وداريا وأخرى بالقرب من غزه والى الاسقفيات في فلسطين .

(٣٠٥) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٤٠ .

(٣٠٦) : The Pilgrimage of Arculfus in The Holy Land about the year 670. Translated and Annotated by the Rev. James Ros Macpherson, London, 1889. The Pilgrimage of Willibald in the Holy Land about 754.

(٣٠٧) : حتي ،تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٣٠٨) : المقدسي ،أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ،ص ١٧٩ .

../..

الكتاب ،وانما الكتبة به وبمصر نصارى . وأكثر الجهابذة والصباغين والدباغين يهود في هذا الاقليم ،وأكثر الأطباء والكتبة نصارى ، (٣٠٩) كمايشير الى أن بيت المقدس تنزلة العلماء كثيرة النصارى قد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس. (٣١٠

وفي الحديث من أهل الذمة في الشام تستوقفنا هذه الحقيقة البالغة الأهمية في تكوين المجتمع الاسلامي ،هذه الحقيقة هي أن ايمان المسلمين بالسابقين من الأنبياء وبشرية وجود أصحاب الديانات الأخرى واحترام الاسلام للانسان كمخلوق مهما كان اعتقاده ،هذه العناصر هي التي افسحت المجال لبقاء واستمرار تلك الجماعات غير المسلمة وسط مجتمعات المسلمين عبر تاريخ المسلمين الطويل ،في حين أن الكنيسة في أوربا رفضت الاعتراف بنبوة محمد (صلعم) وكان من نتيجة هذا الموقف أن أوربا المسيحية لم تسمح منذ البداية باستمرار وجود المسلمين ،وماجرى في الاندلس خير شاهد على ذلك فقد كانت الغيارات التي وضعت امام المسلمين هي في حقيقة الأمر ،القتل ،التنصير أو الطرد ،أي أنها كانت درجات في اقتلاع الجذور والغاء كيان المسلمين ،وهذا ماحدث بالفعل وأدى في النهاية الى اختفاء الاسلام تماما من الاندلس .

الرقيـــق :

كان الرق أمرا مشروعا عند الأمم القديمة من مصريين وبابليين وفرس ويونان وروم وعرب ، وقد أقرته اليهودية واعترفت به المسيحية . (٣١١) وقد أقر الرق جميع الفلاسفة والفقهاء من رومان ويونان ،افلاطون ،وأرسطو ،وشيشرون ،وسينيك ،واعتبروه من الأمور الطبيعية أو الضرورية ،وكان أول من استعبد الأسرى وسخر الشعوب المغلوبة هم الرومان ،وكثر الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم أن الارقاء في الممالك الرومانية بلغت في العدد ثلاثة أمثال الأحرار ،(٣١٢) وكانت

---

(٣٠٩) : المقدسي ص ١٧٩ ، الجاحظ ،ثلاث رسائل ، طبعة القاهرة ١٣٤٤هـ ص ١٤

(٣١٠) : المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٣١١) : أحمد شفيق ،الرق في الاسلام ،تعريب أحمد زكي ، المطبعة الاميرية - الطبعة الأولى ١٣٠٩ هـ . ص ٩ - ٢٧ . أحمد أمين ، فجر الاسلام ، الطبعة العاشرة ١٩٦٩م ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣١٢) : أحمد أمين ، المصدر السابق ص ٨٧ .

٠٠/٠٠

وجوه الاسترقاق عند الرومان متعددة.(٣١٣)

وعندما جاء الاسلام كان الرق يعتبر نظاما أساسيا في حياة الشعوب القديمة ودعامة في كيانها الاقتصادى والاجتماعي ، فلم يتمكن من الغاء الرق في العالم حتى لا تصطدم دعوته مع مألوف النفوس ولئلا تضطرب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ،واذا كان الاسلام يقدر معنى الحرية ويعتبرها الأصل في الانسان ،الا أن من خصائص تشريعه التدرج في الاحكام ،لذلك أقرّ موءقتا واقع الأمر ولم يمنع الرق دفعة واحدة ومضى في التدرج بالمسلمين(٣١٤) فهيأ أسبابا للقضاء على الرق وحرّم سائر مصادره ماعدا رق الاسر بسبب الحرب العادلة لرفع العدوان والرق بسبب الوراثه ،والشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا .(٣١٥)

وكان المسلمون اذا غزوا بلدا دعوا أهله الى احدى خصال ثلاث ، الاسلام أو الجزية أو القتال ،فان رفضوا الاسلام والدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت الحرب وقوتلوا ، وان طلب المحاربون صلحا أثناء الحرب أجيبوا اليه متى رأى الامام ذلك ،(٣١٦) " وان جنحوا للسلم فاجنح لها" ويجب اذ ذاك تنفيذ الشروط حسب ماتعاقدوا ،وان لم يكن صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد فهناك أسرى حرب وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا في الجيش المحارب ،أما الاسرى فانا نجد أنه ورد فيهم في القرآن الكريم ، " فاذا لقيتم الذين كفروا ،فضرب الرقاب ،حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ،فاما منا بعد واما فداء"(٣١٧)

---

(٣١٣) : مدونة جستنيان في الفقه الروماني ،ترجمة الدكتور عبد العزيز فهمي ،دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ١١ ؛ دروس في الفقه الروماني ، محمد محسن البرازى ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م ج١ص ٧٩ — ٨١.

(٣١٤) : علي أحمد الجرجاوى ،حكمة التشريع وفلسفته ، القاهرة ،الطبعة الرابعة ، ١٩٣٨م ،ج٢ ص ٤٠٠.

(٣١٥) : أحمد بن الحسين البيهقي ،سنن البيهقي ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، طبعة أولى ، ١٣٥٤ هـ ،ج٩ ص ٧٣.

(٣١٦) : أحمد أمين ، فجر الاسلام ،ص ٨٦.

(٣١٧) : سورة محمد ، آية ٤ .

../..

وهي تدل على أنه ليس للامام في الاسرى الا أن يمن عليهم ويطلقهم أو يأخذ مالا فدية لهم أو يفتدى الرجل المسلم بالرجل المحارب ،ولكنا نجد من ناحية أخرى أن الرسول (صلعم) كان يفعل أحد هذين الأمرين أحيانا وكان يقتل الأسير ويسترقه أحيانا أخرى ، ففي بدر قتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بعد أسرهما ، وقتل النبي (صلعم) يوم أحد أبا عزة الشاعر بعد أسره ، وقتل بني قريظه بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية ،ولكن قتل الرسول لبعض الأسرى في أول الاسلام يعتبر حوادث فردية لظروف معينة ،وليس تشريعا عاما دائما ،الا لتجدد نفس الظروف ، فقد قتل بعض الأسرى لغلوهم في معاداة الدعوة الاسلامية والتمادي في ايذاء الرسول عليه السلام والاسترسال في هجائه . (٣١٨)

أما الاسترقاق فقد أضطر الرسول الى تطبيقه هووصحابته جريا على شريعة المعاملة بالمثل ويقتضى قانون الحرب السائد في ذلك الزمان ، ولكي يشعر المسلمون غيرهم أنهم صاروا في مركز ذى كيان دولي يستطيعون تنفيذ تعاليم الحرب وتثبيت الهيبة والسلطان ، اذ لو استرق الاعداء أسرى المسلمين دون مقابلتهم بالمثل لاستمرأ العدو فعله ، ولكان ذلك سببا في زيادة عدد الرقيق في العالم دون أن يقيد ذلك بقيد ،وفي هذا من المفسدة والضرر ما لا يخفى ،ولكن المسلمين كانوا اذا قدروا عفوا وصفحوا وأظهروا فضلهم واحسانهم ، فيكون

---

(٣١٨) : القسطلاني ، شهاب الدين أحمد بن محمد ،ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى طبعة بولاق ، ١٣٢٧ هـ ج ٥ ص ١٥٧ ؛ وعن الاوزاعي أن عقبة بن معيط أقبل ورسول الله (صلعم) عند الكعبة فلوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقا شديدا فقام أبو بكر من خلفه فدفعه عن رسول الله (صلعم) . (الطبرى ج ٢ ص ٣٣٣). أما النضر بن الحارث من بني عبد الدار فكان ممن اجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما يصنعون بأمر الرسول حين خافوه ، واشترك في معركة بدر ، (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٩) وبالرغم من أن الرسول قد من على عمرو بن عبد الله ، أبي عزة الشاعر يوم بدر وكان في الاسارى ،لأنه كان فقيرا ذا بنات ، فان صفوان بن أمية استطاع أن يقنعه بأن يعينهم بلسانه مقابل اغنائه ،فخرج يسير في تهامة ويدعو بني كنانة لحرب الرسول . (الطبرى ج ٢ ص ٥٠٠ ، ٥٠١) .

../..

لك مدعاة لقبول الاسلام بما يضم بين جناحيه من انسانية ورحمة ، ويدل على هذا أن أغلب الاسترق من القبائل أو أفراد العدو قد عاد حرا ، فقد رد رسول الله ستة آلاف من سبي هوازن ن النساء والصبيان والرجال الى هوازن ،(٣١٩) ومن رسول الله (صلعم) على أهل مكة قوله " اذهبوا فأنتم الطلقاء " واعتق الرسول حين تزوج جويرية بنت الحارث مائة من أهل يت بني المصطلق اكراما لصهر رسول الله (صلعم) .(٣٢٠)

وفي خلافة عمر بن الخطاب استقامت الجزيرة كلها لنظام الخلافة ، فمنع أن يسترق العرب ،فقال : انه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا ، وقد وسع الله وفتح الأعاجم ، واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والاسلام الا امرأة ولدت لسيدها ، وجعل فداء كل انسان سبعة أبعرة أو ستة أبعرة الا حنيفة وكندة فانه خفف عنهم لقتل رجالهم (٣٢١)

ان الاجراءات التي اتخذها الرسول تجاه الاسرى جعلت أئمة الفقهاء يختلفون في حكم الاسرى ،وان اتفق معظمهم على أن هذه الامور متروكة للامام يتصرف في كل حال حسب ما يحيط به من ظروف مشددة أو مخففة . أما في حالة اسلام الاسير فالأمر يختلف ، فاذا أسلم أحد من السبي من النساء والصبيان فلا يجوز رده الى بلاد الحرب منعا للفتنة ،(٣٢٢) وان أسلم الاسير يحرم قتله عند جميع العلماء ، ولكن اعتناق الاسلام لا ينافي الرق .(٣٢٣)

أما أهل البلد المفتوح من غير المحاربين فالامام مخير بين استرقاقهم وتركهم أحرارا يدفعون الجزية والخراج ، ولكن عمر بن الخطاب واليه المرجع في كثير من هذه المسائل ،

---

(٣١٩) : ابن هشام ، السيرة النبوية ،ج ٤ ص ٩٨ ، ٩٩ ؛ الطبرى ج ٣ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٣٢٠) : الطبرى ،ج ٢ ص ٦١١ ، ٦١٢ .

(٣٢١) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٣٤٠ .

(٣٢٢) : سورة الممتحنة ،آية ١٠ .

(٣٢٣) : ابوعبيد ، الاموال ص ١٣٦ ،السرخسي ، شرح السير الكبير ، الطبعة الأولى ١٣٣٥ ، ج ٢ ص ٢٦٣ .

../..

ترك أهل سواد العراق أحرارا مقابل دفع الجزية والخراج ،(٣٢٤) واتبع عمر الاسلوب نفسه في الشام ومصر في الاراضي التي استولى عليها العرب عنوة ، (٣٢٥) واذا استرق الاسرى أو أهل البلد المفتوح فانهم يعتبرون غنيمة ،ينبغي أن تأخذ الدولة خمسهم وتوزع الأربعة أخماس الباقية بالتساوى على من اشترك بالمعركة من المقاتلة من أهل الديوان وغيرهم ، (٣٢٦) وبقيت الغنائم تقسم في عهد بني أمية عندما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر ، (٣٢٧) ويبدو أن المسلمين في عمليات فتوحهم الأولى قد أطلقوا عليا سراح معظم من وقع بأيديهم من السبي ولا سيما سبي القرى (سبي الأهواز ، (٣٢٨) وسبي مناذر ، (٣٢٩) وبلهيب والخيس وسلطيس ، (٣٣٠) وسبي تستر ، (٣٣١) إلا سبي المدن ، (٣٣٢) ولكنهم عمدوا الى قتل المقاتلة ، (٣٣٣) كما أن الاسلام حرر العبيد المسلمين الذين يفرون من أسيادهم ،اذا كان هؤلاء الاسياد من أهل الحرب . (٣٣٤)

شرع الاسلام في الواقع منافذ عديدة في سبيل التخلص من رق الأسر وتوابعه ، فجعل القرآن الكريم مصير الاسرى اما المن واما الفداء وجعل العتق كفارة عن كثير من الجرائم والذنوب ، (٣٣٥) وخصص الاسلام سهما لبيت المال من الصدقات التي تجبى لتنفق في سبيل تحرير الرقاب ،وفضلا عن ذلك فان الاسلام جعل من أسس النجاة في الآخرة .

---

(٣٢٤) : يحيى بن آدم القرشي ،الخراج ،طبعة ليدن ، ١٨٩٥ ، ص ١٢ ،البلاذرى ، فتوح ص ٢٦٨ ،الطبرى ج ٣ ص ٥٨٦ .

(٣٢٥) : البلاذرى . فتوح ص ٢١٥ ، ٢١٦ ،الطبرى ،ج ٣ ص ٣٦٩ .

(٣٢٦) : يحيى بن آدم ،ص ٣ ،ابو يوسف ، الخراج ص ٢١ ،ابن تيميه ، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ، دار الكتب العربية ، بيروت ص ٣٠ .

(٣٢٧) : ابن تيميه ، المصدر السابق ص ٣٠ .

(٣٢٨) : البلاذرى ،فتوح ص ٣٧٠ .

(٣٢٩) : المصدر السابق ص ٣٧١ .

(٣٣٠) : المصدر السابق ص ٢١٧ .

(٣٣١) : المصدر السابق ص ٣٧٤ .

(٣٣٢) : المصدر السابق ص ١٤٧ .

(٣٣٣) : المصدر السابق ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ .

(٣٣٤) : ابن حنبل ،المسند ،ج ٤ فقرة ٢١٧٦ ، ٢٢٢٩ .

(٣٣٥) : محمد سلام مدكور ،تاريخ الفقه الاسلامي ،القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٣ .

../..

فك رقبة ، (٣٣٦) وقرر الاسلام مبدأ العدل والمساواة في الحقوق كافة بين طبقات الناس قال تعالى : " ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم " (٣٣٧) وأحسن لذلك معاملة العبيد في المطعم والمسكن والملبس والتخاطب ، روى ابن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال رسول الله (صلعم) " لا يقولن أحدكم عبدى وأمتي فكلكم عبيد الله وكلكم اماء الله ، ولكن لتقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي". (٣٣٨)

كانت العلاقة بين السيد وعبده علاقة شخصية ولذلك فليس للعشيرة أو الدولة حق التدخل فيها ، وكان من نتيجة ذلك أن العشيرة لم تكن تدفع دية الجرائم التي يرتكبها عبيدها . (٣٣٩) كما أن الدولة كانت غير مسؤولة عن القبض على الأبـاق الهاربين من أسيادهم . (٣٤٠) وبالرغم من أن العبد كان يعتبر ملكا لسيده الذى يتمتع بالحق المطلق في بيعه واستخدامه فيما يشاء من الأعمال ، فانه لم يكن له الحق في قتل عبده (٣٤١) وقد روي أن رجلا قتل عبده متعمدا فجلده الرسول مائة جلدة ونفاه سنة ومحا أسمه من المسلمين ، (٣٤٢) ولكننا في الواقع لا نعلم بماذا كانت الدولة تعاقب من يقتل عبده .

كان العبيد في الاسلام يتمتعون ببعض الحقوق التي لا يمكن أن ينكرها عليهم القانون والمجتمع ، فبمقدورهم بعد استئذان سيدهم أن يتزوجوا (٣٤٣)

(٣٣٦) : الرازى ، تفسير الرازى ، المطبعة الخيرية ، الطبعة الاولى ١٣٠٧ ، ج ٨ ص ٤٣٢ .

(٣٣٧) : سورة الحجرات، آية ١٣ .

(٣٣٨) : الألف المختارة من صحيح البخارى ، اختيار وشرح عبد السلام محمد هارون ، بيروت ١٩٧٩ ص ٤٠٣ ، فقره ٣٣٣ ؛ الطحاوى ، مشكل الآثار ، مطبعة دار المعارف النظامية في الهند ، حيدر أباد ، الطبعة الأولى ١٣٣٣هـ ج ١ ص ٤٩٣ .

(٣٣٩) : أبو يوسف ، الآثار ، القاهرة ١٣٥٥ هـ . ص ٢٢١ ، مالك بن انس ، المدونه ، القاهرة ، ١٣٢٤هـ ج ٤ ص ٤٤٤ .

(٣٤٠) : ابو حنيفه ، جامع المسانيد ، حيدرأباد ١٣٣٢هـ ، ج ٢ ص ٧٣ – ٧٥ ، أبو يوسف ، الآثار ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، مالك ، المدونه ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .

(٣٤١) :

(٣٤٢) : ابن ماجه ، السنن ، القاهرة ١٣١٣ ، كتاب الديات ، الباب ٢٣ .

(٣٤٣) : ابوحنيفه ، مسانيد ج ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ، ابويوسف ، الآثار ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

../..

ويتبع اولاد هم الأم في حالة رقها وولائها ، (٣٤٤) ويعتقد وزهم أن يمتلكوا الاموال ويتمتعوا بها في حياتهم ، ولكن أموال العبيد ترجع الى سيد هم عند بيعهم أو موتهم ، (٣٤٥) ثم ان لهم أن يعتنقوا ماشاؤوا من أديان ويمارسوا طقوسها ، فاذا اعتنقوا الاسلام كانت عليهم معظم الفرائض الدينية المفروضة على الاحرار من المسلمين ، غير أن صلاة الجمعة مثلا ليست واجبة عليهم ، (٣٤٦) وكذلك الحج ، (٣٤٧) كما أن حقوقهم في الأمور المدنية أقل من الأحرار فلم يكن لهم أن يتزوجوا أكثر من زوجتين ، والطلاق عند هم طلقتان (٣٤٨) وعدة الجارية شهران ، (٣٤٩) ولم يكن للعبد أن يحارب من غير اذن سيده ، (٣٥٠) كما أنه لا يدون اسمه في الديوان ولا يعطى عطاء ، (٣٥١) ولم يكن يسهم له في الغنيمة لأنه تابع لسيده (٣٥٢) الا أنه كان يرضخ له أي يعطى أجرا ، (٣٥٣) غير أنه يجوز للعبد المسلم اعطاء الأمان اعتمادا على قول عمر : "ان العبد المسلم من المسلمين وذمته ذمتهم ، وأمانه أمانهم" (٣٥٤) أي أن الايمان هو أساس اعتبار الشخص أهلا لاعطاء الأمان ، وليس هو الحرية والعبودية ، وقد انفذ الخليفة عمر أمان العبد بالفعل عندما أمن عبد أهل حصن ، فأرسل القائد يستشيره ، فكتب عمر أن أجيزوا أمان العبد . (٣٥٥)

---

(٣٤٤) : الشافعي ، الام ، القاهرة (١٣٢١ ، ١٣٢٦ هـ) ج ٦ ص ٣٨٥ ، ابو حنيفة ، مساند ج ٢ ص ٨٣ .

(٣٤٥) : الشافعي ، الام ، ج ٣ ص ٣٦ ، ج ٤ ص ٣ ، ابو حنيفة ، مساند ج ٢ ص ٢٧ ، ١٦٥ .

(٣٤٦) : أبو يوسف ، الآثار ص ٧٣ ، الشافعي ، الام ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣٤٧) : المصدر السابق ص ٧٣ ، الشافعي ، المصدر السابق ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣٤٨) : E.I , Art. Abd.

(٣٤٩) : ابو حنيفة ، مساند ج ٢ ص ١٣٣ .

(٣٥٠) : ابن سعد ، الطبقات ج ٦ ص ١٨٣ .

(٣٥١) : البلاذري ، انساب الاشراف ، ج ٥ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٣٥٢) : ابن حنبل ، المسند ، ج ٤ فقره (٢٩٣١ ، ٢٩٣٢ ، ٢٩٣٢ ، ٢٩٣٣) ، ابن العربي ، احكام القرآن ، القاهرة ، ١٣٧٦ هـ سنة ١٩٥٧ م ج ٢ ص ٨٩٢ .

(٣٥٣) : ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٣٣ ، الطبري ، اختلاف الفقهاء ، القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٠ ، ١١٤ .

(٣٥٤) : البيهقي ، السنن ، ج ٩ ، ص ٩٤ .

(٣٥٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨٣ .

../..

وكان لبعض العبيد مزايا شخصية مكنتهم من الحصول على ثقة أسيادهم ، فأصبحوا تلامذة أو رواة لأهل العلم منهم ، (٣٥٦) أو وكلاء من أسيادهم في الاعمال التجارية هذا الى أن عددا كبيرا منهم أصبحوا مأذونين أى منحوا حق ممارسة المهن والأعمال التي يريدونها وأصبحت لهم حرية في ميادين الأعمال في الصناعة والتجارة ، (٣٥٧) على أنه مهما كانت نظرة المجتمع للعبد طيبة ، ومعاملة السيد حسنة ، فانه كان محروما من حريته مقيدا في تصرفاته ، مرتبطا بميول سيده وأمزجته وأهوائه ، محروما من التمتع بكل ثمار دخله ، فمكانته اذا لا بد أن تكون أقل من مكانة الحر المتمتع بكامل حريته .

كانت الدولة تملك رقيقا يسمى رقيق الخمس ، أو رقيق الامارة ، وكان معظم رقيق بني أمية منهم . (٣٥٨) وقد ازداد عدد رقيق الخمس نتيجة للفتوحات الاسلامية شرقا وغربا ، فقد أخذ موسى بن نصير ٣٠٠ ألف أسير من افريقيا وبلغ الخمس يومئذ ٦٠ ألفا (٣٥٩) ويقال أن قتيبة بن مسلم الباهلي أصاب من خوارزم مائة ألف رأس ، (٣٦٠) وعندما صالح قتيبة أهل سمرقند صالحهم على ألفي الف ومائتي الف في كل عام على أن يعطوه تلك السنة ثلاثين الف رأس ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب ، أما الباهليون فيقولون أنه صالحهم على ١٠٠ ألف رأس ، (٣٦١) وهذه الارقام وان كان فيها بعض المبالغة الا أنها تشير الى الاعداد الكبيرة من الرقيق التي تدفقت على الشام اضافة الى ماكان فيها من العبيد ، فقد استطاع يزيد بن أبي النمس الغساني الذى لم يشهد الجابية واختبأ بدمشق أن يثور بأهل

---

(٣٥٦) : ابن سعد ، الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣ .

E.I. , Art. Abd .

(٣٥٧) :

(٣٥٨) : ابن سعد ، المصدر السابق ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣ .

(٣٥٩) : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢ .

(٣٦٠) : الطبرى ج ٦ ص ٤٧١ .

(٣٦١) : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٧٥ .

../..

دمشق في عيدها ، وأن يغلب طيبها ويخرج عامل الضحاك ، (٣٦٢) وكان لعمرو بن سعيد وهو من امراء البيت الأموي الف عبد ، (٣٦٣) ونلاحظ ابتداء من خلافة سليمان بن عبد الملك تعيين أشخاص يوكل اليهم أمر الرقيق ، فقد عين سليمان بن عبد الملك ، عبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لوى على بيوت الاموال والخزائن والرقيق والنفقات ، (٣٦٤) وعندما سيطر العباسيون على الشام قبضوا رقيق بني أمية من الأخماس . (٣٦٥)

كان رقيق الخمس يستخدم في شؤون شتى ، فعندما أرسل معاوية سبي قيسارية البالغ أربعة آلاف رأس الى عمر بن الخطاب ، قسمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم في الكتاب وأعمال المسلمين ، (٣٦٦) واستخدم خالد بن يزيد عندما كان واليا على حمص (٤٠٠) عبد في بناء مسجدها ، (٣٦٧) كما أن عبد الملك أقام من خمس الأسرى خدما لمسجد قبة الصخرة ، وكانوا ماليك له وكانوا يسمون الاخماس ولا يخدمه غيرهم ، (٣٦٨) وكان عمر بن عبد العزيز اذا كثر عنده أرقاء الخمس فرق بين كل مقعدين وبين كل زمنين غلاما يخدمهما ولكل أعمى غلاما يقوده ، (٣٦٩) ولا شك أن الوليد بن عبد الملك الذى كان أول من أجرى على العميان والمرضى والمجذمين الارزاق وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا ، قد استخدم في ذلك رقيق الخمس ، (٣٧٠) وبالرغم من أن كلود كاهن (Claude Cahen) يذكر في بحثه عن المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في الاسلام أن العبيد كانوا يستخدمون لاداء

---

(٣٦٢) : الطبرى ج ٥ ص ٥٣٧ .

(٣٦٣) : المصدر السابق ج ٦ ص ١٤٤ ، ابن الاثير ج ٤ ص ٣٠ .

(٣٦٤) : خليفة بن خياط ج ١ ص ٤٣٢ .

(٣٦٥) : ابن سعد الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣ .

(٣٦٦) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٤٧ .

(٣٦٧) : البلاذرى ، انساب الاشراف ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩ .

(٣٦٨) : المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٧١ .

(٣٦٩) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٨ .

(٣٧٠) : العيون والحدائق ص ١١ ، ١٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ج ١ ، ص ٤٣٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٥ ، ص ٤٤ .

../..

الأعمال البيتية والحرف اليدوية وأنهم لم يستخدموا في العمل الزراعي في العصر الاموى (٣٧١) فهناك روايات تشير الى أن العمل في الأرض كان يعتبر من الأعمال الأساسية للعبيد ، وكانت المزرعة اذا وهبت وهبت بآلاتها ورقيقها. (٣٧٢)

ليست بين أيدينا روايات تلقي ضوءا على مستوى حياة الرقيق والمعاملة التي كانوا يلقونها من أسيادهم في الشام ،الا ان اشتراك عدد كبير من أباق العبيد مع الجراجمة في ثورتهم تجعلنا نتساءل عن سبب هربهم والتحاقهم بالثورة ،أهو ناجم عن سوء في المعاملة ، أم عن رغبة في الحصول على الحرية التي تعتبر أثمن مايتوق اليه الانسان ؟ مهما يكن دافعهم لا العبيد ،فان سحيم بن المهاجر الذى كان قد أرسله عبد الملك للقضاء على القائد الرومي الذى أثار الجراجمة ،استطاع أن يستميل العبيد اليه عندما أمر فنودى بأن من يأتيه من العبيد فهو حر ويثبت في الديوان (٣٧٣) فانفض اليه خلق كثير وقاتلوا معه فوفى لهم وجعل لهم ربعا على حده فهم يسمون الفتيان . (٣٧٤) وكان أمراء بني أمية وولاتهم يعتقون الكثير من رقيقهم ، فقد اعتق خالد بن يزيد (٤٠٠) عبد بعد انتهائهم من بناء المسجد بحمص ، (٣٧٥) وأعتق سليمان حسب رواية النويرى في يوم واحد سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم ، (٣٧٦) هذا وان كثرة الموالي لدى الخلفاء ولدى أمراء بني أمية كلها دلائل تشير الى ذلك .

---

(٣٧١): Claude Cahen, Economy, Society, Institution, The Cambridge History of Islam, Vol. II The Cambridge University Press 1970, P. 519.

(٣٧٢): المسعودى ،مروج الذهب ،ج ٣ ص ١١٩ ،تهذيب ج ٥ ص ٣٤٢ ،ابن طولون ، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ،تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦م ص ٦ ، ٧ .

(٣٧٣): البلاذرى ،انساب ج ٥ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ابن الاثير ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٣٧٤): المصدر السابق ص ٣٠٠ .

(٣٧٥): المصدر السابق ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩ .

(٣٧٦): النويرى ،نهاية الارب في فنون الأدب ،ج ٢١ ، ص ٣٥٣ .

الفصل الرابع

دور أهل الشام في توطيد سلطان بني أمية

دور أهل الشام في دعم خلفاء بني أمية :

كان أهل الشام القاعدة المتينة والجبهة المتراصة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها ، وكل اختلال في هذه الجبهة كان يعرض الخلافة الأموية للخطر كما سيتبين لنا من خلال البحث ، وقد رأينا دعم أهل الشام لمعاوية في صفين ، كما دعم أهل الشام يزيد بن معاوية ، عندما رفض عبد الله بن الزبير البيعة له ،[1] وانضم أهل المدينة اليه فثاروا على يزيد ، وبالرغم من أن معظم المصادر تقسو بشكل عام على يزيد ، الا أنها في الوقت نفسه تحاول أن تبرز محاولات يزيد المتكررة في الوصول الى حل يمنع سفك الدماء ، كما أنها تشير الى أن يزيد بن معاوية لم يعمد الى حرب أهل المدينة ثم عبد الله بن الزبير الا بعد أن فشلت المفاوضات التي اشترك فيها عدد من الشخصيات البارزة في المجتمع الشامي .[2] وهذا بدوره ساعد يزيد على أن يحصل على دعم القوات الشامية بفئاتها المختلفة ، ومن ثم نجد اتفاقا في عدد كبير من المصادر بأن الجيش الذى انتدب لقتالهم كان مؤلفا من (١٢) ألف مقاتل يضم مقاتلة من الأجناد الخمسة ،[3] كما أنه كان يضم وجوه أهل الشام وفرسانهم ،[4] المؤمنين

---

(١) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٤ قسم ٢ ص ٣١ .

(٢) : المصدر السابق ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠ ، ٣٢ ، ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٥ ص ٢٧٩ ، ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٣٣ . الطبرى ، ج ٥ ، ص ٤٩٣ . تاريخ الخلفاء لمؤرخ مجهول ، ص ١٩٧ . ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١١٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ص ٦٠ .

(٤) : الطبرى ، ج ٥ ص ٥٣٧ .

../..

بأن النصر سيكون عليهم لأن أهل المدينة قد خالفوا الامام وخرجوا من الجماعة ،(٥)
وقد انتصر أهل الشام بفضل طاعتهم لأمرائهم واستقامتهم وصبرهم في لقاء عدوهم (٦) في
معركة الحرة في ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٦٣ هـ ،ولكننا يجب أن لا نغفل الدور
الذي لعبه عبد الملك والخطأ الذي ارتكبه أهل المدينة باخراجهم بني أمية منها ، وبالرغم
من أنهم أخذوا المواثيق عليهم أن لا يدلوا لهم على عورة وأن لا يظاهروا عليهم عدوا ،(٧)
فان عبد الملك عندما التقى بمسلم بن عقبة المرى قائد الجيش الشامي في وادي القرى ،نصحه
أن يتوجه بجيشه الى المنطقة القريبة من المدينة التي يمكنه فيها " أن يستظل جيشه بظل
نخلها وأن يأكلوا من صقره " كما نصحه أن يذكي الحرس الليل كله عقبا بين أهل العسكر ،
ثم أن يتجه بعد صلاة الصبح مشرقا بحيث تكون المدينة الى يساره ثم يدور حول المدينة
حتى يأتيهم من قبل الحرة مشرّقا ثم يهاجم القوم لأن الشمس عند ذلك ستطلع بين أكتاف
أصحاب مسلم فلا تؤذيهم ، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرّها ويصيبهم أذاها " ويرون
مادمتم مشرّقين من ائتلاق بيضكم وحرابكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم مالا ترونه
أنتم لشيء من سلاحهم ماداموا مغرّبين ".(٨)

بالرغم من انتصار القوّات الشامية في موقعة الحرّة الاّ أن هذه المعركة زادت من
مكانة عبد الله بن الزبير في الحجاز ،اذ بايعه أهل مكة وأهل الحجاز وأتاه أهل
الحرّة ، كما قدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في ناس من الخوارج ليمنعوا البيت
من أهل الشام ،(٩) وتوجه الحصين بن نمير الذي تولى قيادة الجيش اثر وفاة
مسلمة بن عقبة المرى (١٠) الى مكة لمحاربة ابن الزبير ، فحاصرهم حصارا شديدا

---

(٥) : الطبري ،ج ٥ ص ٤٨٦.

(٦) : البلاذري ،أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٣٦ ، الطبري ،ج ٥ ص ٤٨٩.

(٧) : الطبري ،ج ٥ ص ٤٨٥.

(٨) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٤٨٦.

(٩) : البلاذري ،أنساب ،ج ٤ قسم ٢ ،ص ٤٧ ، الطبري ،ج ٥ ص ٤٩٧.

(١٠) : الطبري ،ج ٥ ص ٤٩٦ ، ٤٩٧.

../..

بقية المحرم وصفر ومدة أربعين يوما اثر وفاة يزيد بن معاوية الذى مات لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، وقد بويع لمعاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بالشام بالخلافة ولعبد الله بن الزبير بالحجاز . (١١)

ان الترابط الذى نشاهده في بلاد الشام بين الأجناد جميعها لا يلبث أن يتصدع بعد وفاة يزيد وابنه معاوية في السنة نفسها ، ولا يعود هذا الانشقاق الى الصراع بين قيس ويمن كما يحلو لبعض المؤرخين اظهاره ، وانما لعدم وجود شخصية قرشية بارزة في الشام يمكنها أن تستقطب ولاء أهلها كما استقطبهم معاوية في صراعه مع علي ، ولذلك اتجهت الأنظار كلها تقريبا في بادئ الأمر الى عبد الله بن الزبير ، ففي رواية هشام بن عمّار عن مولى لمعاوية ، أنه لما مات معاوية بن يزيد مال أكثر الناس الى ابن الزبير " لأنه رجل كامل السن ابن حوارى رسول الله ، وابن بنت أبي بكر ذات النطاقين " ، فاهو الآن ورد كتاب ابن الزبير بتولية الضحاك بن قيس دمشق حتى سارعوا الى طاعته وبيعته ، (١٢) ومن المعروف أن الضحاك بن قيس كان من أكثر الناس ولاء لمعاوية وابنه يزيد ، كما يشير البلاذرى الى أن ناتل بن قيس الجذامي أخذ البيعة لابن الزبير في فلسطين ، وضبط له النعمان بن بشير الأنصارى بيعة أهل حمص ، (١٣) وأخذ له زفر بن الحارث الكلابي بيعة أهل قنسرين ، (١٤) فاستقامت لابن الزبير الشام كلها الا الأردن ، وهذا هو الثبت كما يقول البلاذرى . (١٥) ويتبين لنا من رواية ابن سعد عن محمد بن عمر أن مروان

---

(١١) : الطبرى ، ج ٥ ص ٥٠١ .

(١٢) : البلاذري ، أنساب ، ج ٤ قسم ٢ ص ٦٤ .

(١٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٢٨ ، الطبرى ، ج ٥ ص ٥٣١ .

(١٤) : الطبرى ، ج ٥ ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٤٥ .

(١٥) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٥ ص ١٢٨ .

../..

بن الحكم نفسه رأى في بادئ الأمر أن ينطلق الى ابن الزبير فيبايعه ، (١٦) ولكن قدوم عبيد الله بن زياد من العراق أدى الى تغيير في الموقف ، اذ منعه قائلا : "استحييت لك مما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنع". (١٧) أما ابن الاعثم ، فيذكر أن روح بن زنباع هو الذى أشار على مروان أن يطلب هذا الأمر لنفسه " لأنه شيخ كبير بني أمية وهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان " ،(١٨) ذلك أن قسما من أهل الشام من رؤوس قريش ومن بني أمية ومن أشراف أهل الشام كانوا مستعدين لتقبل عبد الله بن الزبير كخليفة ، ولكنهم يجدون صعوبة في تقبل فكرة انتقال الملك من أهل الشام الى أهل الحجاز،(١٩) وهذا الرفض نجده كذلك في رواية عوانه بن الحكم الذى يذكر أن الحصين بن نمير السكوني الذى كان محاصرا لمكة طلب مقابلة عبد الله بن الزبير بالأبطح عندما بلغه خبر وفاة يزيد وأنه قال لابن الزبير : "ان يك هذا الرجل قد هلك ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فهلم لنبايعك ثم أخرج معي الى الشام فان هذا الجند الذى معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان" ، ولكنه اشترط على عبد الله أن يهدر الدماء التي كانت بينهما والتي كانت بين أهل الشام وأهل الحرّه ، فرفض عبد الله ، فكان سعيد بن عمرو يقول : " مامنعه أن يبايعهم ويخرج الى الشام الآ تطير ، وأن عبد الله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه اثنان". (٢٠) ويبدو أن ابن الزبير ندم على الذى صنع ، فأرسل الى الحصين يبلغه أنه لن يسير الى الشام لأنه يكره الخروج من مكة ، ولكنه طلب منه أن يبايعوا له هنالك ، وأنه مؤمنهم وعادل فيهم،

---

(١٦) : الطبرى ، ج ٥ ص ٥٣٠.

(١٧) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٠.

(١٨) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(١٩) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ١٢.

(٢٠) : الطبرى ، ج ٥ ص ٥٠٩.

../..

ولكن الحصين بن نمير بيّـن له صعوبة تحقيق مطلبه ، لأنه اذا لم يقدم بنفسه ، فان هناك شخصيات قرشية أخرى ستطلب هذا الأمر لنفسها وستجد تأييدا من الناس الى ذلك ، (٢١) وقد حدث هذا فعلا لأن رفضه لهذا الاقتراح ، رجح كفة مروان بن الحكم الذى اعتلى عرش الخلافة دون أن يكون له بها أرب ، اذ أن خروجه من الحجاز حين نفي مع بني أمية كان السبب البعيد لوصوله الى هذا المنصب ، ولو بقي في الحجاز لما عرفه أهل الشام ولما بايعوه ، لاسيما وأن حسّان بن مالك بن بحدل كان هواه مع مرشح من الفرع السفياني ، ولكن أهل الاردن بالرغم من استعدادهم للوقوف الى جانب حسان بن مالك ضد من خالفه من الناس وأطاع لابن الزبير ، فانهم رفضوا أن يكون الأمر لابني يزيد بن معاوية ، عبدالله وخالد ، " فانهما حديثة أسنانهما ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي ." (٢٢) وكان مالك بن هبيرة السكوني كحسان بن مالك يهوى هوى بني يزيد بن معاوية لأن مروان كما قال مالك للحصين بن نمير " ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها ، ان مروان أبو عشيرة ، وأخو عشيرة ، وعم عشيرة ، فان بايعتموه كنتم عبيدا له". (٢٣) ومع ذلك فان أهل الجابية من بني أمية ومن تبعهم وحسّان ورهطه اجتمع رأيهم في النهاية على أن يبايعوا لمروان ، وكان روح بن زنباع الجذامي من أكثر المتحمسين لمروان إذ بيّـن أحقية مروان بن الحكم بالخلافة وأنه لم يكن في الاسلام صدع قط الا وكان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، واقترح أن يبايع الناس الكبير ويستشبوا الصغير ، يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد . (٢٤)

---

(٢١) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٠٢ .

(٢٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٦ .

(٢٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٦ .

(٢٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٧ .

../..

وبالرغم من أن الضحاك كان قد مال بمن معه من الناس في بادئ الأمر يريد الجابية للقاء حسان بن مالك بن بحدل ، الا أنه لم يلبث أن غير موقفه بتأثير من ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السلمي لأنه كما قال له ثور ، انما دعاهم الى طاعة ابن الزبير فبايعوه على ذلك ،أما التوجه الى حسان بن مالك فيعني مبايعتهم لمرشحهم أو من سير شحونه ، وهذا بدوره سيؤدى الى سيطرة بني كلب وازدياد نفوذهم وهو أمر لا يتقبلونه ، ولذلك مال الضحاك بمن معه من الناس حتى نزل مرج راهط. (٢٥)

بعد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة في الجابية ، توجه نحو مرج راهط في أهل الأردن من كلب وأتته السكاسك والسكون ،وغسان وربع حسان بن مالك بن بحدل. (٢٦) ومن قصيدة يقال أن مروان أنشدها يوم بويع يتبين لنا أن القبائل التي أيدت مروان كانت كلها يمانية وقضاعية ،كلب ، السكاسك ،طيء ،القين ،تنوخ ، والسكون ،وغسان ،(٢٧) في حين أن القبائل التي أيدت الضحاك كانت قيسية ويمانيه ، اذ يذكر البلاذرى أنه كان مع الضحاك خلق من أهل اليمن الا أن قيسا كانوا رؤوس الناس وعددهم، (٢٨) فقد استمد الضحاك النعمان بن بشير الأنصارى وهو على حمص فأمده بشرحبيل بن ذى الكلاع ، واستمد أيضا زفر بن الحارث وهو على قنسرين فأمده بأهل قنسرين ، وأمده ناتل بأهل فلسطين فاجتمعوا عنده في مرج راهط ، فاذا قبلنا رواية خليفة بن خياط وابن عبد ربه لوجدنا أنه كان مع الضحاك ستون ألف مقاتل ومع مروان

---

(٢٥) : الطبري ،ج ٥ ص ٥٣٤.

(٢٦) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٥٣٧ ،ابن الاثير ،ج ٤ ص ١٤٥.

(٢٧) : الطبرى ،ج ٥ ص ٥٣٨ ، البلاذرى ،أنساب ،ج ٥ ص ١٣٨ ، ابن الأعثم ، فتوح ،ج ٥ ص ٣١٢ ،٣١٣ ،المسعودى ،مروج الذهب ، ج ٣ ،ص ٨٧ ، ابن الأثير ،ج ٤ ،ص ١٤٩ ، النويرى ، نهاية الأرب ،ج ٢١ ص ٨٥.

(٢٨) : البلاذرى ، أنساب ،ج ٥ ،ص ١٣٠.

../..

ثلاثة عشر الفا فقط ،(٢٩) في حين تشير رواية ابن الأعثم أن مروان كان في ثمانية عشر ألفا أكثرهم جماعة اليمن ،وأن الضحاك بعد امداد بشير الأنصارى كان في ٢٢ ألفا أكثرهم من قبائل قيس . (٣٠) واعتقد أن الأرقام التي يذكرها ابن الأعثم أقرب الى الواقع والمنطق من تلك التي ترد عند خليفة وابن عبد ربه ،لأننا اذا قبلنا أن الضحاك كان في ستين ألفا فمعنى ذلك أن القبائل اليمانية التي كانت معه كانت أكثر من القيسية ،وهذا يتناقض مع الروايات التي تشير الى أن الأكثرية مع الضحاك كانت قيسية ،وقد رأينا عند دراستنا لتوزع السكان أن العناصر اليمانية والقضاعية هي الغالبة في كل الأجناد ماعدا جند قنسرين ، التي كانت أكثريتها قيسية ، الا أنه لا يمكن أن يصل عدد مقاتلته الى اكثر من (٢٠) ألفا ، وبالرغم من أن بعض الروايات تحاول التأكيد على كثرة القتلى من قيس ، فان رواية عوانه بن الحكم تشير الى أن أهل الشام قتلوا يومئذ مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قط بين القبائل . (٣١)

ما أن انتصر مروان في معركة مرج راهط حتى أطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له واستعمل عليها عماله ، (٣٢) وكان أول مافعله مروان بعد أن استتب له الأمر في الشام أن توجه نحو مصر بقوات شامية ، (٣٣) مع عدد كبير من أشراف أهل الشام ، (٣٤) اذ أن أهمية مصر ظهرت في الواقع أثناء الصراع بين علي ومعاوية بسبب موقعها الفريد وموارد هـا الوافرة ،وترجيح كفة من يسيطر عليها ،ونجح مروان في استعادة مصر من أنصار عبد الله بن الزبير ثم غادرها أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية للحكم الأموى وولّى عليها ابنه عبد العزيز بن مروان . (٣٥)

---

(٢٩) : خليفة بن خياط ،ج ١ ص ٣٢٦ ،ابن عبد ربه ،العقد ،ج ٤ ص ٣٩٦ .

(٣٠) : ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٥ ص ٣١٣ .

(٣١) : الطبرى ،ج ٥ ص ٥٣٧ .

(٣٢) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٥٤٠ .

(٣٣) : الكندى ،الولاة والقضاة ، ص ٤٦ .

(٣٤) : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٣٥) : الطبرى ،ج ٥ ص ٥٤٠ ،الكندى ،ص ٤٧ .

../..

كان من نتيجة معركة مرج راهط ودعم حسان بن مالك أن بقيت مكانته ومكانــــة قبيلته رفيعة ،واشترط حسان بن مالك على مروان ماكان لهم من الشروط على معاويـــة وابنه يزيد منها أن يفرض لهم لألفي رجل ، ألفين ألفين ،وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه ،وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجالس ،فرضي مروان ،(٣٦) كما اشترط الحصين بن نمير بن نايل الكندى ثم السكوني على مروان أن ينزل البلقاء من كان بالشـام من كنده ،وأن يجعلها لهم مأكله فأعطاه ذلك ،(٣٧) وكان لحسان بن مالك الدور الأكبر في جعل الخلافة بعد مروان لعبد الملك اذ فضل أن تنتقل الخلافة الى أولاد مروان على أن تنتقل الى عمرو بن سعيد الأشدق .(٣٨)

توفي مروان في شهر رمضان سنة ٦٥ هـ ،وانتقلت الخلافة الى عبد الملك الذى كان عليه أن يواجه مشاكل عديدة استطاع أن يقضي عليها الواحدة بعد الأخرى ، الا أن أهم أمر كان يشغله هو أمر عبد الله بن الزبير الذى دانت له البلدان كلها الا الشام ومصـــر ، ومع ذلك لم يتعجل عبد الملك الأمور ، وانتظر حتى قضى مصعب بن الزبير على المختــار بن أبي عبيد الثقفي ،(٣٩) وبالرغم من أن القضاء على المختار كان سنة ٦٧ هـ فان انتصار عبد الملك على مصعب ومقتله لم يتم الا سنة ٧٢ هـ ،(٤٠) لأن عبد الملك شغل بفتنة عمرو بن سعيد بن الأشدق الذى تحصّن في دمشق وأعلن العصيان أثناء خـروج عبد الملك من دمشق يريد قرقيسيا وفيها زفر بن الحارث الكلابي ،(٤١) أو لحرب مصعـب ، فاضطر عبد الملك الى الرجوع ،وجرى بينه وبين عمرو قتال انتهى الى عقد الصلح بينهما ، ولكن عبد الملك لم يلبث أن استدرج عمرو بن سعيد الى قصره وقتله ، وذلك سنة ٦٩ ،أو ٧٠ هـ(٤٢)

---

(٣٦) : المسعودي ،مروج الذهب ،ج ٣ ص ٨٦ .

(٣٧) : الطبرى ،ج ٥ ص ٥٤٤ .

(٣٨) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٦١٠ .

(٣٩) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ١٠٩ — ١١٦ .

(٤٠) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ١٦٠ وفي بعض الروايات أن مصعب قتل سنة ٧١ هـ .

(٤١) : قرقيسيا ،بلد على نهر الخابور ،قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ ، وعند مصب الخابور في الفرات ، فهي في مثلث بين الخابور والفرات .

(٤٢) : الطبرى ،ج ٦ ص ١٤٠ ،خليفة ،ج ١ ص ٣٣٧ .

../..

كذلك اضطر عبد الملك لمصالحة الجراجمة الذين انضموا للروم في جبال اللكام على ألف دينار كل جمعة ، وصالح طاغية الروم كذلك على مال يؤديه لكي يتفرغ لحرب مصعب الذى دانت له أرض العراق وسائر البلدان فأصبح خطرا يهدد عبد الملك ، ومن ثم جمع عبد الملك اخوته واشراف أهل بيته وأوضح لهم قوة مصعب وأنه يخشى أن يغزوهم في عقر دارهم ،" وأنه ما من قوم غزوا في عقر دارهم الا وذلوا ". (٤٣) فكانت نصيحتهم اليه أن يجمع رجاله ويعد عدته وأن يسير الى خصمه قبل أن يسير خصمه اليه ،" فوجه عبد الملك الى كور الشام فاجتمع له جميع الأجناد ". (٤٤) ويذكر المسعودى أن عبد الملك خرج في جند الشام ومصر والجزيرة (٤٥) بينما يذكر ابن الأعثم خروج عبد الملك في جند الشام ومصر ، (٤٦) الا أن الكندى لا يشير الى اشتراك جند مصر الا في القضاء على عبد الله بن الزبير ، (٤٧) ولذلك يمكن الاستنتاج بالاستناد الى هذا الاختلاف الوارد في الروايات ،أن عبد الملك اعتمد بالدرجة الأولى على القوات الشامية لأنه قبل خروجه لقتال مصعب زحف على الجزيرة قاصدا زفر بن الحارث زعيم القبائل القيسية ،وجرت بينه وبين زفر مفاوضات انتهت بعقد أمان بينهما ، ويقال أن زفر خرج مع عبد الملك لحرب مصعب ولكنه لم يشترك في القتال ، (٤٨) ويبدو أن هدف عبد الملك من هذه العملية كان أن يتجنب ما حدث لعبيد الله بن زياد وأن يحمي ظهره أثناء صراعه مع مصعب،(٤٩) لا شك أن توجه عبد الملك بنفسه

---

(٤٣) : الدينورى ،الأخبار الطوال ص ٣١٠.

(٤٤) : المصدر السابق ،ص ٣١١.

(٤٥) : المسعودى ،مروج الذهب ،ج ٣ ص ١٠٥.

(٤٦) : ابن الأعثم ، ج ٦ ص ٢٦.

(٤٧) : الكندى ،ص ٥١.

(٤٨) : البلاذرى ، أنساب ،ج ٥ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥.

(٤٩) : نبيه عاقل خلافة بني أمية ، ص ١٥٥.

../..

لقتال مصعب ، (٥٠) ودعم القوات الشامية له لعبت دورها في الانتصار الذى حققه عبد الملك ، ولكننا يجب أن نشير الى أنه بالرغم من كفاءات مصعب بن الزبير القيادية العظيمة الا أن أهل العراق خذلوه ، اذ تواطأ البصريون بحجة أن الخوارج الحرورية برئاسة قطرى بن الفجاءة قد نزلوا سوق الأهواز ، وغدوا على مقربة من البصرة ، وأن البصريين يخشون هجومهم على مدينتهم . (٥١) واذا قرأنا رواية البلاذرى نجد أنه يدعي أن أشراف أهل العراق كتبوا الى عبد الملك يدعونه الى أنفسهم ويخبرونه أنهم مبايعوه ، فلم يبق بالبصرة شريف الا كاتبه غير المهلب ، (٥٢) وفي هذا لزعم ، اذا صح ، دلالة على يأس الأشراف في العراق من حكم ابن الزبير واعتقادهم بأن استقرار مصيرهم لن يتم الا اذا ضبط لهم الأمور فيها شخص قوى كعبد الملك يستطيع أن يضع حدا لعهد طويل من الفوضى ، أضرّ بمصالحهم وعطل أعمالهم وكبدهم الخسائر الكبيرة في الأرواح والأموال ، وفتح بابا لأمور يعدونها خطيرة لا سيما ماجرى زمن المختار من علو مكانة الموالي وساواتهم في العطاء مع الأشراف واشراكهم في أموال الفيء ، وغير ذلك مما احتج عليه الأشراف ووقفوا ضد المختار بسببه ، (٥٣) ومع ذلك نجد بعض الأشراف يتخوفون من ادخال أهل الشام عليهم ، فهذا الأحنف بن قيس يقول لزياد بن عمرو العتكي : " أظنك والله يازياد وأصحابك ستدخلون علينا ذلا وبلاء عظيما ، أحسبكم والله ستدخلون علينا أهل الشام فيقتلونا وينزلون دورنا " ، (٥٤) وهذا قيس بن الهيثم يقول لأهل البصرة " ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليضيقن عليكم منازلكم " . (٥٥) وهذا دليل على العصبية الاقليمية التي بدأت تظهر

---

(٥٠) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٣٥ ، اقترح البعض على عبد الملك أن لا يعمد الى قيادة الجيش الموجه لقتال مصعب ، فكان رده ، أنه لو بعث الى مصعب جميع أهل الشام ، لغلبهم وفضهم مالم يكن معهم .

(٥١) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٢ .

(٥٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٤ .

(٥٣) : نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ١٥٥ .

(٥٤) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٣٢ .

(٥٥) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٤٤ .

../..

في هذه الفترة من صدر الاسلام .

بعد القضاء على مصعب وقتله ، سنة ٧٢ هـ وفقا لأغلب الروايـــات ، وأخذ عبد الملك البيعة من أهل العراق ، وجه الحجاج بن يوسف الثقفي الى عبد الله بن الزبير بمكـــة وسار في بقية أهل الشام الى دمشق . (٥٦) ويذكر الواقدى أنه أرسل الحجاج بن يوسف في ألفين ويقال في ثلاثة آلاف ويقال في خمسة آلاف من أهل الشام ، (٥٧) أما ابن الأعثم فيذكر أن عبد الملك ضم للحجاج أثناء توجهه لقتال عبد الله بن الزبير ستة آلاف رجـــل ، ألفين من أهل الشام وألفين من أهل مصر وألفين من فرض العراق . (٥٨) ولكننا عندما نتتبع سير الأحداث في المصادر نرى أن اعتماد الحجاج في القضاء على عبد الله بن الزبير كـــان وقفا على أهل الشام ، فقد توجه الحجاج بعد قضائه شهرا في الطائف الى مكة وحصـــر ابن الزبير في المسجد وأرسل جماعة من أهل الشام الى المدينة كي يستولوا على مقاليـــد الأمور فيها ويخرجوها من سلطان ابن الزبير ، (٥٩) وكانت خطة الحجاج ترك ابن الزبير محصورا في الكعبة حتى يفنى ما معه من زاد فيضطر وصحبه للاستسلام ، وفعلا قل مخزون الطعـــام وارتفعت أسعار المواد الغذائية ، ارتفاعا فاحشا ، حتى بيعت الدجاجة بعشرة دراهـــم ومد الذرة بعشرين درهما ، (٦٠) بينما كانت العير تحمل الى أهل الشام من عند عبد الملك السويق والكعك والدقيق ، (٦١) ولما طال الحصار على ابن الزبير وجد أن لا فائدة ترجـــى من الاستمرار في الاعتصام بالكعبة فخرج منها وقاتل حتى سقط قتيلا بعد أن انفض عنـــه الكثير من أصحابه ، (٦٢) ونفهم من رواية ابن سعد عن محمد بن عمر أن أجناد الشام الخمسة اشتركت مع الحجاج في قتال عبد الله بن الزبير (٦٣) كما اشتركت في قتـــــال

---

(٥٦) : المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١١٠ .

(٥٧) : البلاذرى ، أنساب ج ٥ ص ٣٥٧ ، ويذكر ابن قتيبة أن عبد الملك أرسل الحجـــاج في ألف وخمسمائة رجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف ثم جعل عبد الملك يرسل اليه الجيوش رسلا ، ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٤ .

(٥٨) : ابن الأعثم ، فتوح ج ٦ ص ٢٧٢ .

(٥٩) : البلاذرى ، انساب ، ج ٥ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٦٠) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٦١ .

(٦١) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٦٠ ، الطبرى ، ج ٦ ص ١٧٥ .

(٦٢) : الطبرى ، ج ٦ ص ١٨٨ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٣٥٢ - ٣٥٥ .

(٦٣) : الطبرى ، ج ٦ ص ١٩٠ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٣٥٤ .

../..

مصعب ، وهكذا نرى أن دعم أهل الشام لعبد الملك ساعده على ضم المناطق المختلفة المنشقة الى حظيرة الحكم الأموى ، واستتب الأمر لعبد الملك بعد أن تخلص من الحركة الزبيرية ، هذه الحركة التي طال أمدها وظلت نارها مشتعلة مدة ثلاثة عشر عاما من سنة ٦٠ هـ الى ٧٣ هـ ، كما انتهى بانتهاء ابن الزبير عهد الصراع باعتباره ستار الخلافة وواجهتها .

ما أن انتهى عبد الملك من القضاء على عبد الله بن الزبير ، حتى عمد الى جمع شتات القبائل التي فرّقتها أحداث الفتنة الثانية ، اذ أن موقعة مرج راهط كانت الشرارة الأولى لحروب ووقائع عنيفة بين قبيلتي قيس وتغلب من ناحية ، وبين قيس وكلب من ناحية أخرى ، اذ أن قبيلتي كلب وتغلب كانتا مروانية وكانت قيس زبيرية ،(٦٤) وهنا لابد من الاشارة الى أن هذه الوقائع جرى معظمها على أطراف البادية ، فقد كانت منازل كلب البادية تتاخم منازل بطون قيس التي نزلت بالجزيرة وجلها من بني سليم وبني عامر بن صعصعة ، أما الوقائع بين قيس وتغلب فقد جرى معظمها في الجزيرة . وقد استطاع عبد الملك بالحزم تارة ، والمداراة تارة أخرى ، أن يوطد الأمن في المنطقة كلها كما استطاع بعد أن استتب له الأمر أن يسلك طريقا وسطا في ميدان العصبيات ، فأدت سياسته الى التخفيف من غلواء السيطرة اليمانية التي عبر عنها عويج الطائي بقوله :

فلولا أمير المؤمنين لأضحت

قضاعة أربابا وقيسا عبيدها .(٦٥)

وقد أدى هذا الموقف الى ترك القيسية سياسة المقاومة لعبد الملك الذى قرّب رجالها وسوّدهم من الأمور ما وسّد خصومهم من اليمانية ، فكان زفر بن الحارث وأبناؤه هذيل وكوثر من بعده من أكبر الشخصيات وأعظمها جاها في بلاط دمشق ،(٦٦) كما أشعر الكلبيين

---

(٦٤) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٠٨ - ٣١٤ .

(٦٥) : الطبرى ، ج ٥ ، ص ٥٤٤ .

(٦٦) : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ، ص ١٣١ .

../..

واليمانيين أنهم لا يزالون موضع اهتمامه ،وأنهم لا يقلون أهمية عنده من القيسيين كابن بحدل، وروح بن زنباع الجذامي (٦٧) وقبيصة بن ذويب الخزاعي من الأزد ، (٦٨) أما في مجال الشعر والشعراء فلم يكن عبد الملك يأذن في بادئ الأمر ولا يسمع من شعراء مضر لأنهم كانوا زبيرية ،ولم يأذن لجرير الا بعد تدخل من الحجاج ، (٦٩) الذى أطلع عبد الملك أنه لم يكن ممن والى ابن الزبير وأنه لم ينصره بيده ولا بلسانه ، ومع ذلك بقي عبد الملك مفضلا للأخطل التغلبي (من قبائل ربيعة) ولعدى بن رقاع العاملي . (٧٠)

دور أهل الشام في دعم ولاة بني أمية في العراق :

كان من نتائج انتقال الحكم الى البيت الأموى انتقال مركز الثقل السياسي والاقتصادى من العراق الى الشام ،ذلك أن العراق كان خلال خلافة علي بن أبي طالب وأثناء صراعه مع معاوية مستقرا له ومقرا لحكمه ،وكان أهله شيعة له ،ولولا التحكيم ،وانشقاق الخوارج ، وماتلاه من عملية الاغتيال الغادر التي تعرض لها علي بن أبي طالب لكانت سيادته سيادة حقيقية ،لا ينازعها منازع ،فاذا أضفنا الى ذلك أن القبائل العربية التي هاجرت الى العراق أثناء الفتح كانت في غالبيتها من قبائل الردة الذين ثاروا أصلا على فكرة الحكم المركزى ، وأن هذه القبائل لم تنكسر حدة تمردها القبلي نتيجة لسكناها في معسكرات خاصة كالبصرة والكوفة ، لأدركنا سبب ذلك الصراع الذى قام خلال هذا العصر بين السلطة المركزية المتمثلة بالخلافة الأموية من جهة ورجالات القبائل والشيعة والخوارج من جهة أخرى، وليس مجال بحثي التعرض الى هذه الحركات والثورات التي نجد لها تفصيلا وافيا في المصادر والمراجع ، وانما غايتي اظهار مدى اعتماد ولاة بني أمية في العراق على القوات الشامية في الفترة المروانية ، بحيث أصبح الاعتماد وقفا عليها وحدها أحيانا .

---

(٦٧) : الطبرى ،ج ٦ ص ٤١٢ ،تهذيب تاريخ دمشق ،ج ٥ ص ٣٤٠ .

(٦٨) : الطبرى ،ج ٦ ص ٤١٢ ، ابن عبد ربه ، العقد ،ج ٣ ص ٣٨٢ .

(٦٩) : الأغاني ،ج ٨ ،ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٧٠) : المصدر السابق ،ج ٨ ص ٨٠ .

../..

٢- مقاتلة الشام ودورهم في قمع حركات الخوارج في العراق :

أثار الخوارج في وجه الخلافة الأموية الفتن والقلاقل ، ومما زاد في خطورتهم أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم ، بل أخذت جموعهم المتفرقة في أنحاء الدولة تقلق الولاة وتناوئهم ، فاستغرق ذلك جهودهم ، وقد أجبر معاوية أهل الكوفة عندما ثار فروة بن نوفل الأشجعي ومعاوية في النخيلة أن يعمدوا الى محاربة الخوارج مهددا اياهم أن لا أمان لهم عنده حتى يكفوا بوائقهم. (٧١) فخرج أهل الكوفة الى الخوارج فقاتلوهم ، واتبع المغيرة بن شعبة الأسلوب نفسه عند خروج المستورد بن علفة ، اذ جمع الناس وخطب فيهم بعد أن حمد الله واثنى عليه " أما بعد فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى .... وقد ذكر لي أن رجالا منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف ، وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر الا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ". (٧٢) وطلب المغيرة من كل امرئ من الرؤساء أن يكفه قومه والا فانه سيغير سياسته تجاههم ، (٧٣) وكان أكثر الناس تحمسا لقتالهم صعصعة بن صوحان من أتباع علي الذي بيّن لقومه عبد القيس ، أنه لا قوم أعدى لله ولأهل بيت الرسول ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا الامام علي واستحلوا دماء أتباعه وشهدوا عليهم بالكفر ، وحذرهم أن يؤووا أحدا في دورهم ، ثم وجه المغيرة فرسان أهل الكوفة ، وكان قد أمر بانتخابهم انتخابا وجعل على رأسهم معقل بن قيس وطلب منه أن يسير اليهم وأن يدعوهم للتوبة والى الدخول في الجماعة وأن يقبل منهم ان فعلوا . (٧٤) ومما يثير الانتباه أن أهل كل مصر كانوا مسؤولين عن مناجزة الخوارج في مصرهم ، (١٧٥) فلما جاء الحجاج أبطل ذلك وكتب الى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي

---

(٧١) : الطبري ، ج ٥ ص ١٦٥ .

(٧٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٨٤ .

(٧٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٨٤ .

(٧٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٨٩ .

(٧٥) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

../..

كان قد أرسله لملاحقة شبيب ،أن يطلب شبيبا ويسلك في أثره أين سلك حتى يدركه فيقتله أو ينفيه فانما السلطان سلطان أمير المؤمنين ، وذلك أنه عندما وصل شبيب دقوقاء وشهرزور ،قال عبد الرحمن ،انما هو في أرض الموصل فليقاتلوا عن بلادهم أو ليدعوه . (٧٦) ان نظرة الحجاج هذه هي التي دفعته فيما بعد الى الاستنجاد بجند الشام ، فالولايات بالنسبة اليه وحدة متماسكة ،فلا عراق ولا شام ولا مصر ولا حجاز وانما السلطان سلطان أمير المؤمنين ،فاذا أخفق مقاتلة مصر في الدفاع عن مصرهم ومواجهة عدوهم فلا بأس من الاستنجاد بغيرهم،ومن ثم هدد الحجاج أهل الكوفة قائلا : " أيها الناس ، والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لأبعثنّ الى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على اللأواء والغيظ منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم ". (٧٧) وكتب الحجاج الى عبد الملك يخبره أن شبيبا شارف المدائن يريد الكوفة وأن أهل الكوفة قد عجزوا عن قتاله في مواطن كثيرة في كلها يقتل أمراءهم ،ويفل جنودهم ، " فان رأى أمير المؤمنين أن يبعث الى أهل الشام فيقاتلوا عدوهم ويأكلوا بلادهم فليفعل والسلام " ، فلما أتى عبد الملك كتابه بعث اليه سفيان بن الأبرد الكلبي ، (٧٨) في أربعة آلاف وحبيب بن مذحج في ألفين ، (٧٩) فاستغنى بهم

---

(٧٦) : الطبري ،ج ٦ ص ٢٥٠ : كان صالح بن مسرح وجماعة من الخوارج الصفرية قد خرجوا سنة ٧٦هـ ،وانضم الى صالح شبيب بن يزيد وجماعته في أرض الجزيرة ،وهزموا جيشا أرسله محمد بن مروان أمير الجزيرة ،فأرسل جيشين آخرين أجبرا صالح على الخروج من الجزيرة الى أرض الموصل ، فأرسل الحجاج عند ذلك الحارث بن عميرة الهمداني في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة وقتل في المعركة صالح (الطبري ج ٦ ص ٢٢٣) واستلم شبيب القيادة ،واتسعت رقعة نفوذه ،وقد وصل أمره أنه استطاع دخول الكوفة ومعه زوجته غزالة ،وكان الحجاج بالبصرة ، فلما سمع بتوجه شبيب الى الكوفة طوى الحجاج المنازل فوصلها صلاة الظهر ، ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب (الطبري ج ٦ ص ٢٤٠).

(٧٧) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ٢٥٨.

(٧٨) : سفيان بن الأبرد الكلبي داره بجيرون وكان له سوق الصاغة قطيعة ،وغزا سفيان القسطنطينية مع يزيد بن معاوية وكان من قادة بني أمية . (ابن حزم ،جمهرة أنساب العرب ،ص ٤٢٧ . تهذيب ، ج ٦ ص ١٨٢).

٠٠/٠٠

(٧٩) : الطبري ،ج ٦ ص ٢٥٨.

الحجاج من أهل الكوفة ، وقام على المنبر فقال : " ياأهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ولا نصر من أراد بكم النصر ، أخرجوا عنا فلا تشاهدوا معنا قتال عدو ، وأنزلوا الحيرة مع اليهود والنصارى ، ولا يقاتل الا من لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء " . (٨٠)

وعندما توجه شبيب نحو الكوفة للمرة الثانية ، صمد جند الشام أمام كتائب شبيب الواحدة بعد الأخرى ، وكان الحجاج يصيح بهم قائلا : " ياأهل السمع والطاعة والصبر واليقين ، لا يغلبن باطل هؤلاء الأوجاس حقكم " . (٨١) وقرر شبيب أن يأتي الحجاج من ورائه ، ولكن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو ثلثمائة رجل من أهل الشام ردءاً له ولأصحابه لئلا يؤتوا من ورائه ، (٨٢) ونجح الحجاج يومئذ من هزيمة شبيب ، وقتل أخو شبيب وقتلت غزالة امرأته ، ودخل الحجاج الكوفة ، (٨٣) وبين لأهلها أن شبيبا لم يقاتل قبلها ، فلما جاء جند الشام ولى هاربا ، ثم دعا الحجاج حبيب بن عبد الرحمن الحكمي وبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام واشتبك معهم عند الأنبار وأثخن فيهم الجراح ، فاضطر شبيب الى أن يتراجع الى الأهواز ففارس ثم كرمان ، (٨٤) وبعد أن استراح شبيب في كرمان أقفل راجعا فالتقى مع سفيان بن الأبرد الكلبي الذى كان الحجاج قد أرسله للقضاء على شبيب بجسر دجيل الأهواز ، فاقتتلوا أشد قتال ، وحمل شبيب على أهل الشام أكثر من ثلاثين حملة وأهل الشام على حالهم في

---

(٨٠) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٢٣ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ١٨٨ .
وكان الحجاج قد أمر أهل الكوفة بالانضمام الى عتاب بن ورقاء ، وأنه لا يسمح لأحد من الناس بالاقامة الا رجلا قد ولاه عملا ، وبين لهم أن للصابر المجاهد الكرامة والاثرة ، وأن للناكل الهوان والجفوة ، وهددهم بأنهم اذا فعلوا في هذه المواطن كفعلهم في المواطن الأخرى ليولينهم كنفا خشنا وليعركنهم بكلكل ثقيل (الطبري ج ٦ ص ٢٦٢) ولكن أهل الكوفة لم يثبتوا مع عتاب وانفضوا من حوله وقتل عتاب بن ورقاء وقائده زهرة بن حوية (الطبري ج ٦ ص ٢٦٥) .

(٨١) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٦٩ ، ٢٧١ .

(٨٢) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٢٧ .

(٨٣) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٧٧ .

(٨٤) : ابن الاثير ، ج ٤ ص ٤٢٧ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ، ص ١٨٩ .

../..

ثبات القدم ،واستمر القتال حتى اختلط الظلام ثم انصرف ، فلما انتهى شبيب الى الجسر طلب من أصحابه أن يعبروا الجسر ثم يعودوا للهجوم باكرا في اليوم التالي ،فعبروا أمامه وتخلف في آخرهم ، فنزا فرسه ، فسقط في الماء وغرق ،فكان مصرعه سنة ٧٧هـ أو سنة ٧٨ هـ. (٨٥)

وهكذا نجح أهل الشام في القضاء على ثورة شبيب الخارجي التي تعتبر من أعنف الحركات الخارجية ،وقد عيّر الحجاج أهل الكوفة بأنه وجه لقتال شبيب خمسة وعشرين أمير جيش ، وكل له مكانته ، فيقتل أميرهم وهم وقوف ينظرون اليه لا يرون له حرمة في صحبة ولا ذماما في طاعة .(٨٦)كما أرسل الحجاج سفيان بن الأبرد مع جيش كبير من أهل الشام في طلب قطرى بن الفجاءه ، ذلك أنه بعد تشتت أمر الأزارقة نتيجة للاختلاف الذى حدث بينهم بكرمان وصار بعضهم مع عبد ربه الكبير وبعضهم مع قطرى ،ضعف أمر قطرى الذى توجه يريد طبرستان ،فأقبل سفيان حتى أتى الرى ثم اتبعهم ،وكتب الحجاج الى اسحاق بن محمد بن الأشعث وهو على جيش لأهل الكوفة بطبرستان أن يسمع ويطيع لسفيان ، فأقبل الى سفيان وسار معه في طلب قطرى حتى لحقوه في شعب من شعاب طبرستان ،فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه ،ووقع من دابته فتدهدى حتى خرّ الى أسفله ،وادّعى قتله عدد من أهل الكوفة. (٨٧)

وهدأت حركات الخوارج نتيجة لقضاء المهلب على فرقة الأزارقة من جهة وقضاء الحجاج على حركة شبيب ،فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) خرج شوذب(٨٨)على عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة ،فأمر عمر بن عبد العزيز واليه أن لا يبادئهم القتال الا اذا أفسدوا في الأرض ،وكتب عمر الى بسطام يدعوه ليسأله عن سبب خروجه كما طلب منه أن يناظره ،فبعث اليه بسطام برجلين يناظرانه ،(٨٩) ولكن الخليفة

---

(٨٥) : الطبرى ،ج ٦ ص ٢٧٩ ،النويرى ،نهاية الأرب ،ج ٢١ ص ١٩٠.

(٨٦) : ابن قتيبة ،الامامة والسياسة ،ج ٢ ص ٣٢.

(٨٧) : الطبرى ،ج ٦ ص ٣٠٩ ،٣١٠.

(٨٨) : اسمه بسطام من بني يشكر ،وكان مخرجه بجوخى في ثمانين فارسا أكثرهم من ربيعة، وجوخى كورة واسعة في سواد بغداد. (الطبرى ج ٦ ص ٥٥٥).

(٨٩) : الطبرى ،ج ٦ ص ٥٥٥ ،٥٥٦.

../..

عمر بن عبد العزيز توفي قبل أن يقتنع الخارجيان بوجهة نظره ،وأراد عبد الحميد بن عبد الرحمن أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ) فكتب الى محمد بن جرير البجلي يأمره بمحاربة شوذب وأصحابه ،وكان معه ألفان من أهل الكوفة ، فلما هزم هؤلاء اضطر يزيد أن يرسل من قبله تميم بن الحباب في ألفين ،ثم نجدة بن الحكم الأزدي ثم الشحاج بن وداع في ألفين كذلك ، ولكن شوذب استطاع أن يهزمهم الواحد تلو الآخر ،فلما دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة شكا اليه أهلها مكان شوذب وما قتل منهم فدعا مسلمة سعيد بن عمرو الحرشي من قادة الشام فعقد له على عشرة آلاف فارس فتمكن من أن ينتصر على الخوارج وقتل شوذب سنة ١٠١هـ. (٩٠)

وفي سنة ١١٩هـ خرج بهلول بن بشر الملقب بكثارة ،وهو من الموصل من بني شيبان ، ولما علم خالد بن عبد الله القسري والي العراق (١٠٥ - ١٢٠هـ) بخروجه ،خرج من واسط وأتى الحيرة ،وكان بها جند قد قدموا من الشام مددا لعامل الهند ، فأمرهم خالد بقتاله ووعد من يقتل منهم رجلا أن يعطيه عطاء سوى ما أخذ في الشام وأن يعفيه من الخروج الى الهند ،فسارعوا الى ذلك ،ولكن بهلول هزمهم وزحف يريد الخليفة هشام في الشام، عند ذلك سير خالد جندا من العراق وسير عامل الجزيرة جندا من الجزيرة ووجه هشام جندا من الشام واجتمعوا بدير بين الجزيرة والموصل ،وقتل بهلول في المعركة. (٩١)

ب - مقاتلة الشام ودورهم في القضاء على ثورتي ابن الاشعث (٨١ - ٨٥هـ) ويزيد بن المهلب (١٠١-١٠٢هـ):

بالاضافة الى حركات الخوارج ،اضطر ولاة العراق لمجابهة ثورات كان بعضها من العنف بحيث عرّض الدولة الأموية لأزمات قاسية واضطر الولاة الى الاعتماد على الجند الشامي في سبيل اخمادها.

من أهم هذه الثورات ،ثورة ابن الاشعث الذي كان الحجاج قد أرسله مع معظم مقاتلة الكوفة والبصرة للقضاء على ثورة رتبيل في سجستان ، فلما ثار ابن

---

(٩٠) : الطبري، ج ٦ ص ٥٧٦.

(٩١) : ابن الأثير ،ج ٥ ص ٢١٠، ٢١١ ،النويري ، نهاية الأرب ،ج ٢١ ص ٤٤٧.

../..

لأشعث وخلع جنده الحجاج ثم عبد الملك ،ووصل حتى نزل الأهواز ، جمع الحجـــاج
ناس وخرج في جيش كبير حتى نزل على سبعة فراسخ من الأهواز ودعا بعبد الله بـن
يرثة الطائي من أهل حمص ، ومطهر بن مر العكي من أهل الاردن فضم اليهما ثمانيـة
لاف فارس ، (٩٢) ولكن هذا الجيش هزم عند دجيل الأهواز ، (٩٣) وتقدّم ابن الأشعث
توجها نحو البصرة ،وبلغ ذلك الحجاج ،فقطع جسر الأبله ،وضم الأسواق ،ووجه نـداء
لى أهل الشام ،أن لا يتركوا بالكلأ شيئا من العلف والطعام الا ونقلوه الى المعســكر،
انما الناس أحد رجلين ، فمن لحق بنا أعطيناه من طعامه وعلفه ومن لحق بعدونا فدعه خلال
ـسنا" . (٩٤)

وفي معركة الزاوية سنة ٨١هـ كان الحجاج يومئذ في ثلاثة وعشرين ألفا من أهل الشام
ومن تبعه من أهل العراق ،وابن الأشعث في زهاء ستين ألفا ، (٩٥) ولعب سفيان بن الأبرد
الكلبي مع جند الشام دورا كبيرا في هزيمة ابن الأشعث في وقعة الزاوية ،ومكّن الحجاج من
الدخول الى البصرة ،فاضطر عبد الرحمن للتوجه نحو الكوفة حيث استطاع أن يدخلها ويحتوى
على بيت مال الحجاج ، (٩٦) وعند ما سمع الحجاج بذلك توجه نحو الكوفة وعسكر بدير قـرّه ،(٩٧)
واجتمع الى عبد الرحمن أهل الكوفة ،وأهل البصرة ،والقرّاء وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم ،
فكانوا مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم ، (٩٨) وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان
فأرسل الى الحجاج أشراف أهل الشام والجزيرة مددا له في سبعين ألفا ، (٩٩) ولكن عند مـا
اشتد القتال بين الطرفين وجد عبد الملك ورؤوس قريش وأهل الشام أنه اذا كان يرضي أهل العراق
أن ينزع عنهم الحجاج ،فان نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق ،فبعث ابنه عبد الله بن عبد الملك

---

(٩٢) : ابن الاعثم ، فتوح ،ج ٧ ص ١٣٠ .
(٩٣) : الطبرى ،ج ٦ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .
(٩٤) : ابن الاعثم ،فتوح ،ج ٧ ص ١٣٢ ،ابن الأثير ،ج ٤ ص ٤٦٥ .
(٩٥) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ١٣٤ .
(٩٦) : ابن الأثير ،ج ٤ ص ٤٦٧ ،النويرى ،نهاية الأرب ،ج ٢١ ص ٢٣٧ .
(٩٧) : الطبرى ،ج ٦ ص ٣٤٧ ،ابن الأعثم ،فتوح ،ج ٧ ،ص ١٣٤ .
(٩٨) : الطبرى ،ج ٦ ص ٣٤٧ ،ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٦٩ .
(٩٩) : ابن الأعثم ،ج ٧ ص ١٣٧ .

../..

وبعث الى أخيه محمد بن مروان بأرض الموصل يأمره بالقدوم عليه وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج ، وأن يجرى عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام وأن ينزل ابن محمد أى بلد من عراق شاء يكون عليه والياً مادام حياً وعبد الملك خليفة ، فان هم قبلوا ذلك عزل عنهم الحجاج وكان محمد بن مروان أمير العراق ، وان أبوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام وولي القتال ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته ، (١٠٠) أما ابن الأعثم فيضيف الى هذه الشروط شرطاً آخر وهو أن عبد الملك وعدهم باخراج أهل الشام من بلادهم " ولا يرى العراق شاماً أبداً" . (١٠١)

رفض العراقيون شروط عبد الملك بالرغم من أن عبد الرحمن كان يفضل قبولها ، (١٠٢) واعتمد الحجاج اعتماداً كلياً على قادة الشام ، فجعل على ميمنته عبد الرحمن بن سليم الكلبي ، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي ، وعلى خيله سفيان بن الابرد الكلبي ، وعلى رجالته عبد الله بن حبيب الحكمي ، (١٠٣) وبالرغم من أن أهل العراق كانت تأتيهم موادهم من الكوفة وسوادها وهم في خصب وأهل الشام في ضنك شديد ، قد غلت عليهم الأسعار وفقد عندهم اللحم ، (١٠٤) فقد استطاعوا التغلب على عبد الرحمن بعد أن دامت الحرب مائة وثلاثة أيام ، (١٠٥) وكان لسفيان بن الأبرد كذلك الدور الأكبر في هزيمة عبد الرحمن في دير الجماجم. (١٠٦)

---

(١٠٠) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٢٣٩ .

(١٠١) : ابن الأعثم ، ج ٧ ص ١٣٧ .

(١٠٢) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٤٨ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٧١ ، وقد بين ابن الأشعث لاتباعه أهمية هذه الفرصة التي يجب عليهم أن ينتهزوها قائلاً لهم : " فقد أعطيتم أمراً انتهازكم اليوم اياه فرصة ، ولا آمن أن يكون على ذى الرأى غداً حسرة ، وأنكم اليوم على النصف ، وان كانوا اعتدّوا بالزاوية ، فأنتم تعتدّون بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء ، والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون فلا والله لا زلتم عليهم حرّاء ، ولا زلتم عندهم أعزاء ، ان أنتم قبلتم أبداً مابقيتم " ، فوثب الناس من كل جانب فقالوا : ان الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذو العدد الكثير ، والسعر الرفيغ ، والمادة القريبة ، لا والله لا نقبل .

(١٠٣) : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٤٩ ، ابن الاثير ج ٤ ، ص ٤٧١ .

(١٠٤) : ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٧٢ .

(١٠٥) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٨٠ .

(١٠٦) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٨١ .

٠٠/٠٠

بعد هزيمة عبد الرحمن ، دخل الحجاج الكوفة وأقام فيها شهرا ، وهناك روايات تشير الى أنه أنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة : "أنزلهم الحجاج فيها مع أهلها " ، وأن الحجاج أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم ، وأن هذه القاعدة استمرت بعده ، (١٠٧) في حين يذكر الطبرى أن الحجاج بعد وقعة الجماجم عزل أهل الشام من بيوت أهل الكوفة ، (١٠٨) وأمر أن لا ينزل أحد على أحد وأن يخرج الجند فيعسكروا ، (١٠٩) وبعث الحجاج رواداً يرتادون منزلا فوقع اختياره على واسط ، (١١٠) وعند ما انتهى من بناء واسط ، نقل اليها من وجوه أهل البصرة وأمرهم أن يصلوا على يسار المقصورة ، ونقل اليها من وجوه أهل الكوفة وأمرهم أن يصلوا من يمين المقصورة ، وأمر من كان معه من أهل الشام أن يصلوا بحياله مما يلي المقصورة . (١١١)

ان هزيمة ابن الأشعث في دير الجماجم سنة ٨٣ هـ ثم في مسكن في نفس العام كانت نقطة النهاية بالنسبة اليه ، اذ أنه تراجع الى السوس ، ولم يزل عمارة بن تميم اللخمي في جيشه الكثيف من أهل الشام والجزيرة يهزمه حتى بلغ الى سابور فارس ، حيث اقتتلوا وانهزم ابن الأشعث نحو بلاد كرمان ، وكتب عمارة بن تميم الى الحجاج بانهزامه فأمره بالعودة . (١١٢)

وعند ما التجأ ابن الأشعث الى رتبيل ثانية بعد انصرافه من هراة ، كتب الحجاج

---

(١٠٧) : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٢٤٨ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٤٨١ .

(١٠٨) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٦٥ .

(١٠٩) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٣٨٤ .

(١١٠) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٣٨٤ ، ويذكر اليعقوبي أنها سميت واسطا لأنها الى البصرة خمسين فرسخا والى الكوفة خمسين فرسخا والى الأهواز خمسين فرسخا ، والى بغداد خمسين فرسخا (اليعقوبي ، البلدان ص ٣٢١ ، ياقوت الحموى ، ج ٥ ص ٣٤٨) .

(١١١) : أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف ببحشل ، تاريخ واسط ، تحقيق كوركيس عواد ، ص ٤٣ .

(١١٢) : ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٧ ، ص ١٥٠ .

٠٠/٠٠

الى رتبيل بأنه سيوجه اليه بعمارة بن تميم اللخمي في ثلاثين ألفا من أهل الشـــام لم يخلعوا طاعة ولم يبايعوا امام ضلالة يستعظمون الحرب استعظاما ، ويقدمون عليها اقداما ، وطالب من رتبيل أن يعمد الى تسليم ابن الأشعث اليهم ، (١١٣) ولكن رتبيل لم يسلمهم ابن الأشعث سنة ٨٥ هـ الا بعد أن وافق الحجاج على شروط رتبيل ألا تغزى بلاده عشر سنين وأن يؤدى بعد العشر سنين في كل سنة مائة ألف . (١١٤) وخاطب الحجاج أهل الكوفـــة بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث ، وندّد بهم ووصفهم بأنهم أهل الشقاق والاختلاف والنفاق ، وامتدح أهل الشام بأنهم العدة والعدد والجنّة في الحرب ، (١١٥) ويذكر أبو هلال العسكرى أن الحجاج هو أول من أطعم على ألف مائدة ، على كل مائدة عشرة رجال وعليها جنب شواء وثريد وسمكة ، وبرنية (١١٦) فيها عسل ، وكان الحجاج ونق هذه الرواية لا يطعم الا شاميا . (١١٧)

بالاضافة الى ثورة ابن الأشعث ساهم الجند الشامي في القضاء على ثورة يزيد بن المهلب التي تعتبر من أهم الأحداث الداخلية زمن يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥ هـ) ، وكان لصلة المصاهرة التي تربط هذا الخليفة بأسرة الحجاج أثرها في اساءة العلاقة بينه وبين المهلب ، لأن ابن المهلّب حين ولي العراق لسليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) عذّب آل الحجاج ، فعاهد يزيد بن عبد الملك الله لئن مكنه من يزيد بن المهلّب ليقطعنّ منه

---

(١١٣) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٩٠ ، ابن الاعثم ، ج ٧ ص ١٥٠ ، عندما توجه ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ اثر هزيمته الى سجستان ، أنزله رتبيل عنده وأكرمه وعظمه ، ولكنه لم يلبث أن وقع تحت تأثير أتباعه الذين بلغ عددهم ٦٠ ألفا بأن يتوجه الى خراسان بالرغم من وجود يزيد بن المهلب بها لأنها أرض طويلة عريضة ، وأن من سيتبعهم سيكون أكثر ممن سيقاتلهم ، فلما بلغوا هراة فارقه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة القرشي في ألفين ، فقرر العودة الى رتبيل لأنه تهيّن له أنه لا يستطيع الاعتماد عليهم ، وأنهم سيتفرقون عنه كما فعلوا في مواطن أخرى .

(١١٤) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٩١ .

(١١٥) : المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(١١٦) : البرنية اناء من خزف .

(١١٧) : أبو هلال العسكرى ، الأوائل ، ج ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ .

../..

طابقا ، (١١٨) ويذكر أبومخنف أنه حين بلغ ابن المهلب وهو في محبسه زمن عمر بن عبد العزيز أن الخليفة مريض ، وأن الخلافة ستؤول بعده الى يزيد بن عبد الملك ، دبّر أمر هربه من السجن . أما الرواة ى ، فيزعم أن يزيد بن المهلب انما هرب من سجنه بعد موت عمر ، (١١٩) وتوجه يزيد الى البصرة موطن أسرته من الصهالبة ومستقر قبيلته أزد عمان ، وتمكن من السيطرة عليها وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها وهو عدى بن أرطاة الفزارى فحبسه ، وخلع يزيد بن عبد الملك ، ودعا أهل البصرة الى كتاب الله وسنة نبيه محمد (صلعم) وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم ، (١٢٠) وبالرغم من أن الحسن البصرى لم يكن راضيا عن أهل الشام وخلفاء بني أمية ، الا أنه أيضا لم يكن راضيا عن يزيد وثورته ، اذ قال : " عجبا من يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين اتهموه تقربا الى بني مروان حتى اذا منعوه شيئا من دنياهم وأخذوه بحق الله تعالى عليه ، غضب ، فعقد خرقا على قصب ، ثم نعق بأعلاج وطغام فاتبعوه ، وقال : اني قد خالفت هؤلاء فخالفوهم ، فهو يزعم أنه يدعوهم الى كتاب الله تعالى وسيرة الخلفاء الراشدين ، الا وان سيرة الخلفاء الراشدين أن يوضع في رجله قيد ويرد الى حبس عمر ". (١٢١) وكان يشارك الحسن البصرى في الرأى ، النضر بن أنس بن مالك ، الذى قال : " ياعباد الله ماتنقمون من أن تجيبوا الى كتاب الله وسنة نبيه (صلعم) فوالله مارأينا ذلك ومارأيتموه منذ ولدتم ، الا هذه الأيام من امارة عمر بن عبد العزيز " . (١٢٢)

ونفهم مما ذكره الحسن البصرى بأن الذين اتبعوا يزيد هم من الأعلاج والطغام ، بمعنى أن رؤوس أهل البصرة ، لم يشتركوا في ثورته ، بل هرب رؤوس أهل البصرة من قيس وتميم ومالك بن المنذر فلحقوا بعبد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة ولحق بعضهم بالشام . (١٢٣)

---

(١١٨) : الطبرى ، ج ٦ ص ٥٦٤ .

(١١٩) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

(١٢٠) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٦٧ .

(١٢١) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٨٧ ، العيون والحدائق ، ص ٥٩ .

(١٢٢) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٨٧ .

(١٢٣) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٨٣ .

../..

وبعث يزيد بن عبد الملك رجالا من أهل الشام الى الكوفة ليشكر أهلها ويمنيهم ويعدهم الزيادة في أعطياتهم، (١٢٤) ثم وجه يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس جريدة خيل حتى وافوا الحيرة ، (١٢٥) ثم أقبل بعد ذلك مسلمة بن عبد الملك في جنود أهل الشام والجزيرة وعدتهم في سبعين ألفا وقيل ثمانين ألفا ، (١٢٦) وكان يزيد على زعم صاحب تاريخ العيون والحدائق قد قال حين خلع يزيد بن عبد الملك ،اني لأرجو أن أهدم دمشق حجرا على حجر ،فرد الفرزدق عليه بهذه الأبيات :

تخبرك الكهان أنك ناقص
دمشق التي كانت الجن حرت

لها من الجبال الثلج صخرا كأنه
قناعيس حتى أشرقت واسمحرت

أتتك خيول الشام تخطر بالقنا
لها خرق كالطير لما استقلت

يقود نواصيها اليك مبارك
اذا ماتصدى للكتيبة ولت

من آل أبي العاصي حوالي لوائه
ثمانون ألفا كلها قد أطلت (١٢٧)

ولما سمع أصحاب المهلب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك ، فبلغ أمرهم المهلب الذى تعجب لخوف أهل العسكر من مجيء أهل الشام ومسلمة ، وقال :"وما هم أهل الشام ؟ هل هم الا تسعة أسياف سبعة منها الي وسيفان علي"، (١٢٨) بمعنى أن النسبة الكبرى من الجيش كانت تتألف من القبائل اليمانية ، ولكن يزيد بن المهلب كان يبدو

---

(١٢٤) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ٥٨٥ ،العيون والحدائق ،ص ٦٧ ، ٦٨.
(١٢٥) : الطبرى ،ج ٦ ص ٥٨٥ ،الأزدى ،تاريخ الموصل ،ص ٩.
(١٢٦) : ابن الأثير ،ج ٥ ص ٧٣ ، ٧٤ ،النويرى ،نهاية الأرب ، ج ٢١ص ٣٧٨.
(١٢٧) : العيون والحدائق ،ص ٦٧ ، ٦٨.
(١٢٨) : المصدر السابق ،ص ٧٠ ،ابن الأثير ،ج ٥ ص ٧٥.

../..

قد أخطأ التقدير ، فهذه الأسياف لم تقف الى جانبه ، وانما بقيت الى جانب مسلمة ، واستمرت المواجهة بين يزيد ومسلمة ثمانية أيام حتى اذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من صفر سنة ١٠٢ هـ بعث مسلمة الى الوضاح أن يخرج بالوضاحية والسفن حتى يحرق الجسر ، فلما دنا الوضاح من الجسر ، لهب فيه النار فلما رأى الناس ذلك ، وقيل لهم بأن الجسر قد أحرق انهزموا ، فلما سمع يزيد بانهزام الناس قال ، وم انهزموا ؟ هل كان قتال يهزم من مثله ؟ وخرج يزيد ومعه أصحابه ومواليه وناس من قومه وطلب منهم أن يضربوا وجوه من ينهزم ، ثم لم يلبث أن تركهم عندما رأى كثرة المنخذلين . (١٢٩)

وهزم يزيد وقتل أخوه حبيب بن المهلب ثم قتل يزيد واحتزت رأسه ورؤوس من قتل معه من أهل بيته ، وبعث بها الى الشام الى يزيد بن عبد الملك ، فأمر أن يطاف بها في أجناد الشام . (١٣٠)

ونلاحظ في فتنة يزيد بن المهلب أنه لم يستطع استقطاب أهل الكوفة والبصرة وأشرافهما اليه ، كما استطاع أن يفعل ذلك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . وربما يعود ذلك الى السياسة السليمة التي اتبعها ولاة عمر بن عبد العزيز في تألف أهل البصرة والكوفة وأشرافهما ، لا سيما وأن يزيد بن عبد الملك لم يعمد الى عزلهما ، وقد قتل عدى بن أرطاة الفزارى والي البصرة من قبل معاوية بن يزيد بن المهلب مع ثلاثين أسيرا كانوا في سجنه ، كما كان لموقف الحسن البصرى من فتنة يزيد أثر كبير في تثبيط الناس بحيث أن الذين التفوا حوله ، حسب رواية الطبرى كانوا من سقاط الابلة وعلوج فرات البصرة . (١٣١)

<u>ثورة زيد بن علي ودور أهل الشام في القضاء عليها :</u>

اذا لم يعمد أهل العراق الى تأييد يزيد بن المهلب أو دفعه الى الثورة ، فقد كانوا السبب في دفع زيد بن علي اليها سنة ١٢١ هـ وكان هذا مايخشاه الخليفة

---

(١٢٩) : الطبرى ، ج ٦ ص ٥٩٤ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٥ .

(١٣٠) : العيون والحدائق ، ص ٧٤ .

(١٣١) : الطبرى ، ج ٦ ص ٥٩٤ .

../..

هشام بن عبد الملك عندما توجه زيد بن علي الى الكوفة ليواجه يوسف بن عمر والي هشام على العراق الذي ادعى أن خالد القسري قد أودع ستمائة ألف درهم عند زيد بن علي ، وأن زيدا ينكر هذه الوديعة ، فلما أقسم زيد أغلظ الايمان أن لا علم له بها ، طلب هشام من واليه يوسف أن يعجل باشخاصه الى الحجاز وأن لا يسمح له بالاقامة فيها لأن أهل الكوفة معروفين بحبهم لأهل هذا البيت " فان أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه وحلاوة منطقه مع ما يدلي به من القرابة برسول الله (صلعم) وجدهم ميلا اليه غير متئدة قلوبهم ولا ساكنة أحلامهم ولا مصونة عندهم أديانهم . وبعض التحامل عليه فيه أذى له واخراجه وتركه مع السلامة للجميع والحقن للدماء والأمن ، أحب اليّ من أمر فيه سفك دمائهم وانتشار كلمتهم (تفرّقها) وقطع نسلها ، والجماعة حبل الله المتين ، ودين الله القويم وعروته الوثقى". (١٣٢)

وألح يوسف بن عمر على زيد بن علي بالخروج من الكوفة حتى أنه شخص منها حتى أتى القادسية ، فلحقته الشيعة واستمروا في اقناعه حتى ردوه الى الكوفة اذ أكدوا له أن مائة ألف رجل من أهل الكوفة مستعدون لمساندته والقتال معه في حين أن أهل الشام في الكوفة قلة ،" ولو أن قبيلة من قبائلهم نحو مذحج وهمدان أو تميم أو بكر نصبت لهم لكفتهم". (١٣٣)

وقد حاول سلمة بن كهيل اقناع زيد بعدم الاعتماد على أهل الكوفة الذين خذلوا جده " بايعه ثمانون ألفا وقاتل معه ثلثمائة "، (١٣٤) كما أن عبد الله بن حسن كتب الى زيد يبين له أن أهل الكوفة ينطبق عليهم ما قاله علي بن أبي طالب فيهم ، " ان أهملتم خضتم ، وان حوربتم خرتم ، وان اجتمع الناس على امام طعنتم ، وان أجبتم الى مشاقة نكصتم ." (١٣٥)

---

(١٣٢) : الطبري ، ج ٧ ص ١٧٠ .

(١٣٣) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٦٧ ، الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، دار المعرفة بيروت ، ص ١٣٥ .

(١٣٤) : الطبري ، ج ٧ ص ١٦٨ .

(١٣٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٦٩ .

../..

لم يستنجد يوسف بن عمر بالخليفة هشام في القضاء على ثورة زيد بن علي بل اعتمد على أهل الشام المقيمين في الحيرة .(١٣٦) التي اتخذها مركزا له ومقرا بدلا من واسط(١٣٧) وفي الكوفة مع عبيد الله الثقفي الذي كان مع عمرو بن عبد الرحمن على شرطة الكوفة ،(١٣٨) واذا أخذنا برواية سعيد بن هيثم نرى أن أهل الشام في العراق كانوا يبلغون حوالي اثني عشر ألفا .(١٣٩)

وعند ما بعث الحكم بن الصلت والي الكوفة الى يوسف بن عمر فأخبره خبر زيد ، أرسل يوسف جعفر بن العباس الكندي في خمسين فارسا ،(١٤٠) والعباس بن سعيد المزني صاحب شرطته في أهل الشام ، فسار حتى انتهى الى زيد بن علي في دار الرزق ،(١٤١) ووزع أهل الشام بين جبانة الصيادين ، والكناسة وجبانة كنده ،(١٤٢) وبمجرد أن رأى أصحاب زيد بن علي الذين بايعوه أن يوسف بن عمر قد بلغه أمر زيد حتى نكث قسم منهم بيعته ،(١٤٣) وعند ما قرر زيد بن علي الخروج في اليوم المتفق عليه لم يوافه سوى مائتان وثمانية عشر رجلا ، ولما تساءل أين الناس ،قيل له أنهم في المسجد الأعظم محصورون .(١٤٤)

استطاع يوسف بن عمر أن يقضي على ثورة زيد بن علي دون مشقة كبيرة ، وانتهت الثورة بمقتل زيد سنة ١٢٢ هـ الذي أصيب بسهم في جبهته اليسرى . ونظرا للدور الذي لعبه أهل الكوفة في تحريض زيد على الثورة ، فان يوسف بن عمر بعد قضائه عليها أقبل الى الكوفة وخطب بهم ، وندّد بأهل

---

(١٣٦) : الطبري ،ج ٧ ص ٢٧٢ .

(١٣٧) : المصدر السابق ،ج ٧ ،ص ١٨٠ ،الاصفهاني ،مقاتل الطالبيين ص ١٣٤ .

(١٣٨) : الطبري ،ج ٧ ص ١٨٠ .

(١٣٩) : الأصفهاني ،مقاتل الطالبيين ،ص ١٤٠ .

(١٤٠) : الطبري ، ج ٧ ص ١٨٤ .

(١٤١) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ١٨٥ .

(١٤٢) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ١٨٥ ،مقاتل الطالبيين ،ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

(١٤٣) : الطبري ،ج ٧ ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(١٤٤) : كان يوسف بن عمر قد بعث الى الحكم بن الصلت أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم ويحصرهم فيه ،فكان ذلك قبل يوم من خروج زيد (الطبري ،ج ٧ ص ١٨١) .

../..

الكوفة المدرة الخبثة ، وأنه سوف ينزل بهم الصغار والهوان ،ويقطع عنهم أرزاقهم وعطاءهم (١٤٥) أما البلاذري فيذكر أن يوسف بن عمر كتب الى هشام في أهل الكوفة ،فكتب اليه هشام : "ان أهل الكوفة أهل سمع وطاعة فمر لهم بأعطياتهم". (١٤٦) ولكن يبدو أن يوسف حرم أهل الكوفة بينما كان يعطي مقاتلة الشام وقادتهم المقيمين في الحيرة عطاءهم من أموال العراق، (١٤٧) لأنه عندما جاء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليا على العراق من قبل يزيد بن الوليد ، وأعطى الناس أرزاقهم وأعطياتهم ،نازعه قواد أهل الشام ، وقالوا : " تقسم على هؤلاء فيئنا وهم عدونا". فقال عبد الله لأهل العراق : "اني قد أردت أن ارد فيئكم عليكم وعلمت أنكم أحق به فنازعني هؤلاء فانكروه علي" ، (١٤٨) ولكن قواد الشام لم يلبثوا أن اعتذروا من أهل الكوفة .

وهكذا نرى أن مقاتلة الشام بشجاعتهم وصبرهم وطاعتهم لقادتهم قد حققوا الكثير في مجال توطيد الأمن والنظام في العراق ، وهذا ماساعد الولاة على تحقيق تلك الفتوحات العظيمة في الجناح الشرقي ،وتحقيق المشاريع العمرانية والاقتصادية التي تحدثنا عنها مصادرنا .

دور أهل الشام في دعم الحكم الأموي في المغرب :

بين عودة موسى بن نصير عام ٩٦ هـ / ٧١٥ م وانفجار ثورة الخوارج في المغرب سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م انقضى سبع وعشرون سنة كان سلطان الخلافة الأموية فيها وطيدا بشكل عام ،واتسمت هذه الفترة بانتشار الاسلام انتشارا سريعا ،ولعل من المفارقات أن انتشار الاسلام في هذه البلاد التي كانت عسيرة الفتح شديدة المقاومة كان أسرع منه بكثير في البلاد التي تم فتحها بسرعة ،وكان من المفروض أن يؤدي ذلك الى تقوية الرابطة بين الخلافة والمغرب ،ولكن ماحدث هو العكس تماما ، اذ أن انتشار الاسلام بين السكان ،

---

(١٤٥) : العيون والحدائق ،ص ١٠٠ .

(١٤٦) : البلاذري ، أنساب ج ٣ ،تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ،بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ /١٩٧٧م ص ٢٥٩ .

(١٤٧) : الطبري ،ج ٧ ص ٢٧٢ .

(١٤٨) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ٢٨٤ .

../..

بدأ يتخذ شكلا يقلب طبيعته من رابطة بالخلافة في دمشق الى منفر عنها ، وذلك يتبلوره على شكل مذهب الخوارج - الأباضية والصفرية - الذين أنهكوا في الشرق تحت ضربات الأمويين في العراق ، فابتعدوا من ذلك المكان القريب من المركز الى تلك البقعة القاصية البعيدة وهي المغرب ، واستطاعت هذه الفئة أن تجسم المظالم وتضخمها في أعين الناس وترسم لهم طريق تقويض الحكم القائم .

وفي سنة ١٢٢ هـ انطلقت ثورة الخوارج الصفرية من طنجة وشملت بعد ذلك المنطقة الغربية من ديار الاسلام ، اذ استغل الخوارج خروج جيش والي افريقيا لغزو صقلية فرفعوا راية العصيان في طنجة وتزعمهم ميسرة المطغرى الذى تنعته الروايات العربية بالحقير ، واستطاعوا تحقيق أول نصر لهم في مدينة طنجة بقتل عاملها ابن المرادى المعروف بجوره في فرض الضرائب على البربر ، ومن ثم اتجهوا نحو الجنوب للسيطرة على المغرب الأقصى واستطاعوا احتلاله وقتل اسماعيل بن عبيد الله عامل والده على منطقة السوس ، وبما أن الثورة خارجية والخوارج لا يعترفون بأحقية الأمويين بالخلافة ، لذا اعتبرت انتفاضتهم ، انتفاضة على الحكم الأموى ، وهكذا خلع البربر طاعة الخليفة وبايعوا زعيمهم ميسرة كخليفة . (١٤٩)

لما بلغ عبيد الله بن الحبحاب مقتل عامله وولده كتب الى حبيب بن أبي عبده ، (١٥٠) يأمره بالرجوع من صقلية ، وأرسل خالد بن حبيب الفهرى (١٥١) على رأس جيش للقاء ميسرة ، وانتصر خالد في المعركة التي تمت بالقرب من طنجة ، وانصرف ميسرة عائدا

---

(١٤٩) : د . أحمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة ، طبعة ١٩٧٢ ، ص ٤٦ .

(١٥٠) : حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، ولد ونشأ بمصر ودخل الأندلس مع موسى بن نصير وبقي فيها مع وجوه القبائل الى أن خرج منها مع من خرج برأس عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ثم رجع بعد ذلك الى افريقيا (تهذيب ، ج ٤ ، ص ٣١) .

(١٥١) : خالد بن حبيب هو ابن حبيب بن مسلمة الفهرى الذى كان من كبار القادة الفاتحين شهد اليرموك ودخل دمشق مع أبي عبيدة ، وكان معاوية يغزيه الروم وكان يقال له حبيب الروم .

../..

الى طنجة حيث قتله أتباعه لأمور أنكروها عليه من سوء سيرته وتغييره عما كانوا بايعوه عليه مما أدى للهزيمة على حد زعمهم ،وولوا أمرهم خالد بن حبيب الزناتي ،وسار الخليفة الخارجي الجديد للقاء ابن حبيب فوجده في قتال مع جماعات من البربر فداهمه أثناء احتدام المعركة ، فتكاثرت البربر على العرب وهزموهم ،وكره خالد بن حبيب أن يهرب فألقى بنفسه وأصحابه الى الموت ، فقتل مع رجاله من القواد الأشراف ، ولذا سميت الوقعة بموقعة الأشراف ،(١٥٢) فلما بلغت هذه الأحداث مسامع هشام بن عبد الملك ،قال : " والله لأغضبنّ لهم غضبة عربية ،ولأبعثنّ لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي"، (١٥٣) وندب هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض القشيري لقتال البربر وولاه افريقيا وبعث معه ثلاثين ألف فارس ، عشرة آلاف من صلب بني أمية وعشرين ألفا من العرب ،(١٥٤) بينما يذكر ابن عذارى في رواية أخرى أنه بعث كلثوم بن عياض الى افريقيا وعقد له على اثنى عشر ألفا من أهل الشام وكتب الى والي كل بلد أن يخرج معه ،(١٥٥) وأوصى الخليفة أن تكون القيادة لكلثوم بن عياض القشيري أمير دمشق وفي حال موته تنتقل القيادة الى ابن عمه بلج بن بشر ومن بعده الى ثعلبة بن سلامة العاملي. (١٥٦)

كان من سوء الحظ أن وقعت المنافسة بين القواد ، حبيب بن أبي عبده القائد الافريقي وابنه عبد الرحمن من جهة وكلثوم بن عياض وابن عمه بلج بن بشر من جهة أخرى، وكادت المنافسة تؤدي الى الحرب بين الطرفين لولا المساعي التي بذلت للصلح ، فدارت بينهم وبين البربر معارك انتهت بهزيمة جيش الخليفة بقسميه الافريقي والشامي ، وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبده ،وصار أمر العرب بافريقية الى بلج ، ولجأ فلهم الى سبتة حتى ضاق

---

(١٥٢) : ابن عذارى ،ج ١ ص ٥١ ، ٥٤ ،ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ،ص ٢١٨ .

(١٥٣) : ابن عذارى ج ١ ص ٥٥ .

(١٥٤) : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢ .

(١٥٥) : المصدر السابق ج ١ ص ٥٦ .

(١٥٦) : المصدر السابق ج ١ ص ٥٦ ،ج ٢ ص ٤٧ .

../..

عليهم الأمر ضيقا شديدا ،فكاتب بلج وأصحابه عبد الملك بن قطن صاحب الأندلس وسأله ادخاله وادخال من معه من الجند وذكروا له ماصاروا اليه من الجهد ،فأبى عبد الملك ادخالهم في بادئ الأمر ، فلما ثار البربر بالأندلس أيضا وقاتلوا العرب وطردوهم من جليقية وشعر عبد الملك بالخطر ، اضطر الى ادخال بلج وأصحابه ، فكاتبهم وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجون عنها فرضوا بذلك ، وأخذ منهم رهائن أنزلهم جزيرة أم حكيم ، ثم أدخل بلجا وأصحابه وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام . (١٥٧) واستطاع عبد الملك بن قطن بمساعدة بلج وجنده أن يهزموا البربر هزيمة عظمى بوادى سليط . (١٥٨)

وفشلت ثورة البربر كذلك في افريقيا ،فقد ولى الخليفة حنظلة بن صفوان الكلبي واليا على افريقيا ، فلم يكد ينزل القيروان حتى توجه ضده جيشان للخوارج ، فتمكن من هزيمة كل جيش على حدة قرب القيروان ، في معركتي الأصنام والقرن ، سنة ١٢٤هـ هذا وان الصورة التي يقدمها المؤرخون القدماء للهزيمة وخاصة لاعداد الجيوش وقتلاها تدعو للظن بوجود مبالغة فيها ، فابن عذارى يعلق على هذه الهزيمة بقوله : وقيل ماعلم في الأرض مقتلة أعظم منها ، وأراد حنظلة أن يحصي من قتل وأمر بعدهم فما قدر على ذلك ، وأمر بقصب فطرحت قصبة على كل قتيل ، ثم جمعت القصب وعدّت فكان القتلى مائة وثمانين ألفا ، وكانوا صفرية يستحلون النساء ويسفكون الدماء . (١٥٩) وكان الليث بن سعد (١٦٠) يقول : ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب الي من غزوة الأصنام والقرن . (١٦١)

---

(١٥٧) : ابن عذارى ،ج ٢ ص ٤٣ .

(١٥٨) : المصدر السابق ،ج ٢ ص ٤٣ .

(١٥٩) : المصدر السابق ،ج ١ ص ٦٤ .

(١٦٠) : الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ / ٧١٣ - ٧٩١ م) كان امام أهل مصر في عصره حديثا وفقها ، قال ابن تغري بردي ،كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره ، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته ،أصله من خراسان ، ومولده بقلقشنده ووفاته بالقاهرة ، (الأعلام ج ٦ ص ١١٥) .

(١٦١) : ابن عذارى ،ج ١ ص ٦٤ .

../..

رغم كل ماقيل من أهمية نصر جيش الخلافة بقيادة حنظلة بن صفوان ، فان ماأسفر عنه لم يتجاوز تخليص المغرب الأدنى أو افريقيا من الخوارج ،أما بقية المغرب فقد بقي بأيدى الخوارج ،وكان الأمر يحتاج للاستمرار في بذل الجهود حتى يتم اعادة بسط سلطـــان الخلافة ، لكن مثل هذا الأمر لم يتحقق لأن المركز انشغل خلال عقدين من السنين تقريبا من هذا الجزء المتطرف من دولة الخلافة ،ولم يستطع أحد فيه أن يفعل فعل هشام بن عبد الملك في الاصرار على ارسال الجيوش لاخضاع المتمردين ، فقد توفي هشام في العـام الذى تلا انتصار القرن والاصنام ، ودخلت الدولة الأموية منذ ذلك الوقت مرحلة الاحتضار التي استمرت قرابة سبع سنوات حتى تحطمت نهائيا تحت ضربات العباسيين الزاحفيـن من الشرق .

موقف أهل الشام من أحداث الفتنة الثالثة :

كان مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ سببا في ابتداء الفتنة الثالثة التي انتهت بمقتل مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ ، وسقوط الأسرة الأموية ، اذ أن القائمين بها كانـوا من أهل الشام أولا وأمويين ثانيا ، وكلا العنصرين كما رأينا أساس في تثبيت السلطان الأموى ، ولذا نجد محمد بن علي يختار خراسان مركزا للدعوة العباسية بالرغم من أنه كان قد حل بين أهل الشام،ولكنه كان يعلم أن أهل الشام سفيانية مروانية ، (١٦٢) ويعلق دانيل دينيت في رسالته من مروان بن محمد بقوله : " ان نقطة الجدل في أطروحتنا هي أن سقوط الأمويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بل نتيجة ثورة في الشام ". (١٦٣) اذ أن مقتـل الوليـد الثاني الذى كانت له بيعة في الأعناق وعلى أيدى رجال بني أمية أنفسهم كان نقطة البدء في تحدى فكرة الشرعية ومسمارا ضخما في نعش الخلافة كمنصب له قدسيته وهيبتـه ، (١٦٤) وقد شعر كل من مروان بن محمد بأرمينية والعباس بن الوليد بسوء العاقبة ، وحاولا ردع

---

(١٦٢) : البلاذرى ، أنساب الاشراف ،القسم الثاني ،تحقيق د . عبد العزيز الـدورى بيروت ١٩٧٨ م ، ١٣٩٨هـ ،ص ٨١ ،أخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(١٦٣) : د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ،ص ٢٧٦ .

(١٦٤) : د . نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ،ص ٣٤٦ .

../..

يزيد بن الوليد ، وقال العباس لأخيه : " يا أخي أخاف أن يكون بعض من حسدنا هـذه النعمة من عدونا أراد أن يغري بنا ". (١٦٥)

وقد اجتمع على قتل الوليد كما يذكر الطبرى جماعة من قضاعة واليمانية من أهل دمشق خاصة ، (١٦٦) كما يشير الى أن الذين اضطغنوا على الوليد بن يزيد آل الوليد بن عبد الملك وآل هشام وآل القعقاع واليمانية بما صنع بخالد بن عبد الله القسرى ، (١٦٧) اذ أنه دفـع به الى يوسف بن عمر والي العراق مقابل بخمسين ألف ألف درهم فقتله يوسف في العذاب . (١٦٨) ويرى بعض الباحثين أن اليمانية بشكل عام اعتبروا مقتل خالد اهانة لهم واعتبروا الخليفـة ويوسف بن عمر وآل الحجاج مسؤولين عنه ، ولكننا اذا دققنا في الروايات الواردة في مصادرنا لوجدنا أن الذين أيّدوا يزيد بن الوليد كانوا من سكان جند دمشق من أهل المـزة ومن السكاسك وأهل داريا ودوما وحرستا وأهل دير مرّان والأرزه وسطرا وأهل الحديثة ودير زكـي (من قرى غوطة دمشق) ، (١٦٩) وأن أهل حمص وفلسطين والأردن وجلهم يمانية قضاعيـة قد خالفوا يزيد بن الوليد ، (١٧٠) بل ان أهل حمص أغلقوا أبواب المدينة عندما بلغهم مقتل الوليد وأقاموا النوائح عليه ، (١٧١) ورفض أهل حمص ما اقترح عليهم من قبل الوفـد

---

(١٦٥) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، وقد كتب مروان الى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ... وقد جاء في هذا الكتاب : " ان الله جعل لكل بيـت أركانا يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف ، وأنت بحمد الله ركن من أركان أهـل بيتك ... وقد بلغني أن قوما من سفهاء أهل بيتك قد استنوا أمرا ، ان تمت لهم رويتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم ، استفتحوا بابا لن يغلقه الله عليهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم ، وأنا اشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجـا ، ولو جمعتني واياهم لرممت فساد أمرهم بيدى ، ولساني ولخفت الله في ترك ذلـك لعلمي ما في عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا ، وأنه لن ينتقل سلطان قـوم قط الا في تشتيت كلمتهم ، وان كلمتهم تشوشت طمع فيهم عدوهم ... ". (الطبرى ، ج ٧ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩) .

(١٦٦) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٣٣ .

(١٦٧) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٣٧ .

(١٦٨) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٣٤ ، العيون والحدائق ، ص ١٢٨ .

(١٦٩) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢٤٢ ، العيون والحدائق ، ص ١٣٧ ، النويرى ، ج ٢١ ص ٤٧١ ، ٤٧٦ .

(١٧٠) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(١٧١) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٦٢ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٩٢ .

../..

الذى أرسله يزيد بن الوليد للتفاوض معهم على أنه لا يدعوهم الى نفسه وانما يدعوهم الى الرضى من الأمة وأن يكون أمرهم شورى بينهم ، وقال : نجتمع نحن وأنتم ونظراؤنا من أهل الشام فننظر لأنفسنا ونختار المسلمين ، ولكن الحمصيين رفضوا وقالوا : قتلتم خليفتنا ليس بيننا وبينكم الا السيف ، (١٧٢) وكاتبوا الأجناد ، ودعوهم الى الطلب بدم الوليد فأجابوهم واتفقوا أن لا يطيعوا يزيد . (١٧٣) ويبدو وأن أهل دمشق لم يحبذوا كلهم فكرة الانتقاض على الوليد ، اذ نجد يزيد بن الوليد يطلب من عبد العزيز بن الحجاج أن يقف بباب الجابية ويطلب من بني عبد الملك أن يتفرقوا في الناس ويحضوهم بأن من كان له عطاء فليأت لقبض عطائه ، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة ، (١٧٤) وأن يزيدا أمر فنودى ، من ينتدب للفاسق الوليد وله ألف درهم فاجتمع أقل من ألف رجل ، فنودى من ينتدب للفاسق وله الف وخمسمائة درهم فانتدب يومئذ ألف وخمسمائة ، ويقال انه ندبهم الى ألفين فأتاه ألفان ، (١٧٥) اذا صحت هذه الروايات فهي تظهر موالاة أهل الشام ولا سيما اليمانية منهم للوليد بن يزيد ورفضهم البيعة ليزيد في بادئ الأمر ، كما أن نصر بن سيار والي خراسان ومروان بن محمد عامل أرمينية والجزيرة رفضا الاعتراف بالأمر الواقع ، ولم تقبلا بتسليم ما بأيديهما من صلاحيات لممثلي الخليفة الجديد ، ولم يتح للأمور أن تتعقد أكثر من ذلك لأن يزيد الثالث مالبث أن توفي سنة ١٢٦هـ بعد حكم لم يدم سوى ستة أشهر وكان قبل وفاته قد أخذ البيعة لأخيه ابراهيم ، (١٧٦) ولكن يبدو وأن أمر الخلافة لم يتم لابراهيم فقد كان " يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالامرة ، وجمعة يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالامرة " ، (١٧٧) ويذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن أهل الشام بايعوا ابراهيم بن الوليد ماخلا أهل حمص فانهم أبوا أن يبايعوه ، (١٧٨) وفي هذا الجو

---

(١٧٢) : عبد الجبار الخولاني ، تاريخ داريا ص ٦٦ :

(١٧٣) : ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٩٢ ؛

(١٧٤) : العيون والحدائق ، ص ١٣٨ .

(١٧٥) : المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، الطبرى ، ج ٧ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(١٧٦) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢٩٥ .

(١٧٧) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٩٩ ؛

(١٧٨) : خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ٢ ص ٥٥٨ .

../..

مطرب يظهر مروان بن محمد والي أرمينية وأذربيجان منذ سنة ١١٤ هـ ،ومن اسماعيل بن
هيم ،أن مروان بن محمد عندما بلغه وفاة يزيد بن الوليد دعا قيسا وربيعة ففرض
ة و عشرين ألفا من قيس وسبعة آلاف من ربيعة فأعطاهم أعطياتهم وولى على قيس اسحق
مسلم العقيلي وعلى ربيعة المشاور بن عقبة ثم خرج يريد الشام واستخلف على الجزيرة
ه عبد العزيز بن محمد بن مروان فلقيه وجوه قيس في أربعة أو خمسة آلاف من قيس ، فساروا
، (١٧٩) حتى وصل الى قنسرين حيث مال اليه سكان هذه المدينة الذين كانت غالبيتهم
القيسية وبايعوه ،وكان على رأسهم يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ،ثم سار بجيشه الى حمص
ث انضم اليه أيضا بعض رجالاتها ،ومنها توجه الى عين الجرين دمشق وبعلبك ، حيث
قى بجيش أرسله ابراهيم بن الوليد بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك وكانت عدة
يشه مئة و عشرون ألف فارس على حد زعم الطبرى ومعه حرسه الذكوانية ، (١٨٠) بينما يقدر
رواة جيش مروان بثمانين ألف جندى ،وكان النصر حليف مروان الذى تابع السير بعد ذلك
ى دمشق ،حيث بايعه الناس في دمشق يوم الاثنين في ٢٩ صفر سنة ١٢٧ هـ ، وبعد أن أخذ
بيعة لنفسه اقتص من الذين قتلوا الوليد ، (١٨١) الاّ أن مروان حاول في الواقع اتباع
ياسة المسالمة ونسيان الماضي ،وحاول استرضاء العناصر العربية المختلفة ،ولا سيما رجالات
أجناد الشامية في فلسطين والاردن ودمشق وحمص وأكثرهم من القبائل اليمانية ، وأظهر
سن نية تجاههم بأن ترك لهم أمر اختيار ولاتهم دون تدخل منه . (١٨٢)

---

(١٧٩) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ،ص ٥٦٤ ،الأزدى ، تاريخ الموصل ،
ص ٦١ .

(١٨٠) : الطبرى ،ج ٧ ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(١٨١) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ٣١١ ، خليفة ،ج ٢ ص ٥٦٦ .

(١٨٢) : الطبرى ،ج ٧ ص ٣١٢ .

../..

بعد أن تم الأمر لمروان بالشام انصرف الى منزله بحرّان بالجزيرة وجعل مستقره فيها ، اذ أنه كان قد نشأ فيها وعرف الناس هناك وعرفوه ،وحيث كان للقيسية الغلبة والنفوذ وقد أعطا مروان بعطه هذا ، اذ أن دمشق كانت العاصمة الرسمية للدولة الاموية بعد موت معاوية ، واذا كان عدد من الخلفاء قد أقاموا في مواقع مختلفة لأسباب صحية أو عسكرية أو ادارية فانهم جميعا لم يفكروا بنقل العاصمة من دمشق ،أما مروان فقد تركها وأقام في حرّان ،التي انتقلت اليها دوائر الدولة بما في ذلك بيت المال ،(١٨٣) وكانت عملية نقل العاصمة الى حرّان اساءة ضخمة الى أهل الشام عامة ،فقد خسر أهل الشام بانتقال العاصمة من دمشق المركز الممتاز الذى كان لهم والخيرات العميمة التي كانت تتدفق عليهم بسبب قربهم من الخليفة واتصالهم به ،واعتماده عليهم وتقديمه لهم على غيرهم ،(١٨٤) فاذا أضفنا الى نقل العاصمة اعتماده على القيسية في الجزيرة وقنسرين ،وعدم اتفاق كلمة أمراء بني أمية ، أدركنا أسباب قيام الفرقة بين الناس وانقسامهم الى شيع وأحزاب وبالتالي ظهور التمرد واشاعة الفوضى .

بدأت الثورة في فلسطين منذ مطلع سنة ١٢٧ هـ وثار أهل الغوطة وتدمر وامتدت الثورة حتى وصلت الى حمص المدينة التي أظهر أهلها من قبل ميلا الى الوليد الثاني ومخالفة لقتلته ، وتأييدا لمروان في مسيرته الانتقامية للخليفة المقتول ، ولكنهم الآن انقلبوا على مروان وطلبوا المدد من بني كلب في تدمر ، فجاءهم منها نحو من ألف فارس ،(١٨٥) ومع ذلك استطاع مروان أن يقضي على هذه الثورات جميعا ، ثم قطع على أهل الشام بعثا ،وولى على كل جند منهم قائدا منهم وأمرهم باللحاق بيزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان مروان قبل مسيره الى الشام وجهه في عشرين ألفا من أهل قنسرين والجزيرة

---

(١٨٣) : الأزدى ،تاريخ الموصل ،ص ٦٨ .

(١٨٤) : نبيه عاقل ،خلافة بني أمية ، ص ٣٥٨ .

(١٨٥) : الطبرى ،ج ٧ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ،خليفة ،ج ٢ ، ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

../..

وأمره أن ينزل دورين الى أن يقدم وذلك لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري. (١٨٦) ولكن عددا كبيرا من الجند الشامي الذى كان قد وجهه لحرب الخوارج، خرج من طاعته وانضم الى سليمان بن هشام بن عبد الملك ،وطلب هؤلاء من سليمان أن يطالب بالخلافة لنفسه لأنه أرضى عند أهل الشام من مروان ،"فاستذله الشيطان وأجابهم ،وخرج اليهم باخوته وولده ومواليه"، (١٨٧) وهكذا نجد أن الجزيرة والشام اللتين كانتا تؤلفان وحدة ادارية واحدة بحيث أن القوم اذا ذكروا أهل الشام ذكروا أهل الجزيرة ، (١٨٨) انقسم مقاتلتها ، فقد انضم أهل الشام الى سليمان واعتمد مروان على مقاتلة الجزيرة وقنسرين والصقالبة. (١٨٩)

ان هذا الانقسام في صفوف مقاتلة أهل الشام وفي صفوف العائلة الحاكمة وانضمام سليمان بن هشام الى الضحاك الخارجي بعد هزيمته مع أشراف من أهل الشام ،يعطى صورة واضحة من تأزم الوضع في الشام ، ومع ذلك استطاع مروان خلال ثلاث سنوات أن يقهر أعداءه جميعا ويحقق مالم يستطعه أحد من قبل في ظروف مثل ظروفه ، ولكن ما أن عاد الى حرّان طلبا للراحة ولتجميع قواه ،حتى ظهر مالم يكن بالحسبان ،فقد رفعت آنذاك الرايات السوداء ، وتقدم أبو مسلم الخراساني باسم الدين وباسم آل البيت ظاهرا ليدك آخر آمال مروان وآخر آمال بني أمية في عرش بدأت أسسه تتزعزع منذ أمد ليس بالقصير، (١٩٠) ولكنني أعتقد أن أهل الشام لو وقفوا كلهم متحدين متكاتفين الى جانب مروان لاستطاع الانتصار عليهم بالرغم من المناداة بأبي العباس خليفة في الكوفة ، ذلك أن الوضع كان لا يزال حرجا بالنسبة اليهم . فقد كان مروان كما يقول الطبرى في حرّان في أهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق في واسط في حلبة العرب ، (١٩١) ولكن

---

(١٨٦) : الطبرى ،ج ٧ ص ٣١٤.

(١٨٧) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ٣٢٤.

(١٨٨) : البلاذرى ،أنساب ،القسم الثالث ص ١٥١.

(١٨٩) : الطبرى ،ج ٧ ص ٣٢٧ ،خليفة ج ٢ ص ٥٦٩.

(١٩٠) : نبيه عاقل ،خلافة بني أمية ،ص ٣٧٢.

../..

خذلان أهل الشام ولاسيما القبائل اليمانية والقضاعية لمروان في معركة الزاب كان عاملا هاما من العوامل التي أدّت الى هزيمته ، (١٩٢) وعندما اجتاز مروان ببلاد قنسرين وعناصره أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته ، ووثب به أهل حمص ، وسار الى دمشق فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي ، ثم أتى الأردن فوثب الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع به لما رأوا من ادبار الأمر منه ، (١٩٣) وعندما كتب أبو العباس الى عبد الله بن علي يأمره باتباع مروان ، لم يجد مقاومة تذكر اذ بايعه أهل منبج وقنسرين وحمص وبعلبك ، أما في دمشق التي كان واليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم ، فقد انتظر عبد الله بن علي وصالح بن علي الذى قدم مددا عليه أن يحاصراها ، (١٩٤) ويرد في الطبرى ، أن الناس تعصبوا بالمدينة فقتل بعضهم بعضا ، وقتلوا الوليد وفتحوا الأبواب في العاشر من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومائة . (١٩٥) وأقام عبد الله بن علي بدمشق خمسة عشر يوما ثم ارتحل الى الأردن ، فأتوه وقد سوّدوا ، ثم وجه صالح بن علي في طلب مروان الذى نجح في القضاء عليه ببوصير من أرض مصر . (١٩٦)

نلاحظ أن أهل الشام لم يحاولوا الوقوف الى جانب مروان أثناء تراجعه ، بل انهم وثبوا به وأضعفوه ، كما أنهم لم يقاوموا عبد الله بن علي في سيره في أرض الشام ،

---

(١٩١) : الطبرى ، ج ٧ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(١٩٢) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، يذكر الطبرى رواية عن شيخ من أهل خراسان ، أن مروان قال لقضاعة ، انزلوا فقاتلوا ، فقالوا : قل لبني سليم فلينزلوا ، فأرسل الى السكاسك أن احملوا فقالوا : قل لبني عامر فليحملوا ، فأرسل الى السكون أن احملوا ، فقالوا : قل لغطفان فليحملوا ، فقال لصاحب شرطته ، انزل ، فقال : لا والله لا أجعل نفسي غرضا .

(١٩٣) : المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٤٩ .

(١٩٤) : الازدى ، تاريخ الموصل ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١٩٥) : الطبرى ، ج ٧ ص ٤٤٠ .

(١٩٦) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٤٤٠ .

بينما أظهر أهل الجزيرة بعض المقاومة ، فقد رفض المنذر بن الزبير بن عبد الرحمن والي قرقيسيا أن يدخل في طاعة أبي جعفر المنصور الذى عينه أبو العباس واليا على الجزيرة ، وأرمينية ،وأذربيجان سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فخلف أبو جعفر عليها مالك بن الهيثم فقتل المنذر وصلبه في سنة ١٣٣ هـ ومضى المنصور الى الرقة فدعاهم فلم يجيبوه ، فخلف عليهم موسى بن كعب ففتحها وغلب عليها ،وسار المنصور في مدن الجزيرة يصالح من يدخل في طاعته ، ويخلف على من التوى عليه حتى فتحها فكان من صالح أهل الرها ونصيبين ودارا ،وهذا يعني أن معظم مدن الجزيرة رفضت الدخول في طاعة العباسيين وقاومت في بادئ الأمر وأذعنت عندما وجدت أن لا فائدة من المقاومة . (١٩٧)

أما ابن هبيرة في واسط فقد قاوم العباسيين مدة أحد عشر شهرا ،وفي رواية البلاذرى ،أن أهل الشام هم الذين وقفوا ضد الحسن بن قحطبة عندما أرسله أبو العباس الى ابن هبيرة ،وهناك تأكيد على أهل الشام ومقاومتهم ،وأن ابن هبيرة لم يقبل الدخول في مفاوضات الصلح الا بعد أن جاءه خبر مقتل مروان ببوصير من أرض مصر ،أما الرواية التي يوردها الطبرى ،فتشير الى أن الحصار عندما طال على ابن هبيرة وأصحابه ،تحنى عليه أصحابه فقالت اليمانية ،لا يعين مروان وآثاره فينا آثاره ،وقالت النزارية لا نقاتل حتى تقاتل معنا اليمانية ،وكان انما يقاتل معه الصعاليك والفتيان . (١٩٩)

ان هذه الروايات المتعددة وان اختلفت فهي تشير الى أمر بالغ الأهمية وهو دور الشعب في دعم حكم أو خذلانه ،فقد لعب أهل الشام الدور الأكبر في دعم حكم بني أمية وفي خذلانه ،فهم الذين وقفوا الى جانب معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ،وهم الذين خذلوا مروان بن محمد ، ويعود ذلك الى فهم معاوية

---

(١٩٧) : الطبرى ،ج ٧ ص ٤٤١ ، البلاذرى ، أنساب ، القسم الثالث ص ١٥١ .

(١٩٨) : البلاذرى ،أنساب ، القسم الثالث ص ١٤٧ .

(١٩٩) : الطبرى ،ج ٧ ص ٤٥٤ .

../..

ومعظم خلفاء بني أمية لنفسية أهل الشام ، بينما كان مروان بعيدا عنهم وأقــرب الى أهل الجزيرة . ولذلك فانني أتفق مع ميشيل فوكو وهو أحد كبار أصحاب الفكر المعاصرين في فرنسا والذى يرى أن السياسي الحقيقي الماهر يستطيع أن يقيد الناس بسلاسل أقوى من الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم .

* * *

* *

*

الفصل الخامس

دور أهل الشام في الفتوح

كان اهتمام العرب بتأمين فتوحاتهم هو الذى أدّى بهم الى بسط رقعتها توضيحا لحماية أشمل ، فيبدو أن اتم فتح الشام كان لا بد من فتح الجزيرة نظرا لارتباطها بالشام عن طريق نهر الفرات ، وضرورة تأمين الشام من الشرق ، ولأن القنوع بالشام كان معناه فقدها بعد قليل ، وقد تمّ فتح الجزيرة في خلافة عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم الذى كان عمر بن الخطاب قد عينه واليا على حمص وقنسرين والجزيرة. (١)

وكما اتصلت فتوح الجزيرة بفتوح الشام اتصلت فتوح أرمينية بفتوح الجزيرة ، لكي يؤمن المسلمون ثغور الجزيرة في موقعها الحساس ، وعندما جمع عثمان لمعاوية ولاية الشام والجزيرة ،(٢) غدت مسائل الحدود تعالج بنشاط أكبر ، فأرسل معاوية بناء على أمر من عثمان حبيب بن مسلمة الفهرى في ستة آلاف ويقال في ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة ، (٣) فاستولى على قليقلا عاصمة أرمينية البيزنطية (تيودوسيوبوليس) ، (٤) وجلا كثير من أهلها الى بلاد الروم ، فأقام بها حبيب فيمن معه أشهرا ، فلما وجه بطريق بند أرمنياكس جيشا كبيرا انضم اليه أهل اللان والخزر ، كتب الى عثمان يستمده ، فكتب الى معاوية يسأله أن يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب في الجهاد ، فأرسل اليه معاوية ألفي رجل أسكنهم قليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها ، (٥) كما أرسل عثمان الى سعيد بن العاص واليه على الكوفة يأمره بامداد حبيب بن مسلمة ، فوجه

---

(١) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٧ .

(٢) : المصدر السابق ، فتوح ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣) : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٤) : نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ٨٢ .

(٥) : البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٠٠ .

../..

سلمان بن ربيعة الباهلي ،(٦) في ستة آلاف من أهل الكوفة ، ولكن سلمان وصل وقد فرغ المسلمون من عدوهم ،فطلب أهل الكوفة اليهم أن يشركوهم في الغنيمة فلم يفعلوا ،(٧) وكتب الى عثمان بذلك فكتب ،" ان الغنيمة باردة لأهل الشام " . (٨)

بعد أن استولى حبيب على قاليقلا ،جرت بينه وبين الروم البيزنطيين على أرض أرمينية معارك عديدة ،انتهت بسيطرة العرب على أرمينية البيزنطية ، ثم تابع زحفه على القسم الفارسي حتى بلغ مدينة دبيل ،(٩) (دفين Dwin) . (١٠) وأتم حبيب فتح أرمينية بوصوله الى مدينة تفليس حيث عقد صلحا مع أهلها مقابل اعترافهم بالسيادة الاسلامية ، وقدهم عثمان أن يولي حبيب بن مسلمة جميع أرمينية ، ثم رأى أن يجعله غازيا لثغور الشام والجزيرة فعاد حبيب ونزل حمص . (١١)

وحين قامت الفتنة بين علي ومعاوية اضطر معاوية لسحب قوات المرابطة في أرمينية ليستعين بها في صراعه ضد خصمه ، وأدّى انسحاب الجيش الاسلامي من أرمينية الى حدوث فراغ استغله البيزنطيون لاسترجاع سيادتهم على هذا الموقع الاستراتيجي الهام ،ونجح البيزنطيون في تحقيق هدفهم وسقطت أرمينية مرة أخرى في يد الامبراطورية البيزنطية لتعاود سياستها الجائرة في حكم الأرمن بسبب ماكان بين الطرفين من عداء مذهبي ، على أنه ماكادت الخلافة تؤول الى معاوية حتى عاودته فكرة استعادة هذا الاقليم الهام واعادته الى

---

(٦) :سلمان بن ربيعة الباهلي ،صحابي من القادة ،شهد فتوح الشام وسكن العراق ، واستقضاه عمر على الكوفة ،قال ابن قتيبة : هو أول قاض قضى لعمر بن الخطاب بالعراق ، وفي المعارف لابن قتيبة أنه قتل ببلنجر من أرض الترك أو من أرمينية ، (المعارف ص ١٩١ ،تهذيب ، ج ٤ ص ١٣٦) .

(٧) : البلاذرى ،فتوح ،ص ٢٠١ .

(٨) : المصدر السابق ،ص ٢٠١ ،وقد نقل البلاذرى هذه الرواية عن مشايخ أهل قاليقلا ، كما كتب بها العطاف بن سفيان ابو الاصبغ قاضيها .

(٩) : المصدر السابق ،ص ٢٠٣ .

(١٠) : نبيه عاقل ،خلافة بني أمية ،ص ٨٢ . E.I., Art. Arminiya .

(١١) : البلاذرى ،فتوح ، ص ٢٠٧ .

../..

التبعية العربية ، وظلت كذلك طوال فترة الحكم الأموى . (١٢) وقد ولي أرمينية من قبل معاوية عبد الله بن حاتم بن النعمان الباهلي ، فلما توفي ،وليها أخوه عبد العزيز بن حاتم فبني مدينة دبيل وحصّنها ، وكبّر مسجدها وبنى مدينة النشوى ورمّ بردعة ، ويقال أنه جدّد بناءها ، (١٣) ويقال أن الذى جدد بناء بردعة محمد بن مروان في أيام عبد الملك بن مروان ، وقد انتقضت أرمينية وخالف أحرارها وأتباعهم أثناء فتنة ابن الزبير ، فلما ولي محمد بن مروان أرمينية من قبل أخيه عبد الملك حاربهم وسيطر على البلاد . (١٤)

وولّى الخليفة يزيد بن عبد الملك الجرّاح بن عبد الله الحكمي من مذحج ،الدمشقي الأصل والمولد ،امارة أرمينية وأذربيجان ، فنزل بردعة ، فلما رأى اختلاف مكاييلها وموازينها ، أقامها على العدل والوفاء ، واتخذ مكيالا يدعى الجراحي ،بقي أهلها يستعملونه حتى عهد البلاذرى . (١٥) وغزا الجراح الخزر ،وافتتح حصن بلنجر وغيرها من الحصون ، فلما مات يزيد أقرّه هشام بن عبد الملك ثم عزله سنة ١٠٨ هـ ، وأعاده سنة ١١١ هـ ، وتابع الجرّاح بن عبد الله حروبه مع الخزر ، فلما هزمهم اجتمع الخزر والترك من ناحية اللان فواجههم الجرّاح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا قتالا شديدا ، وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين ، فاستشهد الجرّاح ومن معه بمرج أردبيل . (١٦) فطمع الخزر بالحرب وأوغلوا في البلاد ، فولّى هشام مسلمة بن عبد الملك أرمينية ووجه على مقدمته سعيد بن عمرو بن أسود الحرشي مع العديد من أشراف الشام . (١٧)

ويذكر الطبرى أن هشاما دعا سعيدا الحرشي وسأله رأيه فاقترح عليه ارساله على أربعين دابة من دواب البريد ،ثم يبعث اليه كل يوم أربعين رجلا ثم يكتب الى أمراء الأجناد

---

(١٢) : ابراهيم العدوى ، الامويون والبيزنطيون ، الطبعة الثانية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ١٢٧ .

(١٣) : البلاذرى ،فتوح ،ص ٢٠٧ .

(١٤) : المصدر السابق ،ص ٢٠٧ .

(١٥) : المصدر السابق ،ص ٢٠٨ .

(١٦) : ابن الأثير ،ج ٥ ، ص ١٥٩ .

(١٧) : البلاذرى ،فتوح ،ص ٢٠٨ .

../..

موافاته ،ففعل ذلك هشام وسار الحرشي ، فكان لا يمر بمدينة الا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد ،واستطاع الحرشي أن يصل الى خلاط وهي ممتنعة عليه فحاصرها وفتحها ، ثم سار عنها وفتح الحصون والقلاع شيئا بعد شيء الى أن وصل برذعة ،فنزلها كما استطاع أن يجبر الخزر على فك حصار مدينة ورثان ،وهزم الخزر هزيمة عند نهر البيلقان ، وجمع الحرشي الغنائم وعاد الى باجروان ، فقسمها وأرسل الخمس الى هشام بن عبد الملك وعرّفه بافتح الله على المسلمين فكتب اليه هشام يشكره ، ثم لم يلبث أن أمره بالحضور اليه ، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك ، (١٨) الذى استطاع بعد جهد بالغ أن يفتح مدينة الباب والأبواب وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخزر ، (١٩) فأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفا من أهل الشام على العطاء وبنى هريا للطعام والشعير وخزانة للسلاح ورمّ المدينة ، وكان مروان بن محمد مع مسلمة وواقع معه الخزر ، فأبلى وقاتل قتالا شديدا ، لذلك ولاه هشام ذلك الثغر ،وكان له بلاء في قتال الخزر حتى أن عظيمهم عندما رأى كثرة ماوطىء به مروان بلاده من الرجال وماهم عليه في عدتهم وقوتهم قبل الاسلام وأظهره عندما خيّره مروان بين الحرب والاسلام ،فأقرّه في مملكته وسار بخلق من الخزر الى اللكز وأرض السرير ، ويبدو أن مدينة الباب والأبواب أصبحت المركز الذى تنطلق منه جيوش المسلمين ،ونلاحظ أن المعاهدات التي عقدها مروان مع ملوك تلك المناطق كانت تنص كلها على تقديم أعداد من الغلمان والجوارى وعلى كميات ضخمة من الأرزاق تصب كلها في أهراء الباب . (٢٠)

---

(١٨) : الطبرى ، ج ٣ ،ص ٧٠ ،ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٥٩ .

(١٩) : البلاذرى ، فتوح ،ص ٢٠٩ .

(٢٠) : المصدر السابق ، ٢١٠ ،٢١٢ .

../..

دور أهل الشام في فتح جزر البحر المتوسط :

بذل معاوية بن أبي سفيان في فتح المنطقة الساحلية من اقليم الشـام جهودا ذات بلاء حسن وأثر جميل ،كما شهد له بذلك قادة العرب في الشام ، وقد خرج من تلك العمليات الحربية بنتيجة هامة ،هي أن بقاء العرب واحتفاظهم بممتلكاتهم في الشام ومصر رهن باهتمام العرب بالأسطول ورهن بالاستيلاء على جزر البحر الأبيض المتوسط التابعة للروم والتي كانت تتواعد بحريّة خرجت منها الامدادات الى مدن الشام أثناء حصار العرب لها .

بدأ معاوية يعمل على تحقيق أهدافه البحرية منذ خلافة عمر بن الخطـاب ، وتجلّت الخطوط الرئيسية للبرنامج البحري الذى رسمه معاوية حين أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص مبينا له شدة خطورة هذا المعقل التابع للروم على سلامة المدن الشامية ،اذ جاء في خطابه : " يا أمير المؤمنين ان بالشـام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص".(٢١) ثم ختم خطابه بطلب السماح له بغزو تلك الجزيرة ،وكان هذا الموضوع الذى أثاره معاوية موضوعا جديدا لا بد من عرضه على كبار رجالات العرب ،ووقف عمر الى جانب أولئك الذين كان من رأيهم تجنب المخاطرات البحرية ، اذ كان رائد الخليفة في اتخاذ هذا الموقف هو الحرص على سلامة المسلمين حيث قال لمعاوية : " وتالله لمسلم أحب الي مما حوت الروم ، فاياك أن تعرض لي ،وقد تقدمت اليك ،وقد علمت مالقي العلاء مني ولم أتقدّم اليه في مثل ذلك " (٢٢). وفي رواية أخرى أنه كتب الى معاويـة : " لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا". (٢٣) ولكن معاوية لم يكن بأقل من الخليفة حرصا على سلامة المسلمين ،وانما كان أشد الولاة احساسا بالخطر الذى يلوح في الأفق مهددا ولاية الشام وكذلك مصر بسبب وجود أسطول الروم قريبا من شواطئهما

(٢١) : الطبرى ،ج ٤ ،ص ٢٥٩ ،رواية السرى عن شعيب عن جنادة بن أمية الأزدى ، ص ٢٥٨ ،رواية السرى عن رجاء بن حيوة .
(٢٢) : المصدر السابق ،ج ٤ ،ص ٢٥٩.
(٢٣) : المصدر السابق ،ج ٤ ،ص ٢٥٩.

../..

وافتقارها الى وسائل الدفاع ،وآثر معاوية أن ينفذ سياسته البحرية تدريجيا ازاء موقف المعارضة والحياد اللذين ظهرا بصدد رغبته في الهجوم على جزيرة قبرص ،فكتب معاوية مرة أخرى الى الخليفة عمر بن الخطاب يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وماهي عليه من خراب وافتقارها الى وسائل الدفاع القوية ، فكان جواب الخليفة أن أمره بمرمّة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقد لها . (٢٤)

اكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولي الخلافة عثمان بن عفّان ، اذ خطا منذئذ خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية بتشجيع الناس على النزوح الى المناطق الساحلية ،وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب في الاقامة في المدن الساحلية اقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها ،ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ، وأن يبني المساجد ويكبر ماابتني منها ، فكان هذا سببا الى انتقال الناس الى السواحل ،ثم لم يلبث أن ظفر من الخليفة عثمان بن عفّان بتصريح يبيح له غزو قبرص شريطة أن لا يأخذ معه في غزوته هذه الا من اختار الغزو طائعا ، (٢٥) فكتب معاوية الى أهل السواحل فأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها الى ساحل حصن عكا ،ليكون ركوب المسلمين من عكا الى قبرص ،فأصلحت المراكب وجمعت ، ووضع معاوية الأرزاق للناس الذين أرادوا الاشتراك في هذه الحملة وأمرهم بالمسير الى عكا ، (٢٦) وحرص معاوية على أن يصحبه عدد من كبار الشخصيات الاسلامية ، ليكسب أولى حملات الأسطول العربي مظهر الجهاد . (٢٧) كما اتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها ،فاصطحب معه زوجته فاختة بنت قرظة ، كما أخذ عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية ، (٢٨) فلما وصل المسلمون قبرص بعث اليهم حاكمها

---

(٢٤) : البلاذري ،فتوح ،ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢٥) : الطبري ،ج ٤ ،ص ٢٦٠ .

(٢٦) : ابن الأعثم ،فتوح ،ج ٢ ،ص ١١٨ .

(٢٧) : المصدر السابق ،ج ٢ ،ص ١٢٢ ، ١٢٣ ،البلاذري ،فتوح ،ص ١٥٩ ، فرافق معاوية أبو أيوب بن زيد بن كليب الأنصاري ،وأبو الدرداء ،وأبو ذر الغفاري ، وعبادة بن الصامت ،وفضالة بن عبيد الأنصاري ،وواثلة بن الأسقع الكناني ،وعبد الله بن بشر المازني ،وشداد بن أوس بن ثابت والمقداد بن الأسود وغيرهم .

(٢٨) : البلاذري ،فتوح ،ص ١٥٨ .

../..

يطلب الصلح وقد أذعن أهلها ، فصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار ، وفي رواية أخرى سبعة آلاف دينار ، (٢٩) يؤدونها في كل عام ويؤدون الى الروم مثلها ، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك ، على ألا يغزوهم ولا يقاتلون من ورائهم ممن أرادهم من خلفهم ، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم ، وعلى أن يبطرق امام المسلمين عليهم منهم ، (٣٠) ويضيف الواقدى أنه في العهد الذى بين معاوية وأهل قبرص ألا يتزوج أهل قبرص من الروم الا باذن العرب ، (٣١) كما يشير الواقدى الى أن فتح قبرص لم يشترك فيه أهل الشام فقط سنة ٢٨ هـ وانما غزاها أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح حتى لقوا معاوية ، وكان معاوية هو القائد الأعلى . (٣٢)

وعند ما أخلّ أهل قبرص سنة ٣٢ هـ /٦٥٣ م بشروط الصلح وأمدوا الروم بسفن ساعدتهم على مهاجمة الشواطئ العربية بالشام ، عمد معاوية الى غزوهم سنة ٣٣ هـ في خمسمائة مركب ، ففتح قبرص عنوة ثم أقرّهم على صلحهم وبعث اليها باثني عشر ألفا كلهم أهل ديوان ، فبنوا بها المساجد ، ونقل اليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة ، (٣٤) أى أن معاوية جعل من قبرص قاعدة للأسطول العربي في البحر الأبيض المتوسط ، ولا تشير الروايات الى الأسباب التي دفعت يزيد بن معاوية الى اقفال ذلك البعث ، بل ان رواية محمد بن مصطفى الحمصي تبين أن يزيد بن معاوية قد رشا مالا عظيما ذا قدر حتى ~~جند~~ أقفل جند قبرص ، وأن أهل قبرص هدموا مدينتهم ومساجدهم ، (٣٥) الا أن سيطرة المسلمين على قبرص استمرّت وظلّ أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، (٣٦) وعند ما

---

(٢٩) : المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣٠) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣١) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣٢) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥٨ .

(٣٤) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٣٥) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٣٦) : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

../..

عقد جستنيان الثاني معاهدة مع عبد الملك بن مروان ٦٩ ، ٧٠ هـ / ٦٨٨ ، ٦٨٩ م أثناء ثورة الجراجمة وانشغال عبد الملك بثورة عبد الله بن الزبير ، نصت هذه المعاهدة على أن يدفع عبد الملك ألف دينار وحصانا وعبدا من كل أسبوع في السنة وعلى اقتسام مايجبى من أرمينية وقبرص ، كما تعهد جستنيان بنقل المردة من لبنان فنقل اثني عشر ألفا منهم ، وأدرك جستنيان ولكن بعد فوات الأوان أنه أخطأ بعمله هذا فعمد الى نقل سكان قبرص رغبة منه في أن يحرم الخليفة من أولئك الذين يدفعون له الجزية ، وكان معظم ضحايا هذه الهجرة الاجبارية من النصارى الاغريق ، كما أخذ العرب المقيمين فيها كأسرى ، وغرق قسم كبير منهم بسبب عاصفة قوية اعترضتهم قبل وصولهم الى منطقة الهيليسبونت ، وعندما أصبح حاكم بند الكبيرهايوت (Cybyrrhaeotes) امبراطورا باسم تيبيريوس الثالث (Tiberius Apsimarus) ، (٦٩٨ - ٧٠٥ م / ٧٩ - ٨٦ هـ) سعى الى ارسال ثلاثة من أشراف قبرص يرافقهم موظف امبراطورى كبير طالبين اعادة القبارصة الموجودين في رومانيا (Romania) وسيزيكوس ، وفي البندين الكبيرهايوت وتراقيا (Thracia) لاعادة تأهيل قبرص . (٣٧) وفي خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك أجلى منهم خلقا الى الشام لأمر اتهمهم به ، فأنكر الناس ذلك عليه فردّهم يزيد بن الوليد الى بلدهم . (٣٨)

لم تكن قبرص الجزيرة الوحيدة التي غزاها معاوية ، اذ عقد العزم كذلك على التخلص من مخاوفه من جزيرة أرواد (Aradus) القريبة من الساحل الشامي بين مدينتي جبلة وطرابلس ، فأعد الأسطول لمهاجمتها بقيادة جنادة بن أمية وضم اليه أربعة الاف رجل في عشرين مركبا ، ويذكر ابن الأعثم أن غزو جزيرة أرواد كان في السنة التي قتل فيها عثمان أى سنة ٣٦ هـ . (٣٩) بينما لا يذكر البلاذرى سوى فتحها سنة ٥٤ هـ وعلى يد جنادة

---

(٣٧) : Sir George Hill. The History of Cyprus. Vol. I The Cambridge University Press. 1940. PP. 288 - 289 .

(٣٨) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥٩ .

(٣٩) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

بن أمية كذلك وان معاوية أسكنها المسلمين ، ولكنه يقول ان أرواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية ، (٤٠) مما يجعلنا نتساءل ان كان هناك خطأ في تسمية تلك الجزيرة التي تم فتحها سنة ٥٤ هـ .

وفي سنة ٥٣ هـ فتح جنادة بن أمية الأزدي رودس فأنزلها كذلك قوما من المسلمين ، وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها ، وكان مجاهد بن جبر مقيما بها يقرئ الناس القرآن ، (٤١) وغزا جنادة أيضا جزيرة كريت ، ويروي ابن الأعثم أن معاوية غزا رودس في خلافة عثمان ، (٤٢) وأن نقطة الانطلاق كانت من صيدا وليس من عكا كما كان في فتح قبرص ، ويضيف أن معاوية بنى فيها مسجدا وشحنها بالمسلمين (٤٣) وقوّاهم بالأموال والسلاح وأمرهم بالزراعة .

لم يكتف معاوية بغزو هذه الجزر القريبة من الساحل الشامي ، اذ فكر بغزو جزيرة صقلية ، (٤٤) وهو بعمله هذا انما يدل على بعد نظره في الشؤون السياسية والعسكرية ، اذ يبدو لأول وهلة أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على اقليم مصر والشام ، ولكن مجريات الأحداث دلّت على أن صقلية غدت قاعدة لأساطيل الروم (٤٥) التي انسحبت من قواعدها بالشام ومصر ومركزا تهجم منه على العرب بحيث تشل التعاون البحري بين أساطيلهم في مصر والشام ، وكانت صقلية بحكم موقعها الجغرافي تتحكم في المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط ، فهي تقسم البحر المتوسط عامة الى قسمين رئيسيين ، وتشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق مسينا ، ومضيق صقلية الواقع بين

---

(٤٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٧ ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ، ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٤٩٣ .

(٤١) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٧ .

(٤٢) : ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤٣) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٤٤) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٤٥) : أحمد بدر ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٥٢ .

../..

طرفي جزيرة صقلية الجنوبي وشمالي افريقيا ، (٤٦) وعندما عزم معاوية على غزوها كتب الى عثمان بذلك فأذن له واشترك أهل الشام في هذه الغزوة البحرية التي ضمت ثلاثمائة مركب ، (٤٧) وأغار المسلمون على أطراف صقلية ، ثم أخرجوا مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رميا متداركا ، (٤٨) كما كانوا يغيرون على قراهم وحصونهم ، ثم يرجعون الى مراكبهم ، ولذلك اقترح بعضهم على ملك صقلية أن يستنجد بملك الروم ، فلما بلغ ملك الروم عجزهم عن صد العرب جهّز ستمائة مركب فيها المقاتلة والسلاح ، فقرر العرب عندما بلغهم ذلك الانسحاب فعادوا أدراجهم الى ساحل الشام ، وأرسل معاوية الخمس الى المدينة وقسّم مابقي بعد الخمس في المسلمين ، (٤٩) ولم يتابع معاوية أو خلفاء بني أمية جهودهم في سبيل الاستيلاء على صقلية ، وأصبحت الغزوات على صقلية توجه من قبل ولاة افريقيا لا سيما بعد أن تم فتح المغرب سنة ٩٠ هـ .

ان سيطرة المسلمين على قبرص وأرواد ورودس وغاراتهم على كريت واحتلالهم فيما بعد جزيرة كوس (٥٠) هي التي هيأت وساعدت على غزو القسطنطينية برا وبحرا في خلافة معاوية اذ اتخذ العرب من جزيرة سيزيكوس (Cyzicus) قاعدة لادارة حملاتهم ضد العاصمة . (٥١) فقد كانت الأساطيل الاسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة الى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية وتقف سفن الأسطول الاسلامي الأخرى مطوقة هذه المدينة من جهة البحر ، وصمدت المدينة لهذا الحصار الذى دام أربع سنوات (٥٥ - ٥٩ هـ / ٦٧٤ - ٦٧٨ م) وانسحب العرب من وراء أسوار هذه المدينة متخلين موقتا عن مشروعهم في فتحها ليعاودوا المحاولة في عهد الوليد بن عبد الملك وفي حملة القسطنطينية الأخيرة في خلافة سليمان بن عبد الملك .

---

(٤٦) : Semple, E. The Geography of The Mediterranean Region p.72

(٤٧) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٤٨) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤٩) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٥٠) : نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ٨٧ ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥ .

(٥١) : المصدر السابق ، ص ٨٧ .

../..

دور أهل الشام في فتوح افريقيا :

لعبت الجيوش الشامية دورا كبيرا في فتوح افريقيا ، ففي سنة ٥٠ هـ أعان معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج بجيوش الشام وكان عبد الملك في ذلك الجيش ، وخرجت جيوش الشام ومصر الى افريقيا واحتفروا الآبار التي تسمى اليوم آبار حديج بباب تونس ،(٥٢) كما اشتركت الجيوش الشامية مع المصرية عند ما خرج أبو المهاجر دينار من مصر سنة ٥٥ هـ الى افريقيا فوصل الى قرطاجنّة .

واذا تركنا جانبا انجازات عقبة بن نافع الذى بنى القيروان واجتاز المغرب الأوسط حتى طنجة في المغرب الأقصى ، فان استشهاده في سنة ٦٥ هـ في مدينة تهوده حيث فاجأه كسيلة زعيم أوربة (وكان عقبة قد أساء معاملته) مع حلفائه الروم ، كان نكسة لم تقتصر على مقتله ومقتل من معه بل تعدّى الى ماكسبه المسلمون من افريقيا ، اذ اتجه كسيلة وحلفاؤه نحو القيروان ، واضطر زهير بن قيس البلوى الى الانسحاب مع الكثيرين ، ولم يبق في القيروان "الاّ أصحاب العيال وكل مثقل من التجار وأهل الذمة " ،(٥٣) فطلب هؤلاء الأمان من كسيلة فنالوه ، ودخل مدينتهم ليبقى فيها أميرا قرابة أربع سنوات . واستفاد كسيلة من فترة الاضطراب التي تلت وفاة يزيد ، وانتقال الخلافة من الأسرة السفيانية الى المروانية ، ولكن ماأن استقر الأمر نسبيا لعبد الملك بن مروان حتى أمر زهير بن قيس البلوى أن يسير ضد كسيلة الذى قتل في معركة جرت سنة ٦٩ هـ ،(٥٤) واستغل البيزنطيون غياب زهير ليغيروا على مقره في برقة ويهددوه من الخلف ، فعاد بسرعة ولكن الروم تصدوا له في منطقة تقترب فيها الجبال من البحر ولا يسمح بمرور الجيش كله ، مما أدّى لاستشهاده مع عدد كبير من جنوده ،(٥٥) ولم يستطع عبد الملك الخليفة

---

(٥٢) : المالكي ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقيا ، الطبعة الأولى ، ١٩٥١م ، ص ١٩ .

(٥٣) : أحمد بدر ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٥ .

(٥٤) : ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٥٥) : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١ .

../..

الأموي أن يرد على هذه الضربة بسرعة لانشغاله بأمر منافسه على الخلافة عبد الله بن الزبير ، فما أن أتمّ القضاء على عبد الله بن الزبير حتى عمد الى ارسال حسّان بن النعمان الغسّاني .

ويعود فضل توطيد الفتح في الواقع في افريقيا ثم اتجاهه الى والبين شاميين ، هما حسّان بن النعمان الغسّاني وموسى بن نصير ، وقد دخلها حسّان في ٤٠ ألفا ،(٥٦) أقام في مصر أولا ثم أمره عبد الملك بالانطلاق الى افريقيا ، فقدمها كما يقول ابن عذارى في عسكر عظيم ، فلم يدخل المسلمون قط افريقيا بمثل ما دخلها حسّان بن النعمان ،(٥٧) وركّز حسّان هجومه أول الأمر على الروم وقاعدتهم البحرية والادارية قرطاجنة واحتلها ولكنه فشل أمام الخصوم الآخرين من بربر الأوراس بزعامة الكاهنة التي الحقت بحسّان وجيشه في بادئ الأمر هزيمة كبرى اضطر معها الى التراجع الى ماوراء حدود ولاية افريقيا ، حيث أقام متربصا في برقة مدة خمس سنوات ، ويبدو في كل عمل حسان بن النعمان مايوحي وكأنّ الفاتحين يسيرون وفق خطط يستفيدون فيه من تجاربهم الماضية ، فتلك الاندفاعات التي كان ينتصر فيها المغاربة كانت أشبه بموجات أو عاصفة عاتية ، لا تلبث أن تهدأ بعد أمد قصير لأنها مبنية على تحالفات في وجه خطر مهدد ، فما أن يلوح زواله حتى ينفرط عقدها وتعود الأطراف المكونة لها الى التصادم ، وهذا يتيح للفاتحين العودة مستفيدين من ضعف خصومهم ، وقد حصل هذا مع الكاهنة اذ لجأت الى تخريب القرى والعمران حتى تزيل مطامع العرب في افريقيا حسب رأيها ، وهذا ماأوقع بينها وبين المستقرين من أفارقة وروم ، وهذا ما ساعد على انتصار حسان سنة ٧٩ هـ على الكاهنة التي جابهته في موقعتين قتلت في الثانية اثر هزيمة جيشها ومطاردتها .(٥٨)

---

(٥٦) : ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٥٧) : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٥٨) : أحمد بدر ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٧ .

../..

عاد حسّان بعد نصره الى القيروان ليقوم بتوطيد الفتح وتوطيد سلطان المسلمين نهائيا في افريقيا ،فأدخل التحسينات على قاعدتهم ،وأرسى أسس التنظيم للادارة المالية والجيش الذى أدخل فيه البربر ، (٥٩) وتمام حسّان بفتح قرطاجنة المرة الثانية وهدّمها ، ولكي يضمن عدم عودتهم الى موقعها بنى مدينة جديدة بجوارها لتكون قاعدة للعرب الفاتحين ،وهي مدينة تونس ، (٦٠) وهكذا كان لحسان الفضل في القضاء على النفوذ البيزنطي في ولاية افريقيا وفي القضاء على الكاهنة التي كان الروم يخشونها والبربر مطيعين لها ، (٦١) كما أن انشاء ميناء تونس الذى ينعم ببحيرة واسعة محمية من الأمواج وبعيدة عن قوات البيزنطيين البحرية أدّى الى اضمحلال شأن قرطاجنة وانصراف الناس والسكان عنها ولم تعد مدينة يرغب البيزنطيون باستردادها . (٦٢)

واستطاع موسى بن نصير اتمام فتح شمالي افريقيا بين سنتي ٨٧ - ٩٠ هـ وهو بذلك قد اعتمد ولا شك على القوات الشامية التي كانت قد دخلت افريقيا مع حسّان بالاضافة الى القوات العربية الموجودة في المنطقة والتي انضم اليها البربر الذين دخلوا في الاسلام ،وكانت المراحل الاساسية لخط سيره هي عبوره المغرب الأوسط من الداخل ثم تجاوزه له والوصول الى شمال المغرب الأقصى حيث احتل طنجة ، وانحداره أخيرا نحو الجنوب حتى سجلماسه ودرعة ، وبذلك أتم موسى فتح الشمال الافريقي كله باستثناء سبتة المفتوحة على البحر من جهاتها الثلاث ، بينما يفصل جانبها البرى الوحيد عن بر المغرب جبال ومرتفعات . (٦٣)

---

(٥٩) : ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ،٢٠١ ،ابن عذارى ،ج ١ ،ص ٢٩ .

(٦٠) : سعد زغلول ،تاريخ المغرب العربي ،ص ٢٠٢ .

(٦١) : المالكي ،رياض النفوس ،ص ٣١ ، ٣٢ ،ابن عبد الحكم ،فتوح ،ص ١٧٣ ؛ ابن عذارى ،ج ١ ،ص ٢٣ .

(٦٢) : ابراهيم العدوى ،الأمويون والبيزنطيون ،ص ٢٥٩ .

(٦٣) : ابن عذارى ،ج ١ ،ص ٣٣ ،٣٧ .

../..

يتوضح لنا مما تقدّم أنه كان للشاميين دور كبير في فتوح أرمينية وفي مناطق اللان والخزر، وفتوح بعض الجزر في القسم الشرقي من البحر المتوسط وفتوح شمالي افريقيا، كما أنهم ساهموا في بعض الفتوحات في المشرق ، ذلك أن الفتوحات في تلك الجبهة يعود الفضل فيها الى مقاتلة العراق، ولم يشترك أهل الشام في فتوحات هذه المنطقة اللهم الا في فتوح السند مع محمد بن القاسم الثقفي حيث ضم اليه الحجاج ستة آلاف من جند أهل الشام وغلمتا من غيرهم. (٦٤) كما اشترك أهل الشام مع يزيد بن المهلب في فتح منطقة جرجان ودهستان ، بالاضافة الى أهل الكوفة والبصرة والجزيرة ووجوه أهل خراسان والري. (٦٥) ويقال أن يزيد بن المهلب كان في عشرين ومائة ألف معه من أهل الشام ٦٠ ألفا ، (٦٦) وربما بقي قسم من المقاتلة في هذه المنطقة ، اذ نجد اشارات لوجود جند من أهل الشام في بلخ (٦٧) وفي خراسان، (٦٨) وكان عددهم يقارب الفين وخمسمائة في بلخ ، كما أنه عندما نزل يحيى بن زيد بن علي بأرض الجوزجان بعد أن انتصر على عمرو بن زرارة عامل نصر بن سيار على أبرشهر، سرّح اليه نصر بن سيار والي خراسان سلم بن أحوز في ثمانية آلاف فارس من أهل الشام وغيرهم. (٦٩)

* * *
* *
*

---

(٦٤) : البلاذرى ، فتوح ، ص ٤٢٤.

(٦٥) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٢٢ .

(٦٦) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥٣٩ ، البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٣١.

(٦٧) : الطبرى ، ج ٧ ، ص ١١٠.

(٦٨) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٦٥.

(٦٩) : الأصبهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ١٥٧.

=====

الباب الثاني

الفصل الأول

النظام الاداري

التقسيمات الادارية :

ليست لدينا معلومات واضحة عن التقسيمات الادارية التي كانت سائدة في الشام في الفترة السابقة للفتح الاسلامي ، ذلك أن الشام تعرّضت لاجتياح الفرس ، فوصل كسرى أبرويز الى القدس ،كبرى مدن فلسطين ، سنة ٦١٥ م ثم تابع زحفه الى مصر واستولى على الاسكندرية عاصمة مصر سنة ٦١٧ م ، (١) وبدا وكأن الفرس سيسترجعون أمجاد الامبراطورية الاخمينية ، ولكن الفشل والهزيمة مالبثا طويلا حتى أخذا بالزحف على الفرس الذين كتب لهم في هذه الحقبة من التاريخ أن يذوقوا مرارة ماذاقه البيزنطيون من قبل ، ففي خلال السنين التي كانت فيها قبائل السلاف والافاريين تزحف على البلقان ،والفرس يسيطرون على المقاطعات الشرقية من الامبراطورية ، كان هرقل يقوم باصلاحاته الجذرية البعيدة المدى ،التي أدخلت دما جديدا وحيوية جديدة الى جسد الامبراطورية ، فقد عمد الى تقسيم المقاطعات الى وحدات ادارية جديدة تختلف في الاسس عن تقسيم ديوكليسيان ،الذى لم يعد يصلح لحاجات الامبرطورية وظروفها الجديدة. (٢) وقسمت أراضي آسيا الصغرى التي لم تحتلها قوى أجنبية الى مناطق عسكرية كبيرة وضعت تحت ادارة قواد عسكريين لهم صلاحيات الحكام الاداريين الذين كانوا يديرون المقاطعات في السابق ، ويطلق عليهم اسم ستراتيجوس (Strategus). وهكذا كان طابع الحكم الجديد طابعا عسكريا

---

(١) : بتلر ،فتح العرب لمصر ،ترجمة فريد حديد ، ص ٦٦.

(٢) : نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ١٩٦٩ ،ص ٨٧.

../..

عنصره الأساسي اقامة وحدات عسكرية مستقرة في آسيا الصغرى التي كانت الأخطار تتهددها ، (٣) وكان الجنود في هذه المناطق يمنحون اقطاعات من الأرض تصبح ملكهم ولهم حق توريثها الى أبنائهم اذا انخرط أبناؤهم في سلك الجندية. (٤)

اذا كان هرقل قد طبق هذا التنظيم في آسيا الصغرى ، فانه ليس لدينا اشارات الى أنه عمد الى تطبيق هذا التنظيم في الشام ومصر ، اثر استعادتهما بموجب المعاهدة التي عقدها هرقل مع الكسرى قباذ سنة ٦٢٨ م/ ٧ هـ ، اذ لم تأت سنة ٦٣٤ م / ١٣ هـ حتى كان العرب يشقون طريقهم في قلب ممتلكات الامبراطورية البيزنطية ، هذه الممتلكات التي استرجعت حديثا ، وقد رأينا أن فتح دمشق ومعركة اليرموك التي انهزم فيها الجيش البيزنطي هزيمة منكرة أوقعت بلاد الشام بيد العرب ، اذ لم تلبث المدن أن استسلمت للعرب بما في ذلك أنطاكية العاصمة ، دونما قتال شديد ، وكانت المقاومة في فلسطين أكثر عنفا ، ولكن القدس لم تلبث أن استسلمت وفتحت أبوابها للخليفة عمر بن الخطاب .

عمد الخليفة عمر الى تقسيم الشام الى أجناد أربعة ، وهي جند حمص ، ودمشق ، والأردن ، وفلسطين ، وهذه الأجناد الاسلامية : أقاليم استقرّت فيها فرق من الجيش اسلامية لحمايتها وقبض أعطياتهم منها . (٥)

هذه الأجناد كانت شبيهة بنظام البنود البيزنطي الذى بدأ هرقل بتطبيقه كما رأينا ، ولم تخف على المسعودى أوجه الشبه بين البنود البيزنطية والأجناد الاسلامية حيث يقول : أرض الروم واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين الشرق

---

(٣) : المرجع السابق ص ٨٧ ، ستيف رونسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٩٧ .

(٤) : نبيه عاقل ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٥) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٧ .

٠٠/٠٠

والمغرب مقسومة في قديم الزمن على أربعة عشر قسطا ،أعمال مفردة تسمى بنود كما يقال أجناد الشام ،كجند فلسطين ، وجند الأردن ،وجند حمص ، غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد .(٦) كما أن معظم الجغرافيين المسلمين كاليعقوبي (ت ٢٨٨ هـ) وابن رستة (ت ٢٩٠ هـ) والاصطخري (ت ٣٢١ هـ) وقدامة بن جعفر (ت ٣١٠هـ) وحتى ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) يستخدمون كلمة الأجناد ، بينما نجد ابن خرداذبه (ت ٢٧٢هـ) لا يستخدم كلمة الجند ويذكر فقط كور الشام ،كورة دمشق ، كورة حمص ، .... الخ ، ويشير ياقوت الحموي الى أنه لم يبلغه أن كلمة أجناد استعملت في غير أرض الشام .(٧)

ولقد أوجبت الضرورات العسكرية على ماأعتقد تقسيم الشام الى هذه الأجناد ، فالساحل الشامي طويل ،والشام كانت لا تزال مهددة برا وبحرا من قبل البيزنطيين ، فكان لا بد من ايجاد مراكز عسكرية متعددة لكي يتمكن كل جند من الدفاع عن المدن الساحلية التابعة له ، " فقد كانت عرقة وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة ويتصرف بها نواب من يلي جند دمشق أيام بني أمية وصدرا من أيام بني العباس الى أن ملك العبيديون " ،(٨) أما اللاذقية وجبلة وبانياس وانطرطوس فكانت تابعة لجند حمص ،(٩) وتبعت صور وعكا جند الأردن ،(١٠) وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة جند فلسطين .(١١)

---

(٦) : المسعودى ، التنبيه والأشراف ،ص ١٥٠ .

(٧) : ياقوت الحموى ،ج ١ ص ٣٨ .

(٨) : ابن شداد ،الأعلاق الخطيرة ، ص ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ ،اليعقوبي ، البلدان ص ٣٢٧ ،ابن خرداذبه ص ٧٧ .

(٩) : اليعقوبي ،البلدان ،ص ٣٢٤ ،ابن الفقيه ، البلدان ،ص ١١٠ ، ابن خرداذبه ، ص ٧٥ .

(١٠) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٢٤ ،اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٧ ، ابن شداد ، ص ١٢٣ .

(١١) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٤٤ ،اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٩ ،ابن الفقيه ، البلدان ،ص ١٠٣ .

../..

ونلاحظ أن المقاطعات التي انقسمت اليها الشام في العهد البيزنطي كان منها مقاطعات ساحلية وأخرى داخلية وأنها أكثر مطابقة للتقسيمات الجغرافية للمنطقة ، ونظرا لاعتماد بيزنطة على أسطولها فان أهم المراكز في العهد البيزنطي كانت المدن الساحلية ، أنطاكية وصور وقيسارية ، أما أجناد الشام ، فكان كل جند يضم منطقة ساحلية وأخرى داخليـــة ، بحيث تستطيع كل منطقة أن تعتمد على الأخرى حربيا واقتصاديا ، وبما أنه لم يكن للعرب في البدء أسطول قادر على حماية السواحل ، فان مراكز الأجناد كلها كانت مدنا داخلية ، حمص ، دمشق ، طبرية ، اللد ، وبقيت اللد قصبة جند فلسطين حتى كانت خلافـــــة الوليد بن عبد الملك الذى ولّى أخاه سليمان جند فلسطين ، فابتنى مدينة الرملة (١٢) ومصّرها واختط مسجدها ، فصارت القصبة ونقل اليها الناس من لدّ وأمرهم بهدم منازلهم فيها والبنيان بالرملة ، (١٣) وبقيت الرملة قصبة لجند فلسطين حتى زمن ابن حوقل . (١٤)

كان من نتائج اهتمام الأمويين بمحاربة الدولة البيزنطية برا وبحرا ، أن اتجهوا الى جعل قنسرين جندا مستقلا منفصلا عن جند حمص ، وكانت قنسرين وحلب مضافتين الى حمص ، فأصبحت حلب مضافة الى قنسرين حتى نهاية الدولة الأموية ، (١٥) ثم درجت حلب في العمارة وقنسرين في الخراب حتى صارت مضافة الى حلب في أيام بني العباس ، (١٦) واختلف المؤرخون فيما اذا كان معاوية هو الذى فصل قنسرين عن حمص أم ابنه يزيد ، (١٧) ويذكر البلاذرى أن قنسرين وكورها كانت مضمومة الى حمص ، حتى كانت خلافة يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جندا ، (١٨) فلما استخلف أمير المؤمنين هارون الرشيد أفرد قنسرين

---

(١٢) : اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٨ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٩٩ .

(١٣) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(١٤) : ابن حوقل ، صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، القسم الأول ، ليدن ١٩٣١ م ص ١٧١ .

(١٥) : ابن رستة ، ص ١٠٧ ، الطبرى ، ج ٤ ص ١٦١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ص ٤١ .

(١٦) : ابن العديم ، زبدة الحلب ، ص ٤١ .

(١٧) : المصدر السابق ، ص ٤١ .

(١٨) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٨ .

../..

يكونا فصير ذلك جندا واحدا ، وأفرد منبج ودلوك ورعبان وانطاكية وسماها العواصم ، (١٩)
بينما يذكر ابن الأثير أن معاوية هو الذي جند قنسرين من أتاه من أهل العراقين أيام علي ،
وانما كانت قنسرين وستاقا من رساتيق حمص . (٢٠)

وكانت الجزيرة تابعة اداريا في بادئ الأمر لوالي حمص ، (٢١) فلما أصبحت قنسرين جندا أصبحت الجزيرة تابعة لجند قنسرين ، وقد دفعت المتطلبات العسكرية عبد الملك بن مروان الى فصل الجزيرة من قنسرين ، ويقال أنه فعل ذلك بناء على طلب محمد بن مروان فجنّدها عبد الملك ، فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها ، (٢٢) ثم ضم عبد الملك لمحمد أذربيجان وأرمينية وأحيانا الموصل . (٢٣)

واذا اعتمدنا الروايات التي ذكرها المؤرخون ، وقارناها بما ذكر عند الجغرافيين الأوائل ، لوجدنا أن جند دمشق كان أكبر الأجناد لاسيما بعد جعل قنسرين جندا منفصلا من حمص . أما أصغر الأجناد فكان جند الأردن ، ولذلك فان معظم القصور الأموية في البادية والمتواجدة في شرقي الاردن حاليا انما بنيت في نطاق جند دمشق . (٢٤) وكان كل جند من الأجناد يضم عددا من الكور ، (٢٥) والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى

---

(١٩) : البلاذري ، ص ١٣٨ ، ابن الفقيه ، البلدان ، ص ١١٠ .

(٢٠) : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٣١ ، والرستاق اسم فارسي ، ويعنون كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة والكوفة وبغداد .

(٢١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٧ .

(٢٢) : المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٢٣) : خليفه بن خياط ، ج ١ ص ٣٩٣ .

(٢٤) : من أجل معلومات أوفى عن أجناد الشام وكورها يمكن العودة الى كتاب الادارة في العصر الأموي ، ص ٣٩-٤٢ . الجزيرة ، ٤٤-٤٨ .

(٢٥) : يرى جاستون فييت (Gaston Wiet) أن لفظ كورة مشتق من الاسم اليوناني (χώρα) كوره التي لم تكن شيئا آخر سوى الأقاليم المعروفة في العهد البيزنطي باسم بجارشي (Pagarchie) وكان على رأس الكورة صاحب الكورة ، وهذا اللقب ترجمة مضبوطة للفظ اليوناني بجاركوس . (Παγαρχος)
أما ياقوت الحموي ، فيذكر نقلا عن حمزة الأصفهاني أن الكورة اسم فارسي بحت يقع على قسم من الاستان وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان ، فالكورة والاستان واحد
(Wiet, L'Egypte Musulmane, Précis de l'Histoire d'Egypte t. II. p. 27.)
../..

من قصبة أو مدينة ، (٢٦) ولذلك نجد الجغرافيين عند ما يتكلمون من الكور التي يتألف منها جند دمشق يذكرون كورة دمشق وقصبتها دمشق ، وكورة البقاع ومدينتها بعلبك ، وكورة حوران ومدينتها بصرى ... الخ .

واذا كانت الضرورات العسكرية قد أوجبت جعل قنسرين جندا منفصلا ، وأوجبت فصل الجزيرة عن قنسرين ، فان هذه الضرورات هي التي أجبرت بيزنطة أيضا أن تعدل تقسيمها الادارى لمواجهة احتياجاتها الدفاعية ولا سيما المشروعات الاسلامية الكبرى لفتح القسطنطينية ، (٢٧) اذ أوجد البيزنطيون البند الأناضولي (Anatolikon) الى جانب البند الأرمني ، (Armeniakon) الذى تكون سنة ٦٢٩ م لمواجهة خطر الغزو الفارسي ، وقد قلل من شأنه فتح العرب لملطية ، ويشغل بند أرمينية والأناضول كل القسم الأوسط من آسيا الصغرى ، من حدود كيليكيا شرقا الى بحر ايجة غربا ، وكان سدا منيعا للامبراطورية أمام هجمات العرب . (٢٨) وأوجد البيزنطيون في القرن السابع كذلك بند الأوبسيكيون (Opsikion) ، (٢٩) واختصت هذه المنطقة بالحرس الامبراطورى لمواجهتها لشواطئ القسطنطينية ، وضرورة انتقاء الجند المدافع عنها لصد الحملات المباشرة عن العاصمة ، (٣٠) وكان هذا الاقليم الحربي يمتد من بحر مرمرة الى مسافة كبيرة داخل آسيا الصغرى ، وأقامت في جهات الساحلية فرق بحرية (Peralic Themes) لصد سفن المهاجمين عن العاصمة على حين استقر في جهات الداخلية فرق من الخيالة (Cavaliarli) لعرقلة الزحف البرى ، (٣١) وفي القرن الثامن الميلادى في عهد الأسرة الايسورية وبعد آخر حملة كبرى على العاصمة البيزنطية عمد ليون الثالث الى اقتطاع

---

(٢٦) : ياقوت الحموى ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢٧) : E.B. The Byzantine Empire Vol. IV P. 524.

(٢٨) : فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضارى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ج ١ ص ٩٦ .

(٢٩) : Ostrogorsky, History of The Byzantine State, Tr. by Joan Hussey, Oxford, 1956., P.119 .

رونسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٩٨ .

(٣٠) : ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٧ .

(٣١) : المصدر السابق ، ص ١٧ .

../..

الجانب الغربي من البند الأناضولي الواسع المدى ليشكل بند تراقيا ، (٣٢) كما أوجد بند الدوديكانيز (Dodecanese) ، واذا كانت العوامل العسكرية هي التي فرضت على ليون خلق بنود أقل امتدادا وأوسع حماية ، فان هذه العوامل العسكرية كانت تدعمها اعتبارات سياسية . فقد أدرك ليون الثالث بناء على تجربته الخاصة الخطر الذى قد ينشأ من جعل بنود واسعة المدى تحت سيطرة الحكام العسكريين (Strategus) والاغراءات التي قد تدفعهم الى العرش الامبراطورى ، (٣٣) وتابع قسطنطين الخامس سياسة والده فحد من مساحة بند الأوبسيكيون وشكل بند البوكلرى (Bucellarian) وبند الابتيماسيون (Optimacian) . وهكذا تم في عهد الأسرة الايسورية التنظيم الادارى الذى وضعت خطوطه الأولى في القرن السابع ، وعمد كل من ليون وابنه قسطنطين من بعده الى انتقاء القادة القديرين المخلصين لشخصهم ولسياستهم وتعيينهم كحكام لهذه البنود ، كما أن القانون العسكرى الذى يعود الى عهد ليون انما وضع ليؤسس لهؤلاء الحكام فرقا عسكرية جيدة التدريب لا همّ لها سوى القتال ، ونهى بشدة انشغال الجند بالزراعة والتجارة ، (٣٤) وهذا ما كان عمر قد أمر به أمراء الأجناد بأن يتقدموا به الى الرعية بأن عطاءهم قائم ، وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون . (٣٥)

الموظفون الاداريون :

١ـ الخليفة : ليس الخليفة الا رجلا اختارته الأمة ليكون ممثلا لها ويتولى الاشراف على أمورها وتدبير شؤونها ، والخليفة في نظر الاسلام ليس له أى صفات من صفات الألوهية ولو من بعيد ، وليس مقدسا ولا معصوما في نظر المسلمين ، وليس له الحق وحده في بيان الدين وتفسير نصوصه ، وليس له سلطة دينية على أحد ، بل هو رجل وثقت الأمة بدينه وعدالته فولته أمورها يديرها بأمر الله ومقتضى شريعته ، ولأنه كذلك لا يسمى خليفة الله بل خليفة رسول الله (صلعم) لأنه انما يستخلف من يموت والله جل جلاله حي لا يموت، ولهذا ما قيل لأبي بكر رضي الله عنه

---

(٣٢) : Ostrogorsky, OP. Cit. P. 119.

(٣٣) : Bury. T.B. A History of The Later Roman Empire , London, 1889, PP. 343 , 349.

(٣٤) : The Cambridge Med. History Vol. IV pp. 3, 4 .

(٣٥) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٦٢ .

../..

" ياخليفة الله " ، (٣٦) قال : " لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله " . (٣٧)

ولعل أبا بكر خليفة المسلمين الأول هو أول من حدد المهنية الأساسية للنظـــام السياسي الجديد وحماه عندما خاطب المسلمين بقوله : " لابد لكم من رجل يلي أمركم ، ويصلي بكم ويقاتل عدوكم " ، (٣٨) فأوضح أن الخلافة نظام يتولى صاحبها رعاية أمور الدين والدنيا ، كما أن أبابكر بخطابه حدد سلطة الخليفة بالرأى العام مع تقييدها أيضا بدستور الاسلام ، وهو القرآن والسنة ،وأظهر أهمية الجهاد لاعلاء كلمة الله وضرورة اقامة العـدل والسير في الطريق القويم وذلك في قوله : " أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني ،وان أسأت فقوموني ،الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى حتى أريح عليه حقه ان شاء الله ،والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع أحدكم الجهاد في سبيل الله ،فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالــذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم البلاء ،أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ،فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " . (٣٩)

بالرغم من أن أبا بكر حدد سلطة الخليفة بالرأى العام مع تقييدها أيضا بدسـتور الاسلام وهو القرآن والسنة ،الا أن الخليفة لم يكن مسوءولا قانونيا تجاه أى شخص أو موءسسة دنيويـة ، ولذلك كانت سـلطاته واسـعة ،وصحيح أن الخلفاء ،ولا سيما عمر كانوا يستشيرون

---

(٣٦) : نرى تعبير " خليفة الله " قد استعمل في مواضع مختلفة ،منها قول عثمان حينما دعي الى الاستعفاء " أما أن أبرأ من خلافة الله فالقتل أحبّ الى من ذلك " (شرح نهـج البلاغة ،ج ١ ،ص ١٦٥ . ومنها ماورد في الطبرى من أن مروان بن محمد كتب الـى الوليد بن يزيد معين تولى الخلافة " أخبر أمير الموءمنين ـ أكرمه الله ـ أني عندمـا انتهى الي من تيامه بولاية خلافة الله ،نهضت الى منبري . . . (الطبرى ج ٣ ،ص ٢١٧) واذا كان الأخطل قد قال : (خليفة الله يستسقى به المطر ، فان أبا تمام قـال للمعتصم :

خليفة الله جازى الله سعيك | عن جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها | تنال الا على جسر من التعـــب

(٣٧) : د . محمد يوسف موسى ،نظام الحكم في الاسلام ،دار المعارف ،القاهرة ، الطبعة الثانية ،١٩٦٤ م ، ص ٨٢ .

(٣٨) : ابن قتيبة ،الامامة والسياسة ،ج ١ ،ص ٢٥ .

(٣٩) : ابن هشام ،ج ٤ ،ص ٣١١ .

../..

في غالب الأحيان بعض الناس فيما يعرض لهم ، الا أنهم لم يكونوا ملزمين بقبول آراء المستشارين فمن حقهم أن يرفضوها ، أو يقبلوها حرفيا أو معدّلة ، ومن حقهم عند اختلاف آراء المستشارين اختيار مايشاؤون من الآراء ، وعليهم دون المستشارين ، تحمل مسؤولية هذه القرارات ، ولا ننسى أن اختيار هؤلاء المستشارين يعتمد على رغبة الخليفة وارادته لا على قانون معترف به ، فالخليفة يستطيع أن يستشير من يشاء ، متى شاء ، وكيف شاء .

وللخليفة باعتباره رئيسا للدولة والمهيمن على أزمة النظام الاداري حق اختيار من يشاء لتصريف شؤون الادارة والحكم ، وهو المسؤول عن أعمال من يختارهم لأنهم خاضعون له ويعملون باسمه ، وقد عمد عمر بن الخطاب رغبة منه باحلال الحق والعدل في كل منطقة دخل المدّ الاسلامي اليها الى التدخل في شؤون كل ولاية لأنه كان يؤمن ايمانا عميقا أن المسؤولية أولا وأخيرا هي مسؤولية الخليفة ، (٤٠) وقد ظهر ذلك بوضوح في الولاة الذين كان ينتقيهم وفي مراقبته الشديدة لهم ومحاسبته اياهم وفي رحل أكبر عدد من الولاة مباشرة به ، (٤١) ولم يكن عمر يعين الولاة فقط وانما كان يعين عمّال الخراج وكتّاب الدواوين والقضاة في الأمصار ، وهؤلاء جميعا كانوا مسؤولين عن أعمالهم مباشرة تجاه الخليفة الذى كان يراقبهم مراقبة شديدة ، فكان لا يخفى عليه شيء في عمله ، (٤٢) وكان عليه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد . (٤٣) كما أنه كان من سنة عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة ، " وليحجزهم

---

(٤٠) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢١٠ ، ابن الجوزى ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ١٣٩٤ هـ ، ص ١٣٢ .

(٤١) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ٢٤١ ، البلاذرى ، فتوح ص ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، خليفة بن خياط ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ١٥٨ ، الأزدى ، تاريخ الموصل ، ص ١٨ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ٣ ، الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٢٩ .

(٤٢) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٤٣) : الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م بيروت ، ص ١٦٨ .

../..

بذلك من الرعية ، وليكون لشكاة الرعية وقتا وغاية ينهونها فيه اليه " . (٤٤) ولذلك كان الولاة والعمال في عهد عمر يحسبون حسابا للخليفة في كل اجراء يتخذونه ، وفي كل خطوة يخطونها ، وكان معاوية بالرغم من ثقة عمر به وحسن سياسته وحكمته ودهائه " أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه " . (٤٥)

لم يستطع الخليفة عثمان أن يسير على نهج عمر بن الخطاب كما أنه وقع في سنوات خلافته الأخيرة تحت تأثير أفراد عائلته الذين تولوا ادارة الولايات الكبرى في الدولة ، فقد جمع الجزيرة والشام لمعاوية ومصر وبرقة وطرابلس لعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، والبصرة وخراسان وسجستان لعبد الله بن عامر ، والكوفة للوليد بن عقبة ثم لسعيد بن العاص، (٤٦) وخوّلهم سلطات واسعة ، وهذا مما مهد للادارة اللامركزية في العصر الأموي ، ولكنه كان سببا من الأسباب التي أدّت الى الفتنة ومقتل الخليفة عثمان ، ولما كانت الفتن قد استغرقت أيام الخليفة علي أكثر من التنظيم والادارة ، فقد الاستقرار في البلاد " بالرغم من أن هديه كان هدى أصحابه الثلاثة من قبله ، وما خالف علي عمر ولا غيّر شيئا مما صنع " . (٤٧)

بمقتل الخليفة علي وتنازل الحسن ، انتقلت الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان عام ٤١هـ ، الذى تعارف المؤرخون على تسميته بعام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد طول نزاع ، وتصبح الشام هي الولاية المركزية ، ويتخذ معاوية دمشق عاصمة للدولة الاسلامية ،

---

(٤٤) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٤٥) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٤٦) : البلاذرى ، فتوح ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ابن سعد ، الطبقات ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١٢٨ ، خليفة بن خياط ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(٤٧) : محمد كرد علي ، الاسلام والحضارة الاسلامية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨م ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

../..

بسبب موقعها المتوسط، وتقاليدها الحضارية، (٤٨) وبقيت دمشق العاصمة الرسمية للدولة الاسلامية حتى خلافة مروان بن محمد الذى نقل بيوت الأموال والخزائن الى الجزيرة. (٤٩) وقد دفن كل من معاوية ويزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك بدمشق، (٥٠) أما سليمان فقد دفن بدابق من أرض قنسرين، (٥١) بينما دفن عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أرض حمص، (٥٢) ودفن هشام بن عبد الملك بالرصافة. (٥٣)

ومن المؤكد أن معاوية أقام في دمشق طيلة امارته وخلافته، ولم يكن يغادرها الا لأسباب قاهرة، وكذلك فعل عبد الملك، أما بقية الخلفاء، فيظهر أنهم كانوا يقيمون في أماكن مختلفة، وان بقيت دمشق هي المركز الذى تتم فيه بيعة الخلفاء وما يتبع ذلك من مراسيم. (٥٤)

---

(٤٨) : يبدو أن دمشق في عهد المقدسي كانت لا تزال تحمل آثار بني أمية، ووصفه لدمشق يلقي بعض الضوء على وضعها آنذاك، اذ يقول: دمشق هي مصر الشام، ودار الملك أيام بني أمية وثم قصورهم وآثارهم، بنيانهم خشب وطين، اكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف، وهو بلد قد خرقته الأنهار وأحدقت به الأشجار، وكثرت به الثمار مع رخص أسعار وثلج وأضداد، لا ترى أحسن من حماماتها، ولا أعجب من فوّاراتها ولا أحزم من أهلها (المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٥٦، ١٥٧).

(٤٩) : الازدى، تاريخ الموصل، ص ٦٨.

(٥٠) : الفقيه أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي السرور، بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء، الطبعة الأولى، مصر ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ص ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٣، المسعودى، مروج الذهب، ج ٣، ص ٣١، ٥٣، ٨٩، ٩١، القلقشندى، مآثر الأناقة في معالم الخلافة - الكويت، ١٩٦٤م، ج ١ ص ١١١، ١١٧.

(٥١) : النويرى، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٣٣٥.

(٥٢) : ابن أبي السرور، بلغة الظرفاء، ص ٢٥، الطبرى، ج ٦، ص ٥٦٥.

(٥٣) : المصدر السابق، ص ٢٦، الطبرى، ج ٧ ص ٢٠٠.

(٥٤) : هناك اشارات واضحة الى أن بيعة يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، قد تمت في دمشق، وكذلك سليمان لأنه هو الذى صلّى على أخيه، فلا شك أنه بويع في دمشق، وبالرغم من أن البريد جاء بشارتي الخلافة، العصا والخاتم، الى هشام وهو بالزيتونة فانه لم يلبث أن توجه الى الرصافة ثم ركب من الرصافة حتى أتى دمشق، فبويع بها في اليوم الأول من رمضان سنة ١٠٥ هـ. (الطبرى، ج ٧، ص ٢٥، العيون والحدائق، ص ٨٢، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، النجف ١٩٦٩م ص ٢٤٧).

../..

ان نجاح معاوية وتنازل الحسن عن الخلافة كان اقرارا بمبدأ الأمر الواقع المستند الى القوة في اختيار الخليفة ،هذا المبدأ الذى عبر عنه معاوية عند ما قدم المدينة عام الجماعة ، وتلقاه رجال قريش مهنئين ، فأجابهم ،" أما بعد فاني والله ماوليتها بمحبة علمتها عنكم ،ولا مسرة بولايتي ، ولكنني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ". (٥٥) وصارت العلاقة تقوم على مؤاكلة حسنة ومشاعر جميلة قوامها قول الخليفة لرجال قريش : " وان لم تجدوني أقوم بحقكم كله ،فاقبلوامني بعضه " ، (٥٦) فلما كان عهد عبد الملك الذى واجه مشاكل كثيرة حتى استقامت له الأمور وقضى على ثورة عبد الله بن الزبير ، فانه رأى أن المؤاكلة الحسنة لا مكان لها في سياسته وأنه لا تداوى أدواء هذه الأمة الا بالسيف. (٥٧)

ونظرا لوصول معاوية الى منصب الخلافة بالقوة ،فانه لم يبايع لمعاوية أحد الا أخذ عليه الأيمان ،فكان أول شخص استحلف على بيعته ، (٥٨) كما أن يزيد بن معاوية في كتابه الى عامله على المدينة ،طلب منه أن يأخذ البيعة من الحسين ،وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ،وعبد الله بن الزبير ،وعبد الله بن جعفر ،ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة ويحلفون بصدقة أموالهم غير عشرها ،وجزية رقيقهم وطلاق نسائهم ، وبالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم ، (٥٩) ولما آل الأمر الى عبد الملك وأقام الحجاج بن يوسف على امارة العراق وعمد الى أخذ البيعة لعبد الملك في العراق ،رتب أيمانا مغلظة تشتمل على الحلف بالله تعالى والطلاق والعتاق ،والايمان المحرجات ،واشتهر بين الفقهاء بايمان البيعة ،واطرّد أمرها في الدولة العباسية ،وجرى مصطلحهم على هذا الأسلوب. (٦٠)

---

(٥٥) : ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،ج ٤ ،ص ٨١ ، ٨٢.

(٥٦) : المصدر السابق ،ج ٤ ،ص ٨٢.

(٥٧) : المصدر السابق ،ج ٤ ،ص ٤٠١ ،ابن كثير ،البداية والنهاية ، القاهرة ،ج ٦ ص ٦٤ ،السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،دار الثقافة ، بيروت ،ص ٢٣٩ ،وفي خطاب لعبد الملك ، " أما انه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون ويؤكلون واني والله لا أداوى هذه الأمة الا بالسيف " .

(٥٨) : اليعقوبي ،تاريخ ،ج ٢ ،ص ٢٠٧.

(٥٩) : ابن قتيبة ،الامامة والسياسة ،ج ٢ ،ص ١٧٥.

(٦٠) : عبد الرحمن بن زيدان ،كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٦٢ ،الباب الثاني من المقالة الخامسة ،ص ٢٨ ، ٢٩ ،السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،ص ٢١٩ ، القلقشندى ،مآثر الأناقة ،ج ٢ ،ص ٢٦٠.

٠٠/٠٠

وكان معاوية كذلك أول من لجأ الى العهد بعد أبي بكر ولكن بمفهوم جديد ، اذ أن أبابكر عندما عهد بالخلافة الى عمر فعل ذلك لأنه وجده يتمتع بجميع الصفات والميزات التي تؤهله ليكون خليفة للمسلمين ، وليس لصداقة أو قرابة ، بينما عهد معاوية بالخلافة لابنه لأنه أراد أن يحفظ الخلافة في آل سفيان ، كما أنه اتبع في نظام البيعة سبيلا جديدا ، اذ أنه أخذ البيعة لابنه يزيد في حياته ، وأصبح العهد بعد معاوية الطريقة المتبعة على الأغلب في تولي الخلافة ، (٦١) فاما عهد الى الولد أو الى أحد أفراد الأسرة لئلا يخرج الحكم من أيديهما ، بل أن الحيطة في بقاء الخلافة بيد الأسرة الواحدة حملت مروان بن الحكم على أن يبايع حال حياته لولديه عبد الملك وعبد العزيز ، (٦٢) ومضى عبد الملك على هذه السنة فعهد الى ابنه الوليد والى أخيه سليمان من بعده ، وتابع سليمان بن عبد الملك هذه الطريقة ، فعهد الى عمر بن عبد العزيز والى يزيد بن عبد الملك من بعده . واتبع الخلفاء طريقة معاوية في أخذ البيعة لولاة عهودهم ، في حياتهم ، وكان الخليفة عندما يقرر من سيكون ولي عهده يرسل بالكتب الى عماله لكي تقرأ هذه الكتب على الناس ، ثم يبايع الناس ويأخذون عليهم العهد والميثاق . (٦٣) فاذا مات الخليفة جددت البيعة ثانية تأكيدا للعهد ، فكانت البيعة تأتي من الآفاق ويكتب اليه العمال وتجيء الوفود . (٦٤)

وهكذا نرى أن الخلافة في عهد بني أمية قد أصبحت وراثية ، ورافق ذلك شارات وعلامات بدلا من البساطة التي كانت شعار الخلفاء الراشدين ، فقد اتخذ معاوية المقصورة في المسجد ، (٦٥) ولكنه اتخذها حين طعنه الخارجي ، (٦٦) وأقام الحرس والشرط والبوابين

---

(٦١) : سار خلفاء بني أمية جميعا على اختيار أولياء العهد في حياتهم ، فكلهم كان مختارا من سلفه ، ماعدا رأس هذه الدولة معاوية ، ومروان بن الحكم ، ويزيد بن الوليد ، ومروان بن محمد ، هؤلاء أخذوا الخلافة بالقوة .

(٦٢) : الطبري ، ج ٦ ، ص ٦١ .

(٦٣) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢١٨ ، ٢٢٣ .

(٦٤) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢١٦ .

(٦٥) : اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، ابن قتيبة ، المعارف ، الطبعة الثانية ، ص ٣٤١ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٩ .

(٦٦) : ابن خلدون ، المقدمة ، منشورات مؤسسة الاعلمي ، بيروت ١٩٧١م . ج ١ ، ص ٢٢٤ .

../..

وأرخى الستور، (٦٧) ومشي بمن يديه بالحراب وجلس على السرير والناس تحته ، (٦٨) ولكن ابن خلدون يضيف الى ذلك "أنه استأذن الناس وقال لهم ، : اني قد بدنت ، فأذنوا له ، فاتخذه واتبعه الملوك الاسلاميون فيه" . (٦٩)

وبالرغم من أن القلقشندى يذكر في كتابه صبح الأعشى أن معاوية كان أول من نهى من الكلام بحضرته ، وكان الناس قبل ذلك يردون على الخليفة ويعترضونه فيما يقول ، (٧٠) فانه يذكر في كتابه مآثر الأناقة ، أن عبد الملك بن مروان كان أول من نهى عن الكلام بحضرة الخليفة وأن الوليد بن عبد الملك هو أول من أقام ناموس الملك ومنع من دعاء الخليفة باسمه ومراجعته في الكلام . (٧١) وأعتقد أن ما يذكره القلقشندى في مآثر الاناقه أدق ، لأن الروايات المتعلقة بمعاوية كثيرا ما تشير الى أن الناس كانوا يراجعونه فيما يقول ويعترضون عليه فيما يفعل . ومع أن معاوية وخلفاء بني أمية باستثناء عمر بن عبد العزيز يتهمون باهتمامهم بالمصالح

---

(٦٧) : يقول الجاحظ بأن خلفاء بني أمية تأثروا بقوانين الملك والمملكة عند العجم فيما يتعلق بترتيب الخاصة ، والعامة ، وسياسة الرعية ، والزام كل طبقة حظها ، وأن كل ملوك الأعاجم كانت تحتجب عن الندماء بستارة ، وكذلك فعل معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد ، اذ كان بينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة ، اذا طرب للمغني والتذه ، أما يزيد بن عبد الملك ، فقد أفسد أقسام المراتب ، وغلب عليه اللهو ، فأذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه ، والرد عليه ، ولم يكن الوليد بن يزيد بأفضل منه ، أما عمر بن عبد العزيز فلم يكن يسمع الغناء منذ أفضت الخلافة اليه ، الى أن فارق الدنيا ، فأما قبلها وهو أمير المدينة فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه الا الأمر الجميل . (الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩) .

(٦٨) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٦٩) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ١ ص ٢١٧ .

(٧٠) : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ص ٤١٤ .

(٧١) : القلقشندى ، مآثر الأناقة ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ .

../..

السياسية ، وتقديمها على الاعتبارات الدينية ، وقول ابن طباطبا : " أن معاوية كان مصروف الهمة الى تدبير أمور الدنيا ، يهون عليه كل شيء اذا انتظم أمر الملك". (٧٢) فان خلفاء بني أمية كانوا يولون امامة الصلاة اهتمامهم ، فخلفاء بني أمية كالخلفاء الراشدين كانوا يؤمون المسلمين في المساجد العظيمة في الصلوات الخمس والجمعة ، والعيدين والخسوفين والاستسقاء ، ولا يقلدونها لغيرهم من الناس استئثارا بها واستعظاما لرتبتها ، حتى أن عبد الملك أمر حاجبه ألا يحجب عنه ثلاثة ، المؤذن للصلاة ، فانه داعي الله ، وصاحب البريد فان في تأخيره فساد القاصية ، وصاحب الطعام لئلا يفسد . (٧٣)

وكخليفة للمسلمين أصبح لمعاوية الحق في اختيار من يشاء لامارة الأمصار ، فهو الذي يعينهم أو يعزلهم متى شاء ، وهو المسؤول عن أعمالهم فهم اذاً خاضعون له ويعملون باسمه ، وبالتالي فكل تمرد أو عصيان عليهم يعتبر وكأنه موجه ضد الخليفة ، وقد كان الخليفة مسؤولا عن تنفيذ القانون في كافة أنحاء الدولة الاسلامية ، ولكن نظرا لسعتها ولصعوبة المواصلات أصبح تنفيذ القانون والاشراف على الشؤون الادارية في الأمصار بيد الأمير الذي يتمتع خلال اشغاله منصبه بشبه استقلال ذاتي ، (٧٤) الا أنه مسؤول تجاه الخليفة ويعمل باسمه ، (٧٥) الا أنه لم يكن له الصلاحية في أن يسير الى الخليفة ويترك أمر ولايته الا باذنه . (٧٦)

بالاضافة الى المشاكل المتعلقة بأمور ادارة الدولة ، كان الخلفاء يخصصون أوقاتا للنظر في حوائج الرعية ، فكان معاوية يخرج الى المسجد ويطلب من غلامه أن يضع له كرسيا يسند ظهره الى المقصورة ، فيقوم اليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فينظر في أمرهم ، (٧٧) ثم يخصص وقتا لأشراف الناس الذين يرفعون حوائج

(٧٢) : ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٩ .

(٧٣) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٧٣٦ ، ٧٧٥ .

(٧٤) : عرف الفقهاء المسلمون في وقت متأخر هذا اللون من الادارة اللامركزية للولايات بأنها امارة استكفاء (الادارة في العصر الأموي ، ص ١٠٦) .

(٧٥) : الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٤ .

(٧٦) : الطبري ، ج ٧ ، ص ١٤٩ .

(٧٧) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

../..

من لا يستطيع الوصول الى الخليفة . (٧٨)

وفاق عمر بن عبد العزيز معاوية في الاهتمام بالمظالم ،فكان يقعد لحوائج الرعية يومه ، فاذا أمسى وبقيه بقية من حوائجه وصله بليلته ، (٧٩) أما عبد الملك فقد أفرد للظلامات يوما معينا (٨٠) كل أسبوع ،بينما عهد هشام بن عبد الملك الى تخصيص ستين يوما وليلة للناس لا يهتم فيها بشيء سوى رد المظالم والأخذ على يد الظالم من جميع الناس وأطراف البلاد ،فكان يصل الى مخاطبته بذلك الموضع راعي السوام ،والأمة السوداء فما دونهما ،وكان يوكل رجالا ذا أدب وعقل بادناء الضعفاء والنساء واليتامى منهم ويأمره باقصاء أهل القوة والكفاية عنه حتى يأتي على آخر ما يكون من أمره . (٨١) وبالرغم من أنه كان لكل خليفة نهجه في النظر في المظالم وفي معاملته للناس،فان المسعودي يرى أن خلفاء بني أمية ،بالرغم من أنهم حاولوا أن يسيروا على هدى معاوية الا أنهم " لم يدركوا خلقه ولا اتقانه للسياسة ولا التأني للأمور ولا مداراة الناس على منازلهم ورفقهم بهم على طبقاتهم " . (٨٢)

٢- الوزراء والمستشارون :

لا ريب أن كلمة وزير عرفت قبل الاسلام ، ذلك أنه من المسلم به عند علماء اللغة العربية أن القرآن الكريم يمثل من الناحية اللغوية نهاية العصر الجاهلي . (٨٣) وقد وردت الكلمة فيه مرتين ، (٨٤) أما في السنة النبوية وفي أقوال كبار الصحابة ، فقد ورد

---

(٧٨) : المسعودي ،ج ٣ ،ص ٣٠ .

(٧٩) : أبو يوسف ،الخراج ،ص ١٩ .

(٨٠) : الماوردي ،الاحكام السلطانية ،ص ٧٨ .

(٨١) : ابن قتيبة ،الامامة والسياسة ،ج ٢ ،ص ١٠٧ .

(٨٢) : المسعودي ،مروج الذهب ،ج ٣ ،ص ٣١ .

(٨٣) : ظافر القاسمي ،نظام الحكم في الشريعة والاسلام ،دار النفائس ، بيروت ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤م ، ج ١ ،ص ٤١ .

(٨٤) : في سورة طه ،الآية ٢٩ وما بعدها في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : " واجعل لي وزيرا من أهلي ،هارون أخي ،أشدد به أزري، وأشركه في أمري ." وفي سورة الفرقان الآية ٣٥ في قوله تعالى : " ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا " .

../..

لفظ الوزير ، والوزاره والوزراء في مواضع متعددة وفي مناسبات مختلفة. (٨٥) ويتبين من دراستنا المدرس أن الوزارة قد تغير مفهومها من التحديد الذي ورد في القرآن الكريم. فالوزير في القرآن شريك في العمل وفي المسؤولية وفي كل شيء أما في أقوال الرسول فلم تعن الا أن الوزير مستشار أو مشير ، والفرق بينهما أن المستشار لا يبدي رأيه الا اذا سئل أما المشير فله أن يقول وان لم يطلب منه القول. (٨٦)

وبالرغم من أن أبا بكر قد أكّد على أنه " لا فضل لأمير على مأمور كالخوصة اذا شقت نصفين متساويين " ، فانه أبى الا أن يكون القرشيون أمراء ، وأن يكون الأنصار وزراء وهذا يدعونا لأن نعتبر الوزارة مرتبة أدنى من الامارة في مفهوم الخلفاء ، بعد وفاة الرسول.

فاذا أتينا الى العصر الأموي فاننا نميل الى القول بأن الوزارة وجدت ، (٨٧) وان لم تعط

---

(٨٥) : عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله (صلعم) قال : لي وزيران من أهل السماء جبرائيل وميكائيل ووزيران من أهل الأرض ، أبو بكر وعمر ، وعن أنس بن مالك أن رسول الله (صلعم) قال : وزيراي من أهل السماء جبرائيل وميكائيل ، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر ، (ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٤٧) وفي خبر رواه الطبري أن زيد بن ثابت أجاب خطيب بني تميم بحضور الرسول (صلعم) فكان مما قال : " نحن أنصار الله ووزراء رسوله " (الطبري ج ٣ ، ص ٦ ١١) وكان اجتماع السقيفة يوم وفاة الرسول (صلعم) فكان مما قاله أبو بكر فيه مخاطبا الأنصار : " نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور (الطبري ج ٣ ص ٢٢٠) وفي كلام لعلي بعد مقتل عثمان عند ما عرض الصحابة الموجودون في المدينة الامامة على علي قال : " التمسوا غيري ، فأنا لكم وزيرا خير مني لكم أميرا " (الطبري ج ٤ ص ٤١٧) ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة .

(٨٦) : ظافر القاسمي ، المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

(٨٧) : يرد عند المسعودي أن معاوية كان يجتمع أول ما يجتمع بخاصته ووزرائه لكي يتباحثوا في شؤون الدولة ، ثم يعود فيجتمع بهم ثانية بعد صلاة الظهر فيؤامرونه فيما احتاجوا اليه بقية يومهم ، ثم يجتمع بهم ثالثة بعد صلاة العشاء فيما أرادوا وأصدروا من ليلتهم ، (المسعودي ، مروج الذهب ص ٢٩ - ٣١) ويرد عند ابن الحكم أن الخلفاء كانوا يتخذون رجاء بن حيوة وزيرا ومستشارا وقيما على أعمالهم وأولادهم (سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١١٨) . وفي الطبري ج ٤ ص ٢٥٥ حول سخط أهل افريقيا وحضور وفد منهم الى دمشق في خلافة هشام بن عبد الملك للاحتجاج على تصرفات أميرهم أنه لم يكترث لهم مقابلة الخليفة ... فكتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها الى الوزراء وفي أحداث سنة ١٢٦ هـ نقرأ أن حسان النبطي أخبر يوسف بن عمر أن الوليد عازم على تولية عبد الملك بن الحجاج وأنه لابد ليوسف اذا أراد أن يحتفظ بمنصبه من اصلاح أمر وزراء الخليفة (ج ٦ ، ص ٤١٢) .

../..

هذا الاسم دائما ، لأننا اذا نظرنا الى ما كتبه الطبري في أحداث سنة ٨٥ هـ عن قبيصة بن ذؤيب لوجدنا أنه كان يجمع كل صفات الوزير في العصر العباسي، وان لم يسمّ وزيرا ،جاء في النص : " أن عبد الملك بن مروان تقدّم الى حجابه أن لا يحجب عنه قبيصة بن ذؤيب أي ساعة جاء من ليل أو نهار ،اذا كان خاليا أو عنده رجل واحد ،وان كان عند النساء أدخل المجلس وأعلم بمكانه ،وكان الخاتم وكانت السكة اليه ،تأتيه الأخبار قبل عبد الملك ، ويقرأ الكتب قبله ويأتي بالكتاب الى عبد الملك منشورا" ، (٨٨) ومن الطبيعي أن يكون هناك وزراء الى جانب أكثر الخلفاء يشاركونهم في تحمل أعباء الحكم ،اذ لا يحتمل أن تقوم دولة مترامية الأطراف ،وأن لا يكون فيها وزير أو وزراء ،وأن يكون الخليفة وحده المهيمن على كل صغيرة وكبيرة، وانما كانت الوزارة كما قال ابن طباطبا" لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها الا في دولة بني العباس ، فأما قبل ذلك ،فلم تكن متقنة القواعد ،ولا مقررة القوانين ،بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فاذا حدث أمر استشار ذوي الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى الوزير ،فلما ملك بنو العباس ،تقررت قوانين الوزارة ،وسمي الوزير وزيرا وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا ، (٨٩) ويستخدم كل من اليعقوبي والجهشياري تعبيرا يعبر عن وضع هؤلاء الكتاب الذين كانوا بمنزلة الوزراء ،فيذكر اليعقوبي أن قبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع الجذامي كانا يكتبان لعبد الملك وكانا غالبين عليه ، (٩٠) وكان يكتب لهشام بن عبد الملك سعيد بن الوليد بن عمرو بن جبلة الأبرش وكان غالبا عليه ، (٩١) كما كان عبد الحميد غالبا على مروان . (٩٢)

وكان هؤلاء الكتاب المستشارون على درجة عالية من الثقة في الدين ، يتقنون اللغة ويجيدون الخط ،ويروون الأشعار ،ويعرفون غريب معانيها ،وأيام العرب والعجم وأحاديثها

---

(٨٨) : الطبري ،ج ٦ ص ٤١٢ .

(٨٩) : ابن طباطبا ،الفخري في الآداب السلطانية ،ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٩٠) : اليعقوبي ،تاريخ ،ج ٢ ،ص ٢٣٨ .

(٩١) : المصدر السابق ،ج ٢ ،ص ٢٣٨ ،الجهشياري ،الوزراء والكتاب ص ٥٩ ،ويحدثنا الطبري أن هشاما رفض أن يوافق على شروط الصلح بين السغد والمسلمين التي عقدها نصر بن سيار والي خراسان ،فلما كلمه الأبرش بذلك وافق على تلك الشروط (الطبري ج ٧ ،ص ١٩٢) .

(٩٢) : الجهشياري ،ص ٣٣ .

../..

وكان عبد الملك يمتدح روح بن زنباع بقوله : انه شامي الطاعة عراقي الخط ، حجازي الفقه ، فارسي الكتابة . (٩٣) أما قبيصة بن ذؤيب فيدعوه الذهبي ، الامام الكبير الفقيه الخزاعي المدني ثم الدمشقي الوزير . (٩٤)

٣- الـولاة :

كان من عادة الخلفاء الراشدين اذا أرسلوا قائدا لفتح بلد ، ولوه عليه قبل خروجه لفتحه ، فقد روى الواقدي أن أبا بكر ولّى عمرو بن العاص فلسطين ، وشرحبيل الأردن ، ويزيد دمشق ، وأنه اذا حدث قتال فأميرهم هو الذي يكونون في عمله . (٩٥) كما روى أنه أمر عمروا مشافهة أن يصلي بالناس اذا اجتمعوا ، واذا تفرّقوا صلّى كل أمير بأصحابه ، فلما جاء خالد مددا ، نلاحظ توحيدا للقيادات استمرت في خلافة عمر بن الخطاب الذي جمع أمر الشام كله وامرة الأمراء في الحرب والسلم لأبي عبيدة بن الجرّاح لمكانته وعظم ثقته به ، (٩٦) وعمد أبو عبيدة أثناء عملية الفتوح الى تعيين وال على كل مدينة صالحه أهلها ، (٩٧) وضم جماعة من المسلمين اليه ، وكانت مهمة هذا الوالي بالدرجة الأولى أن يمنع أهل المدينة وأن يجبي الجزية والخراج ، (٩٨) وبقي لرؤساء أهل كل مدينة مكانتهم في ادارة شؤون رعاياهم من أهل الذمة ، (٩٩) وفي رواية سريانية لمؤلف مجهول أن الخليفة أمر قواده أن ينصوا على أن أهل المدن المفتوحة يبقون اذا شاؤوا يواصلون سياتهم حسب قوانينهم وتقاليدهم قبل الفتح ، (١٠٠) وقد اتبع أبو عبيدة هذه السياسة لكي يتألف الناس ، وليسمع به غيرهم من أهل المدن التي لم يطلب أهلها الصلح فيسارعوا الى طلبه ، (١٠١)

---

(٩٣) : الجهشياري ، ص ٣٥ .

(٩٤) : الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٨٢ .

(٩٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٩٦) : المصدر السابق ، ص ١٢٣ ، خليفة بن خياط ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٩٧) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٦٦ .

(٩٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٥ .

(٩٩) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٦٦ ، ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(١٠٠) : Chronicum Annonymus ad. annum Christi 1234. pertinens XIV P. 188.

(١٠١) : أبو يوسف ، الخراج ص ٨١ .

../..

يتبين لنا من النصوص التي بين أيدينا أن أبا عبيدة كان يتمتع بصلاحيات واسعة عسكرية ومدنية ،فهو الذى يوجه القادة ،ويعين العمال على الكور ،(١٠٢) ويوافق على عقود الصلح التي يبرمها قواده ،(١٠٣) كما يلي أمر القضاء،(١٠٤) وقد استمرت امرته على الشام حتى وفاته في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ .(١٠٥)

بالرغم من كل هذه الصلاحيات التي منحها عمر بن الخطاب لأبي عبيدة فان هذا لم يكن يمنعه من التدخل في أمور كثيرة ،اذ يذكر الطبرى أن عمر أتى الشام سنة ١٧هـ " فقسّم الأرزاق وسمّى الشواتي والصوائف ،وسدّ فروج الشام ،وأخذ يدورها ويسمي ذلك في كل كورة واستعمل على الساحل عبد الله بن قيس" ،(١٠٦) وعندما أمّن عمر أهل ايلياء واكتتبوا منه على ايلياء وحيّزها ،وصارت فلسطين نصفين ،نصف مع أهل ايلياء ونصف مع أهل الرملة ،فرّق عمر فلسطين على رجلين ،فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة ،وعلقمة بن مجزز على نصفها الآخر وأنزله ايلياء .(١٠٧)

ولم يجمع عمر بن الخطاب الشام لعامل واحد بعد وفاة أبي عبيدة سنة ١٨هـ اذ عين عياض بن غنم على حمص وقنسرين والجزيرة ولم تكن الجزيرة قد فتحت بعد ، وانما كان من عادة الخلفاء كما رأينا أنهم اذا أرسلوا قائدا لفتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه) .(١٠٨) وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء ،وعمرو بن العاص فلسطين والاردن .(١٠٩) وكان ولاة الشام عند وفاة عمر ،معاوية على دمشق والأردن ،وعلقمة بن مجزز على فلسطين ، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين والجزيرة .(١١٠)

---

(١٠٢) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٣٧ ، ١٥٢ .

(١٠٣) : المصدر السابق ،ص ١٥٢ .

(١٠٤) : أبو يوسف الخراج ،ص ١٤٠ .

(١٠٥) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٧ قسم٢ ص ١١١ ، ١١٢ .

(١٠٦) : الطبرى ،ج ٤ص ٦٤ ، ٦٥ .

(١٠٧) : المصدر السابق ،ج ٣ ،ص ٦٠٨ .

(١٠٨) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٧٧ .

(١٠٩) : خليفة بن خياط ،ج ١ ،ص ١٥٧ .

(١١٠) : البلاذرى ،فتوح ، ص ١٧٨ ،الطبرى ،ج ٤ ،ص ٢٨٩ .

../..

وكانت صلاحية الوالي تتوقف على مايرد في صك التعيين من ولاية على الصلاة أو الحرب أو الخراج ، أو ثلاثتهم معا ، ولم يتبع الخليفة عمر نهجا معينا ، اذ يبدو أن ذلك كان يتوقف على شخصية الوالي وعلى المصر. (١١١) واستمر تدخل عمر في تعيين العمال ضمن المنطقة التي يحكمها الوالي ولكن بطريق غير مباشر ، أي بايعاز من الخليفة ، فقد ولّى عمر مثلا علقمة بن علاثة بن عوف حوران ولكنه جعل ولايته من قبل معاوية ، لأن معاوية كان هو الوالي على جند دمشق وحوران تابعة له . (١١٢) كما أن تعيين القضاة كان يتم من قبله ، فقد ولّى أبا الدرداء قضاء دمشق وصلاتها وولّى عبادة قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما . (١١٣)

بعد وفاة عمر جمع عثمان لمعاوية الشام والجزيرة وثغورهما ، (١١٤) وأصبح معاوية يتمتع بصلاحيات واسعة جدا فأصبح واليا على الصلاة والحرب والخراج ، وكانت امامة الوالي في الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالي وعلى زعامته العليا السياسية في الدولة ، وبما أن الادارة المالية جمعت له كذلك فانه أصبح مطلق التصرف في ولايته ، وكان تعيين الولاة على الأجناد عائدا اليه ، (١١٥) وهؤلاء الولاة بدورهم كانوا يسألون أمامه .

ان هذه الصلاحيات هي التي مكّنت معاوية خلال هذه الفترة من تثبيت سلطانه ، ومن ثم فانه عندما بدأت الفتنة وفد معاوية على عثمان سنة ٣٤ هـ مع سائر ولاة بني أمية وغيرهم للتشاور في أمر الفتنة التي انتشرت في أرجاء

---

(١١١) : الطبري ، ج ٤ ص ١٤٤ ، الدينوري ، ص ١٢٩ ، ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٣٠

(١١٢) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٥ .

(١١٣) : المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

(١١٤) : المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١٢٨ .

(١١٥) : الطبري ، ج ٤ ص ٤٢١ .

../..

الدولة ،اقترح معاوية على عثمان أن ينطلق معه الى الشام ، (١١٦) وكانت نصيحة معاوية لعثمان بالانتقال الى الشام وباظهاره أهمية اعتماد البيت الأموى على هذا الاقليم ،تمثل مفهوما جديدا في التطور السياسي الذى شهدته الدولة الاسلامية اذ ذاك ،فقد أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذى تدار منه شؤون الدولة الاسلامية بعد أن اتسعت رقعتها ،وهاجر القسم الأعظم من القبائل منها ، ان لم نقل قبائل هامة برمتها ، وأقامت في المعسكرات التي تحولت الى مدن زاهرة في الأقاليم المفتوحة ، وتناقصت أهمية الحجاز ولم تعد المصر الأوحد الذى تقرر منه سياسة الدولة ، ومن ثم فان عليا نفسه خرج الى العراق واتخذ من الكوفة مركزا له عندما أيقن أن الخلاف بينه وبين معاوية لن ينتهي الا بالحرب ،واستطاع معاوية بالاعتماد على أهل الشام كما رأينا أن يقف في وجه علي وأن يصبح خليفة للمسلمين .

بانتقال الخلافة الى معاوية أصبحت الشام هي الولاية الوحيدة التي وقعت تحت الادارة المباشرة للخليفة ،وكان يساعد الخليفة في ادارة هذه الولاية عدد من الولاة ،فكان لكل جند بما في ذلك جند دمشق وال أو نائب عن الخليفة ،ولم يجمع خلفاء بني أمية جندين لوال واحد كما حدث في خلافة عمر بن الخطاب ، كما أن صلاحياتهم كما يبدو لم تكن واسعة وانما كانوا على حد تعبير ابن العديم بمنزلة الشرط لا يستقلون بالأمور والحروب ، (١١٧) أى أن مهمة الوالي الرئيسية كانت حفظ الأمن والنظام في المنطقة ، بالاضافة الى تعيينه العمال على المدائن والقرى ومراقبتهم بحيث يجزى محسنهم ويستبدل المسيء منهم . (١١٨) وقد يكون الوالي أحيانا مسؤولا عن الادارة المالية في منطقته فيكون أكثر حرية واستقلالا في التدابير التي يتخذها ، ذلك

---

(١١٦) : الطبرى ،ج ٤ ،ص ٣٤٥ .

(١١٧) : ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ،ج ١ ،ص ٤١ .

(١١٨) : ابن عبد الحكم ،سيرة عمر بن عبد العزيز ،ص ٦٩ .

../..

أن عامل الخراج كان بامكانه أن يحدّ كثيرا من سلطة الوالي مما يؤدى الى النزاع بينهما ، (١١٩) وكان من مهمة الوالي كذلك الاهتمام بأمر السجون وأهلها ، وبخصوص ابن سعد لأوضاع السجون وتنظيمات عمر بن عبد العزيز الذى أمر ولاته أن ينظروا بأمر السجون وأن يستوثقوا من أهل الدعارات ، وأن يكتب لهم برزق الصيف والشتاء . كما أمر أن لا يجمع بين قوم حبسوا في دين وبين أهل الدعارات في بيت واحد ولا حبس واحد ، وأن يجعل للنساء حبس على حدة ، وأن يوكل أمر السجن الى شخص يثق به ولا يرتشي . (١٢٠)

ليست لدينا نصوص واضحة تشير الى مهمات عمّال النواحي والقرى ، ومع ذلك فان النص الذى يورده الجهشيارى يجعلنا نصل الى الاعتقاد بأن مهمته الأولى والأساسية كانت كما في العهد الراشدى جباية الأموال ، لأن الأمور المتعلقة بأهل الذمة ، كانت تدار من قبل رؤسائهم ، اذ عندما استشار عبد الملك بن مروان روح بن زنباع الجرشي في أمر الوليد ، عندما عزم على تقليده العهد قال له : " اني قد عملت على توليته شيئا من النواحي أولا ، فاذا مرّت له مدة قلّدته ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، انك لو بعثت الوليد يقسم الأموال بين الناس مارضوا عنه فكيف تبعثه جابيا ، ان احتاط ذمّ وان رفق عجّز ، ولكن ولّه المعاون والصوائف يكن له ذلك شرفا وذكرا . (١٢١)

كان ولاة الأجناد مسؤولين مباشرة تجاه الخلفاء ، كما كان عمالهم على المدن والقرى مسؤولين تجاههم ، ومن ثم نرى الخليفة اذا أراد أن يصدر أمرا الى عامل في ناحية ، كلف الوالي أن يكتب الى عامله ، فنرى مروان بن محمد مثلا يكتب الى

---

(١١٩) : المصدر السابق ص ١٢٩ ، الطبرى ج ٧ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(١٢٠) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ .

(١٢١) : الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٣٧ .

../..

معاوية بن الوليد بن عبد الملك عامله على دمشق يأمره أن يكتب الى عامله على البلقاء.(١٢٢)
وكان ولاة الأجناد يعينون تعيينا من قبل الخلفاء ،وأحيانا ولكن نادرا كان الوالي يقيم في المركز ويعين خليفة له ،جاء في أنساب الاشراف عن المدائني عن مسلمة وغيره ، أن مروان ولّى عبد الملك فلسطين وجعل روح بن زنباع خليفة لعبد الملك عليها .(١٢٣)
ولم ينتخب أهل الشام ولاة أجنادهم الاّ مرة واحدة عندما بويع مروان بن محمد بالخلافة اذ طلب من أهل الشام أن يختاروا لولاية أجنادهم .(١٢٤)

نلاحظ أحيانا ولا سيما في أوقات الفتن والاضطراب أن السلطة الفعلية لم تكن للوالي وانما لأشراف المنطقة ، فقد كان مروان بن عبد الله بن عبد الملك عاملا للوليد بن يزيد على حمص ،وكان من سادة بني مروان نبلا وكرما وعقلا وجمالا ،ولكن أمر حمص كان لمعاوية بن يزيد بن حصين وليس لمروان بن عبد اللّه من أمرهم شيء.(١٢٥) أما في فلسطين فقد كان سعيد بن عبد الملك واليا من قبل الوليد بن يزيد ، وكان رأس أهل فلسطين يومئذ سعيد بن روح بن زنباع ، فلما قتل الوليد كتب سعيد بن روح الى الوالي أن يرتحل عنهم ،وطلب من يزيد بن سليمان سيد ولد أبيه أن يتولى أمر فلسطين ، اذ أن أهل فلسطين كانوا يحبونهم لجوارهم .(١٢٦)وفي رواية للطبري أن ابن هبيرة سأل يوما من سيّد قيس ؟ قالوا الأمير ، قال : دعوا هذا ،سيد قيس الكوثر بن زفر لو بوّق بليل لوافاه عشرون ألفا لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه.(١٢٧)

---

(١٢٢) : البلاذري ،أنساب ،القسم الثالث ص ١٢١ ،الدينوري ،ص ٣٥٩.
(١٢٣) : البلاذري ،أنساب ،ج ٥ ص ١٤٩.
(١٢٤) : الطبري ،ج ٣ ،ص ٣١٢.
(١٢٥) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ٢٦٣.
(١٢٦) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ٢٦٦.
(١٢٧) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ١٦.

../..

٤- **الكتاب :**

كان الكتاب في العهد الأموي على أصناف ،منهم كاتب للرسائل ، وآخر للخراج ، وثالث للجند ورابع للقضاء والمظالم ، (١٢٨) ولقد ازدادت أعدادهم وازدادت اختصاصاتهم مع ازدياد عدد الدواوين ،الا أن أرفعهم مكانة كان صاحب ديوان الرسائل وكان يدعى أحيانا في خلافة بني أمية بمتولي ديوان الرسائل ،أو صاحب ديوان المكاتبات ، لأنه كان مؤتمنا على أمور الدولة وأسرارها ، (١٢٩) وينظر في أمر البريد ومتعلقاته ، (١٣٠) ويقرأ الكتب الواردة على الخليفة ،وكان هذا الواجب هو واجب الخليفة نفسه ، ولما كان هذا متعذرا لكثرتها واتساع الدولة وكثرة المكاتبين فوض الخليفة هذا الأمر الى صاحب ديوان الرسائل ،واضطر هذا بدوره عندما ازدادت أعباؤه لانشغاله بقراءة الكتب بحضور الخليفة والاجابة عليها مع انشغاله بمراقبة مايكتب في الديوان والمقابلة به اضطر أن يعتمد على كاتب يقوم مقامه ، يتصفح مايكتب في الديوان من الولايات والمناشير والمكاتبات . (١٣١) واستمر الأمر في الأندلس على ماكان عليه في الشام ،فقد كان لكاتب الرسائل المقام الأول ،أو كما يقول المقرى ،له حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ،وأشرف أسمائه الكاتب ،وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسائله . (١٣٢)

وبما أن أصحاب ديوان الرسائل كانوا يدبجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة ، فكانوا بحكم وظيفتهم يتم اختيارهم من أرباب الكلام وأصحاب اللسن والبيان ،وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ،وتكونت على هذا النحو طبقة كبيرة من كتاب محترفين ،اذ لم تختص بهم دمشق فقط ،لأنه كان لكل وال وقائد كاتب (١٣٣) وأحيانا كان الوالي في الولاية الكبيرة يتخذ طائفة من الكتاب، (١٣٤) وكثيرا ماكان يصطحب كتاب

---

(١٢٨) : الجهشيارى ،ص٤٥ ،أبو زرعة ،تاريخ ،ج ١ ص ٢٧٣ .

(١٢٩) : القلقشندى ،صبح الأعشى ،ج ١ ص ١٠٣ .

(١٣٠) : المصدر السابق ،ج ١ ، ص ١٠٤ .

(١٣١) : المصدر السابق ،ج ١ ،ص ١٠٣ .

(١٣٢) : المقرى ،نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ،ج ١ ،ص ٢١٧ .

(١٣٣) : الطبرى ،ج ٦ ،ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(١٣٤) : اليعقوبي ،ج ٢ ،ص ٢٣٤ .

../..

الولايات أن يلفتوا ببلاغتهم من يكتبون المهم من الخلفاء حتى يعينوهم في دواوينهم ،واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى اذا لفتته رسالة ببلاغتها ،سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه ، (١٣٥)وكان اذا أعجبه كاتب ولا نفسه بها أرسل به الى عبد الملك ليسلكه بين كتابه ،على نحو ماصنع بمحمد بن يزيد الأنصارى ، اذ كتب الحجاج الى عبد الملك يشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد ،وكتب اليه " اذا أردت رجلا مأمونا فاضلا ،عاقلا وديعا مسلما كتوما تتخذه لنفسك وتضع عنده سرّك ومالا تحب أن يظهر ، فاتخذ محمد بن يزيد " ، فكتب اليه عبد الملك أن يحمله اليه ،واتخذه كاتبا وكان ذلك سنة ٨٥ هـ . (١٣٦)وعند ماتوفي عبد العزيز بن مروان ،أخذ عبد الملك رأى محمد بن يزيد فيمن سيتولى الخلافة من بعده ، فأشار عليه بالوليد سيد الناس ،وأرضاهم وأفضلهم ، ولسليمان فتى العرب من بعده ، فطلب عبد الملك منه أن يكتب عهدا للوليد ولسليمان من بعده . وغضب الوليد عليه فلم يوله شيئا لأنه أشار أن تكون الخلافة من بعده لسليمان ،(١٣٧) فلما كانت خلافة سليمان أرسله سنة ٩٧ هـ واليا على افريقيا فكانت ولايته سنتين وأشهرا ، لأن عمر بن عبد العزيز عزله ،وعند ما قتل أهل افريقيا يزيد بن أبي مسلم والي الخليفة يزيد بن عبد الملك لأنه أساء السيرة فيهم ،ولّوا على أنفسهم محمد بن يزيد وكتبوا الى الخليفة مبينين أنهم لم يخلعوا أيديهم من الطاعة ،ولكن يزيد بن مسلم سامهم مالا يرضاه الله والمسلمون فقتلوه وأعادوا محمد بن يزيد ،فأقرّه يزيد ثم لم يلبث أن أرسل بشر بن صفوان الكلبي.(١٣٨)

واذا دققنا في الروايات المتعلقة بكتاب الرسائل في العصر الأموى ،لوجدنا أن صاحب ديوان الرسائل كان من العرب في خلافة معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك ، (١٣٩)ثم لم تلبث هذه المكانة أن انتقلت الى الموالي ، (١٤٠)وكان أشهرهم على الاطلاق عبد الحميد بن يحيى

---

(١٣٥) : الطبرى ،ج ٦ ،ص ٣٨٧ .

(١٣٦) : المصدر السابق ،ج ٦ ،ص ٤١٥ .

(١٣٧) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ٤١٥ .

(١٣٨) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ٦١٧ .

(١٣٩) : الجهشيارى ،ص ٢٤ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٣ .

(١٤٠) : خليفة بن خياط ،ج ١ ص ٤١٨ - ٤٣١ ،ج ٢ ،ص ٤٦٨ .

../..

مولى العلاء بن وهب العامري ، (١٤١) والذى تتلمذ على سالم مولى هشام بن عبد الملك كاتب الرسائل في خلافة هشام بن عبد الملك ، (١٤٢) الى أن عبد الحميد التحق بديوان هشام بن عبد الملك وأعجب به سالم فأصهر اليه ، ومازال حتى خرّجه كاتبا لا يبارى ، وعرفه مروان بن محمد ، وكان عاملا لهشام على أرمينية ، فاتخذه كاتبا له ، ولعلنا لانخطي في الحكم اذا قلنا أن ماأثبته الطبري من رسائل لمروان في ولايته الى هشام ومن تلاه من الخلفاء والى أبناء عمومته انما كان بقلم عبد الحميد ، وعندما تولى مروان الخلافة أصبح عبد الحميد الكاتب والمستشار والغالب عليه ، وعندما هزم مروان في موقعة الزاب ، ولّى وجهه معه الى مصر حيث قتلا معا في بوصير ، (١٤٣) ولعل مما يدل على أنه قتل في مصر أننا نجد ابناءه واعقابه وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم . (١٤٤)

وعبد الحميد ولا ريب أبلغ كتاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، (١٤٥) ولا تلفتنا كما يقول الدكتور شوقي ضيف براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب ، وانما يلفتنا أنه تحول بطائفة منها الى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة محاكيا في ذلك ماكان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت من الساسانيين والتي يقال أنه كان أحد نقلتها الى العربية ، (١٤٦) فقد كان ملوك الفرس يقدّمون الكتاب ويعرفون فضل صناعة الكتابة ، ويعتبرونهم الألسنة الناطقة عن الملوك ، وخزّان أموالهم ، وأمناءهم على رعيتهم وبلادهم بحيث أنهم كانوا اذا أنفذوا جيشا أنفذوا معه وجها من وجوه كتابهم ، وأمروا صاحب الجيش ألا يحل ولا يرتحل الا برأيه ، يبتغون بذلك فضل رأى الكاتب وحزمه (١٤٧) وتشير رسالة عبد الحميد الى الكتّاب الى الكيان والمكانة الهامة التي أصبحت لهم ،

---

(١٤١) : الجهشياري ، ص ٧٢ ، الطبري ج ٧ ص ١٨٢ ، وعبد الحميد فارسي الأصل ويقول أكثرمن ترجموا له أنه من أهل الأنبار بالعراق .

(١٤٢) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٤٥ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٥٧ .

(١٤٣) : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٣٠٧ .

(١٤٤) : الجهشياري ، ص ٨٢ .

(١٤٥) : الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندوبي ، دار الفكر ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(١٤٦) : شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الاسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ ، ص ٤٧٤ .

(١٤٧) : الجهشياري ، ص ٤ .

٠٠/٠٠

الا أن رسالته لم تكن موجهة الى شخص معين أو كاتب بعينه ،وانما هي موجهة الى طائفة الكتاب ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتاب في تدبير الحكم ،وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية ،تتصل بالخلفاء والولاة والرعية ،(١٤٨) وتحسن لا نقرنها الى ما استهل به الجهشيارى في كتابه "الوزراء والكتاب" من وصايا كان يوصي بها ملوك الفرس ووزراءهم الكتاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر بهذه الوصايا في رسالته التي تعد دستورا دقيقا لوظيفة الكاتب. (١٤٩)

ازدادت مكانة الكتاب منذ خلافة هشام بن عبد الملك ،الذى كان يوكل الى سالم بالكتابة عنه الى ولاته في الشؤون التي تعرض له ، (١٥٠) أى أن الخليفة لم يعد يملي كتبه على كتابه ، كما كان الشأن في القديم ،بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ثم يعرضها عليه ومن ثم لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم بل أصبح ضمير غائب ،وكان سالم عظيم القدر عند هشام ، (١٥١) ونظرا لمكانته فانه كان يتجاوز مركزه أحيانا ،فقد سار في موكب فمنعه هشام ، (١٥٢) كما كان يسير مع هشام في الموكب ،فاذا جاء الرجل الغريب يوقفه سالم ويسأله حاجته كأنه هو أمّر هشاما ، (١٥٣) كما أنه كان يقرأ الكتب لهشام ، فلا يدخل منها عليه الا ما يسره ،واذا أخفى سالم أمرا وعلم به هشام كان ذلك بالطبع مدعاة لغضبه ، (١٥٤) ولكنه لم يعمد الى عزله بل استبقاه ،وعندما توفي هشام بن عبد الملك كان سالم هو الذى أرسل الى الوليد بن يزيد يعلمه فيه بموت هشام وتوليته الخلافة ، (١٥٥) ولذلك أصبح سالم في خلافة الوليد الثاني ليس صاحب ديوان الرسائل فقط ، وانما كان يكتب له على خاص أمره ، (١٥٦) وعندما مرض هشام وصار الى الحد الذى لا ترجى معه الحياة ،

---

(١٤٨) : المصدر السابق ،ص ٧٣ - ٧٥ .

(١٤٩) : شوقي ضيف ،تاريخ الأدب العربي ،ص ٤٧٤ ،٤٧٥ .

(١٥٠) : الجهشيارى ،ص ٦٢ .

(١٥١) : البلاذرى ،أنساب ،مخطوطة بمكتبة الدراسات العليا ،كلية الآداب - جامعة بغداد ، ذات الرقم ١٦٤٠ ،ج ٧ ص ٥٥٩ .

(١٥٢) : الطبرى ،ج ٧ ص ٢٠٢ .

(١٥٣) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ٢٠٢ .

(١٥٤) : الكندى ،الولاة والقضاة ،ص ٧٩ ، ٨٠ .

(١٥٥) : الطبرى ،ج ٧ ص ٢١١ .

(١٥٦) : الجهشيارى ،ص ٦٨ .

../..

أرسل عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان وكاتب الوليد بن يزيد الذى خلفه في الرصافة بعد شخوصه منها ، (١٥٧) الى الخزان ان يحتفظوا بما في أيديهم حتى لا يصل أحد الى شيء ، ولما توفي هشام ، خرج عياض من السجن فختم أبواب الخزائن ، فلم يجدوا لهشام قمقما يسخّن فيه الماء حتى استعاروه ، ولا وجدوا كفنا من الخزائن فكفّنه غالب مولى هشام . (١٥٨)

٥- صاحب الشرطة :

من الموظفين الذين كانت لهم أهميتهم صاحب الشرطة ، ويعتبر اليعقوبي معاوية أول من أقام الشرط ، (١٥٩) غير أن الكندى يذكر وجود صاحب الشرطة في ولاية عمرو الأولى على مصر صلاتها وخراجها ، منذ أن افتتحها حتى صرف عنها ، أى في خلافة عمر بن الخطاب ، وكان على شرطة مصر ، خارجة بن حذافة ، (١٦٠) بينما يذكر خليفة بن خياط أن عثمان كان أول من اتخذ الشرط ، وكان على شرطه عبد الله بن قنفذ من بني تيم قريش ، (١٦١) ويذهب المقريزى الى أبعد من ذلك عندما يذكر أن الخليفة الأول أبا بكر عمد لأول مرة في الاسلام الى تعيين عامل يقوم بالطواف في الليل ، وهكذا كان عبد الله بن مسعود أول من عسّ بالليل ، عندما أمره أبو بكر الصديق بعس المدينة ، (١٦٢) وبعد أبي بكر كان الخليفة عمر بن الخطاب يقوم بنفسه بالعسس ومعه مولاه أسلم وأحيانا الصحابي عبد الرحمن بن عوف ، ويبدو وكأن المقريزى يريد أن يظهر أن من أهم مهام صاحب الشرطة المحافظة على الأمن ليلا ، ولذلك نجده يطلق اسم العسس على الشرط بشكل عام ويسمي صاحب الشرطة بصاحب الليل وهو لقب نجده كذلك في الأندلس كما يقول

---

(١٥٧) : أمر الوليد بن يزيد كاتبه عياض أن يكتب اليه بالأخبار ، فعتب عليه هشام فضربه وحبسه وألبسه المسوح .

(١٥٨) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢١١ ، العيون والحدائق ، ص ١٠٦ .

(١٥٩) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٢١ .

(١٦٠) : الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٠ .

(١٦١) : خليفة بن خياط ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، الكلبي ، جمهرة النسب ، ص ٢٩-٦ .

(١٦٢) : المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٦٦ .

../..

المقّرى ،فكان صاحب الشرطة يعرف في ألسن العامة بصاحب الليل . (١٦٣)

من دراستنا للنصوص التي تشير الى اختصاصات أو مهام صاحب الشرطة ، نلاحظ بعض الفروق بين هذه المهام في الولايات وبين المركز ،اذ نجد أن صاحب الشرطة كان يعتبر الرجل الاداري الثاني بعد الوالي ، فهو يؤم الناس في الصلاة اذا مرض الوالي ، (١٦٤) وينوب عن الوالي في حكم البلاد عند خروجه الى الخليفة ،(١٦٥) أو يولّى أحيانا اذا ما عزل الوالي أومات أو تنحى من أمور الولاية ، (١٦٦) بينما نرى أن صاحب الشرطة يرافق الخليفة دائما في حله وترحاله في حالة السلم والحرب ويمسك بزمام الأمور في حالة وفاة الخليفة ، فعندما حضر الموت معاوية سنة ٦٠هـ ،وكان يزيد غائبا ،دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته (١٦٧) ومسلمة بن عقبه المرّى فأوصى اليهما أن يبلغا يزيد وصيته ، (١٦٨) وعندما مات معاوية كان الضحاك بن قيس هو الذى صعد المنبر وأكفان معاوية بين يديه تلوح ،ليبلغ الناس خبر موت معاوية الذى كان عود العرب ،وجدّ العرب ، وأنه من كان يريد (أن يشهد دفنه فليحضر عند الأولى) ، وبعث البريد الى يزيد بوجع معاوية. (١٦٩) وكان كعب بن حامد على شرط سليمان مرافقا له في دابق ، فلما ثقل سليمان كتب كتابا وختمه ولم يدر أحد ماكتب فيه وطلب من كعب أن يجمع اليه اخوته وعمومته وجميع أهل بيته وعظماء أجناد الشام ،وأن يحملهم على البيعة لمن سمّى في ذلك الكتاب وأن يضرب عنق من يأبى منهم أن يبايع ،(١٧٠) والرواية التي يوردها الطبرى

---

(١٦٣) : المقرى ،نفح الطيب ،ج ١ ص ٢١٨.

(١٦٤) : ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ،ص ١٠٥ ،الكندى ،الولاة والقضاة ،ص ٣١ ،٣٢.

(١٦٥) : الكندى ص ٣٩.

(١٦٦) : المصدر السابق ،ص ٧٤ ،٧٥.

(١٦٧) : تشير بعض الروايات الى أن الضحاك عند وفاة معاوية كان على شرطه (الدينورى ص ٢٢٦ ،الطبرى ،رواية عوانه ،ج ٥ ص ٣٢٧ ،تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ،ص ٨) أما الذهبي فيذكر أن معاوية ولّى الضحاك على دمشق بعد أن عزله من الكوفة فبقي الضحاك على دمشق حتى هلك.

(١٦٨) : الطبرى ،ج ٥ ،ص ٣٢٣.

(١٦٩) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٣٢٨.

(١٧٠) : الدينورى ،الاخبار الطوال ،ص ٢٢٦.

../..

شبيهة بتلك الواردة عند الدينوري ، فقد أمر سليمان صاحب شرطته كعب بن حامد أن يأمر أهل بيته للاجتماع ففعل ، ثم طلب سليمان من رجاء بن حيوة أن يذهب بكتابه المهم وأن يأمرهم بمبايعة من سمّى في كتابه ، فلما توفي سليمان ، وخشي حيوة الفتنة أرسل الى كعب بن حامد العبسي ، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا في مسجد دابق وطلب منهم أن يبايعوا ثانية لمن سمي في ذلك الكتاب المختوم ، فلما بايعوا رجلا رجلا ،قرأ حيوة الكتاب عليهم ، فنادى هشام بن عبد الملك ، لا نبايعه أبدا ،فقال حيوة : " أضرب والله عنقك قم فبايع " فقام يجر رجليه ،ولم يكن حيوة ليجرأ على مثل هذا الموقف لولا وجود صاحب الشرطة الى جانبه والذى يسيطر على عدد كبير من الشرط ،بحيث يستطيع أن يمنع حدوث فتنة أو اضطراب.(١٧١)

وكان صاحب الشرطة يرافق الخليفة في الحرب والسلم ،فقد رافق الحجاج عبد الملك ،وكان على شرطه آنذاك الى العراق لقتال مصعب ، (١٧٢) وكان مع مروان بن محمد في معركة الزاب صاحب شرطه كذلك ، وعندما تقاعست قضاعة والسكون والسكاسك ، طلب من صاحب شرطه أن ينزل . (١٧٣) وعندما كان هشام بن عبد الملك في الرصافة ،كان كعب بن حامد صاحب شرطه معه ،وكان والي دمشق اذ ذاك كلثوم بن عياض القشيرى ، وكان الولاة في الشام كما قال ابن العديم بمنزلة الشرط ، (١٧٤) ولذلك نجد أن كلثوم بن عياض هو الذى كتب الى هشام يذكر له أمر الحريق الذى ظهر في دور دمشق ،ويتهم بهذا العمل موالي خالد بن عبد الله القسرى وبأنهم يريدون الوثوب على بيت المال ، فكتب اليه هشام يأمره أن يحبس آل خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم والنساء ،ففعل ثم كتب الوليد بن عبد الرحمن عامل خراج دمشق الى هشام يخبره بأخذ أبي العمرس ومن كان معه سمّاهم رجلا رجلا

---

(١٧١) : الطبرى ، ج ٦ ص ٥٥٢ .

(١٧٢) : ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ،ص ١١٢ .

(١٧٣) : الطبرى ،ج ٧ ص ٤٣٤ .

(١٧٤) : ابن العديم ، زبدة الحلب ،ج ١ ص ٤١ .

../..

ونسبهم الى قبائلهم وأمصارهم ،ولم يذكر فيهم أحدا من موالي خالد ، فكتب هشام الى كلثوم يشتمه ويعنفه ،ويأمره بتخلية سبيل جموع من حبس منهم ، (١٧٥) وعندما علم مروان بن محمد أن ابراهيم بن محمد يكاتب أهل خراسان ويكاتبونه كتب مروان الى عامله على دمشق أن يكتب الى عامله على البلقاء في المسير الى كداد أو الحميمة وأخذ ابراهيم بن محمد بن علي وشده وثاقا وحمله اليه في خيل كثيفة ، (١٧٦) أي أن والي دمشق وعامله على البلقاء قاما بالمهمة التي كان يقوم بها صاحب الشرطة في العراق ،اذ عندما كان الأمر يتعلق بدعوة شخص أو احضاره أمام الأمير ،كان رجال الشرطة يتولون ذلك ،فقد أرسل المغيرة بن شعبة قبيصة بن الدمون وكان على شرطته الى منزل حيان بن ظبيان السلمي ، عندما أخبره قبيصة أن الخوارج يجتمعون في منزل حيان ، فسار قبيصة في الشرطة وفي كثير من الناس وألقى القبض على حيان ومن كان معه ، (١٧٧) وعندما تخلف حجر بن عدى عن تلبية دعوة زياد بن أبيه اليه أمر زياد الشرط باحضاره بالقوة وكان هيثم بن شداد أمير شرطته . (١٧٨)

ونظرا لأن صاحب الشرطة كان مرافقا للخليفة دائما ،فانه كان يوكل اليه أمر تنفيذ العقوبات التي يفرضها الخليفة ،فهذا عمر بن عبد العزيز يأمر صاحب الشرط أن يطبق العقوبة على كهول من قنسرين شهدوا زورا على الفرات بن مسلم صاحب خراج قنسرين ، (١٧٩) وعندما توعد روح بن الوليد رجلا حمصيا كان عمر بن عبد العزيز قد قضى بارجاع حوانيته اليه وكان الوليد بن عبد الملك قد أقطعها لروح ،طلب عمر بن عبد العزيز من صاحب شرطته أن يتوجه الى روح ،فان سلم اليه حوانيته فله ذلك ،وان لم يفعل فليأته برأسه . (١٨٠)

---

(١٧٥) : الطبرى ،ج ٧ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(١٧٦) : البلاذري ،أنساب ،القسم الثالث ،ص ١٢١ ، المسعودى ، مروج الذهب، ج ٣ ،ص ٢٤٣ .

(١٧٧) : الطبرى ،ج ٥ ص ١٨٢ .

(١٧٨) : الطبرى ،ج ٥ ص ٢٥٨ .

(١٧٩) : ابن عبد الحكم ،سيرة عمر بن عبد العزيز ،ص ١٣٠ .

(١٨٠) : المصدر السابق ،ص ٥١ .

../..

وكان يوكل الى صاحب الشرطة أحيانا مهام أخرى ، كأمر الخاتم والخزائن وبيوت الأموال ، (١٨١) كما يذكر ابن عساكر أن خالد بن اللجلاج ،أبو ابراهيم العامري ، ولي الشرطة بدمشق ،وكان على بناء مسجد دمشق ، (١٨٢) أي ربما كان سراقها لحسن سير بناء المسجد نظرا للعدد الكبير من الفعلة الذين ساهموا في بنائه ،وكان يساعد صاحب الشرطة في أداء عمله شرطة وحرس، (١٨٣) وعسس ، (١٨٤) وأعوان للشرط. (١٨٥)

هذه الروايات المتفرقة تعطينا فكرة عن الدور الذي لعبه أصحاب الشرط في الأزمات بالاضافة الى دورهم في توطيد الأمن والنظام وتنفيذ العقوبات واشتراكهم في الحروب الى جانب الخلفاء ،ولذلك قيل ان الشرط أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت ، وقيل هي طائفة من خيار أعوان الولاة .(١٨٦)

ويتبين مما ذكره الرواة عن الأشخاص الذين كلفوا بهذا المنصب في الشام ،أنهم كانوا من الشخصيات المرموقة ، فزمل بن عمرو بن نمير الذي استعمله معاوية على شرطته (١٨٧) كانت له وفادة على رسول الله (صلعم) وعقد له رسول الله لواء على قومه . (١٨٨) أما الضحاك بن قيس فمعداده في صغار الصحابة ،حدّث عنه معاوية ووصفه بالعدالة ، وسعيد بن جبير والشعبي وغيرهم وكان ممن شهد فتح دمشق ،(١٨٩) وكان خالد بن معدان بن أبي كرب الذي تولى شرطة يزيد بن معاوية تابعيا ثقة روى عن أبي عبيدة ، ومعاذ بن جبل ،

---

(١٨١) : خليفة بن خياط ،ج ٢ ص ٥٥٥ .
(١٨٢) : تهذيب تاريخ دمشق ،ج ٥ ص ٨٨ .
(١٨٣) : وكيع ،أخبار القضاة ،تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٦ هـ /١٩٤٧م ،ج ١ ،ص ١١٩ .
(١٨٤) : تهذيب ،ج ٤ ص ٧٧ .
(١٨٥) : البلخي ،كتاب البدء والتاريخ ،باريز ،١٩١٩م ،ج ٦ ،ص ٥١ .
(١٨٦) : ابن العديم ،زبدة الحلب ،ج ١ ص ٤١ .
(١٨٧) : تهذيب ،ج ٥ ،ص ٣٨٦ .
(١٨٨) : المصدر السابق ،ج ٥ ،ص ٣٨٦ .
(١٨٩) : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج ٣ ،ص ٢٤١ .

../..

وعبادة بن الصامت ، وأبي الدرداء ،وكانت اذا عظمت حلقته ، قام كراهية الشـــهرة ، وكان اذا أمر الناس بالغزو يجعل فسطاطه أول فسطاط يضرب ، وقال حبيب بن صـالح ما خفنا أحدا من الناس مخافة خالد . (١٩٠) وكان خالد بن اللجلاج أبو ابراهيم العامري صاحب الشرط في خلافة الوليد ناسكا وصلاح ، جرىء اللسان على الملوك والغلظة عليهم، (١٩١) ثم ان كعب بن حامد العبسي بقي صاحبا للشرطة في خلافة سليمان وعمر بن عبد العزيـز ويزيد بن عبد الملك وهشام ،وأقره هشام ثلاث عشرة سنه ثم ولاه أرمينيا ، وان شخصا يحتل هذا المنصب فترة طويلة كهذه ثم يعهد اليه بولاية أرمينيا ،لا بد أن يتحلى بصفات تؤهلـه لذلك. (١٩٢)

وما دمنا في صدد الحديث عن الشرطة ،فلا بد من أن نتبعه بالحديث عن الحرس ، ويتفق اليعقوبي وخليفة بن خياط بأن معاوية أول من اتخذ صاحب حرس ، (١٩٣) واذا كان معاوية أول من اتخذ صاحب حرس ،فقد كان زياد بن أبيه كذلك أول من أنشأ لنفسـه حرسا خاصا عدد أفراده خمسمائة رجل . (١٩٤) وكانت مهمة الحرس ، حراسة الخليفة بشكل خاص ، (١٩٥) أو الأمير في مصره ، (١٩٦) كما كان يعهد اليه بحراسة المسجد ، (١٩٧) ولكننا نجد الكندي يذكر أنه كان للمسجد في القسطاط شرطة يذبون عنه . (١٩٨) وهنا قد نتساءل اذا كان هناك من تداخل في استخدام هذين التعبيرين اذ نجد وكيعا في صدد الحديث عن مروان بن الحكم وتوليته مصعب بن عبد الرحمن شرطته في المدينة ،أن مصعب يقول لمروان : اني لا أضبط المدينة بحرس المدينة ، فابغني رجالا من غيرها ، فأتاه بمائتي رجل

---

(١٩٠) : المصدر السابق ،ج ٤ ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ ،تهذيب ،ج ٥ ،ص ٨٩ .

(١٩١) : تهذيب ،ج ٥ ص ٨٨ .

(١٩٢) : خليفة بن خياط ،ج ١ ص ٤٣١ ، ج ٢ ص ٤٨٧ ، ٥٤٤ .

(١٩٣) : المصدر السابق ،ج ١ ص ٢٧٦ ،اليعقوبي ،تاريخ ،ج ٢ ص ٢٢١ .

(١٩٤) : البلاذري ،أنساب ،ج ٤ قسم ١ ص ١٦٢ ، الطبري ،ج ٥ ص ٢٢٤ .

(١٩٥) : المسعودي ،مروج الذهب ،ج ٣ ص ٢٩ ، ٣٠ ، تهذيب ،ج ٢ ص ٣٧ .

(١٩٦) : ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ،ص ٢٣٨ .

(١٩٧) : الطبري ،ج ٧ ص ٢٤٠ ،العيون والحدائق ،ص ١٣٦ .

(١٩٨) : الكندي ،ص ٦٢ .

../..

من أهل ايله فضبطها ضبطا شديدا ، (١٩٩) ومن تتبعنا لما يرد في مصادر أخرى ، أن الحرس لم يكونوا شرطة بالمعنى الدقيق للكلمة ويتضح ذلك من أن المؤهلات أو الصفات المطلوبة من صاحب الحرس كانت غير تلك المطلوبة من صاحب الشرط ، اذا كان يفضل أن يكون صاحب الحرس مسنا عفيفا مأمونا ، (٢٠٠) أما صاحب الشرطة فكان يفضل أن يكون شديد الصولة قليل الغفلة ، سمين الامانة ، أعجف الخيانة . (٢٠١) وكان للحرس في الشام نوب ، وعلى كل نوبة عامل ، (٢٠٢) ويبدو أن الحرس في الشام كان معظمه يتألف من الموالي ، (٢٠٣) ولذلك نلاحظ أن صاحب الحرس في الشام كان دائما من الموالي منذ عهد معاوية وحتى نهاية الدولة الأموية ، فكان على حرس معاوية ، ابو المختار مولى لحمير ، (٢٠٤) وعلى حرس عبد الملك ، عدي بن عياش مولى لحمير كذلك ، ثم ابي الزعيزعة مولى عبد الملك ، ثم خالد بن الريان مولى بني محارب (٢٠٥) الذي ولي الحرس لعبد الملك والوليد وسليمان ، (٢٠٦) وفي خلافة عمر بن عبد العزيز كان عمر بن المهاجر مولى الأنصار على الحرس ، (٢٠٧) وعين هشام نصير مولاه على الحرس ، ثم ولّى الربيع بن شابور مولى بني الحريش مع الخاتم . (٢٠٨)

ولم يكن للخليفة وحده حرس ، وانما كان لوالي دمشق ولولاة الأجناد أحراسهم كذلك ، (٢٠٩) ويذكر ابن قتيبة أن عمرو بن سعيد صالح عبد الملك بعد أن حاصر أهل دمشق أشهرا على أنه الخليفة من بعده ، ففتح دمشق ثم أرسل عبد الملك الى عمرو ، وكان بيت المال في يده ، أن يخرج للحرس أرزاقهم ، فقال عمرو : ان كان لك حرس فان لنا حرسا ، فقال عبد الملك أخرج لحرسك أرزاقهم ، (٢١٠) بمعنى أن حرس الخليفة وحرس أمراء الأجناد كانوا يأخذون أرزاقهم من بيت

---

(١٩٩) : وكيع ، أخبار القضاة ، ص ١١٩ .

(٢٠٠) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢٠١) : ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج ١ ص ١٦ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٥ ص ١٩ ، الكلبي ، جمهرة النسب ، ص ٨٤ ب .

(٢٠٢) : الطبري ، ج ٧ ص ٥٧٥ .

(٢٠٣) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٧٤ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٢٤ .

(٢٠٤) : خليفة ، ج ١ ص ٢٧٦ .

(٢٠٥) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩٥ .

(٢٠٦) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٩ ، ٤٣٢ ، تهذيب ، ج ٢ ص ٣٧ .

(٢٠٧) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢٠٨) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٤٥ .

(٢٠٩) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٦٩ .

(٢١٠) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٢١ .

../..

مال المسلمين ،أما اذا كان لبعض الشخصيات حراسهم فانهم يدفعون أرزاقهم من أموالهم .

صاحب البريد :

من الوظائف الرئيسية الهامة وظيفة صاحب البريد ، ولم تكن هذه الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين بالرغم من أن نظام البريد كان معروفا في الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية ،(٢١١) فلما استقرت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان قرر وضع البريد ليكون أداة ربط بينه وبين عماله في الولايات المختلفة ، فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم ، وعرّفهم مايريد ،فوضعوا له البريد.(٢١٢) ولم يكن البريد في عهد بني أمية نظاما يستعمله الشعب كما هو في الوقت الحاضر ، وانما كان نظاما رسميا حكوميا ،وقد استعمل الخلفاء نظام البريد في أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم الى الولايات المختلفة ، ولتلقي الأخبار ، ولكن ليس معنى هذا أن البريد كان ينقل المراسلات فقط بين العمال والولاة من جهة والخلفاء من جهة أخرى وانما كان باستطاعة أى فرد من أفراد الشعب أن يرسل الى الخليفة مايريده من طريق بريده ،وكان عامل معاوية على المدينة اذا أراد أن يبرد بريدا ، أمر مناديه فنادى : " من له حاجة فليكتب الى أمير المؤمنين" . (٢١٣) وكان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس اذا خرج كتابا الا حمله . (٢١٤) وكان للبريد شخص خاص يتولى أمره ، بتنفيذ مايصدر ،وتلقي مايرد يعبر عنه بصاحب البريد ، (٢١٥) وكان عبد الملك يأمر حاجبه أن يدخل عليه صاحب البريد متى جاء في ليل أو نهار" فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة" (٢١٦) ولم يكن من مهام صاحب البريد عرض الرسائل والتقارير المتراكمة لديه فقط ،وانما كان من مهامه تعيين الموظفين المحليين في المدن المختلفة ،والأشخاص المناسبين في المحطات على الطريق وتعيين السعاة ، (٢١٧) والاهتمام بدفع المرتبات والأرزاق لهم وبتدبير أمر الدواب وبراذعها ،ومن يتولى عنايتها ، (٢١٨) ويقول قدامة بن جعفر في صدد

---

(٢١١) : E. I. New Edition, Art., Barid.

(٢١٢) : القلقشندى ،صبح الأعشى ،ج ١٤ ص ٣١٧ ،السيوطي ،تاريخ الخلفاء ،ص ٢١٩ .

(٢١٣) : الطبرى ،ج ٥ ،ص ٣٣٥ .

(٢١٤) : ابن عبد الحكم ،سيرة عمر بن عبد العزيز ،ص ٥٦ .

(٢١٥) : القلقشندى ،صبح الأعشى ،ج ١٤ ،ص ٣٧١ .

(٢١٦) : المصدر السابق ،ج ١٤ ،ص ٣٦٧ .

(٢١٧) : Levy, The Social Structure of Islam, Second edition. P. 301.

(٢١٨) : الكندى ،ص ٣٨٤ .

../..

كلامه عن ديوان البريد : " والذى يحتاج اليه صاحب هذا الديوان أن يكون ثقة اما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته ،لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل مايحتاج معه الى الكاتب المتصفح وانما يحتاج الى الثقة المتحفظ " (٢١٩) ونجد لاحظنا عند الكلام عن الكتاب أن صاحب ديوان الرسائل كان اليه أمر البريد أى هو المسؤول عن قراءة هذه الكتب والاجابة عليها وليست هذه من مهام صاحب البريد .

٧- القاضـــي :

أدخل العرب الى الشام كما أدخلوا الى كل الولايات التي دخلت ضمن نطاق الدولة الاسلامية ،نظاما قضائيا جديدا يقوم على أساس الشريعة الاسلامية ،ويخصّ العــرب المسلمين أو الذين أسلموا من أهل البلاد ،أما أهل الذمة فكان لهم قضاؤهم الآ اذا احتكموا الى القاضي المسلم،فله أن يحكم بينهم بالعدل ،قال تعالى :" فان جاؤوك فاحكم بينهــم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ،وان حكمت فاحكم بينهم بالقســـط ان الله يحب المقسطين " . (٢٢٠) ويذكر الكندى أن القاضي خير بن نعيم الحضرمـــي (١٢٠ - ١٢٨هـ) كان يقضي بين المسلمين في المسجد ،ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضي بين النصارى ،وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى ،واليهود على اليهود ،ويتحقق من عدالـــة هؤلاء الشـــهود بين أهل دينهم . (٢٢١) ويرى الماوردى أنه لا يجوز تقليد ذمـي القضاء على أهل الذمة ،ولكنه يورد قول أبي حنيفة أنه يجوز تقليده بين أهل دينه ،هذا وان كان عرف الولاة بتقليده جاريا فهو تقليد زعامة ورئاسة وليس بتقليد حكم وقضاء ،وانما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ،لالدلزومهلمهم ،ولا يقبل الامام قـوله فيما حكم به بينهم ،واذا امتنعوا من تحاكمهم اليه ،لم يجبروا عليه وكان حكم الاسلام عليهم أنفذ. (٢٢٢)

---

(٢١٩) : قدامه بن جعفر ،نبذ من كتاب الخراج وصنعه الكتابة ، ليدن ،بريل ١٣٠٦هـ ، ص ١٨٤ ،١٨٥ .

(٢٢٠) : سورة المائدة ،آية (٤٥) .

(٢٢١) : الكندى ،ص ٣٥١ .

(٢٢٢) : الماوردى ،الأحكام السلطانية ،ص ٦٦ .

../..

كان القضاء في الدولة الاسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة ، (٢٢٣) اذ أن الرسول الكريم تجمعت في شخصه السلطات التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ، وأصبح قاضي المسلمين الأعلى ، بعد أن نزل قول الله تعالى : " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم " . (٢٢٤) كما أصبح حكمه ملزما للناس كافة سواء أكان بوحي من الله أو باجتهاد اجتهده ، فأصبح بعد ذلك سنة ملزمة أيضا . (٢٢٥)

وثبت أن رسول الله (صلعم) استعمل قضاة على الاقاليم التي اعتنقت الاسلام وكانت بعيدة عن المدينة ، وتكاد كتب السيرة والحديث تجمع على أن القضاة الذين عهد اليهم الرسول بالقضاء ثلاثة ، هم علي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو موسى الأشعري ، (٢٢٦) والذي يسترعي الانتباه هو أن هؤلاء الثلاثة ذهبوا الى اليمن ، ولم تذكر معظم المصادر أسماء قضاة آخرين ، الا أن الماوردي في كتابه أدب القاضي يذكر أن الرسول استخلف عتاب بن أسيد على مكة بعد الفتح واليا وقاضيا ، (٢٢٧) وأنه قلد دحية الكلبي قضاء ناحية اليمن . (٢٢٨) وحتى لا تحرم قبائل وأقوام ومناطق من قاض يفصل بين الناس وفقا لأحكام الشريعة بعد اعتناقهم الاسلام فقد

---

(٢٢٣) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٧٣٦ ، ٧٣٧ .

(٢٢٤) : سورة النساء ، آية (٦٤) .

(٢٢٥) : سورة النساء ، آية (٦٤) ، " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلّموا تسليما " .

(٢٢٦) : وكيع ، أخبار القضاة ، ج ١ ص ٨٤ - ١٠٢ ، أحمد بن حنبل ، المسند ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م الجزء الثاني ، الفقرات ٦٦٦ ، ٦٩١ ، ٧٤٥ ، ٨٨٢ ، ١١٤٥ ، ١٢١٠ ، ج ٣ ، الفقرة ٢٠٧١ ، الذهبي ، سيرة أعلام النبلاء ، ج ١ ص ٤٤٨ .

(٢٢٧) : الماوردي ، أدب القاضي ، بغداد ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص ١٣١ .

(٢٢٨) : المصدر السابق ، ص ١٣١ .

../..

كان الرسول (صلعم) اذا أسلم قوم ،أقام عليهم من يعلمهم الشرائع ويقضي بين المتنازعين . (٢٢٩)

ان ثبوت تولي ثلاثة من الصحابة القضاء في أيام الرسول ،يدل على أن التنظيم القضائي في الدولة النبوية بدأ مع الشعور بالحاجة اليه خلافا لما ذهب اليه بعض المؤرخين من أن أبابكر كان أول من استعمل القضاة في الاسلام ، (٢٣٠) بل ان هناك من ذهب الى أن معاوية هو أول الخلفاء الذين اتخذوا القضاة ، (٢٣١) وهو قول منسوب الى مالك بن أنس ، والظاهر أنه يراد من ذلك أن معاوية كان أول من اتخذ قاضيا في قاعدة الخلافة ، لأن تتمة عبارة مالك بن أنس ،"أن الخلفاء قبل ذلك كانوا يباشرون كل شيء من أمور الناس بأنفسهم" ،وسبقها قول وكيع " ولا يعلم أن عثمان استعمل قاضيا بالمدينة"، مع أن هذا الرأي ينقضه ماثبت أن عمر كان قاضيا لأبي بكر ، (٢٣٢) وماورواه الطبري من أن زيد بن ثابت كان على قضاء عثمان . (٢٣٣)

وعندما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية اتساعا كبيرا ، منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب ،نجده يعين القضاة في الأمصار والأجناد الى جانب الولاة ،فقد عمد عمر الى تعيين القضاة في البصرة والكوفة ، (٢٣٤) كما أنه جعل قضاء دمشق وصلاتها لأبي الدرداء وقضاء حمص وقنسرين وصلاتهما لعبادة بن الصامت ، (٢٣٥) وفي رواية أخرى أن عمر ولى قضاء حمص لحابس بن سعد بن المنذر ، (٢٣٦) وعبادة قضاء فلسطين ، (٢٣٧) وكريب بن سيف الأنصاري على قضاء الأردن ، (٢٣٨) ولا تهمنا الأسماء هنا قدر اهتمامنا بأن

---

(٢٢٩) : الماوردي ، أدب القاضي ،مطبعة الارشاد ،بغداد ١٩٧١ ،ج ١ ص ١٣٣ .

(٢٣٠) : خليفة ج ١ ص ١٠٨ ،الطبري ،ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٢٣١) : وكيع ،ج ١ ص ١٠٥ .

(٢٣٢) : خليفة ،ج ١ ص ١٠٨ ،الطبري ج ٣ ص ٤٢٦ ،الماوردي ، أدب القاضي ، ص ١٣٢ — ١٣٥ .

(٢٣٣) : الطبري ، ج ٤ ص ٤٢٢ ،الماوردي ،أدب القاضي ،ص ١٣٥ .

(٢٣٤) : خليفة ،ج ١ ص ١٥٦ .

(٢٣٥) : البلاذري ،فتوح ، ص ١٣٦ .

(٢٣٦) : ابن حزم ،جمهرة أنساب العرب ،ص ٣٧٣ .

(٢٣٧) : ابو زرعة ،تاريخ ،ج ١ ص ٢٢٤ ،تهذيب ،ج ٧ ص ٢٠٩ .

(٢٣٨) : ابو زرعة ،تاريخ ،ج ١ ص ٢٢٤ .

../..

عمر قد عمد الى تعيين قضاة في أجناد الشام الأربعة ،وسار عثمان على نهج عمر في تعيين القضاة في الأمصار في مصر ،والكوفة ، والبصرة ،أما في الشام فنجد أن معاوية يستشير أبا الدرداء فيمن يرشح لهذا المنصب فيشير عليه بفضالة بن عبيد . (٢٣٩)

عندما أصبح معاوية خليفة ،نراه يترك أمر تعيين القضاة في الأمصار لا ولاتها أحيانا ، ويعمد أحيانا أخرى الى تعيين القضاة فيها ، (٢٤٠) وتابع خلفاء بني أمية نهجه ، (٢٤١) وان كنا نجد ابتداء من خلافة سليمان عودة الى جعل تعيين القضاة أمرا عائدا الى الخليفة ، (٢٤٢) وهذا مايزيد في سلطة القاضي ويجعله أكثر استقلالا إذ لا يستطيع أمير المصر التأثير عليه في أحكامه ، ولا يستطيع عزله ،اذا كان تعيينه صادرا من الخليفة الا بأمر منه . (٢٤٣)

من الطبيعي أن يعمد الخلفاء الى تعيين قضاة في العاصمة ، ولكن من المؤسف أن المصادر لا تشير الى القضاة في مراكز الأجناد المختلفة ، وان كانت هناك اشارات تدفع المرء الى الاعتقاد بأن الأمويين تابعوا النهج الذى طبقه عمر بن الخطاب ، عندما عين قضاة في دمشق وحمص وفلسطين والأردن ،اذ لا يعقل أن يعمد المتخاصمون الى اللجوء الى العاصمة لحل قضاياهم ومشكلاتهم ،وقد جاء في تاريخ ابن عساكر أن عبادة بن نسي الكندى الأردني كان قاضي طبرية ولاه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الأردن ، (٢٤٤) بينما يذكر الذهبي أنه ولي قضاء الأردن لعبد الملك ، ثم ولي نائبا لعمر بن عبد العزيز ، (٢٤٥)

---

(٢٣٩) : ابو طولون ،الثغر البسام فيمن ولي قضاء الشام ،ص ٢ .

(٢٤٠) : الكندى ص ٣٠٣ ، ٣١١ .

(٢٤١) : خليفة ،ج ١ ص ٣٨٩ ، ٤٢٠ ،الكندى ،ص ٣١٥ ،البلاذرى ،أنساب ،ج ٤ ، قسم ٢ ،ص ٢٠٥ ،وكيع ،ج ١ ،ص ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٤ .

(٢٤٢) : خليفة ،ج ١ ص ٣٨٩ ، الكندى ،٣٠٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ .

(٢٤٣) : الكندى ،ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٢٤٤) : تهذيب ،ج ٧ ص ٢١٧ .

(٢٤٥) : الذهبي ،سير أعلام النبلاء ،ج ٥ ،ص ٣٢٤ .

../..

ومايذكره الذهبي يتفق مع ماورد في تاريخ خليفة بن خياط ،أن والـــــي الأردن في خلافة عمر بن عبدالعزيز كان عبادة بن نسي ، (٢٤٦) ثم اذا رأينا ابن طولون يذكر أن عبدالرحمن بن الحسحاس العذرى من بني عامر بن عذره ولي قضاء دمشق ، (٢٤٧) زمن عمر بن عبدالعزيز ونرى خليفة يذكره واليا على دمشق في خلافة عمر بن عبدالعزيز ، (٢٤٨) جاز لنا أن نتساءل اذا كان عمر بن عبدالعزيز قد أسند الولاية والقضاء لعبادة بن نسي وعبدالرحمن بن الحسحاس ،لاسيما أننا نجد ذكرا لهلال بن أبي الدرداء كقاض على دمشق في خلافة عبدالملك ،وأنه كان كذلك أميرا على دمشق أى أنه جمع بين الولاية والقضاء ، (٢٤٩) ونفهم من كتاب وجهه عمر بن عبدالعزيز الى أمراء الأجناد أن القضاء كان يوكل اليهم بالاضافة الى مهامهم الأخرى . (٢٥٠)

احترم معاوية وخلفاء بني أمية منصب القضاء وأهله وحفوه بكثير من الاجلال والاكبـار، فقد كان معاوية يهاب أبا الدرداء ويتأدب معه . (٢٥١) كما ولّى قاضيه فضـالة بن عبيد الغزو ،فكان أمير الجيش ،وكان الولاة يتقيدون بأوامره ، (٢٥٢) وعندما خرج معاويـة الى صفين استخلف فضالة بن عبيد ، (٢٥٣) وعن سعيد بن عبدالعزيز أن القاضي كان خليفـة الأمير اذا غاب . (٢٥٤) وكانت منزلة أبي ادريس الخولاني عظيمة عند عبدالملك ، (٢٥٥) فكان اذا نظر في المظالـم ردّ الى قاضيه أبي ادريس مايقف منها على مشكل أو يحتاج الى حكم منفذ ،فكان أبو ادريس هو المباشـر ،وعبدالملك هو الآمر ،أي أن أبا ادريس

---

(٢٤٦) : خليفة ،ج ٢ ص ٤٦٥.

(٢٤٧) : ابن طولون ،الثغرالبسام ،ص ٧.

(٢٤٨) : خليفة ،ج ٢ ص ٤٦٥.

(٢٤٩) : ابن طولون ،ص ٤.

(٢٥٠) : ابن عبدالحكم ،سيرة عمر بن عبدالعزيز ،ص ٦٨ ،٦٩.

(٢٥١) : ابن طولون ،ص ٢.

(٢٥٢) : الذهبي ،سير أعلام النبلاء ،ج ٣ ص ١١٥.

(٢٥٣) : أبو زرعة ،تاريخ ،ج ١ ص ٢٢٣.

(٢٥٤) : المصدر السابق ،ج ١ ص ٢٢٣ ، الذهبي ،ج ٣ ص ١١٤ ، ١١٥.

(٢٥٥) : عبدالجبار الخولاني ،تاريخ داريا ، ص ٥٦.

../..

يعطي حكمه وعبد الملك يأمر بتنفيذ الحكم ، (٢٥٥) كما جعل عبد الملك لأبي ادريس القصص والوعظ ، (٢٥٦) وبقي قاضيا لعبد الملك حتى وفاته سنة ٨٠ هـ ، (٢٥٧) فولي القضاء عبد الله بن عامر بن تميم الذى بقي في منصبه حتى خلافة الوليد ، فكان على بناء مسجد دمشق ، (٢٥٨) وكان رئيس أهل المسجد زمن الوليد بن عبد الملك وبعده ،لا يرى فيه بدعة الا غيّرها . (٢٥٩) ونلاحظ في خلافة يزيد بن عبد الملك وجود قاضيين في دمشق سليمان بن حبيب والزهري ،هذا على عياله وهذا على عياله . (٢٦٠) ومما يثير الانتباه وجود مايسمى قاضي الخلفاء ،فقد ورد في تاريخ داريا أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء ،كان قاضيا لعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وليزيد وقضى لهشام أيضا ، (٢٦١) بالرغم من أننا نقرأ من قضاة آخرين في دمشق في عهد هؤلاء الخلفاء ، وكذلك يرد في تاريخ دمشق لابن عساكر عن كلثوم بن زياد المحاربي ،أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء وأنه أقام بالشام ثلاثين سنة يقضي باليمين مع الشاهد . (٢٦٢) وهذا مايدفعنا للتساؤل فيما اذا كان هذا اللقب يعني رتبة رسمية أم كان هذا الخلع من الناس كدليل على علو كعبه في العلم والقضاء .

يتبين لنا من دراستنا لسير قضاة دمشق أنهم كلهم بلا استثناء كانوا من الفقهاء المحدثين ومن القرّاء والعباد والزهاد . وكان الأوائل من الصحابة والبقية من التابعين، وكان القضاة يعلمون الناس قراءة القرآن بالاضافة الى عملهم كقضاة ، فكان أبو الدرداء

---

(٢٥٥) : الماوردى ،الأحكام السلطانية ،ص ٧٨ .

(٢٥٦) : الخولاني ،تاريخ داريا ،ص ٥٦ ، ١١٢ .

(٢٥٧) : ابن طولون ،الثغر البسام ،ص ٤ .

(٢٥٨) : الذهبي ،سير أعلام النبلاء ،ج ٥ ،ص ٢٩٢ .

(٢٥٩) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٢٩٢ .

(٢٦٠) : الخولاني ،تاريخ داريا ص ٦٨ ،الذهبي ،ج ٥ ص ٣٣١ .

(٢٦١) : الخولاني ،ص ٦٨ .

(٢٦٢) : تهذيب ،ج ٦ ص ٢٤٩ ،ابن حنبل ،المسند ج ٤ ،فقرة ٢٩٦٩ — ٢٩٧٠ .
كان القضاء باليمين مع الشاهد متبعا في حل قضايا الشراء والبيع وأشباهه ،وهذا يدل على أن معظم القضايا الموكلة الى القضاة كانت بالدرجة الأولى متعلقة بالمعاملات والأموال .

٠٠/٠٠

مقرىءأهل دمشق وعالمهم ، (٢٦٣) ورأى يزيد بن عبيده أبا أدريس زمن عبد الملك يتوسط حلق المسجد بدمشق ، يقرؤون القرآن يدرسون جميعا ، وأبو ادريس جالس الى بعض العمد ، فكلما مرّت حلقة بآية سجدة ، بعثوا اليه يقرأ بها ، وانصتوا لمسه ، ويسجد بهم جميعا ، وربما سجد بهم اثنتي عشرة سجدة ، حتى اذا فرغوا من قراءتهم قام يقص . (٢٦٤) واتخذ أهل الشام عبدالله بن عامر قاضي دمشق بعد أبي ادريس اماما في قراءته ، (٢٦٥) وكان محمد بن عبدالله بن لبيد الأسدى قاضي دمشق في خلافة مروان بن محمد ممن يحضر الناس دراسته في جامع دمشق . (٢٦٦)

وبينما نرى أن القضاة في الشام كان يعهد اليهم بامرة دمشق أو بالغزو ، وان جهدهم الأكبر كان موزعا بين القضاء وتفقيه الناس وتدريسهم ، نجد أن عددا من القضاة في الولايات كان يجمع لهم القضاء والشرطة ، (٢٦٧) فكان أول قاض في مصر جمع له القضاء والشرطة عابس بن سعيد المرادى من قبل الامير مسلمة بن مخلد ، (٢٦٨) وجمع عبد العزيز بن مروان ليونس بن عطية القضاء والشرطة سنة ٨٤هـ . (٢٦٩) كذلك كان أول قاض قضى على المدينة في خلافة معاوية لمروان بن الحكم ، عبدالله بن نوفل ، وقد ضم منصب الشرطة مع القضاء ، كما ضم مروان لمصعب بن عوف هذين المنصبين معا سنة ٥٣ هـ . (٢٧٠) وجمع خالد بن عبدالله القسرى ، الصلاة والقضاء والشرطة والأحداث ، لبلال بن أبي بردة ، (٢٧١) أى أننا نجد حالات متعددة في الولايات عن جمع منصبي القضاء والشرطة

---

(٢٦٣) : ابن طولون ، الثغر البسّام ، ص ٢ .

(٢٦٤) : الذهبي ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

(٢٦٥) : ابن طولون ، ص ٥ .

(٢٦٦) : المصدر السابق ، ص ١١ .

(٢٦٧) : ابن عبدالحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

(٢٦٨) : المصدر السابق ، ص ٢١٤ ، الكندى ، ص ٣١١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤١٨ .

(٢٦٩) : الكندى ، ص ٣٢١ .

(٢٧٠) : وكيع ، ج ١ ص ١١٤ ، ١١٨ .

(٢٧١) : خليفة ، ج ٢ ، ص ٥٣٥ ، الطبرى ، ج ٨ ، ص ٢٠٣ .

../..

لشخص واحد ، بينما لا نجد مثالا واحدا على ذلك في الشام ، مما يشير الى أن المهـــام التي كان يكلف بها القاضي في المركز كانت تختلف قليلا من تلك التي تعهد الى القضاة في الولايات ، وقد رأينا كذلك أن مهام صاحب الشرطة في دمشق اختلفت من تلك الموكلة اليه في الأمصار الأخرى .

كان القاضي في الاسلام يتولى جميع الاختصاصات التي تعرض عليه ، ويطلـــب منه فصل الخصومة فيها سواء أكان الخلاف كما نقول بلغة اليوم مدنيا أم جزائيا أم اداريـــا أم متعلقا بالأحوال الشخصية أم خلافا بين الجند أو غير ذلك ، مما يمكن أن يعـــرض على القضاة ، (٢٧٢) أي ليس في الاسلام ذلك التمييز بين ما هو مدني وما هو ديني ، كما هو الأمر في الدولة البيزنطية حيث وجدت محاكم دينية وأخرى مدنية ، وحيث لعب الأساقفـــة دورا كبيرا في القضاء . (٢٧٣)

نلاحظ أن القضاء في المسائل الجزائية كان من اختصاص الخلفاء والولاة في صدر الاسلام ، وان كانت لا توجد في ذلك العصر حدود دقيقة واضحة بين الاختصاصـــات القضائية لكل من الولاة والقضاة ، فنجد مثلا أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من أمر بالنظر في الجراح اذ كتب الى قاضيه سليم بن عتر في مصر يأمره بالنظر فـي الجراح ، وأن يرفع ذلك الى صاحب الديوان ، فكان الرجل اذا أصيب فجرح أتى القاضي وأحضر بينـــة على الذي جرحه ، فيكتب القاضي بذلك الجرح قصته على عاقلة الجارح ، ويرفعهـــا الى صاحب الديوان ، فاذا حضر العطاء ، اقتص منه أعطيات عشيرة الجارح ما وجـــب للمجروح ، وينجم ذلك في ثلاث سنين ، فكان الأمر على ذلك . (٢٧٤) كذلك نقرأ في كتب التراث أن فلانا تولى قضاء الأحداث ، فقد جاء في أخبار وكيع أن عثمان عندما استخلف ، أقرّ أباموسى الأشعري على قضاء البصـــرة وأحداثها ، (٢٧٥) وجاء في الطبري

---

(٢٧٢) : ظافر القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والاسلام ، السلطة القضائية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ ، بيروت ، ص ٢٥٥ .

(٢٧٣) : Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization P. 291 .

(٢٧٤) : الكندي ، ص ٣٠٩ .

(٢٧٥) : وكيع ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

../..

حين التحدث عن عمال عمر بن الخطاب أن عامل الكوفة عمار بن ياسر كان اليه الاحداث ،(٢٧٦) وجمع خالد بن عبدالله القسرى لبلال بن أبي بردة القضاء والشرطة والأحداث ،(٢٧٧) ويستنتج الاستاذ ظافر القاسمي بالاستناد الى نص يورده وكيع متعلق بشريك قاضي المهدى مع المثال الذى يتقدمه لسان العرب في حديث بني قريظة أن المراد من كلمة الأحداث ،الجرائم الكبرى ،(٢٧٨) فاذا كان النظر في المسائل الجزائية قد أوكل أمرها الى القضاة في الأمصار أحيانا ، فهل كان قاضي دمشق ينظر في هذه الأمور أم أنها تركت للخلفاء ؟ أغلب الظن أن النظر في القضايا الجزائية بقي من اختصاص الخلفاء في الشام ، فعندما قتل خالد ابن المهاجر مولاه نافع ابن أثال النصراني ،أمر معاوية بضرب نافع مائة سوط وألزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم ،(٢٧٩) وعندما طلب أسماء بن خارجة الفزارى الى عبدالملك بعد أن فرغ من قتال مصعب أن يقيدهم من حميد بن حريث بن بحدل الكلبي الذى كان قد أوقع ببني فزارة ،أبى محتجا أنهم كانوا في فتنة ،والفتنة كالجاهلية لا قود فيها وفرض لفزارة الديات من أعطيات قضاعة وحمير بالشام .(٢٨٠)

ليس بين أيدينا سجلات تساعدنا على معرفة نوع القضايا التي كان يتولى النظر فيها قضاة الشام ،وان كان المرء يميل الى الاعتقاد أن القاضي في الشام كالقاضي في الولايات الأخرى قد أضيفت اليه مهام أخرى بالاضافة الى الفصل بين الخصوم ، كاستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين ، بالنظر في أمر المحجور عليهم من المجانين واليتامى ،(٢٨١) والمفلسين

---

(٢٧٦) : الطبرى ،ج ٤ ص ١٤٥ .

(٢٧٧) : الطبرى ،ج ٨ ص ٢٠٣ ،خليفة ،ج ٢ ،ص ٥٣٥ .

(٢٧٨) : ظافر القاسمي ،السلطة القضائية ،ص ٢٥٧ .

(٢٧٩) : ابن أصيبعة ،عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢٨٠) : البلاذرى ،أنساب ،ج ٥ ص ٣١٠ .

(٢٨١) : الكندى ،ص ٣٢٥ ،ابن خلدون ،المقدمة ،ج ٢ ،ص ٧٤٠ .

../..

وفي وصايا المسلمين وأوقافهم ، (٢٨٢) والنظر في مصالح الطرقات والأبنية ، (٢٨٣) وتصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ، ليحصل له الوثوق بهم ، (٢٨٤) وكان قاضي دمشق بلال بن أبي الدرداء الأنصاري لا يضرب شاهدا بزور بالسوط ولكن يوثقه بمن عند الدرج ويقول : " هذا شاهد زور فاعرفوه ". (٢٨٥)

كان القاضي يجلس في المسجد ، (٢٨٦) أو في داره ، (٢٨٧) أو في السوق ، وربما ركب وتجول في البلد فوقف حيث يطلب ، (٢٨٨) وقد كره الشافعية القضاء في المسجد ، وكان لرأيهم في آخر الأمر بعض الأثر في غيرهم من أصحاب المذاهب ، فأخذ القضاة يتحولون الى رحاب المساجد ثم الى المدارس أو الى دور خاصة بالقضاء. (٢٨٩) ونلاحظ في الواقع أن القضاة في أواخر العصر الأموي كانوا لا يقضون في المسجد ، فقد ورد عند ابن طولون أن سالم بن عبد الله أبو عبيد المحاربي من قضاة دمشق كان يجلس عند باب البريد ، وأن محمد بن عبد الله بن لبيد الذي ولي القضاء بعده في خلافة مروان بن محمد الجعدي كان يقعد عند باب الساعات . (٢٩٠)

كان للقاضي كاتب يعاونه ويقوم بنفس الوقت بمهمة المساعد والمشير ، فقد كان مسلم بن مشكم كاتب أبي الدرداء من التابعين ، روى عن أبي الدرداء ومعاوية

---

(٢٨٢) : الكندي ، ص ٤٣٦ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٧٤٠.

(٢٨٣) : ابن طولون ، الثغر البسام ، ص ٦ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٧٤٠.

(٢٨٤) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٧٤٠.

(٢٨٥) : ابن طولون ، ص ٣.

(٢٨٦) : عبد الحي الكتاني ، التراتيب الادارية والعمالات والصناعات ... فاس ١٣٤٩ هـ ، ص ٢٧٣.

(٢٨٧) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ١١٨.

(٢٨٨) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩٥.

(٢٨٩) : منير العجلاني ، عبقرية الاسلام في أصول الحكم ، الطبعة الأولى ، ص ٣٢٥.

(٢٩٠) : ابن طولون ، ص ١٠ ، ١١.

../..

وروى عنه عبد الله بن العلاء .(٢٩١) وكان كلثوم بن زياد المحاربي كاتبا لسليمان بن حبيب المحاربي ،(٢٩٢) وكان عمر بن يزيد النصري كاتب نمير بن أوس قاضي دمشق في عهد هشام بن عبد الملك . (٢٩٣) وقد تتوضح لنا أهمية الكاتب بالنسبة للقاضي من أن الحجاج عين سعيد بن جبير كاتبا ووزيرا للقاضي أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، وأمره أن لا يقطع أمرا دونه ، (٢٩٤) ولا شك أنه كان هناك كتاب يهمتهم تدوين القضايا وتسجيلها ، اذ على القاضي أن يحسن الاستماع والتفكير والمقارنة والتحليل ، واستحضار النصوص وغير ذلك من الأعمال العقلية ومن الانتباه ، وعلى الكاتب أن يهتم بتدوين أقوال الطرفين والشهود والقاضي ، ولا بد للكاتب من أن يتمتع بصفات منها العدالة ، كما يجب أن يكون عاقلا وفقيها ليعلم صحة ما يكتب من فساده ، وأن يكون نزيها بعيدا عن الطمع ليؤمن أن يرتشي فيحابي ، (٢٩٥) وقد أورد فضالة بن المفضل أن كتاب يحيى بن ميمون الذى ولي القضاء سنة خمس ومائة في مصر كانوا لا يكتبون قضية الآ برشوة ، وأن يحيى كلم في ذلك فلم ينكره ثم كلم مرة بعد مرة ، فلم يعزل منهم أحدا من كتابته ، ثم لم يلبث الخليفة هشام أن عزله . (٢٩٦)

كان القضاء يعتبر من الأعمال الشاقة والخطرة لما فيها من تحمل التبعة فيما قد يخطئ به القاضي فيحكم على صاحب الحق فيظلمه ، وهو مسؤول عنه وهناك أحاديث كثيرة تشير الى خطورة المسؤولية الملقاة على عاتق القاضي . (٢٩٧) وعندما استعمل أبو الدرداء على القضاء في دمشق ، وأصبح الناس يهنئونه ، قال : أتهنئوني بالقضاء وقد جعلت على رأس مهواة ... ولو علم الناس ما في القضاء لأخذوه بالدول ، رغبة

---

(٢٩١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ قسم ٢ ص ١٥٨ .

(٢٩٢) : عبد الجبار الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٤٢ .

(٢٩٣) : أبو زرعة ، تاريخ ، ج ١ ص ٣٧٣ .

(٢٩٤) : ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ص ٦٢ ، البلاذرى ، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٣٩ .

(٢٩٥) : الماوردى ، أدب القاضي ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٢٩٦) : الكندى ، ص ٣٤٠ .

(٢٩٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

../..

منه وكراهية له . (٢٩٨) وعندما عزل عبد الملك أبا ادريس من القصص وأقره على القضاء قال : عزلوني من رغبتي وتركوني في رهبتي . (٢٩٩)

وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجرا ، لأن القضاء علم ، والعلم لا يباع وانما يتبرع به لوجه الله ، ويقال أن الوليد ألحّ على قاضي دمشق ، زرعة بن ثوب ، حتى أعطاه مزرعة مع خدمها وآلتها وحلف أنها من صلب ماله . فقال : اقبلها منك وأشهدك أن ثلثا منها في سبيل الله والثلث الثاني امتى قومي ومساكينهم ، والثلث الثالث لرجل صالح يقوم عليها ويؤدى فيها ، ثم أنا أحب أن تأخذ مني ما أجريت علي من الرزق فانه في كوة البيت فخذه فرده في بيت المال ، فقال له الوليد : ولم ذلك ؟ قال : لا أحب أن آخذ على ما علمني الله أجرا . (٣٠٠) وعن خالد بن يعفر أن عبد الله بن يزيد بن خذامر لم يقبض على القضاء درهما ولا دينارا . (٣٠١) ذلك ما كان يفعله بعض القضاة ، أما القاعدة فهو أن يكون للقاضي رزق يجرى عليه من بيت المال ليفرغ من هم المعيشة الى هم القضاء . (٣٠٢) وقد فرض عمر لشريح مائة درهم في الشهر . (٣٠٣) ويقال ان عليا رزق شريحا خمسمائة درهم . (٣٠٤) وعندما حاول زياد بن أبيه أن يزيده في رزقه أبى ، فاقترح أن يوليه عملا يجرى عليه رزقه فقبل ، فولاه بيت المال وأجرى عليه ألفا . (٣٠٥) كما رزق ابن حجيرة الأكبر في مصر من القضاء مائتي دينار في السنة . (٣٠٦) وفي رفع الأصر وثيقة أموية جاء فيها " وجدت في ديوان مروان بن محمد ورقة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم : " من عيسى بن أبي عطاء الى خزان بيت المال ، فأعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه لشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر سنة احدى وثلاثين ومائة عشرين دينارا ، واكتبوا بذلك براءة . كتبت

---

(٢٩٨) : ابن سعد ، ج ٧ ، قسم٢ ص ١١٧ .

(٢٩٩) : عبد الجبار الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٥٦ .

(٣٠٠) : ابن طولون ، ص ٧٦ .

(٣٠١) : الكندي ، ص ٣٣٩ .

(٣٠٢) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٢٢ .

(٣٠٣) : الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١١٦ .

(٣٠٤) : ابن سعد ، ج ٦ ص ٩٥ .

(٣٠٥) : البلاذري ، انساب ، ج ٤ ، قسم٢ ، ص ٢٠٥ .

(٣٠٦) : الكندي ، ص ٣١٧ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص٢٥٣ .

../..

يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الاول" ،(٣٠٧) أى أن رزق ذلك القاضي كان عشرة دنانير في الشهر ، بينما نجد أن عمر بن عبد العزيز عندما عين أميرا على المدينة أمر رجلا يقضي بين الناس ،فأجرى له في الشهر دينارين ، (٣٠٨) مما يدل على أن أرزاق القضاة كانت تختلف وفقا للأمصار وأهميتها وللمهام التي توكل الى القاضي .

الى جانب هؤلاء الموظفين الذين كانت لهم أهميتهم في ادارة شؤون الدولة كان هنالك بالطبع الخزان والجباة وعمال الصدقة والعرفاء وولاة المقاسم وغيرهم .

وقد أخذ عدد الموظفين يزداد نتيجة للحاجة الملحة الحاصلة من تطور المجتمع ومن تعقد الادارة ،وكلما ازدادت ادارة الدولة تعقيدا كلما ازداد عدد الموظفين ،وتحددت صلاحياتهم ، وهذا يتضح عندما ترى ذلك التدرج في ازدياد عدد الدواوين في الدولة ،ابتداء من العهد الراشدى حتى نهاية العصر الأموى .

دواوين الدولة في الشام :

أتيح للأمويين من الاتصال بالفرس والبيزنطيين أكثر مما أتيح للراشدين ،فاتسعت في عصرهم مرافق الدولة ،واحتاجت الى دواوين جديدة تنظم ادارتها وتساعد الخليفة في الواجبات المعقدة التي فرضها السلم ،وهذه الدواوين عبارة عن دوائر رسمية أو وزارات حسب المفهوم الحديث . (٣٠٩) وبينما يذكر المؤرخون العرب الديوان بشكل عام في خلافة عمر وعثمان وعلي ،كذكرهم لديوان المدينة أو الكوفة أو البصرة ،نلاحظ ابتداءا من خلافة معاوية بن أبي سفيان تأسيس دواوين ،لكل ديوان اختصاصاته ،(٣١٠) ولم تلبث أن تفرعت عنها دواوين أخرى بازدياد الحاجة الى الاختصاص والتنظيم الادارى ،وهنا يجب أن نشير

---

(٣٠٧) : ظافر القاسمي ،السلطة القضائية ،ص ٢١٢ .

(٣٠٨) : وكيع ،ج ١ ،ص ١٣٤ .

(٣٠٩) : Levy. Op. Cit. P. 298.

(٣١٠) : الجهشيارى ،ص ٤٧ .

../..

الى أن الدواوين بمعنى السجلات كانت كلها حتى عهد خالد بن برمك صحفا مدرجة فجعلها دفاتر.(٣١١)

ومنذ أن أسس عمر بن الخطاب ديوانه في المدينة ،وجد في الكوفة والبصرة والشام ومصر ديوانان ،أحدهما بالعربية لاحصاء الناس وأعطياتهم ،والآخر لوجوه الأموال بالفارسية بالعراق ،وبالرومية في الشام،وبالقبطية في مصر.(٣١٢)

ديوان الخراج :

كان هذا الديوان من أهم دواوين الدولة ،لأنه مصدر جميع الأموال للأقاليم والدولة ، وقد استطاع معاوية بمعاونة زياد بن أبيه في المشرق ،وسرجون بن منصور في الشام ،وابن نساس في مصر أن ينشئ وزارة حقيقية للمالية كما نفهمها بالوقت الحاضر.(٣١٣) ومعاوية هو أول من أمر بتسجيل أو حفظ سجلات بمقادير الجزية والخراج لكل منطقة أو اقليم ،وميز تمييزا واضحا بين دخل أرض الخراج ودخل الصوافي ،وأنشأ مبدأ وضع الصوافي عموما تحت سلطة البيت الحاكم.(٣١٤)

اتبع خلفاء بني أمية القاعدة التي سار عليها الفرس ،بتسجيل كل مايرد في ديوان الخراج ،(٣١٥) فكان يسجل في ديوان الخراج كل مايرد من أموال الفيء ، كما كان يسجل في دواوين الخراج مساحات الأراضي الخراجية ،وكذلك من في كل بلد من أهل الذمة ، وما استقر عليهم في عقد الجزية ،فان كانت مختلفة باليسار والاعسار سوّا في الديوان مع ذكر عددهم ليختبر حال يسارهم واعسارهم ، وان لم تختلف في اليسار والاعسار جاز الاقتصار على ذكر عددهم ،ووجب مراعاتهم في كل عام لتثبيت من بلغ واسقاط من دخل في الاسلام أو من مات.(٣١٦) كما أن كل أرض خراجية اذا تحولت الى عشرية ، يثبت ذلك في الديوان حتى يسقط الخراج من تلك الأراضي ومن أهل قراهم.(٣١٧)

---

(٣١١) : أبو هلال العسكرى ،الأوائل ،ج ٢ ص ٩١.

(٣١٢) : الجهشيارى ،ص ٣٨ ،الماوردى ،الاحكام السلطانية ،ص ٢٠٢ ،المقريزى ،الخطط ، ج ١ ،ص ١٨١.

(٣١٣) : Irving Washington, Lives of The Successors of Mohammet London, 1859 Vol. II P. 487.

(٣١٤) : D. Dennette, Poll Tax in Early Islam, Cambridge, 1950, P. 64.

(٣١٥) : الجهشيارى ،ص ٣.

(٣١٦) : الماوردى ،الاحكام السلطانية ،ص ٢٨.

(٣١٧) : ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،المجلدة الاولى ،ص ٥٩٦.

../..

عندما تولى معاوية الخلافة كان العرف السائد أن ينفق على أمور الولاية معظم ما أجتبي منها ،وكانت بعض الولايات تتمتع باستقلال ذاتي كامل من الناحية المالية ،ولم يكن أمام معاوية من دخل يعتمد عليه سوى دخل الشام ، ولذلك أمر أن تسهم كل ولاية بارسال الفائض الى بيت المال بدمشق ،(٣١٨)وكان ديوان الخراج في العراق من أهم الدواوين في الدولة لما كان يدره سواد العراق من أموال خراجية اعتمدت عليها الخلافة الأموية في توطيد سلطانها ، فقد قال معاوية : " ما الشام رجال العراق وأموالها"(٣١٩)وأبى عبد الملك الا الخروج لقتال مصعب بن الزبير بنفسه قائلا :" الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاده".(٣٢٠)

كان في دمشق ديوان مركزي للخراج ،كما وجدت دواوين اقليمية ،مقرها حواضر الولايات ،وكان الديوان المركزي في دمشق يضم على الأرجح دواوين خراج قنسرين وحمص وفلسطين والأردن كذلك ، يذكر الجهشياري أنه كان يكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابن أثال النصراني وأن مهاجر بن عبد الرحمن بن خالد قتل ابن أثال عندما خرج من ديوانه في دمشق .(٣٢١)وكان يتولى شؤون الخراج في الشام كما هو الأمر في العراق ومصر وخراسان موظفون من أبناء المنطقة يتقنون لغتها بالاضافة الى المامهم بالعربية ، ويشرف على أولئك الموظفين رئيس يعرف بكاتب الخراج أو صاحب الخراج ،ويتمتع بمنزلة عالية لدى الخليفة والأمراء ،وقد اشتهر في الشام سرجون بن منصور الرومي الذى كان مسؤولا عن دواوين الخراج كلها بالشام.(٣٢٢)ثم أصبح ابنه منصور المتولي لأمر الخراج ،(٣٢٣) حتى نقل سليمان بن سعد كاتب الرسائل الديوان الى العربية ،وذلك عندما

---

(٣١٨): ابن الأعثم ،فتوح ،ج ٤ ص ١٨١ ،الطبرى ،ج ٥ ص ٤٠٣ ، ٥٠٩ ،ج ٦ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٥ ،ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٠٢ ، المقريزى ،الخطط، ج ١ ،ص ١٤٥ ، ساويرس ،ج ٥ ،ص ١٨٩ .

(٣١٩): ابن قتيبة ،الامامة والسياسة ،ج ١ ،ص ٦٣ .

(٣٢٠): البلاذرى ،أنساب ،ج ٥ ص ٣٣٥ .

(٣٢١): الجهشيارى ،ص ٢٨ ،ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣٢٢): خليفة بن خياط ،ج ١ ص ٢٧٦ ،المقريزى ،الخطط ،ج ١ ص ١٨٢ .

(٣٢٣): الجهشيارى ،ص ٣١ ،المقريزى ،الخطط ،ج ١ ص ١٨٢ .

../..

رأى عبد الملك بن مروان من منصور توانيا ، وولاه عبد الملك جميع دواوين الشام ولم يزل سليمان بن سعد على ذلك حتى خلافة عمر بن عبد العزيز ، (٣٢٤) ويتسرب دواوين الخراج أصبح بامكان السلطنة أن يشرف اشرافا مباشرا على هذا الديوان الهام . (٣٢٥) وتميز هشام بن عبد الملك بتشدده أكثر من غيره بأمر الأموال ووجوه صرفه ودقة دواوينه ، اذ يذكر عبد الله بن علي ، " جمعت بين دواوين بني مروان ، فلم أر ديوانا أصح ولا أصلح من ديوان هشام في أمر الخاصة والعامة والسلطان" ، (٣٢٦) وكان هشام يراقب بنفسه هذه الدواوين ومجالات صرف الأعطيات ، فيذكر غسان بن عبد الحميد : " لم يكن أحد من بني مروان أشدّ نظرا في أمر أصحابه ودواوينه ولا أشدّ مبالغة في الفحص عنهم من هشام". (٣٢٧)

ديوان الصدقات :

وهو الديوان الذى كان يتم فيه تسجيل مايدفعه المسلمون من زكاة ظاهرة ، كالزكاة من الزرع والثمار والمواشي ، (٣٢٨) وما يؤخذ من مال تجارتهم وهو ربع العشر من المسلمين ، (٣٢٩) واسم هذا الديوان مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى : " انما الصدقات للفقراء والمساكين . . . ". (٣٣٠) ويقول القلقشندى : " اذا صح ماذكره القضاعي في تاريخه " عيون المعارف " بأن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان المنهي أموال الصدقات ، أمكننا القول بأن هذا الديوان قد وضع في زمنه . (٣٣١)

وبما أن أرض الشام كان منها ماهو خراجي ، ومنها ماهو عشرى ، كان لا بد من تفصيل ماكان منه عشرا في ديوان العشر ، وماكان منه خراجيا في ديوان الخراج ، (٣٣٢) اذ أن الأراضي التي رفضها أهلها فأقطعت للعرب والتي أسلم عليها أهلها

---

(٣٢٤) : الصولي ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤١هـ ، ص ١٩٣ .

(٣٢٥) : الازدى ، تاريخ الموصل ، ص ٢١ .

(٣٢٦) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢٠٣ .

(٣٢٧) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٠٣ .

(٣٢٨) : الماوردى ، الاحكام السلطانيه ، ص ١١٣ .

(٣٢٩) : أبو عبيد ، الاموال ، ص ١٦ .

(٣٣٠) : سورة التوبة ، آية ٦١ .

(٣٣١) : القلقشندى ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٣٣٢) : الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٧ .

../..

وأرض الموات التي أحياها المسلمون اعتبرت أراضي عشرية ، (٣٣٣) وكان يسجل في الديوان نوع الرزق وحال سقيه بسيح أو في الدالية لاختلاف حكمه ليستوفى بموجبه ، (٣٣٤) ولا بد لجمع مال الصدقة من عمال ، اذ لا يجوز أن يتولاها عمال الخراج ، ولعمال الصدقة رزقهم من مال الصدقة على أن لا يستغرق أكثر الصدقة ، (٣٣٥) وقد عين الرسول منذ البدء عمالا على الصدقات على كل قبيلة أو قبيلتين عامل ، (٣٣٦) وكانت الزكاة تؤخذ في خلافة الراشدين من المسلمين المسجلين في العطاء ، (٣٣٧) وكذلك فعل معاوية الذى سنّ أخذ الزكـــاة من الأعطية . (٣٣٨) أما بالنسبة للبادية فكان عامل الصدقة يحمل كتاب أمير المؤمنين وعهده الى القبيلة التي سيجبي صدقاتها ، ويضرب الفسطاط ، ويدخل أفراد القبيلة لدفع صدقاتهم . (٣٣٩) بينما يرد عند ابن عساكر أنه كان لكل قوم عريف منهم يجمع الصدقات من أموالهم ، (٣٤٠) وأغلب الظن أن الرواية الأولى تنطبق على القبائل في البادية بينما تنطبق الثانية على المقيمين في المدن والحاضرة .

<u>ديوان الجند :</u>

هو نفس الديوان الذى أسسه عمر بن الخطاب لتسديد العطاء لجميع العرب والجند الاسلامي ، (٣٤١) وكان يعرف باسم الديوان ، لأنه لم يكن يوجد غيره ، ولم يحتاجوا الى تمييزه بلفظ آخر يضاف اليه ، وقد وجدت دواوين للجند منذ البدء في مراكـــز

---

(٣٣٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٨٤ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٥ .

(٣٣٤) : الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٧ .

(٣٣٥) : ابو يوسف ، الخراج ، ٩٥ .

(٣٣٦) : البلاذرى ، أنساب ، ج ١ ص ٥٣٠ .

(٣٣٧) : ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٥٩ .

(٣٣٨) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

(٣٣٩) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٥ ص ٣١٠ ، الأغاني ، ج ١٢ ، ص ٢٠١ .

(٣٤٠) : تهذيب ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

(٣٤١) : مولوى حسيني ، الادارة الاسلامية ، ص ١٦٨ ، منير العجلاني ، عبقرية الاسلام في أصول الحكم ، ص ٢٩٢ .

../..

الاقاليم كذلك ، وكان المقاتلة في الشام يسجلون حسب مكان اقامتهم ، فكان لكل جند مقاتلته الذين يأخذون أعطياتهم من مراكز أجنادهم ، ويتم تسجيل المقاتلة وفقا لأنسابهم وان كانوا عبيدا لايجتمعون على نسب أعتقوا أحيانا بديوان قريبة من القبائل يختارونهـا ، فعندما دون عمر الدواوين في الشام ، سأل بلال عمر أن يجعل ديوانه مع أبي رويحة الخثعمي ، وقال : فاني غير مفارقه أبدا ، فقد آخى رسول الله (صلعم) بيني وبينه ، فضم ديوان الحبشة الى خثعم ، فلم يبق بالشام حبشي الا صار ديوانه مع خثعم.(٣٤٢) كما أن الخليفة عمر كان يحاول قدر الامكان عند التسجيل أن لا يفرق بين الولد وأبيه ، فقد أبلى السمط بن الأسود الكندى بالشام ، وكان ابنه شرحبيل بن السمط بالكوفة ، فحوّل عمر شرحبيل الى الشام فنزل حمص مع أبيه ،(٣٤٣) وبما أن التسجيل في الديوان يعني للشخص الاقامة في البلد الذى به ديوانه ، فان الأمويين كانوا لا يفرضون لبكر بن وائل ولتميم بديوان الشام مخافة استقرارها في الشام ،(٣٤٤) ولذا نجد عبدالملك يرفض نقل اسم شبيب بن يزيد الشيباني من ديوان الجند في الكوفة الى ديوان الجند في الشام خوفا من أن يكثر المنتسبون الى بكر وتميم فيها .(٣٤٥) وعندما يتوفى الشخص المسجل في ديوان العطاء ، كانت وفاته تسجل ازاء اسمه وذلك لرفع العطاء عنه أو تحويله الى ورثته ، فقد روى يزيد بن عبدربه ، قال : قرأت في ديوان العطاء ، مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة ، ومات عبدالأعلى بن عدى سنة أربع ومائة .(٣٤٦) وهكذا نرى أن الدواوين كانت لها أهميتها في التكوين الاجتماعي ، اذ أنها تحوى السجلات الرسمية التي حفظ العرب بها أنسابهم بالاضافة الى أهميتها في مدنا بمعلومات عن التنظيم العالي للمقاتلة .

---

(٣٤٢) : البلاذرى ، أنساب ، ج ١ ص ١٩٢ .

(٣٤٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٤٣ .

(٣٤٤) : جمال محمد داود محمد جوده ، العرب والأرض في العراق في صدر الاسلام ، رسالة ماجستير منسوخة ، باشراف الدكتور عبدالعزيز الدورى ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٤ ، البلاذرى ، أنساب ، القسم الثاني من نسخة استانبول ، السليمانية ، رقم ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ص ٨٩ .

(٣٤٥) : احسان صدقي العمد ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، حياته وآراؤه السياسية ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٤١٣ ، البلاذرى ، أنساب ، ج ٧ ، ص ٨٩ .

(٣٤٦) : أبوزرعة ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٤٣ . وقد توفي يزيد بن عبدربه سنة ٢٢٤ هـ ، وهذا دليل على أن السجلات القديمة كانت لا تزال موجودة في أوائل القرن الثالث الهجرى .

../..

لابد أن نشير أثناء الكلام عن ديوان الجند في الشام الى ديوان الذراري بالرغم من أن هذا الاسم لا يرد صراحة الا فيما يتعلق بالعراق في عهد زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد ، ففي خطبة عبيد الله حين جاءه نبأ موت يزيد بن معاوية يقول : " لقد وليتكم وما أحصي في ديوان مقاتلتكم الا أربعون ألفا ولا في ديوان عيالاتكم الا سبعون ألفا ، ولقد أحصي الى اليوم في ديوانكم ثمانون ألف مقاتل وفي ديوان عيالاتكم مائة وعشرون ألفا " . (٣٤٧) أى يمكن القول ان ديوان العطاء الذى أوجده عمر بن الخطاب انقسم الى ديوان للجند وديوان للذراري ، فكان ديوان الجند يضم أسماء المقاتلة ومقدار أعطياتهم ومكان مكاتبهم ، ويسجل في ديوان الذراري الأفراد الذين يحق لهم العطاء من عائلة المقاتل ، لأننا نستطيع أن نستنتج من النص الذى أورده البلاذري أن السفيانيين لم يفرضوا العطاء لجميع ذراري المقاتلة ، فقد ذكر عبيد الله أن عدد المقاتلة في البصرة كانوا ثمانين ألفا وذراريهم مائة وعشرين ألفا وأن مقاتلة الكوفة كانوا ستين ألفا وذراريهم ثمانين ألفا ، (٣٤٨) ومن المتوقع أن يكون لهؤلاء المقاتلة ذراري أكثر من هذه الأعداد ، مما يؤكد أن التسجيل اقتصر على عيل أو اثنين ، أى أن الأمر الأمر اختلف في عهد السفيانيين عما كان متبعا في العهد الراشدى عندما فرض عمر النساء والذرية في العطاء . (٣٤٩)

وبعد أن كان عمر قد فرض مائة درهم للأولاد سواء الذكر أو الانثى بعد الفطام ، (٣٥٠) لم يلبث أن قرر فرض العطاء للمولود حال ولادته عندما تبين له أن الكثيرين يفطمون أولادهم قبل الموعد المحدد كي يستحقوا العطاء مبكرا ، (٣٥١) ويذكر البلاذري أن معاوية طبق نظم عمر بن الخطاب في العطاء ، الا أنه فرض للفطيم دون المولود ،

---

(٣٤٧) : البلاذري ، أنساب ج ٤ قسم ١ ص ١٩٠ ، ج ٤ ، قسم ٢ ص ١١٦ ، فتوح ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٣٤٨) : المصدر السابق ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ١٩٠ ، ج ٤ ، قسم ٢ ص ١١٦ .

(٣٤٩) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٤ ، ٦١٥ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٧١ .

(٣٥٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ٤٤٥ ، الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٥ ، ج ٤ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٣٥١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ، قسم ١ ص ٢١٥ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٤٤٥ .

../..

فلما تولى عبدالملك قطع ذلك كله الا ممن شاء ، (٣٥٢) فيذكر أبو مخنف أنه لما جاء أبو الجهم بن كنانة برأس قطرى بن الفجاءة الخارجي الى عبدالملك ،" ألحق في ألفين وأعطى قطيعا ". (٣٥٣) ولكن يبدو أن وضع أهل الشام كان أفضل من وضع أهل العراق فيما يتعلق بعطاء الذراري ، اذ أننا نجد عبدالملك يعرض على أهل العراق مقابل تراجعهم عن موقفهم مع ابن الأشعث بالاضافة الى عزل الحجاج ، أن يجرى عليهم أعطياتهم وأعطيات ذراريهم كما تجرى على أهل الشام ، (٣٥٤) وفي هذا دلالة على أن عطاء الذرية بقي مستمرا في الشام في خلافة عبدالملك دون أن يمس المبدأ الذي سار عليه معاوية في فرض العطاء للفطيم دون المولود هو المطبق ، لأننا نرى عمر بن عبدالعزيز يعود فيفرض لكل منفوس دينارا . (٣٥٥) ويورد الطبرى رواية عن المجاشعي يذكر أن عمر بن عبدالعزيز طلب منه أن يقرع بين ذرارى الرجال الذين في العطايا ، فمن أصابته القرعة جعله في المائة ، ومن لم تصبه القرعة جعله في الأربعين ، (٣٥٦) أي أنه جعل العطاء لكل الذرية ولكن بنسب مختلفة ، ومن يلتحق بعد ذلك بديوان الجند يعطى عطاء المقاتلة ، ويبدو أن ولاة بني أمية كانوا أحيانا يفرضون لابن أربع عشرة سنة في القتال ، فمنع عمر بن عبدالعزيز في كتابه الى العمال أن يفرضوا لابن أربع عشرة سنة في القتال وأن يفرضوا لابن خمس عشرة سنة . (٣٥٧)

استمر عطاء الذرية أيام هشام بن عبدالملك ، الا أنه اتبع سياسة

---

(٣٥٢) : البلاذرى ، فتوح ، ص ٤٤٥ .

(٣٥٣) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣١٠ .

(٣٥٤) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٧ ، مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٤ .

(٣٥٥) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

(٣٥٦) : الطبرى ، ج ٦ ص ٥٧٠ .

(٣٥٧) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

../..

السفيانيين في عدم الحاق كل الذرية في العطاء ، فقد بيّن نصر بن سيار لحصين بن حصين موقف الخليفة منه " وزيد في عطائك ، وفرض لأهل بيتك ، وبلغت الدرجة الرفيعة ". (٣٥٨) ووفد علباء بن منظور الليثي على هشام بن عبد الملك فأنشده شعرا ، فأمر له بخمسمائة درهم وألحق له عيلا في العطاء ، (٣٥٩) وعندما دخل مروان بن محمد دمشق أمر للمقاتلة بالعطاء وعدّهم وعدّ عيالهم ، (٣٦٠) وكان لا بد من القيام باحصاء بين الحين والآخر ، لأن الناس في كثير من الأحيان كانوا يكتمون موتاهم ، وهذا ما دفع عمر بن عبد العزيز الى أن يرسل كتابا يقرأ على الناس : " انه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم ، فارفعوهم الينا واكتبوا لنا كل منفوس نفرض له ". (٣٦١) وكان لا بد من ارسال موظفين خاصين بين الفترة والأخرى من المركز الى الأمصار للتحقيق من عدم تلاعب العرفاء الذين كان يوكل اليهم ابلاغ الديوان عن كل تغيير يحدث ضمن القبيلة. (٣٦٢)

ديوان الرسائل :

كان لهذا الديوان كما كان للدواوين السابقة فروع في الولايات ، ولكن العلاقة بين هذا الديوان وفروعه كشفت عن تفوق الديوان المركزي وعظمة نشاطه واتساعه ، يقول القلقشندي عن هذا الديوان الذي سمّاه ديوان الانشاء : " لم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية في هذه المدة صرف عناية تقاصرا عن التشبيه بديوان الخلافة ، اذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ورفعة السلطان ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب في نياباتهم

---

(٣٥٨) : الطبري ، ج ٧ ، ص ١٧٥.

(٣٥٩) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠٦.

(٣٦٠) : الازدي ، تاريخ الموصل ، ص ٦٥.

(٣٦١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٥٥.

(٣٦٢) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٥٤ ، مصعب الزبيري ، نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ص ١٥٤ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٤.

../..

متصاغرة متضائلة بالنسبة الى مايصدر من أبواب الخلافة ، ولذلك لم يقع ماكتب منهـا ماتتوافر الدواعي على نقله ولا تنصرف الهمم الى تدوينه ". (٣٦٣)

ولعل ديوان الرسائل هو أول ديوان وضع في الاسلام ، ذلك أن النبـي (صلعم) استعمل كتّابا يكتبون عنه الى أمرائه وأصحاب سراياه ، والى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام ، كما كتبوا له العهود والاقطاعات والامانات الى غير ذلك ، فهؤلاء وان لم يطلق عليهم اسم الديوان ، فقد كانوا يتصرفون بشيء من متعلقات ديـوان الرسائل. (٣٦٤) فلما جاء العصر الأموي برز اسم ديوان الرسائل كديوان له اختصاصاته ، يتولى المكاتبات في الدولة ،ولا سيما اصدار النشرات والرسائل التي تشتمل على التعليمات الصادرة للولاة وللرعايا عامة. (٣٦٥) وكان الخلفاء في العهد الراشدي والأموي يختارون لمنصب " صاحب ديوان الرسائل " من يثقون بأمانتهم واخلاصهم من خاصتهم أو من عظماء القبائل ، فلما فسد اللسان وصارت الكتابة صناعة أصبحت هذه المهنة تسند الى من يحسن الكتابة. (٣٦٦) وكانت المراسلات السياسية والادارية في عهد الخلفاء الراشدين قصيرة جدا ومقصورة على مايراد منها ،واستمر الأمر كذلك في الدولة الأمويـة الى أن ولي الوليـد بن عبد الملك" فجوّد القراطيس وجلل الخطوط وفخّم المكاتبات ". (٣٦٧) وكان يأمر أن تكون كتبه والكتب اليه خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض ،وجرى الأمر على سنة الوليد بـن عبد الملك ،باستثناء فترة خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد ، الى أن صار الأمـر الـى مروان بن محمـد ،وكتب له عبد الحميـد بن يحيى فأطال الكتب وأطنب بها. (٣٦٨)

---

(٣٦٣) : القلقشندي ،ج ١ ص ٣٨.

(٣٦٤) : المصدر السابق ،ج ١ ص ٩١.

(٣٦٥) : سرلوي حسني ،الادارة العربية ،ص ١٦٨.

(٣٦٦) : ابن خلدون ،المقدمة ، ج ١ ص ٧٨٨.

(٣٦٧) : القلقشندي ،ج ٦ ص ٣٩١.

(٣٦٨) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ٣٩١.

../..

ديوان الخاتم :

من الدواوين التي ظهرت في العصر الأموي ، ديوان الخاتم ، وكان معاوية أول من اتخذ ديوان خاتم ، (٣٦٩) لضبط المعاملات المالية وصيانة الوثائق الهامة ، (٣٧٠) وأنشأ الخليفة معاوية هذا الديوان بعد أن اكتشف تزويرا في أمر مالي بعث به الى والي العراق ، فصار ديوان الخاتم يتولى تسجيل الأوامر الصادرة عن الخلافة ، ثم ختم الأصل والرسالة ، ولم يكن المراد من الختم أن يوضع في أدنى الرسالة ، وانما كانت الرسالة تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر الذى يطبع عليه وهو طرى خاتم الخلافة ، ويترك حتى يجف ، فاذا فتحت الرسالة قبل أن تصل الى مرجعها عرف ذلك ، اذ لا سبيل الى فتحها الا بتمزيق الخاتم . (٣٧١) وكان لكل خليفة نقش خاص لخاتمه ، فكان نقش خاتم معاوية " لا قوة الا بالله " ، ونقش خاتم عبد الملك بن مروان " آمنت بالله مخلصا " ، أما خاتم الوليد فكان نقشه " ياوليد أنت ميت " ونقش خاتم عمر بن عبد العزيز " لكل عمل ثواب " ، ونقش خاتم هشام بن عبد الملك " الحكم للحكيم " . (٣٧٢)

لم يقتصر حفظ النسخ الادارية وختم الأوامر قبل اصدارها على الحكومة المركزية وحدها ، وانما اتبع الولاة نفس الطريقة ، وان كانت الروايات التي بين أيدينا متعلقة بالعراق فقط ، فقد اعتاد زياد أن يحفظ نسخا من جميع أوامره ، ومن المدائني أن زياد بن أبي سفيان كان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعله . (٣٧٣) وكان خلفاء بني أمية لا يولون ديوان الخاتم الا أوثق الناس عندهم . (٣٧٤)

وكان ديوان الخاتم يعتبر من الدواوين الهامة في الدولة ، واستمر هذا الديوان الى أواسط الدولة العباسية ، (٣٧٥) وما يشير الى أهميته ، أن كل أمر من الخليفة يمنح

---

(٣٦٩) : الطبرى ، ج ٥ ص ٣٣٠ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٦ .

(٣٧٠) : مولوى حسيني ، الادارة العربية ، ص ١٦٩ .

(٣٧١) : منير العجلاني ، ص ٣٠٢ .

(٣٧٢) : المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٢ - ٢٧٢ .

(٣٧٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ٤٥٠ ، أنساب الاشراف ، ج ٤ قسم ٢ ، ص ١٧٦ ، وقد كان للأكاسرة أربعة خواتيم ، فكان على خاتم الحرب والشرط " الاناة " وعلى خاتم الخراج والعمارة " التأبيد " ، وعلى خاتم البريد " الوحاء " (العجلة والاسراع) ، وعلى خاتم المظالم " العدل " الجهشيارى ، ص ٢ .

(٣٧٤) : الصولي ، ادب الكاتب ، ص ١٤١ .

(٣٧٥) : ابن طباطبا ، ص ٧٩ .

٠٠/٠٠

مال أو اقطاع يدور في الدواوين حتى ينتهي الى ديوان الخاتم ، وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار ، فدارت في الدواوين حتى انتهت الى ديوان الخاتم ، فلم يبق الا قبضها ، فتوفي سليمان قبل أن يقبضها ، فرفض عمر بن عبد العزيز أن يدفعها له ، وقال : " عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل واحد ". (٣٧٦)

ديوان البريد :

الى جانب ديوان الخاتم ظهر ديوان البريد في العصر الأموي ، أنشأه معاوية بن أبي سفيان عندما استقرّت له الخلافة لكي تسرع اليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، ونظرا لاعتماده على دهاقين من الفرس وأهل أعمال الروم في تنظيم البريد ، (٣٧٧) اختلف في كلمة البريد ، فيرى بعض المستشرقين أن كلمة بريد مأخوذة من اللاتينية فيريدوس (VEREDUS) وهو حصان البريد ، (٣٧٨) وهو حصان البريد ، (٣٧٨) بينما يرى البعض الآخر أن الكلمة فارسية معرّبة وأصلها الفارسي " بريده دم " (٣٧٩) ومعناها مقصوص الذنب ، لأن الفرس كانوا يستخدمون في نقل البريد دوابا مقصوصة الذنب تمييزا لها عن غيرها من الدواب ، وقيل ان البريد كلمة عربية مشتقة من برد ، بمعنى أرسل ، وكان البريد يطلق كذلك على الرسول . (٣٨٠) ولما كانت مهمة البريد الأولى وصول الأخبار بسرعة كانت أهم معالمه انشاء محطات للبريد (٣٨١) تصل المركز بكل الولايات المرتبطة به ،

---

(٣٧٦) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٤٩ .

(٣٧٧) : القلقشندى ، ج ١٤ ص ٣٦٧ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٩ .

(٣٧٨) : LEVY . P. 299 , E. I., ART., BARID.

(٣٧٩) : القلقشندى ، ج ١٤ ص ٣٦٧ ، لسان العرب ، طبعة ١٣٨٨ هـ ، مادة البريد .

(٣٨٠) : المصدر السابق ، ج ١٤ ص ٣٦٧ ، لسان العرب ، مادة البريد .

(٣٨١) : محطات البريد كانت تعرف باسم السكة ، والسكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط ، وكان يرتب في كل سكة بغال أو خيول ، لسان العرب ، مادة البريد .

../..

لأن الدولة الاسلامية في عهد خلفاء بني أمية انقسمت الى ولايات ارتبط بعضها بالمركز مباشرة ، وارتبط القسم الآخر بأمراء تلك الولايات ، فمعاوية مثلا جمع لزياد المصريين أي الكوفة والبصرة وما كان يتبعهما من ولايات المشرق ، وسار على هذا النظام أكثر خلفاء بني أمية حتى كان عدد الامراء الذين تولوا العراقين اثني عشر أميرا ، (٣٨٣) وكانت سلطة الحجاج تمتد من فم الرقة الى خجند بخراسان والى السند والهند . (٣٨٤) فأمير العراقين كان مسؤولا عن سرعة وصول الأخبار اليه من كل ولايات المشرق ، (٣٨٥) بينما كان ديوان البريد المركزي مسؤولا عن محطات البريد التي تصل الشام بالبصرة والكوفة والجزيرة وأرمينيا ومصر والحجاز ، وكانت محطات البريد تبعد الواحدة عن الأخرى فرسخين في ايران وأربعة فراسخ في الولايات الغربية ، وذلك لاستخدامهم العدّائين في ايران والخيول والجمال في الولايات الغربية . (٣٨٦)

(٣٨٢) في النص بعد «والبصرة»

وكانت توجد في هذه المحطات الدواب التي تستخدم في البريد ، من البغال ، والخيل والابل ، حسب طبيعة الطرق التي تمر بها ، ذلك فضلا عن وجود أماكن للراحة ، وتوفير أسباب الحصول على الماء والطعام والعلف لدواب البريد ، كما كان من الضروري عمارة الطرق ، ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل حتى يعرف الرسول المسافة التي قد اجتازها ، وقد وصلت الينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان اكتشفت بالقرب من بيت المقدس ، وتشير الى أوامره بصنع الأميال وبعمارة أربع طرق تخرج من ايلياء ومن دمشق . (٣٨٧) ويبدو أن الوليد ساهم في بناء الأميال وعلى نطاق واسع مما دفع القلقشندي الى القول بأن الوليد هو أول من بنى الأميال . (٣٨٨)

---

(٣٨٢) : الطبري ، ج ٥ ص ٢٣٤ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٤٨ ، ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ، ج ١ ص ١٨٥ .

(٣٨٣) : ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٤٨ .

(٣٨٤) : البلخي ، كتاب البدء والتاريخ ، باريز ١٩١٩ م ، ج ٢ ص ٢٧ .

(٣٨٥) : خليفة ، ج ١ ص ٣١٩ ، ٤١٥ ، ٤٤٣ ، ج ٢ ، ص ٥٣٨ .

(٣٨٦) : E.I. Art., Barid.

(٣٨٧) : Van Berchem, Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jerusalem, t.I. P. 20. Repertoir Chronologique d'epigraphie Arab, t.I. PP. 13, 16.

(٣٨٨) : القلقشندي ، مآثر الأناقة ، ج ١ ص ١٣٦ ، بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء ، ص ٤٣ .

../..

استخدم عمال الدولة البريد للرحلات السريعة ،(٣٨٩) وفي أيام الطوارئ كان البريد يستخدم في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة ، كما حدث أثناء ثورة ابن الأشعث ، عندما جهز عبد الملك الجند على البريد فكانوا يحملون من مائة ، ومن خمسين وأقل من ذلك أو أكثر .(٣٩٠) كما أرسل هشام بن عبد الملك الى سعيد الحرشي الى أرمينيا ومنطقة اللان على أربعين دابة من دواب البريد فكان يبعث اليه كل يوم أربعين رجلا .(٣٩١) أما الوليد بن عبد الملك فكان يحمل عليه الفسيفساء من القسطنطينية الى دمشق (٣٩٢)

خطا نظام البريد خطوات واسعة في خدمة النظام الادارى الأموى ؛ ودعم سلطانه بما يتفق وطبيعة اللامركزية التي سار عليها هذا النظام ، الا أن البريد حقق أهميته الكبرى في ظل الحكم العباسي حيث أصبح عبارة عن دائرة استخبارات ،(٣٩٣) وأنشئت المحطات على مراحل مناسبة على كل الطرق المؤدية للعاصمة ، كما أنشأ المهدى طريقا جديدا مزودا بالمحطات من اليمن الى مكة ومن ثم الى بغداد ، وكان ولاة البريد في الآفاق كلها يكتبون الى المنصور أيام خلافته ، في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول ، وبكل مايقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث.(٣٩٤) وبدأ اختلال نظام البريد في عهد سيطرة البويهيين الذين رأوا في منع وصول الأخبار الى الخلفاء وسيلة لاحكام سيطرتهم عليهم ،(٣٩٥) وألغى السلطان السلجوقي الب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢م/٤٥٦ - ٤٦٥هـ) نظام البريد في الولايات الشرقية بالرغم من معارضة وزيره المشهور نظام الملك ، الذى كان يرى في هذه المؤسسة وسيلة قيمة فعالة لحفظ

---

(٣٨٩) : القلقشندى ، صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ ، E.I. Art., Barid.

(٣٩٠) : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٢٣٦ .

(٣٩١) : البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٠٨ ، الطبرى ، ج ٧ ص ٧٠ ، ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٥٩ .

(٣٩٢) : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٦٧ ، E.I.Art., Barid.

(٣٩٣) : Levy, P. 300.

(٣٩٤) : الطبرى ، ج ٧ ، ص ٩٦ .

(٣٩٥) : E.I. Art., Barid.

../..

النظام والأمن في الدولة .(٣٩٦)

ديوان المستغلات :

بالاضافة الى هذه الدواوين التي ذكرتها ظهرت دواوين أخرى بالشام فقط ، كديوان المستغلات الذى يرد اسمه لأول مرة في خلافة الوليد بن عبد الملك ،(٣٩٧) وكان على المستغلات نفيع بن ذويب مولى الوليد ، واسمه كان مكتوبا في لوح في سوق السرّاجين (٣٩٨) بدمشق ، وديوان المستغلات هو الديوان الذى تسجل فيه أجور أراضي الدولة وأملاكها المكومة ،(٣٩٩) كذلك نقرأ في تاريخ دمشق لابن عساكر من تأسيس ديوان للزمنى ، اذ يذكر أن اسحاق بن قبيصة بن ذويب الخزاعي كان على ديوان الزمنى بدمشق ، وهو من أهلها ، وأن الوليد قال له لما ولاه : " لأدعن الزّمن أحبّ الى أهله من الصحيح ." (٤٠٠) وأغلب الظن أن هذا الديوان قد ظهر في الشام فقط ، اذ أن اهتمام الوليد كان مركزا على الشام . فقد ذكر القلقشندى بأن الوليد هو أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى ، وأول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون ، (٤٠١) كذلك يشار في عهد سليمان بن عبد الملك الى ديوان النفقات.(٤٠٢) واذا افترضنا تأثر الأمويين بالفرس الذين كان لهم ديوانان ، ديوان الخراج وديوان النفقات ، وأن ديوان النفقات يسجل كل ماينفق في جيش أو في غيره ، (٤٠٣) فانه يمكننا القول ان هذا الديوان كان يقوم بتسجيل كل ماينفق على مرافق الدولة من أموال صادرة من بيت المال في دمشق ، بدلا من أن تكون هذه المسؤولية ملقاة على عاتق ديوان واحد هو ديوان الخراج ، ويبدو أن هذا الديوان كان مركزيا ، وقد بقي كذلك في العصر العباسي ،

---

(٣٩٦) : E.I. Art., Barid .

(٣٩٧) : الطبرى ، ج ٦ ص ١٨١ .

(٣٩٨) : الجهشيارى ، ص ٤٧ .

(٣٩٩) : Levy, P. 299.

(٤٠٠) : تهذيب ، ج ٢ ص ٤٥٢ .

(٤٠١) : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ص ٤٣٢ .

(٤٠٢) : خليفة ، ج ١ ، ص ٤٣٢ ، الجهشيارى ص ٧٢ ، وكان يكتب لمروان على النفقات زياد بن أبي الورد الأشجعي واسمه مكتوب على ميناء صور وعكا .

(٤٠٣) : الجهشيارى ، ص ٣ .

../..

عند ما كانت أكبر مهماته القيام بنفقات دار الخلافة وحاجاتها ونفقات الدواوين المركزية ،(٤٠٤) بينما كانت دواوين الخراج في الولايات تقوم مقام ديوان النفقات فيها بالاضافة الى تسجيلها لما يجبى من خراج وضرائب أخرى ، فكانت تستوفي من تلك الأموال النفقات الراتبة وأعطيات الجند وترسل الباقي الى العاصمة. (٤٠٥)

اذا كانت هذه الدواوين كلها ترد أساواءها في المركز فان هنالك بعض الدواوين التي تسمع عنها في مصر مثلا كديوان الأحباس أو الاوقاف الذى أوجده توبة بن نمر ، والذى يقول الكندى عنه أنه أصبح ديوانا عظيما سنة ١١٨ هـ (٤٠٦) كما ظهر في العراق في العصر الأموى مايسمى بدار الاستخراج ، (٤٠٧) وهي الدار التي كانت تصادر فيها أموال الموظفين الذين يختلسون أموال الجبايات ولا يؤدونها للدولة ، وكذلك الدهاقين الذين يقصرون في الجبايات المقررة عليهم ، كما صودرت فيها أموال الخارجين على الدولة أو الذين يشتبه بمساعدتهم الثائرين ، (٤٠٨) واستمر هذا الجهاز حتى زمن الدولة العباسية حيث تحول الى ديوان كبير عرف باسم ديوان المصادرين ، (٤٠٩) ولما كان أهل الشام/أهل طاعة وولاء فلم يظهر مثل هذا الديوان في الشام ، فاننا لا نقرأ عن مصادرات للأموال فيها في هذه الفترة من تاريخنا .

* * *
* *
*

---

(٤٠٤) : الصابي ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٥ ، ٢٧ .

(٤٠٥) : ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٥ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٥١ ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٤٠ .

(٤٠٦) : الكندى ، ص ٣٤٦ .

(٤٠٧) : الجاحظ ، البيان والتبيين ، دار الفكر ، بيروت ، ج ٢ ص ٤٢ .

(٤٠٨) : البلاذرى ، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٩ ، ٨١ ، أنساب ج ٤ قسم ١ ص ١٥٩ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٩٣ ، المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤٠٩) : حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ، ١٩٧١ ، ص ٢٨٦ .

الفصـل الثانـــي

النظام المالـــي في الشـــــام

قبل البحث في النظام المالي الذى طبق في بلاد الشام ،لا بد من ملاحظـــة بعض النقاط التي تتعلق بالنظام المالي بشكل عام في صدر الاسلام ، فبعض الضرائـب والتدابير العملية مثل الجزية ،فردية أو مشتركة ، والعشر والزكاة ومعاملة الأراضـــي العربية فرضت في عهد الرسول (صلعم) وكان لها أثرها على نظام الضرائب. (١) كمـا أن نظامي الضرائب اللذين وجدهما العرب في الاراضي المفتوحـة استعملا مصطلحـات لم يخل بعضها من تداخل ،مثل خراج في المشرق وجزية في مصر ، وقد أثّر هذا فـي استعمال المصطلحات في صدر الاسلام ،اذ أن مايبدو من تداخل في استعمال كلمتي خراج وجزية لم يكن نتيجة عدم التمييز بين الضريبتين ، وانما هو من بقايا الارث المحلـي ، (٢) ولم تكن هناك سابقة واضحة للخراج بمعنى ضريبة الأرض في فترة الرسالة ، اذ أن الرسول قرر أن الأراضي العربية في الجزيرة لا تدفع الا العشر بينما قرر الخليفة عمر فرض ضريبة الخراج على الأرض المفتوحة عنوة كالسواد وأرض الشام ، (٣) وترك الأرض بيد أصحابهـا فتكون فيئا للمسلمين . (٤) ومن الغريب أن عددا كبيرا من المستشرقين ،أمثال فلهـوزن Wellhausen وبكر Becker وكايتاني Caetani وأدولف جروهمـان Adolf Grohman ومارتن هارتمان Martin Hartman وغيرهـم ، متفقون على أن المصادر الاسلامية تميل الى أن تنسب الى عمـر بن الخطاب كثيرا

---

(١) : د . عبد العزيز الدورى ،نظام الضرائب في صدر الاسلام ،ملاحظات وتقييـم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ،فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية ،ج ٢ ، م ٤٩ ،دمشق ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م ص ١ .

(٢) : المرجع السابق ،ص ٢ .

(٣) : أبو يوسف ،الخراج ،ص ٢٨ ، ٢٩ . محمد حميد الله ،مجموعة الوثائق ،السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ،ص ٣٧٦ .

(٤) : أبو يوسف ، الخراج ،ص ٣٠ .

../..

من التنظيمات التي تمّت في وقت متأخر ليكسبوا هذه التنظيمات قوة ،وأن العرب لم يكونوا يميزون بين ضريبة للرأس وأخرى للأرض ، وأن الجزية والخراج كلمتان مترادفتان تستخدمان بمعنى اتاوة ،وأن هذا التمييز قد حدث في وقت متأخر ،وان لم يكونوا متفقين في تحديد ذلك الوقت ،فقلهوزن يعتبر سنة ١٢١ هـ السنة التي ظهر فيها هذا التمييز في خراسان ،بينما يرى بيكر أن ذلك حدث سنة ١٠٦ هـ أو ١٠٧ هـ في مصر ويجعل جروهمان ذلك في منتصف القرن الثاني للهجرة ،(٥) ويتساءل دانيل دينيت ، Daniel Dennette ، لماذا نتهم الفقهاء بأنهم ينسبون الى الخلفاء الأوائل تنظيمات ظهرت في عهود هم وهم يذكرون أموراً تمّ تطبيقها في عهد الخلفاء الراشدين ولكنها لم تكن مطبقة في فترة متأخرة ؟ فكايتاني مثلا يرفض الرواية التي تقول بأن جزية تقدر بدينارين قد فرضت على كل مصرى عند الفتح ،في حين أن جزية الدينارين لم تكن مطبقة في الفترة التي كان يعيش فيها ابن عبد الحكم ، فما هي غاية ابن عبد الحكم من أن ينسب ذلك الى عمر بن الخطاب ؟ ويذكر البلاذرى أن عمر قد وضع الخراج في السواد وأنه جعل ذلك ضريبة ثابتة على كل جريب من الأرض ،(٦) في حين أن نظام المقاسمة هو الذى كان مطبقاً منذ عهد المهدى العباسي ،(٧) فلما لم ينسب البلاذرى هذا النظام/الذى كان مطبقاً في عهده الى عمر ؟ .(٨)ثم ان المصادر الاسلامية في الواقع تذكر بوضوح كامل أن العرب اتبعوا أسلوبا معينا في مصر ،وآخر في الشام ،وثالثا في العراق ،ورابعا في خراسان ، فجزية الدينارين لا تذكر سوى في مصر ، في حين تذكر الروايات أن عمر أمر بمسح السواد فوضع الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض ، (٩) فلم يكن هناك من نظام ثابت

---

(٥) : Daniel Dennette. Conversion and The Poll Tax in Early Islam, pp. 4 - 6.

(٦) : البلاذرى ،فتوح ص ٢٦٨.

(٧) : المصدر السابق ص ٢٧١.

(٨) : D. Dennette. Op. Cit. P. 11.

(٩) : البلاذري ، فتوح ص ٢١٦ ، ٢٧٠ .

../..

للجزية والخراج ، ولا نجد فقيها مسلما واحدا يؤكد أو يدعي وحدة التطبيق في كل أطراف الدولة الاسلامية ، بل ان الروايات تشير الى العكس من ذلك وتحاول أن تظهر الاجراءات التي طبقت في الولايات المختلفة ، ولا تحاول مطلقا تقديم صورة لنظام موحد في كل أجزاء الدولة الاسلامية ، فالاجراءات التي تمت أثناء الفتح لم تكن واحدة لأنها تأثرت بالأوضاع المحلية ، فالوضع في خراسان لم يكن مشابها للوضع في السواد أو الشام أو مصر ، ومن ثم فان التنظيمات التي أجراها نصر بن سيار في خراسان (١٠) لا يمكن فهمها الا في نطاق ولايته ولا تلقي ضوءا على الأوضاع المالية في ولاية أخرى ، ثم ان العرب ميزوا منذ البدء بين ضريبة الرأس وضريبة الأرض بالرغم من التبادل بالألفاظ كقول أبي يوسف مثلا خراج على الرؤوس ، (١١) وكقول البلاذري أرض الجزية ، (١٢) لأن القرينة قد حددت المعنى المقصود وأكدت وجود ضريبتين متميزتين منذ البدء ، ثم ان سبل الاعفاء من ضريبة أو أخرى يساعد بدوره على تأكيد التمييز بين الضريبتين ، فهناك روايات متعددة متعلقة بأرض العنوة ، تشير الى طرح الجزية عن من أسلم ، (١٣) بينما تبقى الأرض خراجية لأنها فيء للمسلمين . (١٤)

لا يمكننا فهم النظام الضريبي في الشام الا بالعودة الى النظام المالي البيزنطي الذي كان مطبقا فيها ، ودراسة بعض أحداث الفتح حتى يختفي ذلك التناقض الذي قد يبدو لأول وهلة عندما تدرس الروايات المختلفة بعهود الصلح التي عقدت

---

(١٠) : من أجل التنظيمات التي قام بها نصر بن سيار في خراسان يمكن العودة الى "الادارة في العصر الاموي" ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(١١) : أبو يوسف ، الخراج ، ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٥٧ .

(١٢) : البلاذري ، فتوح ص ٣٢٦ .

(١٣) : ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٥٤ ، يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٧ .

(١٤) : ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ ، يحيى بن آدم ، ص ٧ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٨ ، أبو عبيد الأموال ، ص ٧٢ .

../..

مع بعض المدن الشامية .

ان معلوماتنا عن النظام المالي البيزنطي قليلة جدا ، تعتمد كما يقول دانيل دينيت على استنتاجات مبنية بشكل خاص على دراسة مجموعة القوانين السورية اليونانية، الا أن الملامح الأساسية للمؤسسات البيزنطية في الشام تعود الى عهد قسطنطين Constantine وديوكليسيان Diocletian واصلاحاتهما ، فقد أمر ديوكليسيان باجراء احصاء للأرض والناس أدّى الى تقسيم المنطقة الى وحدات لا تتساوى بالمساحة وانما في قيمة المحصول ، وكانت هذه الوحدة يطلق عليها اسم - iugum - وكانت كل وحدة تدفع نفس الضريبة الثابتة ، وأخذ الاحصاء بعين الاعتبار عدد الوحدات التابعة لكل مدينة ذات حكومة محلية Municipality وما يتبعها من أرض وقرى وضياع، وفي كل سنة عند اعلان الضريبة الأساسية عن الوحدة ، كان على موظفي المدينة ذات الحكم المحلي (Curials) أن يقوموا بجمع مقدار من المال يساوى مقدار الضريبة الأساسي عن الوحدة مضروبا في عدد وحدات كل مدينة. (١٥) ومن الواضح أن الاساس في هذا البناء المالي كان المدينة ذات الحكومة المحلية ، الامر الذى يفسر لنا كثرة المعاهدات التي عقدها العرب في الشام ، ان هذه الضرائب التي كانت تفرض على الوحدة لم تكن ثابتة بقدر ما كانت تختلف تبعا للظروف ، وكانت قيمة الضريبة تعتمد على قرارات السلطات العسكرية أو المدنية ، وكان هذا يسبب الاجحاف لدافعي الضرائب وللخزينة في نفس الوقت . (١٦)

الى جانب الأراضي العامة في المدينة والقرى ، كانت هناك ضياع امبراطورية وأخرى خاصة لها امتيازات معينة ، وأراض صغيرة يملكها مزارعون أحرار، (١٧) أما العمل الزراعي الأساسي فكان يقوم به بشكل واسع عبيد الأرض - Coloni - ، ثم ان الدولة

---

(١٥): D. Dennette, OP. Cit. P. 51 .

(١٦): Andre M. Andreades, Public Finances, Byzantium, II P. 48.

(١٧): Dennette, Op. Cit. P. 52.

../..

كانت قد اعتادت أن تمنح أراضي بعقود طويلة الأمد ، ولذلك ظهر في القرن الخامس عادة منح أرض الموات لمن يريد احياءها مقابل دفع أجر ثابت ، وكان هذا الاجراء يطلق عليه اسم – Emphyteusis – . (١٨)

كان النظام البيزنطي سببا في حدوث تذمر كان ينعكس أثره خاصة على موظفي الحكومة المحلية،[١٩] الذين ألقيت على عاتقهم مسؤولية جمع مقدار معين من المال كل عام ، فاذا حدث لسبب من الأسباب أن خرجت من سلطتهم أرض من مجموع الأراضي التي كانوا مسؤولين عن جمع ضرائبها ، فان العبء على بقية الجماعة كان يزيد بذلك المقدار، (٢٠) كما أن بعض أصحاب الضياع كان يطلب حق دفع الضرائب مباشرة للحكومة الامبراطورية وليس عن طريق موظفي المدينة وكان هذا الحق يسمى أوتوبراجيا autopragia وكانت هذه الضياع تسمى – Agri Excepti – وكانت ملكا للأشراف والكنيسة ، هذه الأراضي لم تكن معفاة من الضرائب ولكنها كانت خارج سلطة موظفي الحكومة المحلية ، وكان لها وضع متميز ، دفع عددا كبيرا من الملاكين الصغار أن يلحقوا أراضيهم بهؤلاء الأشراف ليحصلوا على حمايتهم ، وهكذا ازدادت أراضي هؤلاء الحماة من الأشراف وخف العبء الضريبي عن أتباعهم ، وازدادت أعباء الموظفين المحليين حتى أضحوا عاجزين عن مواجهة مسؤولياتهم . وبالرغم من التشريعات كان الامبراطور عاجزا عن القضاء على هذه الحركة ، لا سيما وأن هذه التشريعات تحمي هؤلاء

---

(١٨): Bury, History of Later Roman Empire, Vol. I pp. 57 - 59 .
Ostrogorsky, George, History of The Byzantine State, Tr. Joan Hussey, Oxford, 1956, P. 39.

(١٩): Bury, OP.Cit. Vol. I pp. 46 - 48 .

(٢٠): Francis de Zulucta, De Patrocinii Vicorum, Oxford Studies in Social and Legal History, Paul Vinogradoff. ed. 1909. pp. 10 - 11 .

../..

بتسميات مختلفة ، (٢٠) بمعنى أن هؤلاء لم يكونوا يمثلون الفلاحين المرتبطين بالأرض فقط ، وانما كل الطبقات . وليس في مقدور الباحث أن يقدر مدى اتساع الأراضي العامة والشخصية والخاصة والامبراطورية ، ولكن كايتاني يميل الى الاعتقاد أن أراضي المدينة ذات الحكومة المحلية كانت واسعة المدى ثم تليها الاراضي التابعة للكنيسة ثم الممتلكات الامبراطورية والخاصة ،وقد بنى استنتاجه هذا على مافعله الأمويون عندما منحوا الاقطاعات لاتباعهم فقد تبين له أن معظم هذه الاقطاعات كانت في العراق ،بينما كانت الاقطاعات قليلة في الشام ، وكانت هذه الاقطاعات تمنح من أرض الصوافي وهي الاراضي التي كانت ملكا للامبراطور والأشراف ،(٢١)ولكن دانيل دينيت يبين أن الروايات المتعلقة بالشام قليلة اذا ماقيست بالروايات المتعلقة بالعراق ، وهذا يفسر جهلنا بالاقطاعات في بلاد الشام ،كما أن الأمويين ،لمصلحتهم السياسية ،كانوا يفضلون منح اقطاعات لاتباعهم المخلصين في العراق ، ولذلك لا يمكن اطلاقا ،كما يقول ،أن نقدّر ولو تقديرا مبدئيا نسبة هذه الأراضي ، ونسبة الطبقات المختلفة بعضها الى بعض . (٢٢)

بالاضافة الى ضريبة الأرض ، وجدت ضريبة الرأس ، الا أن الاختلاف بين المؤرخين كبير حول هذا الموضوع ، كما أن الجدال حول هذه النقطة يلقي ضوءا على الجدال الذى قام حول قضية جزية الرأس الاسلامية .

يتفق الجميع على وجود ضريبة رأس في أوائل عهد الامبراطورية ،وأن هذه الضريبة

---

(٢٠): Coloni, Vicani, agricolae, possessores, homologicoloni, metrocomiae, (George Mclean Harper, Village Administration of The Roman Province of Syria, Princeton, 1908. pp. 58, 62.

(٢١): Caetani, Annali, Vol. V pp. 438 - 439 .

(٢٢): D. Dennette Op. Cit. P. 53.

../..

كانت تجبى حسب رأى أولبيان Ulpian من كل الذكور من ١٤ - ٦٥ ومن الاناث كذلك ،(٢٣) أما بيجانول - Piganiol - وثيبولت - Thibault فيشيران الى أن ضريبة الرأس Tributum capitis قد ألغيت في عهد قسطنطين ، في حين يحاول فرديناند لوت Ferdinand Lot أن يبرهن على وجود ضريبة للرأس في فترة الفتح الاسلامي ، وقد بنى استنتاجه على ماورد في مدونة جستنيان ، وعلى دراسة للقوانين التي صدرت في سنوات مختلفة سنة ٣٦٨ م ، ٣٧٠ م ، ٣٧٤ م ، ٣٧٥ م ، وأماكن مختلفة كانت تعفي دهماء المدن والنساء غير المتزوجات والأولاد والمسنين وذوى العاهات من جزية الرأس ، ويضيف لوت شواهد اضافية تبرهن على أن الطبقة الارستقراطية في المدن والتجار والعمال الذين يدفعون ضريبة aurumnegotiatorum ، وضريبة chrysargyron لم يكونوا يدفعون ضريبة الرأس ، واستنتج لوت أن ضريبة الرأس أصبحت بعد القرن الرابع الميلادى تجبى فقط من الفلاحين وأصبحت سمة لهذه الطبقة من المجتمع ،(٢٤) ودلالة على الذلة كما يتبين من التعبير Plebaiae Capitationis injuria (٢٥)

اذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار ، أمكننا الآن أن نتتبع أحداث الفتح الاسلامي للشام مبتدئين بحمص حيث نلاحظ مجموعة من الروايات التي قد تبدو متناقضة لأول وهلة عندما نغفل الفترة الأولى قبل استقرار التنظيم ونغفل التطور الحاصل ، فقد أورد البلاذرى رواية أبي مخنف التي تذكر أن أهل حمص صالحوا المسلمين على مائة ألف وسبعين دينارا ،(٢٦) ثم يورد رواية الواقدى " بأنه بينما كان المسلمون على أبواب مدينة دمشق اذ أقبلت خيل للعدو كثيفة ، فخرجت اليهم جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت

---

(٢٣) : Ibid., p. 53. Harper, Op. Cit., p. 60 .

(٢٤) : Dennette, pp. 54 - 55. Ostrogorsky, Op. Cit., 37, 38-39. Hodgson, Marshal. G.S. The Venture of Islam, Conscience and History in a World of Civilization, The University of Chicago Press. p. 242.

(٢٥) : Dennette, Op. Cit., p. 55

(٢٦) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٦ .

../..

لهيا والثنية ،فولّوا منهزمين نحو حمص ،على طريق قـارة ، واتبعوهم حتى وافوا حمص ، فلقوهم قد عدلوا عنها ،ورآهم الحمصيون وكانوا منخوبين لهرب هرقـل عنهم ، وما كـان يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم ،فأعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب الأمـان ، فأمنهم المسلمون ،وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندى ، (٢٧) فلما فرغ أبو عبيده من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ثم قدم حمص على طريق بعلبك ،فصالحه أهل حمص على أن أمّنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد ، واشترط الخراج على من أقام منهم. (٢٨) ثم ينقل رواية عن أبي حفص الدمشقي بأنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . . . فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأدوا الخراج . (٢٩)

ويورد الطبرى في أحداث سنة ١٥هـ حول فتح حمص وعن أشياخ من غسّـان وبلقين أن أهل حمص صالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أبدا أيسروا أو أعسروا ،وصالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه وان نقص نقص ،وكذلك كان صلح دمشق والأردن بعضهم على شيء ان أيسروا وان أعسروا وبعضهم على قدر طاقته ، وولوا معاملة ماجلا ملوكهم عنه . (٣٠)

ان هذه الروايات المتعددة اذا اقترنت بمراحل الفتح زال عنها هذا التضارب ، اذ أن رواية الواقدى تعطي تفسيرا لرواية أبي مخنف ،بأن أول حملة وجهت الى حمص كانت قبل فتح دمشق لرد تلك القوة التي وجهت للعرب المحاصرين لدمشق وكان قائدها السمط بن الأسود الكندى الذى أمّن أهل حمص مقابل دفعهم لمائة ألف وسبعين دينارا ،

---

(٢٧) : البلاذرى ،ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢٨) : المصدر السابق ،ص ١٣٧ .

(٢٩) : المصدر السابق ،ص ١٤٣ .

(٣٠) : الطبرى ، ج ٣ ،ص ٦٠٠ ،ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ،ص ٢٧ .

../..

فقد كان العرب بحاجة الي الأموال من جهة ،وكان أهل حمص بحاجة الى أن يشعروا بالأمان ، وكان هذا الوضع شبيها بصلح الحيرة ،ولكن هذا الصلح جدد بعد أن انتهى أبو عبيدة من فتح دمشق ،ويورد أبو حفص أن أبا عبيدة صالحهم على نحو صلح بعلبك ففرض على من أقام من أهل بعلبك الجزية والخراج ، (٣١) فلما تقدم هرقل اضطر العرب الى سحب قواتهم من حمص وأعادوا الخراج لأنهم لم يكن بامكانهم نصرة أهل حمص والدفاع عنهم ،وبعد معركة اليرموك دخل العرب حمص مرة أخرى ،واتبع العرب وفق رواية الطبرى أسلوبين في الشام ،فبعضهم صالح على أساس دفع ضريبة ثابتة تقدر بدينار وطعام من كل جريب سواء أيسروا أو اعسروا في حين صالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه ،وان نقص ،نقص . (٣٢)

استنادا الى هذه الرواية بنى بيكر Becker استنتاجه بأن العرب قد احتفظوا بالنظام البيزنطي حيث كانت أراضي الدولة والأراضي ذات الامتيازات الخاصة — Autopract تدفع ضريبة تتناسب مع المحصول ،في حين كانت الأراضي العامة التابعة للمدينة ذات الحكومة المحلية تدفع ضريبة ثابتة . (٣٣) ويمكن اعتبار فرضية بيكر مقبولة لا سيما أننا نلاحظ فرض جزية ثابتة مؤلفة من دينار وجريب في صلح أنطاكية ومنبج ودلوك ورعبان ، (٣٤) وفي صلح دمشق (٣٥) وحلب (٣٦) ،وصلح طبرية وبيسان ، (٣٧) وصلح بصرى ، (٣٨) ومن الطبيعي أن يعتمد العرب على المسؤولين عن الادارة المحلية للمدن في المعاهدات وعقود الصلح التي عقدوها معهم وأن يتخذوهم وكلاء عنهم في اجتباء الضرائب ، (٣٩) فهل تبنى العرب كذلك النظام البيزنطي القائم على أساس الوحدة المتساوية في قيمة المحصول أي — Iugum ؟.

---

(٣١) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٣٧.

(٣٢) : الطبرى ،ج ٣ ،ص ٦٠٠.

(٣٣) : Dennette, Op. Cit., p. 58

(٣٤) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٥٢-١٥٥ ،ودلوك بلدة من نواحي حلب ورعبان مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات .

(٣٥) : المصدر السابق ،ص ١٣١.

(٣٦) : المصدر السابق ،ص ١٥٢.

(٣٧) : الطبرى ،ج ٣ ،ص ٤٤٤.

(٣٨) : البلاذرى ،ص ١٢٠.

(٣٩) : الطبرى ،ج ٣ ،ص ٦٠٠ . Dennette, Op. Cit., p. 59.

انه افتراض مغر أن نرى في ضريبة الدينار العربية على كل رجل وضريبة الدينار عن كل وحدة التي قررها الامبراطور في المنشور السنوى delogatio شيئا واحدا ، وقد يؤيد هذا القول ،أن هذه الوحدة نظريا تساوى مساحة الأرض التي يستطيع رجل واحد القيام بزراعتها ، (٤٠) ولكن ليس ثمة من دليل واحد لسوء الحظ يؤيد هذه النظرية ، كما أننا لا نستطيع تجاهل الاجماع في الروايات على أن الضريبة كانت على الفرد ،هذا الى أن الادارات المحلية ذاتها في المدن كان لديها من الحوافز القوية مايدعوها الى التخلص من الطريقة المعقدة المتبعة في النظام البيزنطي ،في حين أن جمع مبلغ سنوى يساوى عدد الذكور البالغين من السكان أمر يسهل ادراكه وتنفيذه ، وقد تبنّى العرب هذا المبدأ في الجزيرة ومصر ، وبالرغم من ابقاء العرب على ضريبة الأرض والرأس وضريبة الغلال Embolè في مصر ،الا أن الطريقة التي اتبعت في جباية وجمع الضرائب تحسنت نتيجة لتبسيطها ، فاذا لم يحافظ العرب على النظام البيزنطي كما هو في مصر ، فمن الصعب أن نفترض ابقاءهم لهذا النظام في الشام ، (٤١) وبينما نجد شواهد كثيرة عن تبني العرب للنظام الساساني في الشرق ، فان الاشارات المتعلقة بهذا الخصوص بالشام غير متوافرة ، بل ان الرواية السريانية المجهولة المؤلف تنص على العكس، اذ تذكر أن الخليفة قد أمر قواده عند اجراء الصلح أن ينصوا على أن أهل المدن المفتوحة " يبقون اذا شاءوا يواصلون حياتهم حسب قوانينهم وتقاليدهم قبل الفتح ،ولكن عليهم أن يؤدوا الضريبة حسبما فرضت عليهم." (٤٢) ولذلك يرجح أن يكون فرض الضرائب على أساس

---

(٤٠) : كانت الدولة تحرص على أن يكون لكل وحدة فلاح ،وقد اصبح هذا العمل صعبا نتيجة لانخفاض نسبة السكان العاملين في الارض من جهة وقلة عدد الفلاحين الذين كانوا كثيرا مايهربون نتيجة للفقر وللاوضاع غير المستقرة في المنطقة، ولذلك كانت الدولة تسعى بكل وسيلة ممكنة أن تربط الفلاح بمساحة الارض التي عهدت اليه. (Ostrogorsky, Op.Cit., p. 38.)

(٤١) : Dennette, p. 60..

(٤٢) : " Vivent Secundum Leges Corum et secundum quos habebant ante tempus nostrum; sed tributum secundum definitionem inter vos statum solvant " Dennette p. 60.

../..

الوحدة iugum قد انتهى بالفتح العربي ، وأن موظفي الادارة المحليين جمعوا بدلا من ذلك مبلغا من المال على أساس عدد السكان من الذكور ومساحة الاراضي .

ان أول تغيير في النظام البيزنطي حدث عندما قرر عمر فرض ضريبة الرأس على الجميع ، (٤٣) الا العبد المسيحي فلم يكن عليه جزية سواء أكان سيده مسلما أو من أهل الذمة ؛ (٤٤) وبذلك ألغى الامتيازات التي تتمتع بها بعض الطبقات والتي كانت معفاة منها ، ويشير ميخائيل السرياني الى أن عمر أمر باجراء احصاء من أجل ضريبة الرأس التي فرضت على النصارى في سنة ٩٥١ من الحكم البيزنطي اى ٦٣٩ ، ٦٤٠م/٢٠هـ ، ويذكر ثيوفانس أنه في السنة الثلاثين من حكم هرقل عمد عمر الى اجراء احصاء للرجال والاراضي والحيوانات وأشجار النخيل . (٤٥)

والروايات التي تتحدث عن جبلة بن الأيهم ، بالرغم من اختلافها في بعض النقاط ، فانها تتفق بأن عمر عرض الاسلام على جبلة مع أداء الصدقة أو البقاء على دينه ودفع الجزية ، فأنف منها ، (٤٦) لانه عربي والجزية لا يدفعها الا العلوج ، وهذه الرواية تؤكد ماذكر سابقا أن ضريبة الرأس كانت مفروضة على الفلاحين في العهد البيزنطي ؛ وكانت دلالة على المهانة والمذلة ، ومن الواضح أن الملك الغساني لم يكن يدفع هذه الضريبة للبيزنطيين ، وأنفته من هذا الصغار هو الذى دفعه الى ترك الشام ودخول بلاد الروم . (٤٧)

نلاحظ أن كل المعاهدات التي عقدت مع مدن الشام والجزيرة تنص على وجود جزية وخراج ؛ (٤٨) وان كان التركيز في المرحلة الأولى كما سيتبين لنا هو على الجزية ، فقد كانت الجزية في الشام في بادىء الأمر جريبا ودينارا على كل جمجمة ؛ (٤٩) وذكر بعض الرواة أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صالحهم أن ألزم كل رجل من الجزية دينارا

---

(٤٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣١ ؛

(٤٤) : ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ص ٥٥ .

(٤٥) : Dennette, Op. Cit. p. 61 :

(٤٦) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٤٢ ؛

(٤٧) : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ؛

(٤٨) : المصدر السابق ، ص ١٢٢ - ١٢٤ - ١٣٧ - ١٧٦ .

(٤٩) : المصدر السابق ، ص ١٣٠ - ١٣١ ؛

../..

وجريب حنطة وخلا وزيتا لقوت المسلمين ، (٥٠) ونجد ذكرا لهذه الجزية التي قيمتها دينارا وجريب طعام في رواية سيف المتعلقة بصلح بيسان وطبرية وأن هذا الصلح كان على صلح دمشق ، (٥١) ويشير البلاذري الى أن صلح بصرى كان أيضا ينص على أداء الجزية عن كل حالم دينارا وجريب حنطة ، (٥٢) وكذلك صلح حلب ،(٥٣) وفرض عياض بن غنم على سكان الجزيرة جزية واحدة في المدن والقرى ، فألزم كل رجل منهم دينارا في كل سنة وأخرج النساء والصبيان ووظف عليهم مع الدينار أقفزة من قمح وزيت وخل وعسل .(٥٤)

هذه الجزية الموحدة المؤلفة من دينار وأرزاق لم يلبث أن أصابها التعديل ، اذ أن رواية أبي عبيد تشير الى أن عمر عمد بعد ذلك الى جعلها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعين درهما على أهل الورق وجعلهم طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتوسط . (٥٥) وتتفق رواية عمرو الناقد من أسلم مولى عمر مع رواية عمرو بن حماد بن أبي حنيفة من أسلم مولى عمر ، بأن عمر بن الخطاب كتب الى امراء الاجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، على أهل الورق ، على كل رجل أربعين درهما وعلى أهل الذهب أربعة دنانير ، الا أن الرواية الاولى تضيف :" وأن عليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت ، مدان حنطة وثلاثة أقساط زيتا كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة وجعل عليهم ودكا وعسلا" ، أما في الرواية الثانية فيذكر أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام .(٥٦)

---

(٥٠) : البلاذري ، ص ١٣١ .

(٥١) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ .

(٥٢) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٠ .

(٥٣) : المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٥٤) : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ .

(٥٥) : المصدر السابق ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٥٦) : المصدر السابق ص ١٣١ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٣٩ - ٤٠ .

../..

ويبدو أن الارزاق فرضت على أهل الريف فقط دون أهل المدن ، وذلك لأن الأرضين لهم وهامكانهم دفعها ، فيذكر أبو يوسف : "أنهم انما فعلوا ذلك لأن أصحاب الرساتيق هم أصحاب الأرضين والزرع وأهل المدائن ليسوا كذلك". (٥٧)

كانت الجزية في عهد الخلفاء الراشدين تجبى عينا ونقدا ، فكان أهل الذمة اذا جاؤوا بعرض قبل منهم مثل الدواب والمتاع وغير ذلك يؤخذ منهم بالقيمة ، ولم يكن يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر ، (٥٨) لأن عمر بن الخطاب كان قد نهى عن أخذ ذلك منهم في جزيتهم ، وطلب من أهل الذمة أن يولوها أربابها ليبيعها ، وأن يأخذ عامل الخراج أثمانها اذا كان هذا أرفق بأهل الجزية . (٥٩)

ويبدو أن معاوية منذ بدء خلافته قد عمد الى جعل جباية الجزية نقدا ، هذا ما نفهمه من الرواية التي يوردها البلاذري عندما يذكر صلح عياض مع أهل الرها وأنه الزم كل رجل منهم دينارا في كل سنة ووظف عليهم مع الدينار اقفزة من قمح وشيئا من زيت وخل وعسل ، فلما ولي معاوية جعل ذلك جزية عليهم ، (٦٠) بمعنى أن قيمة هذه الارزاق أصبحت تدفع نقدا . ولدينا نص آخر يورده البلاذري يوضح ذلك الاتجاه الى جباية الجزية والخراج نقدا في عهد الامويين من أن أبا عبيدة بن الجراح صالح السامرة بالاردن وفلسطين وكانوا عيونا وأدلاء للمسلمين على جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم ، فلما كان عهد يزيد بن معاوية ، وضع الخراج على أراضي السامرة بالأردن وجعل على رأس كل امرئ منهم دينارين ووضع الخراج على أرضهم بفلسطين وجعل على رأس كل منهم خمسة دنانير . (٦١)

وفي خلافة عبد الملك جرى التعديل الذي يحدثنا عنه أبو يوسف ، اذ أن عبد الملك استقل ماكان يؤخذ من أهل الجزيرة ، فأرسل الضحاك بن عبد الرحمن الاشعري فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح

---

(٥٧) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٤٨ .

(٥٨) : الصولي ، أدب الكاتب ، ص ٢١٥ .

(٥٩) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٦٩ .

(٦٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٨ .

(٦١) : المصدر السابق ص ١٦٢ - ١٦٣ .

../..

من ذلك نفقته في طعامه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السنة كلها ، فوجد الذى يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعا ، أى أن جزية موحدة ومقدارها أربعة دنانير فرضت على كل فرد ، ويشير النص الى أن هذا التعديل قد طبق في الجزيرة وليس ثمة اشارة الى أنه طبق في الشام . (٦٢)

أخذت الجزية في الشام والجزيرة كما في عهد الرسول من أهل الذمة ، فقد أمر الرسول أن يقاتل أهل الكتاب من العرب، وغير العرب حتى يعطوا الجزية ، وقد قبل الرسول الجزية من العرب ، فقد قبلها من أهل اليمن وهم عرب اذ كانوا أهل كتاب ، وقبلها أبو بكر من أهل الحيرة حين افتتحها خالد بن الوليد صلحا وهم أخلاط من أفناء العرب من تميم وطيء وغسان وتنوخ . (٦٣) الا أن قادة العرب واجهتهم في الشام والجزيرة قضية العرب الذين رفضوا دفع الجزية أنفة فقد رفض جبلة بن الايهم كما رأينا دفعها وغادر بلاد الشام الى بلاد الروم ، مما دفع عباده بن الصامت الى معاتبة عمر قائلا له : "لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته" (٦٤) ولذلك اضطر عمر أن يضعف الصدقة على نصارى تغلب اذ عندما أراد أن يأخذ الجزية منهم انطلقوا هاربين ، فقال له زرعة بن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبي : "أنشدك الله فيهم ، فانهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية ، فلا تعن عدوك عليك" . فأضعف عليهم الصدقة وشرط عليهم أن لا ينصروا أولادهم ، (٦٥) أى أن تؤخذ الصدقة مضاعفة على صدقة المسلمين من كل شيء على المسلمين فيه الزكاة ، من الابل والبقر والغنم والزرع والثمار ، ولا يؤخذ من أقل مما تجب فيه الزكاة على المسلم في خمس من الابل شاتان ، وفي أربعين من الغنم شاتان ، وفي ثلاثين من البقر تبيعان ... الخ ، (٦٦) وبما أن ما فرض على بني تغلب هو صدقة مضاعفة فالمرأة والرجل من بني تغلب في الصلح سواء لأنه ليس

---

(٦٢) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٤٩ .

(٦٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٧٨ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٨ ، ابن قتيبة المعارف ص ٢٣٩ .

(٦٤) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٤٢ .

(٦٥) : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٨ ، ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤١ .

(٦٦) : يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٦٧ ، فقرة ٢١٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ، أحكام بني تغلب ، ص ٧٥ - ٨٦ .

٠٠/٠٠

على رؤوسهم وانما هو على أرضهم ، وكذلك من كان عليه دين ومن لم يكن عليه دين فهو سواء يؤخذ منهم جميعا . (٦٧) واختلف الفقهاء في صبيان من بني تغلب ، فقال البعض أنه لا يؤخذ من أرضهم شيء ، ولا من مواشيهم لأنه لا يؤخذ من صغار المسلمين العشر ، بينما قال البعض الآخر يؤخذ منهم لأن اليتيم الصغير يزكي ماله . (٦٨) وبالرغم من أن ما فرض على نصارى تغلب هو ضعف الصدقة التي تؤخذ من أرض المسلمين ، الا أن سبيل ما يؤخذ من أموال بني تغلب سبيل مال الخراج ، لأنه بدل الجزية وفي هذا اجماع . (٦٩)

وكان للجراجمة وضعهم الخاص كذلك ، لأن حبيب بن مسلمة الفهري عند ما غزا الجرجومة ، لم يقاتله أهلها ، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح ، فصالحوه على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينفلوا اسلاب من يقتلون من أعداء المسلمين اذا حضروا معهم حربا في مغازيهم ، ودخل كل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم من أهل القرى في هذا الصلح ، فسموا بالرواديف لأنهم تلوهم وليسوا منهم . (٧٠) أى أن حبيب بن مسلمة وضع الجزية عن الجراجمة مقابل استعانة المسلمين بهم ، وقد اتبع قادة العرب ذلك في عهود هم المختلفة ، نجد ذلك في معاهدة جرجان ، ومعاهدة عبد الله بن عامر مع عظيم هراة وبوشنج وباذغيس (٧١) وفي معاهدة عتبة بن فرقد مع أهل اذربيجان ، ومعاهدة سراقة بن عمر مع شهر براز وأهل أرمينية (٧٢) اذ نجد تكرارا لهذه العبارة ، "ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضا عن جزائه" ، ومن الغريب أن الأمويين بالرغم من موقف الجراجمة المتقلب " اذ أنهم كانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى " فانهم لم يفرضوا عليهم الجزيـــة ، وعند ما طلب الوليد بن عبد الملك

---

(٦٧) : يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٦٦ ، فقره ٢٠٩ .

(٦٨) : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، فقره ٢١٠ .

(٦٩) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٨٧ .

(٧٠) : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٧١) : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، ص ١٦٧ ، ص ٣٦١ .

(٧٢) : المرجع السابق ، ص ٣٦٣ ، ٣٧٤ .

../..

من قائده مسلمة بن عبد الملك سنة ٨٩ هـ أن يخرب مدينتهم الجرجومة سمح لهم أن ينزلوا حيث أحبوا من الشام وأن يجرى على كل امرى منهم ثمانية دنانير، وعلى عيالاتهم القوت من القمح والزيت، وأن لا يؤخذ من أولادهم الجزية، على أن يغزوا مع المسلمين، فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة وعلى أن يؤخذ من تجارتهم وأموال موسريهم مايؤخذ من مال.(٧٣)

<u>الملكية العقارية وضريبة الأرض او الخراج :</u>

يتضح من الروايات المتعلقة بمعاهدات الصلح في الشام ذلك التمييز الواضح بين الجزية والخراج ، فنجد عمرو بن العاص يعطي الامان في خلافة ابي بكر لغزة ثم سبسطية ثم نابلس على " أن يؤدوا الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم " ،(٧٤) وأن أهل ايلياء طلبوا الصلح على مثل ماصولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج ، (٧٥) وسأل أهل فحل الامان على اداء الجزية على رؤوسهم والخراج عن أرضهم ، (٧٦) وصالح أبو عبيدة أهل حماة على الجزية على رؤوسهم والخراج عن أرضهم ، (٧٧) وكذلك فعل أهل معرة حمص وافاميه ، (٧٨) كما نلاحظ التركيز دوما على أن المدن صولحت بالرغم من مقاومتها في بادئ الأمر وأن الأرض أخذت عنوة ، ففي رواية الهيثم بن عدى أن شرحبيل بن حسنه فتح مدن الاردن وحصونها على صلح طبرية فتحا يسيرا بغير قتال وأنه غلب على سواد الاردن وجميع أرضها ، (٧٩) وأن المسلمين افتتحوا جميع أرض كورة حوران وغلبوا عليها .(٨٠) وأن جميع أرض البثنية أرض خراج ، (٨١) وأن يزيد غلب على أرض البلقاء ، (٨٢) وعندما

---

(٧٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٧٤) : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٧٥) : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٧٦) : المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(٧٧) : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٧٨) : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٧٩) : المصدر السابق ، ص ١٢٣ ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٤٧ .

(٨٠) : المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(٨١) : المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(٨٢) : المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

.../...

صالح عياض بن غنم بطريق أهل مدينة الرها وآمنهم ، ووضح له بأن الأرض للعرب " الأرض لنا قد وطئناها واحرزناها " (٨٣) وفتح عياض الرقة ، وحران ، والرها ، ونصيبين ، وميافارقين ، وقرى الفرات وبدا انها صلحاً وأرضها عنوة . (٨٤)

ويبدو أن المسألة في مدلول صلح و عنوة لدى الفقهاء هي تعبير عن الطريقة التي كانت تؤخذ فيها الضرائب ابتداءاً ، فان كانت جزية رأس فقط فهي صلح ، وان كانت خراجا فهي عنوة ، وهذا ما حصل أثناء الفتح وقبل بداية التنظيم الضريبي سنة ٢٠ ، ٢١هـ ، فقد عقدت عهود صلح مع المدن أخذت منهم فيها الجزية ، بينما لم يحدث ذلك في الريف حيث وضعت عليهم الجزية الى جانب الارزاق من الارض ابتداءاً ، ثم مسحت الاراضي بعد استقرار الاوضاع ، ووضع الخراج عليها ، وعلى هذا فقد قال الفقهاء ، ان مدن الشام والجزيرة والحيرة وبانقيا وأليس صلحا وباقي الأرض أي الريف عنوة . (٨٥)

والأرض التي تفتح عنوة تكون في حكم الغنيمة وتقسم بين الفاتحين طبقا للآية الكريمة " واعلموا ان غنمتم من شيء ، فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ،" (٨٦) أما الباقي فيقسم بين الجند من أهل الديوان وغيرهم . (٨٧) وحسب رواية هشام بن عمار ، أن عمر لما قدم الجابية أراد قسمة الأرض بين المسلمين لأنها فتحت عنوة ، فقال معاذ بن جبل " والله لئن قسمتها ليكونن ما تكره ، ويصير الشيء الكثير في أيدي القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون الاسلام

---

(٨٣) : البلاذري ، ص ١٧٧ .

(٨٤) : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٨٥) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٨٢ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٤٠٠ .

(٨٦) : سورة الانفال ، آية ٤١ ، أبو يوسف ص ٢٨ .

(٨٧) : أبو يوسف ، ص ٢١ ، يحيى بن آدم ، ص ٣ ، ابن تيمية ، ص ٣٠ .

../..

سدا فلا يجدون شيئا ، فانظر أمرا يسع أولهم وآخرهم ، فصار الى قول معاذ " (٨٨) ونجد روايتين حول موضوع أرض الشام الاولى تشير الى أن بلالا وأصحابه سألوا عمر بن الخطاب قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وأن يقسم الأرض بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر ، وأن عمر أبى ذلك وتلا هذه الآيات " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم " (٨٩) وأن أبا عبيدة كتب بعد فتح الشام الى عمر ينبئه أن المسلمين سألوه أن يقسم بينهم المدن وأهلها والأرض وما فيها من شجر وزرع وأنه أبى ذلك عليهم حتى يبعث اليه عمر برأيه ، (٩٠) وكان من رأى عمر أنه " اذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما تسد به الثغور وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ " (٩١) واستشار عمر المهاجرين الاولين فاختلفوا ثم أرسل الى عشرة من الانصار خمسة من الاوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم ، وشرح لهم الموقف وفائدة ترك الأرض لأصحابها مقابل وضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم فتكون فيئا للمسلمين " المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم ".(٩٢)

رأينا أن كل الروايات المتعلقة بالفتح تشير الى الارزاق الى جانب الجزية ولا توجد اشارات واضحة الى مافرض في الخراج ، وربما كانت هذه الارزاق تشكل الضريبة على الأرض في هذه الفترة المبكرة ، كما أن الروايات المتعلقة بما فرض من خراج بعد ذلك غير متوفره ، ولكن استنادا الى الرواية التي يوردها أبو يوسف

---

(٨٨) : البلاذرى ، ص ١٥٦ .

(٨٩) : ابو يوسف ، ص ٢٩ ، البلاذرى ، فتوح ص ١٦٥ ، ابن الجوزى ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ١١٢ .

(٩٠) : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، ص ٣٧٦ .

(٩١) : ابو يوسف ، ص ٣٠ .

(٩٢) : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

والتي تتعلق بالتعديل الذى حدث في عهد عبد الملك ، (٩٣) نستنتج أن الاجراءات التي تمت في الشام قد تكون شبيهة بتلك التي تمت في سواد العراق ، من مسح للاراضي واختلاف فيما فرض على الأرض باختلاف نوع الحاصل ، وطريقة الري ، والبعد والقرب من الأسواق ، وأن هذه الامور لم تتم مرة واحدة وانما تدريجيا ، وتشير رواية تيوفانس ، (٩٤) بأنه في السنة الثلاثين من حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) عمد عمر الى اجراء احصاء للرجال والأراضي والحيوانات والاشجار والنخيل ، والسنة الثلاثين من حكم هرقل هي سنة ٦٤٠ م / ٢٠ هـ وهي السنة التي تم فيها السيطرة على الشام والجزيرة ، وانحسر فيها الخطر الفارسي عن العراق تقريبا فأصبح بالامكان تنظيم النواحي الادارية والمالية ، لاسيما وأن مايذكره تيوفانس يتفق مع مايذكره الطبرى ، وخليفة بن خياط من أن الخليفة عمر بن الخطاب بعث ابن حنيفة سنة ٢١ هـ لمساحة السواد مع عمار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود ، فربما بدئ بمسح بلاد الشام والجزيرة أولا ، وبعد أن زال الخطر الفارسي المباشر اثر معركة نهاوند سنة ٢١ هـ عمد الى مسح العراق ، (٩٥) ولذلك فان نظرة سريعة الى ما اتبع في العراق قد تلقي ضوءا على ماطبق في الشام .

نلاحظ أن ابتداء الخراج في العراق كان درهما وقفيزا من القمح والشعير على كل جريب عامر او غامر دون النظر الى مايزرع فيه من المحاصيل الأخرى . (٩٦) ومن المتوقع أن ضريبة القفيز والدرهم لا تجد قبولا عند بعض الفلاحين ، ذلك أن بعض الأراضي تزرع فيها الأشجار المثمرة وبعض المحاصيل التي لها ميزة على غيرها فالذى يزرع القمح في أرضه يدفع كالذى يزرع الأشجار المثمرة ذات الوارد الاكبر . فكان لا بد من فرض خراج حسب

---

(٩٣) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٤٩ .

(٩٤) : Dennette. Op. Cit., p. 61. Theophanes, p. 552.

(٩٥) : خليفة ، ج ١ ص ١٤٦ ، الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٤٤ .

(٩٦) : أبو يوسف ، ص ٤٠ ، ٥٠ ، ابو عبيد الاموال ، ص ٥٨ ، البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٦٩ ، الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ١٧٥ ، ابن قيم الجوزية ، احكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص ١٨ ، ابن الجوزى ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٦٦ .

٠٠/٠٠

نوع المحصول ، ويوضح ذلك قول محمد بن عبد الله الثقفي (ت سنة ١١٦هـ) "كتب المغيرة بن شعبة وهو على السواد ، ان قبلنا أصنافا من الغلة لها مزيد على الحنطة والشعير ، فذكر الماش والكروم والرطبة والسماسم ، قال فوضع عليها ثمانية ،ثمانية والغى النخل . (٩٧)

ويورد البلاذري مجموعة من الروايات كلها تنسب الى عهد عمر بن الخطاب ،تشير الى فرض الخراج على كل جريب حسب نوع المحاصيل ، (٩٨) كما أن الروايات المتعلقة بالخراج عند أبي يوسف وأبي عبيد تشير الى اختلاف في مقادير الخراج على الجريب الواحد من المحصول نفسه ،وقد يعود ذلك الى اختلاف خصوبة الارض من مكان لآخر ، وبعد المناطق عن الاسواق وقربها منها ،ويوضح ذلك رواية يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح ،قال : " قلت للحسن ما هذه الطسوق المختلفة ؟ فقال : كل قد وضع حالا بعد حال على قدر قرب الارضين والفرض من الاسواق وبعدها ." (٩٩) ولذلك فان عبد الملك عندما أراد أن يعاد تقدير الخراج أعاده على الغلات الرئيسية الثلاث في منطقة الشام والجزيرة وهي الحنطة والكروم والزيتون ،فجعل على كل مائة جريب مما قرب دينارا وعلى كل مائتي جريب مما بعد دينارا وعلى الزيتون ، على كل مائة شجرة مما قرب دينارا وعلى كل مائتي شجرة مما بعد دينارا ، وكانت غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك ، وما دون اليوم فهو من القرب . (١٠٠) ومن الواضح أن هذه الفريضة ليست هي الخراج لأنها متواضعة بل هي اضافة نقدية محددة ،ويؤيد ذلك عبارة أبي يوسف ،وحملت الشام مثل ذلك وحملت الموصل مثل ذلك . (١٠١)

أما فيما يتعلق بالوقت المحدد لاجتباء الخراج من أهل الريف فليس لدينا سوى

---

(٩٧) : البلاذري ،فتوح ،ص ٢٦٩ .

(٩٨) : المصدر السابق ،ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٩٩) : المصدر السابق ،ص ٢٧١ . يذكر الماوردي أن عمر بن الخطاب راعى في كل أرض ما تحتمله في الشام - الأحكام السلطانية ، ص ١٤٨ .

(١٠٠) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٩ .

(١٠١) : المصدر السابق ،ص ٤٩ .

٢٠٠/٠٠٠

روايتان تعودان الى عهد الفتح ، ترد الاولى عند الطبري في الحديث عن صلح ايليـــاء " أن لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم". (١٠٢) والثانية يوردها أبو عبيد في كتابه الاموال عن أبي مسهر بن سعيد بن عبد العزيز عندما سأل عمر بن الخطاب عامله سعيد بن عامر بن حذيم (والي حمص سنة ٢٠ هـ) من سبب تباطوءه في ارسال الخراج ، فبيّن لـه أنه انما يؤخرهم الى غلاتهم ، فقال عمر : لاعزلتك ماحييت ، قال أبو مسهر : ليس لأهـل الشام حديث في الخراج غير هذا ، ويعلق ابو عبيد :" وانما وجه التأخير الى الغلة ، الرفق بهم ، ولم نسمع في استيفاء الخراج والجزية وقتا من الزمان يجتبى غير هذا". (١٠٣) ولم يتبع عمرو بن العاص هذا النظام مثلا في مصر ، اذ أننا نجده في كتاب الصلح الذى كتبه لأهل مصـر يبين أن عليهم ماعليهم أثلاثا في كل ثلث جباية ثلث ماعليهم ، (١٠٤) وهو في هذا متأثـر كما يبدو بالنظام الساساني حيث كان الخراج يجبى في ثلاثة أنجم. (١٠٥)

وكما كان أهل الذمة يعفون من الجزية أحيانا مقابل مساعدتهم المسلمين كـذلك نلاحظ أن أبا عبيدة أطعم أهل السامرة أرضهم عندما صالحهم بالاردن وفلســطين ، على أن يكونوا عيونا وادلاء لهم ، وفرض عليهم الجزية فقط ، واستمر هذا الوضع حتى خلافـة يزيد بن معاوية الذى وضع الخراج على أرضهم ، (١٠٦) أما أرض بني تغلب فقد وضـع عليها العشر مضاعفا (١٠٧) ولذلك قال بعض الفقهاء ان اشتراها مسلم فعليها العشـر مضاعفا بينما قال حسن بن صالح " من اسلم من بني تغلب فأرضه أرض عشر لأن الذى علـى أرضه ليس خراجا وليس عليهم الجزية". (١٠٨)

أما أرض الخراج في الشام فمن أسلم رفعت الجزية عن رأسه ، وصار ماكان بيـده

---

(١٠٢) : الطبري ، ج ٣ ص ٦٠٩.

(١٠٣) : ابو عبيد ، الأموال ، ص ٤٢ ، ٤٣.

(١٠٤) : الطبري ، ج ١ ، ص ١٠٩.

(١٠٥) : الدينوري ، ص ٧١.

(١٠٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٣.

(١٠٧) : يحيى بن آدم ، ص ١٢.

(١٠٨) : المصدر السابق ، ص ١٢.

../..

من الأرض بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ماكان يؤدى من خراجهـا ، ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، (١٠٩) وصار من المسلمين له مالهم وعليه ماعليهم ،ولا يرون أنـه وان أسلم أولى بما كان في يديه من أرضه من أصحابه من أهل بيته وقرابته ، لا يجعلونهـا صافية للمسلمين ،فسمّوا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين ، ويرون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شراء مافي أيديهم من الأرضين كرها . . . وكرهوا المسلمون شـــراءها طوعا لما كان من ايقـاف عمر وأصحابه الأرضيين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين .(١١٠)

ونفهم من نص يورده ابن عساكر أن القريـة كانت مسؤولة عن دفع مبلغ الخـــراج متضامنة فاذا أسلم الذمي اسقطت الجزية عن رأسه وبقيت الأرض لأهل القرية يقومون بزراعتها ويدفع الخراج عنها .(١١١)

وقد استقر خراج الشام في عهد معاوية كما يذكر اليعقوبي على :(١١٢)

٤٥٠	ألف دينار	خراج فلسـطين
١٨٠	ألف دينار	خراج الاردن
٤٥٠	ألف دينار	خراج دمشـق
٣٥٠	ألف دينار	خراج حمـص
٤٥٠	ألف دينار	خراج قنسرين والعواصم
٥٥	ألف ألف درهم	خراج الجزيرة وديار مضر وربيعة ،وكانت الجزيرة تابعة

لوالي قنسرين كما رأينا حتى افردها عبد الملك ،وتشير رواية ابن العديم أن معاوية عندمـا مصر قنسرين وأفردها من حمص وظف عليها الخراج أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار.(١١٣)

فاذا قارنا بين ما استقر عليه الخراج في خلافة معاوية مع ما اســتقر عليه في خلافـــة

---

(١٠٩) : ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،المجلدة الاولى ،ص ٥٩٣.

(١١٠) : المصدر السابق ،ص ٥٩٣.

(١١١) : المصدر السابق ،ص ٥٩٦.

(١١٢) : اليعقوبي ،تاريخ ،ج ٢ ،ص ٢٣٣.

(١١٣) : ابن العديم ،زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ص ٤١.

../..

عبد الملك نلاحظ انخفاضا قد يعود الى دخول بعض أهل الذمة في الاسلام من ناحية وتحول بعض الاراضي الخراجية الى أراض عشرية ، كما سيتبين لنا في صدد الحديث عن الاقطاعات في العهد الاموى ،وقد استقر خراج الشام في عهد عبد الملك كما نص عليه البلاذرى :(١١٤)

٣٥٠	ألف دينار	خراج فلسطين
١٨٠	ألف دينار	خراج الاردن
٤٠٠	ألف دينار	خراج دمشق
٨٠٠	ألف دينار	خراج حمص مع قنسرين .

أما قبرص فان معاوية صالحهم بعد غزوته الثانية على سبعة آلاف دينار ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم الف دينار ، فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم ، ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردّها ،فاستمر الأمر على ذلك حتى خلافة أبي جعفر المنصور الذى ردّهم الى صلح معاوية . (١١٥)

بالاضافة الى أراضي الخراج ،وجدت في الشام والجزيرة أراض كان يدفع عنهـا أصحابها العشر، وهي ماأسلمت عليه العرب أو عمرته من الموات، (١١٦) الذى ليس لأحد ورفضه النصارى فمات وغلب عليه الدغل فأقطعه العرب .(١١٧) كما أن كل أرض اسلم عليها أهلها وهي من أرض العرب أو أرض العجم فهي لهم وهي أرض عشر ،وكل أرض قسمت بين الذين غنموها فهي أرض عشر .(١١٨) وعن مكحول أن كل عشرى بالشام ،هو ممن جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه ،وكان مواتا لا حق فيه لأحد فأحيوه باذن الولاة . (١١٩)

---

(١١٤) : د . محمد ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ،ص ٢٧٥ .

(١١٥) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٥٩ .

(١١٦) : اذا لم يكن في الارض أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئا لأهل القرية ، ولا مسرحا ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم ،وليست بملك أحد ، ولا في يد أحد فهي موات (ابو يوسف ،ص ٧٥ - ٧٦) .

(١١٧) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٥٤ .

(١١٨) : ابو يوسف ،الخراج ،ص ٨٢ .

(١١٩) : ياقوت الحموى ،معجم البلدان ،ج ١ ص ٣٢٨ .

../..

الصوافي :

تذكر الروايات عموما أن الأراضي التي كانت تابعة لقيصر وآله ولرجال الدين أو الاشراف ضمها عمر الى بيت مال المسلمين وعرفت بالصوافي ، لأنه استصفاها أي جعلها خالصة للمسلمين وسميت أيضا بالقطائع لأنها اقتطعت فيما بعد لمن يتعهدونها ، وكان عمر بن الخطاب يقطع هذه لمن أقطع .(١٢٠) ويعتبر أبو يوسف الصوافي بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا في يد وارث فللامام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الاسلام ، ويضع ذلك موضعه ولا يحابي به ،(١٢١) وأن أرض القطائع قد يؤخذ منها العشر أو يؤخذ منها الخراج اذا كانت تشرب من أنهار الخراج ،(١٢٢) وهذا يعود الى رأى الامام ويؤخذ العشر من أصحابها اذا اضطر الى حفر الانهار وبناء البيوت وعمل الأرض لأن في ذلك مشقة عظيمة على صاحب الاقطاع .(١٢٣) ويبدو أن أبا يوسف اعتمد في قوله على ماكان متبعا في العصر الاموى ، اذ أن روايات سيف التي يوردها الطبرى كلها تشير الى أن عمر بن الخطاب قد أوقف الصوافي على الفاتحين فقط ، فرواية سيف الأولى تشير الى " أن سعد بن أبي وقاص ومقاتلته استصفوا ماكان لكسرى ومن لج معهم فيها لمن أفاء الله عليه ، ولا يجاز بيع شيء من ذلك فيما بين الجبل الى الجبل من أرض العرب الا من أهله الذين أفاء الله عليهم ، ولم يجيزوا بيع ذلك فيما بين الناس .. يعني فيمن لم يفئه الله تعالى عليه ، فأقره المسلمون لم يقتسموه ، لأن قسمته لم تتأت لهم ، فمن ذلك الآجام ، ومغيض المياه وما كان لبيوت النار ولسكك البرد ، وماكان لكسرى وأتباعه ، وماكان لمن قتل والارحاء ، فكان بعض من يرق يسأل الولاة قسم ذلك ، فيمنعهم من ذلك الجمهور ، أبوا ذلك ، فانتهوا الى رأيهم ولم يجيبوا ".(١٢٤) أما رواية سيف الثانية عن طلحة عن ماهان ،

---

(١٢٠) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٦٨- ٦٩ ، يحيى بن آدم ، ص ٢٥ ، البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥٠ (عسقلان) .

(١٢١) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٦٩ .

(١٢٢) : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٢٣) : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٢٤) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٣١ .

../..

قال : كتبوا الى عمر في الصوافي فكتب اليهم ، " ان اعمدوا الى الصوافي التي اصفاكموها الله ، فوزعوها على من افاءها الله عليه ، أربعة أخماس للجند وخمس في مواضعه الي ، وان أحبوا أن ينزلوها فهو الذى لهم " فلما جعل ذلك اليهم رأوا أن لا يفترقوا في بلاد العجم ، وأقروها حبيسا لهم يولونها من تراضوا عليه ثم يقتسمونها كل عام ، ولا يولونها الا من أجمعوا عليه بالرضا ، وكانوا لا يجمعون الا على الامراء ، كانوا بذلك في المدائن والكوفة حين تحولوا الى الكوفة ، (١٢٥) ورواية سيف الثالثة تذكر أن عمر كتب الى المقاتلة ان يجتازوا فيئهم فانهم ان لم يفعلوا فتقادم العهد يلجج ، وأنه قد قضى الذى عليه ، (١٢٦) فاذا أتينا الى رواية سيف الرابعة فانه يشير الى أن الفيء الذى يتداعاه أهل الأمصار فهو ما كان للملوك نحو كسرى وقيصر ومن تابعهم من أهل البلاد فأجلى عنه فأتاهم شيء عرفوه . (١٢٧)

نستنتج من روايات سيف هذه أن الصوافي تركت للفاتحين ، وأن عمر سمح لهم بتوزيعها على من أفاءه الله عليه أربعة أخماس للجند وخمس للدولة ، وأن ما ذكر في العراق ينطبق على الشام ، وأن الصوافي كانت متفرقة في مناطق عدة في العراق ، لذلك اتفق رأى المقاتلة على عدم اقتسامها ، وترك ادارتها للامراء لفائدتهم ، وعدم بيع هذه الأراضي . وبالرغم من أنه ليست بين أيدينا روايات أخرى تؤكد ما ذكره سيف أو تنفيه ، الا أن التطورات التي حدثت في الكوفة قد تدل على أن تقرير سيف صحيح من حيث الأساس ، اذ أن أول انفجار في الكوفة كان ضد أميرها سعيد بن العاص (٣٠ — ٣٤هـ) بسبب اشارة في مجلسه فهمها الاشراف بأنها تنطوي على نية الحكومة في الاستحواذ على الصوافي . (١٢٨) وقد منح عثمان بعض الاقطاعات من الصوافي ، بل انه في الواقع سمح للبعض أن يبادلوا حصتهم فيها بأراض في الجزيرة العربية ، (١٢٩) ويبدو أن ضم الصوافي الى بيت المال حصل أخيرا

---

(١٢٥) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(١٢٦) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٢ .

(١٢٧) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٨٠ .

(١٢٨) : الطبرى ، ج ٤ ص ٣١٨ ، ٣٢٣ ، البلاذرى ، انساب ، ج ٥ ص ٤٠ .

(١٢٩) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٨٠ .

٠٠/٠٠

زمن معاوية بن أبي سفيان ،(١٣٠) اذ يذكر اليعقوبي ،بأن معاوية استصفى ماكان للملوك من الضياع بالشام والجزيرة والعراق وصيرها خالصة لنفسه وأقطعها أهل بيته وأتباعه وخاصته ،(١٣١) وبذلك لم تعد أرض الصوافي في العراق تابعة للفاتحين وانما أصبحت تحت تصرف الخلافة في دمشق ،وصار واردها كل سنة يحمل الى دمشق ،(١٣٢) وبلغت غلة الصوافي زمن معاوية ٥٠ مليون درهم سنويا وفقا لرواية اليعقوبي الذى يذكر أن معاوية قام باستصفاء أراض جديدة وذلك بالرجوع الى ديوان الفرس ،(١٣٣) وهذا يعني أن عمر بن الخطاب لم يرجع الى هذا الديوان في استخلاص الصوافي ، فكانت الفرصة متاحة للمزارعين والدهاقين بحيازة أراض فيها سواء الذين هرب أصحابها أو التي كانت للفرس ،(١٣٤) فقام معاوية باستخلاص هذه الاراضي بالرجوع الى سجلات الفرس .

لا نعرف رد فعل القبائل على هذا الاجراء ،ولكن ماحدث بعد حوالي أربعين عاما يدل على تمسك الكوفيين بنظرتهم ،ذلك أنهم أحرقوا سجل الاراضي (الديوان) أثناء ثورة ابن الاشعث وادّعى كل قوم ملكية مايليهم .(١٣٥) وقد أمر عمر بن عبد العزيز في خلافته عامله على الكوفة أن يعطي أرض الصوافي لأناس يعمرونها على المزارعة،(١٣٦) ويظهر أن هذا الاجراء وماجرى بعد دبير الجماجم من حيازة الناس لكثير من هذه الاراضي يفسر لنا ماقام به يزيد بن عبد الملك من النظر في الملكيات والاقطاعات في العراق.ففي رواية العباس بن هشام عن أبيه عن بعض آل الأهتم قال : كتب يزيد بن عبد الملك الى عمر بن هبيرة :

---

(١٣٠) : اليعقوبي ،تاريخ ،ج ٢ ،ص ٢٣٤ .

(١٣١) : المصدر السابق ،ج ٢ ،ص ٢٣٣ .

(١٣٢) : الصولي ،أدب الكاتب ،ص ٢١٩ .

(١٣٣) : اليعقوبي ،ج ٢ ،ص ٢١٨ .

(١٣٤) : Lokkegaard, Islamic Taxation in the Classic Period , Copenhagen, 1950, p. 111 .

(١٣٥) : البلاذرى ،فتوح ،ص ٢٧٢ ،الماوردى ،الاحكام السلطانية ، ص ١٨٥ ، أبو يوسف ،ص ٦٨ .

(١٣٦) : يحيى بن آدم ،ص ٥٩ ،ابن رجب ،الاستخراج لاحكام الخراج ، تحقيق عبد الله الصديق ، القاهرة ،١٩٣٤م ، ص ١٤ .

../..

انه ليس لأمير المؤمنين خرصة ، فسر على القطائع ، فخذ فضولها لأمير المؤمنين، فجعل عمر يأتي القطيعة فيسأل عنها ،ثم يمسحها ،حتى وقف على أرض ،فقال ،لمن هذه ؟ فقال صاحبها : لي ،فقال : ومن أين هي لك ؟ قال :

ورثناها عن آباء صدق ونورثها اذا متنا بنينا .

قال : ثم ان الناس ضجوا فأمسك. (١٣٧)

أما فيما يتعلق بالشام ، فاننا نلاحظ أن القادة العرب منذ البدء كانوا يسكنون المقاتلة في كل مرنوض جلا أهله أو مساحة متروكة ، (١٣٨) وعندما توجه ابو عبيده نحو بالس (١٣٩) وقاصرين وكانتا لأخوين من أشراف الروم أقطعا القرى التي بالقرب منهما وجعلا حافظين لما بينهما من مدن الروم بالشام - جلا اكثرهم الى بلاد الروم وأرض الجزيرة - فعمد أبو عبيدة الى ترتيب المقاتلة فيها كما أسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام ، فأسلموا بعد قدوم المسلمين ،وتضيف الرواية الى أن بالس والقرى المنسوبة اليها في حدها الاعلى والاوسط والاسفل عشرية ، (١٤٠) كما أنهم أقطعوا المقاتلة الاقطاعات في منطقة الساحل لتشجيعهم على البقاء فيه ، وقد حدث ذلك في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان عندما هاجم الروم الساحل وغلبوا على بعض مناطقه ،فأخرجهم معاوية وشحن المناطق المعرّضة للخطر بالمقاتلة وأعطاهم القطائع (١٤١) وقد فعل معاوية ذلك أيضا بانطرطوس التي مصّرها فأقطع بها القطائع وبمرقية وبلنياس ، (١٤٢) وكانت انطاكية عظيمة الذكر عند عمر وعثمان ولكن عثمان هو الذى أمر معاوية أن يلزمها قوما وأن يقطعهم القطائع ، (١٤٣) أى أننا نلاحظ كثرة القطائع التي وزعت على المسلمين في فترة خلافة عمر وخاصة في خلافة

---

(١٣٧) : البلاذرى ،فتوح ،ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(١٣٨) : المصدر السابق ،ص ١٣٧ .

(١٣٩) : بالس بلدة بالشام بين الرقة وحلب ،وكانت بويلس وقاصرين وعابدين وصفين قرى منسوبة اليها ، (معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨).

(١٤٠) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٥٥ .

(١٤١) : المصدر السابق ،ص ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١٤٢) : المصدر السابق ،ص ١٣٩ .

(١٤٣) : المصدر السابق ،ص ١٥٣ .

../..

عثمان بن عفان (١٤٤) ومن المؤكد أن هذه الاراضي التي اقطعت لم تكن من أرض الخراج ، وانما هي من الاراضي التي جلا عنها أهلها من الروم (والاشارات في هذا الصدد كثيرة في الساحل خاصة) أو بلفظ آخر من الصوافي ، ولذلك فانه يمكننا أن نعتبر الرواية التي يوردها ابن عساكر عن الصوافي في الشام متعلقة بأراضي الصوافي التي كانت للدولة بحكم الخمس الذى يؤول اليها لا سيما وأننا سنرى وفقا لهذه الرواية أن أراضي الصوافي في الشام كانت محدودة .

يذكر ابن عساكر أن القطائع في الشام كانت في البدء من أرض الصوافي ، وأن الصوافي هي الاراضي التي كانت لبطارقة الروم واشرافهم عندما كانوا مسيطرين على الشام ، فلما هزم الروم وهرب البطارقة والاشراف أو قتلوا ، أصبحت هذه المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها[145] والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته ، كما أن الأموال التي تصل بيت مال المسلمين من الصوافي كانت تخرج نفقه مع مايخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية في

---

(١٤٤) : البلاذرى ، ص ١٥٠ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ .

(١٤٥) : نلاحظ أن ابن عساكر يستعمل في نصه لفظ التقبل ، والتقبل هو أن يجعل شخص قبيلا والقبيل هو الكفيل ، والعريف الضامن ، أى أن يقوم شخص بتحصيل المال وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه ، وهو ماعرف فيما بعد باسم نظام الالتزام ، فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفرق بين مايدفعه ومايحصله (الفيروزبادى ، القاموس المحيط ، الطبعة الثانية ١٩٥٣ . مادة (قبل) الخضرى ، محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ، ١٣٤٨ هـ ص ٦٩٩) وكلمة التقبل لا ترد الا بشكل نادر عند التكلم عن العصر الاموى وربما استخدم ابن عساكر لفظا كان شائعا في عصره ، فقد وردت اشارة له في عهد هشام عندما تقبل فروخ بن المثنى من ضياع هشام بن عبد الملك بموضع يقال له رستاق الرمان أو نهر الرمان ، ثم زاد عليه حسان النبطي ألف ألف درهم فسلمت اليه ، ويبدو أن هذا النظام سيأخذ في الانتشار في العصر العباسي لأن أبا يوسف ينصح الخليفة هارون الرشيد أن لا يقبل شيئا من السواد وغيره ، لأن المتقبل لا يبالي بهلاك أهل الخراج بصلاح أمره في قبالته (الطبرى ج ٧ ص ١٤٢ ، أبو يوسف الخراج ، ص ١٢٥ ، ١٢٦) .

../..

في امرته على الشام الى عثمان ،أن الذى اجراه عليه من الرزق في عمله لا يكفيه لاستقبال من يفد عليه من وفود الاجناد ،ورسل امرائهم ،ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ، ووصف له هذه المزارع الصافية وسمّاها له ، يسأله أن يقطعه اياها ليستطيع القيام بواجباته تجاه تلك الوفود ،وأكد معاوية لعثمان أنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، فكتب اليه عثمان بذلك كتابا ، ويضيف ابن عساكر بأن هذه الأراضي بقيت بيد معاوية حتى قتل عثمان ، فلما أصبح معاوية خليفة أقرها على حالها ثم جعلها من بعده حبيسة على فقراء أهل بيته والمسلمين ،وأقطع معاوية أناسا من قريش وأشراف العرب قطائع من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان أقطعه اياها ،فلما أفضى الأمر الى عبدالملك بن مروان منع القطائع من تلك المزارع التي بقيت والتي لم يكن معاوية قد أقطع منها أحدا شيئا ، ولكن يبدو أن أرض الصوافي هذه كانت محدودة ، ذلك أن رواية ابن عساكر تشير الى أن عبدالملك سئل القطائع فوجد أنه لم يبق شيء من أرض الصوافي يمكن منحه كقطائع ، فنظر الى أرض من أراضي الخراج وقد باد أهلها ، ولم يتركوا عقبا فاقطعهم منها ،ورفع ماكان عليها من خراجها من أهل الخراج ، ولم يعطه أحدا من أهل القرى ،وجعلها عشرا ، أى ان عبدالملك منع القطائع من أرض الخراج التي باد أهلها ،ولكنه رفض أن يمنح القطائع من أرض القرى التي بأيدي أهل الذمة ،وطبق ذلك كل من الوليد وسليمان ،ولكنهما أذنا للناس في شراء الارض منهم مقابل ادخال أثمانها بيت المال ، واعانة أهل الخراج على دفع خراج سنتهم اذا لم تكن لديهم القدرة على دفعه وثبّت ذلك في الدواوين ، واسقط الخراج عن تلك الاراضي وعن أهل قراهم وأصبحت هذه الاراضي تدفع العشر ، ولذلك فانه عندما أصبح عمر بن عبدالعزيز خليفة ،لم يتعرض لهذه الاقطاعات والاشتريات فلم يردها الى ماكانت عليه صافية ،ولم يجعلها خراجا ،وأمضاها لأهلها تؤدى العشر لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء . وقضاء الديون ، ثم كتب بذلك كتابا قرىء على الناس سنة مائة ،وأعلمهم أنه لا خراج عليها وأنها أرض عشر ،

../..

وكتب أنه من اشترى شيئا بعد سنة مائة فان بيعه مردود وسمى سنة مائة المدة ، فسماها المسلمون بعده المدة ،(١٤٦) ولذلك فانه عندما كتب اسحق بن مسلم وكان عاملا لعمر بن عبد العزيز على خراج الاردن بأنه وجد أرضا من أرض أهل الذمة بأيدى ناس من المسلمين ، طلب منه عمر بن عبد العزيز أن يوقف ذلك البيع ،(١٤٧) وطبق يزيد بن عبد الملك هذا القانون ، كما طبقه هشام بن بعده ، بل ان هشام حسب رواية أبي زرعة كان يعاقب البائع والمشترى وعامل المنطقة ، فعندما بلغه أن خالد بن عبد الله القسرى اشترى أرضا من أرض الغوطة بغير اذنه ،أمر سالما أن يكتب الى كلثوم بن عياض والي دمشق أن يغرم الوليد بن عبد الرحمن عامله على الغوطة أربع مائة دينار ترسل الى هشام لأنه اشتريت أرض بغير اذنه ، وكتب الى كلثوم أن يضرب وكيلي القسرى مائة مائة ويطيف بهما ويأمر من ينادى عليهما ،هذا جزاء من اشترى أرضا بغير اذن أمير المؤمنين ،ويوضح ابن عساكر أن هشاما انما فعل ذلك لأنه وجد فيما وضع عمر بن عبد العزيز حين استخلف أنه سأل اذا كان الولاة قبله قد نهوا عن شراء الارض من أهل الذمة ، فلما قيل له بأنهم لم ينهوا ، قال : " فاني قد سلمت لمن اشترى ،ولكن من اليوم أنهى عن بيعها ،انها أرض المسلمين دفعت الى أهل الذمة على أن يأكلوا منها ويؤدوا خراجها ، وليس لهم بيعها ، وأن من يشترى بعد ذلك يعاقب البائع والمشترى ، وترد الأرض الى النبطي ،ويؤخذ الثمن من المسلم فيجعل في بيت المال ،" أى يدخل المال الذى أخذه النبطي بيت مال المسلمين.(١٤٨) ونتيجة لتطبيق هذا القانون في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابني عبد الملك توقف الناس عن شراء هذه الاراضي ،ولكن يبدو أن الوضع اختلف بعد اضطراب الوضع في المنطقة ، فعاد

---

(١٤٦) : ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،المجلدة الاولى ،ص ٥٩٦.

(١٤٧) : المصدر السابق ،ص ٥٨٧.

(١٤٨) : المصدر السابق ،ص ٥٨٧.

../..

العرب المسلمون الى شرائها ، ودفع العشر عنها ، فلما أصبح أبو جعفر عبد الله بن محمد خليفة رفعت اليه تلك الاشرية وأنها تؤدي العشر ولا خراج عليها ، وأن ذلك أخرّ بالخراج وكسره ، فأراد ردّها الى أهلها ، فقيل له أنها قد وقعت في المواريث والمهور واختلط أمرها ، فبعث المعدّلين الى كور الشام سنة أربعين أو احدى وأربعين ومائة ، وأمرهم أن لا يضعوا على شيء من القطائع القديمة ولا الاشرية خراجا وأن يمضوها لأهلها عشرية ويضعوا الخراج على مابقي منها بأيدي الانباط وعلى الأشرية المحدثة بعد سنة مائة ، بمعنى أن أبا جعفر المنصور ، طبق نظام عمر بن عبد العزيز ، ولكن الأراضي الخراجية وفقا لهذه الرواية قد أصبحت تدفع الخراج سواء بقيت في يد أصحابها أو اشتراها المسلمون.(١٤٩)

<u>الضرائب الاضافية :</u>

بالاضافة الى الجزية والخراج ، فرض على التجار العشور وهي أشبه بما نسميه اليوم بالضرائب الجمركية ، وكان عمر بن الخطاب أول من عشر من أهل الحرب عندما كتب قوم من أهل الحرب الى عمر طالبين منه أن يسمح لهم بدخول أرض المسلمين كتجار مقابل أن يدفعوا العشر ، فشاور عمر أصحاب رسول الله (صلعم) في ذلك فأشاروا اليه أن يفعل.(١٥٠) أما فيما يتعلق بالتجار المسلمين والمعاهدين فان يحيى بن آدم يورد روايتين ، الاولى تذكر أن عمر بن الخطاب كتب الى أبي موسى الاشعري أن يأخذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين فمن كل أربعين درهما درهم ، ومن تجار أهل الخراج نصف العشر ومن أهل الحرب العشر ، وهذه الرواية تتفق مع مايذكره ابو يوسف ،(١٥١) أما الرواية الثانية فهي عن عبد الله بن مغفل عن زياد بن جرير قال : ماكنا نعشر مسلما ولا معاهدا ، وانما كنا نعشر تجار أهل الحرب كما يعشروننا اذا أتيناهم ،(١٥٢) وقد يفسر هذا الاختلاف في الروايتين قول

---

(١٤٩) : ابن عساكر ، ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

(١٥٠) : ابويوسف ، الخراج ، ص ١٦١ ، المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٥٠٨ - ٥٠٩.

(١٥١) : ابو يوسف الخراج ، ص ١٦١ ، يحيى بن آدم ، ص ١٢٦.

(١٥٢) : يحيى بن آدم ، ص ١٢٦.

../..

مالك رحمه الله : والسنة أنه ما أقام الذمة في بلادهم التي صالحوا عليها فليس عليهم فيها الا الجزية ، الا أن يتجروا في بلاد المسلمين ويختلفوا فيها فيؤخذ منهم العشر فيما يديرون من التجارة ، واذا اتجر الذمي في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج منها الى غيرها ، فليس عليه شيء .. مثل أن يتجر الذمي الشامي في جميع الشام أو الذمي المصري في جميع مصر او الذمي العراقي في جميع العراق (١٥٣) ويبدو أن أخذ العشر مرة واحدة من التاجر طبق في عهد الخلفاء الراشدين وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ، أما في العصر الاموي والعصور الاخرى فكان العشر يؤخذ منهم وان اختلفوا في العام الواحد مرارا الى بلاد المسلمين . ويعلق المقريزي بأن أخذ العشر مرة واحدة من التاجر لم يطبق الا في عهد عمر بن عبد العزيز فيقول : وليس العمل عندنا على قول عمر بن عبد العزيز وانما العمل على أن يؤخذ منهم العشر وان خرجوا في السنة مرارا من كل ما اتجروا به قل أو كثر ، (١٥٤) وكان سبيل ما يؤخذ من المسلمين من العشور سبيل الصدقة ، وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل الخراج . (١٥٥)

ونلاحظ في بعض شروط الصلح التي عقدت مع أهل الذمة في الشام والجزيرة أنه فرضت عليهم ضرائب أخرى غير تلك التي ذكرناها ، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجند المسلمين الذين يمرون من هذه الضرائب ، فقد اشترط قادة العرب واجب الضيافة التي كانت أقصى مدة لها ثلاثة أيام ، (١٥٦) وعن أسلم مولى عمر أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام شكى اليه أهل الذمة قائلين : يا أمير المؤمنين انهم يكلفونا ما لا نطيق يكلفونا الدجاج والشاة ، فقال : لا تطعموهم الا مما تأكلون ، مما يحل لهم من طعامكم. (١٥٧) وعن عبد الملك بن عمير أن عمر بن الخطاب اشترط على أنباط الشام للمسلمين أن يصبغوا

---

(١٥٣) : المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٥٠٨ .

(١٥٤) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٠٨ .

(١٥٥) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٦٠ .

(١٥٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣١ ، ١٥٦ ، ١٧٨ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الاولى ، ص ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ .

(١٥٧) : ابن عساكر ، المصدر السابق ، ص ٥٧٣ .

../..

من ثمارهم ونحتهم ولا يحطوا . (١٥٨) وفي تاريخ الرقة للحافظ القشيري عن العلاء بن أبي عائشة عامل عمر بن عبد العزيز على الرها ، أنه جاء في شروط صلح عياض بن غنم لأهل الجزيرة ... "وأن تقروا ضيفهم يوما وليلة ، وعلى أن تحملوا راجلهم من رستاق الى رستاق ، وعلى أن نشاطركم منازلكم ينزلها المسلمون" (١٥٩) كما اتفق مع السكان في البداية أن يتولوا باصلاح الطرق والجسور والقناطر. (١٦٠)

وليس بين أيدينا روايات تشير الى أنواع أخرى من الضرائب فرضت في الشـــام في العصر الأموي ، بينما نستنتج من نصوص وردت في كتاب الخراج لأبي يوسف وكتاب الأموال لابي عبيد وفي تاريخ اليعقوبي أن الامويين لم يكتفوا بالجزية والخراج والعشور من التجارة بل فرضوا أنواعا من الضرائب الاضافية التي جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز فالغاهـــا ، وهذه الضرائب في الواقع تتعلق بالولايات الشرقية ، منها فرض ضرائب موحدة على الاراضي المزروعة وغير المزروعة ، وتحصيل ضرائب اضافية بعضها كان احياء لرسوم تقليدية ساسانية كهدايا النيروز والمهرجان ، (١٦١) واول ذكر لهذه الهدايا في أثناء الفتوح كان في عهد عثمان ، وذلك أنه في سنة ٣٢ هـ صالح الاحنف بن قيس أهل بلخ على أربعمائة الف ، وأناب ابن عمه وهو أسيد بن المتشمس ليأخذ منهم ما صولحوا عليه ، وقد تهيض أسيد ذلك ، ووافـــق وهو بينهم المهرجان ، فأهدوا اليه هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهـــم ومتاع وثياب. (١٦٢) فسألهم أسيد اذا كان ذلك مما صولحوا عليه ، فبينوا له أن هذا شيء يقدمونه في هذا اليوم لمن وليهم ، يستعطفونه به ، فقبضه وعزله ، حتى قدم عليه الأحنف فأخبره ، فسألهم عنه ، فقالوا مثل ما قالوا لابن عمه ، فحمله الى ابن عامر وهو الاميـــر فأخبره ، فقال : اقبضه يا أبا بحر فهو لك ، قال : لا حاجة لي فيه ، فأخذه ابن عامـــر

---

(١٥٨) : ابن عساكر ، ص ٥٧٤.

(١٥٩) : الحافظ القشيري ، تاريخ الرقة ، ص ٦ ، ٧ .

(١٦٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٨.

(١٦١) : يقول الجاحظ في التاج ، ومن حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والعلة في ذلك أنهما فصلا السنه ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز اذن بدخول فصل الحر ، ص ١٤٦.

(١٦٢) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٣١٣.

../..

قال الحسن وهو يقص الحادث ، فضمه القرشي وكان مضما(١٦٣) وفي سنة ٤٣ هـ عزل عبد الله بن عامر قيس بن الهيثم عن خراسان لانه استبطأ قيسا بالخراج ولانه أمسك عنه الهدية ، (١٦٤) ويبدو أن الهدية أصبحت واجبة فيما بعد ذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأمر بابطالها ، (١٦٥) وعمد الولاة كذلك الى تحصيل ثمن الورق المستخدم في الطلبات الرسمية والاجور التي تدفع للعمال المشتغلين في دور ضرب النقود ، واشترط العمال تحصيل الضرائب لعملات ذات وزن معين بدلا من العملات المتوفرة لدى الاهالي والاستيلاء على فروق النقد . وفي ذلك كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله "... وأمرتك أن لا تحمل خرابا على عامر، ولا عامرا على خراب ، ولا تأخذ من الخراب الا مايطيق ولا من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض ، وامرتك ألا تأخذ في الخراج ، الا وزن سبعة ليس لها أس ولا أجور الضرابين ولا اذابة الفضة ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح . (١٦٦)

وكتاب عمر بن عبد العزيز يتعلق بالضرائب الاضافية التي فرضت في الولايات الشرقية ، فهل هناك ذكر لضرائب اضافية في مصر ، لا يتكلم المؤرخون العرب الذين يبحثون في تاريخ مصر عن ضرائب اضافية انما يشيرون الى محاولات الامويين في زيادة نسبة الجزية والخراج ، (١٦٧) الا أن ساويرس في كتابه سير البطاركة يشير مثلا أن قرّة بن شريك قد فرض على البلاد مائة ألف دينار سوى خراجها المعروف، (١٦٨) فاذا كان ماذكره ساويرس صحيحا فان هذا يدل على وجود ضرائب أخرى قد فرضت وان لم يشر اليها .

واذا مادرسنا أوراق البردي المتعلقة بالضرائب بين عامي ٨٠ و ١٠٠ فانها تعطينا قوائم عما كان يدفعه الاشخاص ، وانذارات بدفع الضرائب والطلبات المالية

---

(١٦٣) : الطبري ، ج ٤ ص ٣١٤ .

(١٦٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٠٩ .

(١٦٥) : الصولي ، أدب الكاتب ، ص ٢٢٠ .

(١٦٦) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٣٠ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، اليعقوبي تاريخ ، ج ٢ ص ٣٠٥ .

(١٦٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٨٦ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٥ .

(١٦٨) : ساويرس ، سير الآباء البطاركة ، ج ٥ ص ٦٤ .

../..

التي تقتضيها المصلحة العامة من الأفراد ،كما أن بعض هذه الاوراق تعطي صورة عن الاثمان والاجور التي هي خير دليل على تقدير القيمة الفعلية للنقود .(١٦٩) كما تشير أوراق البردي الى أنه في سنة ٨٠ هـ مثلا دفعت بوصير سبعين دينارا وواحدا وعشرين قيراطا ثم دفعت سنة ٩٢ هـ مبلغ مائة وأربعة دنانير وثلثي دينار ، وفي سنة ٩١ هـ طلب اولو الامر سبعين قميصا ،كل واحد بربع دينار جزية لأمير المؤمنين (١٧١) وكان الوالي يحتاج الى مواد مختلفة " لاعالتنا وللعمال الذين معنا من العرب والنصارى على السواء ولغيرهم".(١٧٢) كما أن الاساطيل كانت بحاجة الى كثير من البحارة الذين يلتزم لهم دافعو الضرائب بأجورهم ،وكذلك الحال ازاء العمال الذين كان لابد من اتخاذهم للعمل في بيت المقدس وفي دمشق ،(١٧٣) أي نلاحظ ازديادا في نسبة الخراج بين سنة ٨٠ هـ - ٩٢ هـ من ناحية وفرض طلبات معينه كانت تتطلبها مصلحة الدولة .

بيوت الاموال في الشام :

ابتداء من خلافة عبد الملك بن مروان نجد ذكرا لبيوت الاموال في دمشق بدلا من كلمة بيت المال ،(١٧٤) مما يشير الى أن عبد الملك ومن جاء بعده من الخلفاء قد جعلوا لكل نوع من المال بيت مال خاص ، فبيت مال للفيء وآخر للصدقات ، وفي الطبقات لابن سعد عن اسحاق بن يحيى أنه قدم على عمر بن عبد العزيز في خلافته ، فوجده قد جعل للفيء بيت مال على حدة ، وللصدقه بيت مال على حدة ،وللخمس بيت مال على حدة.(١٧٥) ونحن نعلم أن الخمس في عهد الرسول كان يوزع وفقا للآية الكريمة " وأعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول

---

(١٦٩): Greek Papyri in the British Museum, Vol. IV 1893.
No. 1433 pp. 282 - 307. No. 1434. pp. 307 - 322.
No. 1420 . pp. 231 - 241. No. 1424. pp. 254 - 256.
Op. Cit. No. 1412, pp. 81 - 103.

(١٧٠): Op. Cit. No. 1362, p. 1

(١٧١): Op. Cit. No. 1375,

(١٧٢): Op. Cit. No. 1413.

(١٧٣):

(١٧٤): خليفة ،ج ١ ص ٣٩٥ ،٤١٩ ،٤٣٢ ،ج ٢ ص ٤٨٧ ،٥٤٥ ،٥٥٥ .

(١٧٥): ابن سعد ،الطبقات ،ج ٥ ص ٢٩٥ .

../..

ولذى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ،(١٧٦) وهناك أمثلة كثيرة من ارســال الخمس الى المدينة في العهد الراشدى والى دمشق في العصر الأموى ،(١٧٧) وقد اختلف الناس بعد وفاة الرسول الكريم في سهم الله ورسوله وذوى القربــى ، اذ كــان الخمس يوزع على خمسة أسهم ،لله وللرسول سهم ، ولذى القربى سهم ،ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ،ثم قسمه أبو بكر و عمر وعثمان و علي رضي الله عنهم على ثلاثــة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى ،وقسم على الثلاثة الباقين.(١٧٨) وقد رأى البعض أن سهم الرسول للخليفة من بعده ،وبعضهم رأى أن سهم ذوى القربى لقرابة الرســـول عليه الســـلام ،بينما قالت طائفة منهم أن سهم ذوى القربى لقرابة الخليفة من بعده ،ثم أجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح.(١٧٩) وورد في الجامع الصحيح للبخارى ،أن قول الله عز وجل ،فان لله خمسه وللرسول ،يعني للرسول قسم ذلك ، قــال رسول الله (صلعم): " انما أنا قاسم وخازن والله يعطي".(١٨٠) ويبدو أن البعض كانوا يرون أن سبيل الخمس سبيل الفيء ، يكون حكمه للامام ان رأى ان يجعله لمن سمى الله جعله ،وان رأى أن الأفضل للمسلمين والأوفر لحظهم أن يضعه في بيت مالهم لنائبة تنوء بهم ومصلحة تعن لهم ، مثل سد ثغر ،واعداد سلاح وخيل وارزاق أهل الفيء من المقاتلين والقضاة ،وغيرهم ممن يجري مجراهم فعل .(١٨١) ويبدو أن الامويين طبقوا هذا المبدأ ،بل أن هناك روايات تشير الى أن الخمس في العصر الاموى كان يسوغ للولاة أحيانا ،(١٨٢) فلما جاء عمر بن عبد العـزيز جعل للخمس بيت مال خــاص ، وجعله لمن سمّى الله ،وعن عطــاء بن السائب أن عمــر بن عبد العزيز بعث سهم الرسول وسهم ذوى القربــى الى بني هاشـم ،(١٨٣) كما أن عمــر

---

(١٧٦) : سورة الانفال ،آية (٤١).

(١٧٧) : ابن الاعثم ، فتوح ،ج ٢ ص ١٢٣ ،ج ٧ ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ،ابن الاثير ج ٥ ص ١٥٩ ، ونلاحظ أن قتيبه في فتوحاته يوجه الخمس الى الحجاج ،ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٧ ص ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧ .

(١٧٨) : أبو يوسف ،الخراج ،ص ٢٣ .

(١٧٩) : المصدر السابق ص ٢٤ ، ٢٥ ،الصولي ،أدب الكاتب ص ٢٠٣ .

(١٨٠) : البخارى ،الجامع الصحيح ،ج ٢ ص ٢٧٨ ،كتاب فرض الخمس .

(١٨١) : ياقوت الحموى ،معجم البلدان ج ١ ص ٤٢ ،ويؤكد ذلك ماورد في صحيح البخارى ،أن هناك أمثله عديده تعود الى عهد الرسول تشير الى أن الرسول (صلعم) كان يستخدم الخمس لنوائب المسلمين ،وأن الخمس للامام ،ج ٢ص ٢٧٣ ، ٢٨٧

(١٨٢) : الطبرى ج ٦ ،ص ٥٤٤ .

(١٨٣) : ابو يوسف الخراج ، ص ٢٥ .

../..

ابن عبد العزيز طالب يزيد بن المهلب بخمس ما أفاء الله عليه عند فتحه جرجـان وطبرستان ، وكان يزيد قد كتب الى سليمان بأن الخمس قد بلغ ستة آلاف ألـف ،(١٨٤) فلما طالبه الخليفة بالمبلغ أخبره أنه فعل ذلك لكي يسمع الناس به ،(١٨٥) فانظر عمر بن عبد العزيز الى سجنه لأنه عجز عن دفع المبلغ الذى هو حق من حقوق المسلمين.(١٨٦) وكـان مايرد بيت المال من خمس افريقيـا ضخما حتى شاع لدى المشارقة أن هذا البلد أغنى بلاد الله طرا (١٨٧) وما ذلك الا لأن القادة العرب نظرا لمقاومة البربر الشديدة وكـثرة انتقاضهم عمدوا الى اعتبار البربر المقاومين لهم غنيمة يأخذ بيت المال منها الخمـس مـن أرض ونعم وأموال ،وبالرغم من أن الاراضي في اسبانيا قسمت قسـمة الغنيمة، فان الوقت لم يسـمح لموسى بن نصيـر أن يأخذ هذا الخمس كلـه ،فبقيت بعض الاراضـي دون تخميس ، وكان في هذا اجحاف بحق بيت المال ، ولذلك أرسل عمر بن عبد العزيـز السمح بن مالك الخولانـي من دمشق كوال للأندلس وكلفه القيـام "باكمال التخميـس وتمييز أرض العنوة من أرض الصلح ليصح التخميس" وكان معه عدد من الجند يبـلغ الخمسمائة حسب قول احدى الروايات، وفي هذه الاوامر المعطاة له مايفسح المجال للاعتقاد بأن عمر يرى أن بعض أراضي الأخماس كانت في أيدى الفاتحيـن ، كمـا أن بعض أراضـي الخراج اختلطت بغيرها ،اى ربما اشتراها الفاتحـون من أصحابها ، فانقلبت من أرض خراجية تدفع نسبة عالية من الضرائب (مثالثة ،او مرابعة) الى أرض عشـريـة ، وقد رأينا أن عمر بن عبد العزيز قد منع هذا العمل في المشرق ، وربما أراد أن يطبقـه على المغرب ،وفي كلا العملين مايعرض مصالح النازلين في الاندلس ،فلجؤوا الى تعلتهـم المعروفـة ، وهي الرغبة في العودة الى المشـرق ، كما أظهروا خوفهم من أن يشـاركهم

---

(١٨٤) : الطبرى ،ج ٦ ،ص ٥٤٤.

(١٨٥) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ٥٥٧.

(١٨٦) : المصدر السابق ،ج ٦ ص ٥٥٧.

(١٨٧) : د. أحمد بدر ،دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ،ص ٤٤.

../..

القادمون الجدد في أراضيهم ، فأقرّهم عمر على ما بأيديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير ، وأمر واليه أن يقر القرى بأيدى أربابها ، وأن يقطع الجنود المرافقين له من أراضي الأخماس . (١٨٨) أما بيت مال الفيء ، فكان يوضع فيه ما يرد من مال الجزية والخراج وعشور التجارة من أهل الذمة والحرب وصدقة بني تغلب ، كما أن الفائض من الولايات في العصر الاموى كان يرسل الى بيت المال بدمشق .

يذكر اليعقوبي " أن خراج مصر استقر في عهد معاوية على ثلاثة آلاف الف دينار ولم يكن عمرو بن العاص يحمل منها اليه الا الشيء اليسير ، فلما مات عمرو حمل المال الى معاوية ، فكان يفرّق في الناس اعطياتهم ويحمل اليه الف الف دينار " (١٨٩) . أما ابن عبد الحكم والمقريزى فيشيران الى أن مقدار المال الذى أرسله مسلمة بن مخلد والي معاوية على مصر (٤٧ — ٦٢ هـ) بعد أن أعطى أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح الى الحجاز كان يبلغ ٦٠٠ ألف دينار فضلا ، (١٩٠) بينما يذكر ساويرس أن ما كان يحمل الى بيت المال يقدر بمائتي الف دينار بعد النفقة على الجند وما تحتاج اليه البلاد . (١٩١) وهذا الاختلاف في الارقام قد يشير الى أن فضول الاموال التي ترسل كانت تختلف من فترة الى أخرى تبعا لازدياد أو نقصان النفقات في الولاية . الا أنه من الثابت أن مصر كانت ترسل الفائض الى بيت المال في دمشق ، أما في العراق فقد اختلف الوضع ، اذ أن قبائل كل من البصرة والكوفة كانت ترى أن لا حق للخلافة بالتصرف بأموال الفيء خارج نطاق المصر ، وحاول عمر بن الخطاب مراعاة النظرة القبلية والتمشي معها ، وأوصى قبل موته بأهل الأمصار خيرا ... وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم

---

(١٨٨) : احمد بدر ، المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٨٩) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٣٤ .

(١٩٠) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠٢ ، المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٥ .

(١٩١) : ساويرس ، ج ٥ ص ١٨٩ .

../..

من رضى منهم ،[(١٩٢)] وعندما كتب عمر الى حذيفة " أن أعط الناس أعطياتهم وأرزاقهم فكتب اليه انا قد فعلنا وبقي شيء كثير ،كتب اليه عمر انه فيئهم الذي أفاء الله عليهم ليس هو لعمر ولا لآل عمر اقسمه بينهم "(١٩٣) وبالرغم من سياسة عمر هذه فان أهل الكوفة كانوا دوما يطالبون ألا يحط فضل فيئهم عنهم وأن يسار فيهم بسيرة علي بن أبي طالب التي سار فيها في البلاد ،[(١٩٤)] ولقد رأت القبائل العربية في انتصار معاوية وأهل الشام تهديدا لحقوقها في الفيء ،لذا خطب الحسن بن علي القبائل العربية عند تنازله عن الخلافة لمعاوية وقال :" وقد أخذت لكم على معاوية عهد الله وميثاقه بأن يعدل بكم ويوفر فيئكم "[(١٩٥)] وبقيت هذه النظرة طيلة الفترة الاموية ،[(١٩٦)] واتهمت القبائل معاوية باستئثاره بفيئها حين كان يأخذ فضول بيت المال .[(١٩٧)]

ويمكننا أن نأخذ فكرة عن فضول الاموال التي كانت ترسل ،مما يذكره البلاذري عن المدائني عن مسلمة بن محارب أن زيادا كان يجبي من كور البصرة ستين الف الف ،ويعطي الذرية ستة عشر الف الف درهم ،وينفق في نفقات السلطان الفي الف ، ويجعل في بيت المال للبوائق والنوائب الفي الف درهم ،ويعطي للمقاتلة ستة وثلاثين الف الف ويحمل الى معاوية أربعة آلاف الف ،وكان يجبي من الكوفة أربعين الف الف ويحمل الى معاوية ثلثي الاربعة آلاف الف ،لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة ،وحمل عبيد الله بن زياد الى معاوية ستة آلاف الف درهم فقال : " اللهم ارض عن ابن أخي " .[(١٩٨)]

وعندما توفي معاوية دعا أهل الكوفة الحسين بن علي ،ووصفوا معاوية بأنه غصبها فيئها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها .[(١٩٩)] وظهرت الدعوة لتوفير الفيء في المشورات

---

(١٩٢) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٣ ص ٢٤٥ ،٢٤٦ .

(١٩٣) : المصدر السابق ،ج ٣ ، ص ٢١٥ .

(١٩٤) : الطبرى ،ج ٦ ص ١١ .

(١٩٥) : تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول ،ص ١٢٧ .

(١٩٦) : الطبرى ،ج ٥ ص ٤٠٣ ، ٥٠٩ ،ج ٦ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٥ .

(١٩٧) : الجاحظ – رسائل الجاحظ ،تحقيق عبد السلام هارون ،القاهرة ،١٩٦٤ ، ج ٢ ص ١١ ، ابن أبي الحديد ،شرح نهج البلاغة ،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٩ م ،ج ٥ ،ص ١٣٠ .

(١٩٨) : البلاذرى ،انساب ،القسم الرابع ،ج ١ ص ٢١٨ ،ابن الاعثم ،فتوح ،ج ٤ ص ١٨١ .

(١٩٩) : الطبرى ،ج ٥ ، ص ٣٥٢ .

../..

ضد الحكم الاموى ، فالخوارج اتهموا الامويين باحتزاز الفيء والاستئثار به (٢٠٠) واحتج العراقيون على الحجاج لاحضاره الجيش الشامي الى حساب وارد العراق ، وقام زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ ،وكان في نص بيعته "وتقسم هذا الفيء على أهله ". (٢٠١) وخطب يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ الناس فقال لهم "ان لكم علي عهدا .... أن لا أنقل مالا من بلدة الى بلدة حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة ثغره ، بما يغنيهم ، فان فضل فضل نقلته الى البلد الذى يليه ممن هو أحوج اليه". (٢٠٢) وهكذا نرى أن القبائل في العراق كانت ترى أن الدولة تستأثر بفيئها وتبتزها ، ولعل هذا كان له أثره في موقف القبائل في العراق من الدولة الاموية .

بالرغم من عدم توفر الروايات التي تشير الى ماكان يرد من ولاية افريقيا ، فان دراسة العوامل التي أدت الى ثورة البربر سنة ١٢٢ هـ توضح أن ولاة افريقيا اضطروا نظرا لما رسخ في المشرق من أفكار حول غنى المغرب أن يلجؤوا الى بعض الوسائل القديمة في المصادرات بعد زوال مبرراتها ، كي لا يظهروا لدى الخليفة كمقصرين عن غيرهم ، كما أن تعيين عبيد الله بن الحبحاب واليا على افريقيا وهو الذى نفذ عملية المسح في مصر ، (٢٠٣) مع تقدير جديد للضرائب ،قد نستنتج منه رغبة الخليفة هشام بن عبد الملك في مد هذه التنظيمات للمغرب ، لا سيما أنه يرد في بعض روايات لابن عبد الحكم ذكر عرضي لعمليات التنظيمية ، وذلك بتقسيمه المغرب الأقصى الى قسمين ، السوس الادنى وهو طنجه وماوالاها والسوس الأقصى . (٢٠٤) أما الاندلس فيرى الدكتور أحمد بدر أنه ليس هنالك اشارة اليه لارسال الاموال من هذا البلد الغني سواء الى والي افريقيا أو خليفة دمشق . (٢٠٥)

---

(٢٠٠) : الطبرى ،ج ٥ ص ١٩١ .

(٢٠١) : المصدر السابق ،ج ٧ ص ١٧٢ ،البلاذرى ،انساب ،الجزء الثالث ،تحقيق محمد باقر المحمودى ،بيروت ،طبعة أولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ص ٢٣٨ .

(٢٠٢) : الطبرى ،ج ٧ ص ٢٦٩ .

(٢٠٣) : المقريزى ، الخطط ،ج ١ ص ١٨٢ .

(٢٠٤) : ابن عبد الحكم ،فتوح ،ص ٢١٧ ، ٢١٨ ،ابن عذارى ،البيان المغرب ، ج ١ ص ٥١ - ٥٢ .

(٢٠٥) : أحمد بدر ،دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ،ج ١ ص ٣٤ .

../..

بالاضافة الى فضول الاموال التي كانت توصل الى بيت المال في دمشق كان يرسل الى الخليفة في العصر الاموي بهدايا النيروز والمهرجان ، من الولايات الشرقية ، فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز نهى أن يذهب اليه في النيروز والمهرجان بشئ ، (٢٠٦) وربما أعيد ارسال هذه الهدايا الى الخليفة اثر وفاة عمر بن عبد العزيز .

بيت مال الصدقة :

من الطبيعي أن يكون للصدقة بيت مال خاص ، لأن لأموال الصدقة وجوه صرف غير مال الخراج ، وفقا للآية الكريمة " وانما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل " . (٢٠٧) وكان عمال الصدقة يأخذون رزقهم من مال الصدقة بينما كان موظفو الدولة كلهم يأخذون أرزاقهم من مال الفيء ، ولا يجوز نقل صدقات بلد الى بلد غيره ، (٢٠٨) الا سهم سبيل الله في الغزاة فانه ينقل اليهم ، لأنهم يسكنون الثغور ، (٢٠٩) وكانت العشور تفرض على أهل الحرب ، وعلى المسلمين صدقات أموالهم . (٢١٠) ويظهر أن الامويين جعلوا العشور وظيفة تجمع نقدا ، ففي رواية عبد الله بن جعفر عن أبي المليح عن ميمون أن عامل الصدقة دخل على عمر بن عبد العزيز ، فقال : كم جمعت من الصدقة ، قال كذا وكذا ، قال ، فكم جمع الذي قبلك ، قال ، كذا وكذا ، فسمى شيئا أكثر من ذلك ، فقال عمر : من أين ذاك ، قال : يا أمير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة ، وانك طرحت ذلك كله ، قال : لا والله ، ما ألقيته ولكن الله ألقاه . (٢١١) وكان عمر بن عبد العزيز دقيقا جدا في صرف أموال الصدقة في وجوهها ، فقد وفد عليه عاصم بن عمر بن قتادة وبشير بن محمد بن عبد الله بن زيد ، في خلافته ، فدخلا عليه بخناصرة ، فذكرا دينا عليهما ، فقضى من كل واحد منهما اربعمائة دينار فخرج الصك يعطيان من صدقة كلب مما عزل في بيت المال ، قال محمد بن عمر ، وكان ذلك العزل قدم به لم يوجد احد منهم يقضى عنه دين

---

(٢٠٦) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٠٠ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٧٦ .

(٢٠٧) : ابو يوسف ، ص ٩٥ ، ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص ٣٤ .

(٢٠٨) : ابو يوسف ، ص ٩٦ .

(٢٠٩) : الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٢٤ .

(٢١٠) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٨٢ .

(٢١١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٧٧ .

../..

فادخل فضله بيت المال عزلا لأنه يقضي به من الديان فهذا وجهه ،(٢١٢) ومن محمد بن عمر أنه قضى عنه ابن أبي حيثمه وهو خليفة خمسين ومائتي دينار من صدقات بني كلاب وكتب بها ، ذلك أنه لم يزل رأى عمر بن عبد العزيز والذى يشير به على من ولي هذا الأمر من أهل بيته ، توفير هذا الخمس على أهله (الغارمين) فكانوا لا يفعلون ذلك ، فلما ولي الخلافة ،نظر فيه فوضعه في مواضعه الخمسة ،(٢١٣) وفي طبقات ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز ربما أعطى المال يستألف على الاسلام وأنه أعطى بطريقا الف دينار استألفه على الاسلام.(٢١٤) كما اتخذ عمر بن عبد العزيز دار طعام للمساكين والفقراء وابناء السبيل ومنع أهله أن يصيبوا من تلك الدار شيئا.(٢١٥)

<u>النقود المتداولة في الشام :</u>

كان بين الدولة البيزنطية وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضي بأن يضرب الساسانيون نقودا من الفضة فقط ،وبألا يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هي الدراهم الفضية ، بينما شاعت العملة الذهبية في البلاد الاسلامية التي كانت سابقا تابعة للدولة البيزنطية.(٢١٦) وقد عرف عرب الجزيرة النقود الذهبية والنحاسية البيزنطية لصلتهم الوثيقة بعرب الشام . فقد كانت التجارة بينهم موسمية منتظمة ، يحمل التجار من عرب الجزيرة حاصلات اليمن والحبشة والسواحل الافريقية ،وربما بعض مايرد من الهند الى الشام ،ويعودون بمنتجات الشام وبالنقود البيزنطية ، وكانت النقود البيزنطية المتداولة قبل الاسلام وبعده ، هي نقود فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠ م) ونقود هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) ،ولا بد أن تكون بعض نقود الاباطرة السابقين موجودة أيضا بدليل أن النقود المقلدة من قبل العرب تحمل صورهم ،وكان النقد البيزنطي يسمى سوليدس (Solidus) ويزن ٤،٤٨ غم تقريبا ،(٢١٧) أما النقد النحاسي

---

(٢١٢) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٢٥٧.

(٢١٣) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٢٥٧.

(٢١٤) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٢٥٨.

(٢١٥) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٢٧٩.

(٢١٦) : آدم ميتز ،الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ،تعريب محمد عبد الهادى ابو ريده ، القاهرة ،١٩٤٠ ،ج ٢ ، ص ٣١٦.

(٢١٧) : Ostrogorsky, Op. Cit, p. 39

../..

وهو ما أطلق العرب عليه اسم فلس.(٢١٨)

يتبين لنا مما ورد في المصادر التاريخية أن الجزية والخراج ، وأعطيات الجند في الشام ومصر كانت تدفع بالدنانير ، بينما كانت الدراهم هي العملة المستخدمة في العراق والمشرق ، وتشير المصادر الى أن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير ومصعب ضربوا الدراهم على الطراز الساساني ،(٢١٩) بينما سك معاوية في خلافته الدراهم والدنانير ،(٢٢٠) وأن الدنانير التي ضربها عليها تمثاله متقلدا سيفا ، ولكن علماء الاثار لم يجدوا بعد دينارا لمعاوية عليه تمثاله ، ومن الغريب الا يذكر المؤرخون القدامى شيئا عن الصوره الى أن أتى المقريزى فأعطانا معلومات أكثر تفصيلا عن شكل النقود والمأثورات ، ولذلك يتساءل الاستاذ العش اذا كان المقريزى قد عثر على كتاب أو وثيقة ذكرت فيها هذه المعلومات.(٢٢١)

ويجمع المؤرخون على أن عبد الملك هو أول من ضرب الدراهم والدنانير العربية في الاسلام ، وان كان المؤرخون يختلفون في السنة فان عددا كبيرا يؤكد أن ذلك تم سنة ٧٦هـ(٢٢٢) وكانت قضية اصلاح النقود وتوحيدها في جميع انحاء الدولة الاسلامية ضرورة بالغة الأهمية لوضع حد للفوضى والصعوبات أثناء جمع الجزية والخراج ، مثال على ذلك ، أن الخليفة عمر قسّط الخراج في العراق ورقا وعينا ، والدراهم تؤدى فيه عددا ، ففسد الناس فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم أربعة دوانق ويستبدون بالوافي ووزنه مثقال ، فلما ولي زياد طلب بأداء الوافي فشق ذلك على الناس ، فلما أصبح عبد الملك خليفة قدّر وزن الدرهم على نصف وخمس مثقال ، وترك المثقال على حاله ،(٢٢٣) ويذكر البلاذرى أنه لما استوثق

---

(٢١٨) : محمد ابوالفرج العش ، النقود العربية الاسلامية ، مصدر وثائقي للتاريخ والفن ، المؤتمر الدولي لبلاد الشام ، الجامعة الاردنية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٢.

(٢١٩) : الاب أنستاس الكرملي ، النقود العربية وعلم النميات ، ١٩٢٩م ، المقريزى ، كتاب النقود الاسلامية ، ص ٣٢.

(٢٢٠) : المصدر السابق ، ص ٣٣.

(٢٢١) : محمد ابو الفرج العش ، النقود العربية الاسلامية ، ص ٢٨١.

(٢٢٢) : الدينورى ، ص ٣١٦ ، ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٤١ ، الطبرى ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، القلقشندى ، ج ١ ، ص ٤٢٤ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣٧.

(٢٢٣) : أبو هلال العسكرى ، الأوائل ، ج ٢ ، ص ٣٢.

../..

الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير ، فحص عن النقود والاوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم سنة ست وسبعين من الهجرة فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا الا حبة بالشامي ،وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى (أي لا زيادة فيه ولا نقصان) والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطين ونصف ، وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال الشامي .(٢٢٤)

ومرّ تعريب النقد في الواقع بمراحل قبل أن يصبح النقد عربيا خالصا ، وقد وجد دينار في سورية حوالي ١٩٥٤م وانتقل الى لبنان ومنه اقتني لصالح متحف كراتشي حيث هو محفوظ فيه الآن ،وهذا الدينار العربي الجديد يعود الى سنة ٧٤ هـ وهو يشتمل على الوجه شخص عبد الملك واقفا متقلدا سيفا مرتديا ملابس مزركشه ،وكتب في المدار حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة " بسم الله ،لا اله الا الله وحده ، محمد رسول الله " وعلى الظهر بدا في الوسط الصليب البيزنطي المحور وكتب حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة أيضا " بسم الله " ضرب هذا الدينار سنة ٧٤ هـ ،. هذا الدينار لا يزال فريدا في العالم ،وقد ضرب على نمطه دنانير في السنوات ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ هـ ،(٢٢٥) وكان هذا الدينار يمثل الخطوة الخامسة من مراحل تطور النقود الذهبية نحو التعريب ، حيث كان التعريب واضحا ،وان كان التأثير البيزنطي لا يزال موجودا ، أما الدنانير العربية الخالصة فلا تحمل صورا للخليفة وانما تحمل مأثورات عربية صرفة ، من ضمنها آيات قرآنية ، وقد اثنى ابن خلدون على ابداع النقد العربي الصرف بقوله " ونقش عبد الملك فيه كلمات لا صورا ،لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهي عن الصور ".(٢٢٦)

---

(٢٢٤) : انستاس الكرملي ، النقود العربية ، البلاذري ،ص ١٠ ،المقريزي ص ٣٤ .

(٢٢٥) : Miles, The Earliest Arab Gold Coinage. 1967 p. 212.

(٢٢٦) : ابن خلدون ،المقدمة ،ج ١ ص ١٩٢ ،تاريخ الخلفاء للسيوطي ،ص ٢٣٧ .

../..

لا يحمل دينار عبدالملك الذى ضرب سنة ٧٩ هـ الا الآيات القرآنية على الوجهين والأطراف ، وكان قطر الدينار الاموى ، بين ١٨ و ٢١ مم وكان وزنه بين ٢٠ر٤ و ٣٠ر٤ غرام وهو أقل من وزن الدينار العربي المضروب حسب النمط البيزنطي ، وكان ذلك ضروريا من أجل ايجاد نسبة عادلة بين الدينار الذهبي والدرهم الفضي وزنا وقيمة (٢٢٧) الى جانب الدينار صك الامويون عملة قيمتها نصف دينار وزنها ٢٠٦ر٢ غ و ٢١٢ غ وثلث دينار وزنه بين ٣٩ر١ و ٥ر١ غ .

والملاحظ أن مكان الضرب لم يظهر على الدنانير العربية على الاكثر ، وهذا يعني أن الدنانير كانت تضرب بدمشق في بادئ الأمر ،وقد جاء في رواية الوليد بن مسلم عن الاوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز أن عمر بن عبدالعزيز كتب الى صاحب بيت الضرب بدمشق . " أن من أتاك من فقراء المسلمين بدينار ناقص فابدله بوازن ". (٢٢٨) ويرى الاستاذ المش أن الدنانير الأموية العربية الصافية في افريقيا ضربت في دمشق لصالح المغرب ،اذ أنها شبيهة بالنقود الشرقية ،ولا تختلف الا بذكر افريقيا ،وأن الدارس اذا أمعن النظر في الخط على هذه الدنانير يرى أنه لا يختلف عن الخط المشرقي وأسلوبه ،وأنه يوجد في متحف دمشق دينار فريد ضرب لصالح افريقيا سنة ١١٠ هـ حسب النمط المشرقي ،كما يوجد دينار آخر في متحف دمشق ضرب سنة ١١٦ هـ ،أما الدينار الموجود في برلين فقد ضرب سنة ١٢٢ هـ . (٢٢٩)

ومرّ تعريب الفلوس البيزنطية بمراحل اكثر تعدادا وربما أطول أمدا ،فقد قلد العرب الفلوس البيزنطية ، ولكنهم أضافوا اسم مكان الضرب بينما كانت النقود البيزنطية عامة خالية من أسماء المدن السورية ، ماعدا انطاكية التي كان لها منزلة دينية ،وقد وجدت فلوس نقش عليها اسم بيسان ، بعلبك ، دمشق ، طبرية ، ايلياء ، فلما أصبحت النقود النحاسية عربية ،وجد هناك أنواع عديدة تختلف في وزنها وحجمها وأشاراتها

---

(٢٢٧) : محمد ابوالفرج المش ،النقود العربية الاسلامية ،ص ٢٧٦ .

(٢٢٨) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٥ ،ص ٢٧٦ .

(٢٢٩) : Walker, A Catalogue of The Muhammaden Coins, in the British Museum, Vol. II P. 100.

../..

بعضها مغفل ، وبعضها يحمل مكان الضرب ، وأخرى تحمل مكان الضرب والتاريخ ، وفلوس تحمل اسم الخليفة ومكان الضرب والتاريخ أحيانا وأخرى تحمل اسم الوالي ومكان الضرب والتاريخ .(٢٣٠) ولذلك فان المعلومات التي تقدمها العملة النحاسية اكثر أهمية من تلك التي تقدمها الدراهم أو الدنانير ، فالدراهم كانت تحمل اسم مدينة الضرب ، مما يشير الى أن الخليفة فوّض الولاة بهذه المهمة ، وكان عبد الملك قد كتب الى الحجاج بضرب الدراهم وبعث اليه بالسكة ، فسيّرها الى الافاق ، لتضرب الدراهم بها.(٢٣١) واستمر الولاة بضرب النقود حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذى أمر خالد بن عبد الله القسرى والي العراق سنة ست ومائة أن يبطل السكك من كل بلدة الا واسطا ،(٢٣٢) وكذلك فعل يوسف بن عمر الثقفي عندما عزل خالد سنة عشرين ومائة ، فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة بحرّان .(٢٣٣)

أثر النظام الضريبي على النشاط الزراعي :

انتشر العرب بالفتوح في بلاد الشام كلها الا أنهم لم يتعرضوا لجماعات القرى بأى أذى أو ضرر كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة ، وكانت خطتهم منذ البداية قائمة على عدم الاضرار بالفلاحين ، بل ان قادة العرب بذلوا جهودهم لتوفير الطمأنينة في نفوسهم وابقائهم على الأرض ، واعتبروا الفلاحين أحرارا ، هذا مع اعادة لتنظيم الضرائب والاشراف على جبايتها ، وجعل الخراج وفقا للمساحة ونوع الزرع وابطال الامتيازات السابقة ، وهذه أمور لا بد أن تنعكس على أوضاع المزارعين في المنطقة .

---

(٢٣٠) : محمد ابوالفرج العش ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢٣١) : انستاس الكرملي ، النقود العربية وعلم النميات ، البلاذرى ، ١٠٠ ، المقريزى ٣٤ ، ٣٦ .

(٢٣٢) : المصدر السابق ، المقريزى ، ص ٤٤ .

(٢٣٣) : المصدر السابق ، المقريزى ، ص ٤٤ ، ويوجد في المتحف الوطني بدمشق مجموعة من الدراهم تعود الى مناطق مختلفة والى الفترة السابقة لولاية خالد القسرى ، هراة ٩٦ هـ ، سرّق ٩٣ هـ ، سابور ٩٣ هـ ، دستوى ٩٢ هـ ، اردشير خسرّة ٩٢ هـ .

../..

ومن الطبيعي أن تستمر أساليب الزراعة والحياة القروية على ما كانت عليه في العهد البيزنطي ،الا أن العرب وفروا للمزارعين استقرارا أكثر من الفترة البيزنطية المتأخرة المضطربة ، وكان للوضع الجديد أثره ، اذ اعتبرت أرض العنوة وهي الاراضي الريفية فيئا للأمة ، أى أرضا خراجيه مادام زراعها وفلاحوها عليها ،في حين أن أراضي النبلاء وأراضي من قتل أو هرب اعتبرت صوافي ،وهذا يعني أن أراضي الصوافي يمكن أن ينشأ عليها ملكيات جديدة ، كما فتح المجال لاستغلال الأرض الموات والخالية وتوسيع نطاق الزراعة ،وان كانت الاشارات الى الأرض الموات في الشام محدودة ،بعكس منطقة الجزيرة حيث يشار عادة الى الأرض الخالية والمواطن النائية ،(٢٣٤) ولذلك فان الملكيات التي ظهرت في بادئ الأمر وفي عهد معاوية كانت عبارة عن اقطاعيات من أرض الصوافي التي منحها لأهل بيته وخاصته ،وقد رأينا أن الاشراف كانوا يلحون في طلب الاقطاعات مما أدّى الى نفادها في فترة عبد الملك ودفعته الى أن يمنح اقطاعات من أراض خراجية صارت لبيت المال لوفاة أصحابها دون ورثة ، ثم لم يلبث الوليد بن عبد الملك وسليمان من بعده نتيجة لالحاح الاشراف أن سمحا لهؤلاء بشراء الأراضي الخراجية . واذا دققنا في الروايات المتعلقة بأصحاب الاقطاعات نجد أن جل ملاكي القرى من الأمراء الأمويين ومنهم بعض أشراف القبائل من مؤيديهم ، وهذه كلها تشير الى الأهمية المعطاة للزراعة والأراضي الزراعية من قبل الأمراء الأمويين ،وكان أصحاب هذه القرى يقيمون في العاصمة أو احدى المدن الرئيسية ، وهذا يعني أنهم يديرونها بواسطة وكلائهم ،(٢٣٥) وأن أهل القرى هم مزارعون وفلاحون يعملون في أرض السادة الملاكين ربما لقاء نسبة من الحاصل ، وقد يفسّر ذلك أنها كانت لا تدفع سوى العشر(٢٣٦) ويبدو اهتمام الأمويين بالزراعة ومشاريع الري في وقت مبكر ،فقد حفر يزيد بن معاوية نهر يزيد وكان قبل ذلك نهرا صغيرا يسقي ضيعتين في الغوطة ، فلما أصبح خليفة ورأى تلك الأراضي الواسعة التي ليس فيهما ماء أمر بحفر ذلك النهر الصغير وتوسيعه . ويصف ابن عساكر يزيد بأنه كان مهندسا وأنه احتفر نهرا سعته ستة أشبار في عمق ستة أشبار ، وأن أهل الغوطة

---

(٢٣٤) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢٣٥) : المصدر السابق ،ص ١٤٤ ، ١٥٦ ،الجهشيارى ص ٦٠ ، ياقوت الحموى ، ج ٢ ، ص ١٠١ ،ابن عساكر ،تاريخ دمشق ،المجلدة الأولى ،ص ٥٨٧ .

(٢٣٦) : د . عبد العزيز الدورى ،العرب والأرض في الشام ، مؤتمر بلاد الشام ،ص ١٣٨ .

../..

عندما حاولوا منعه أرضاهم ، بأن ضمن لهم خراج سنتهم ،(٢٣٧) كما بلغ عدد الأنهار المتفرعة من بردى في عهد هشام بن عبد الملك مايزيد عن ثلاثة عشر نهرا ،(٢٣٨) وحفر هشام في الرصافة نهرى الهني والمري ،واستخرج الضيعة التي تعرف بالهني والمري ،(٢٣٩) وكان أهل بالس قد طلبوا من مسلمة بن عبد الملك أثناء توجهه غازيا الى الروم أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقي أرضهم وأراضي قاصرين وعابدين وصفين ، وهي قرى منسوبة الى بالس ، على أن يجعلوا له الثلث بعد العشر الذى يدفع للدولة.(٢٤٠) وعندما مصر سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة وبنى فيها احتفر لأهل الرملة قناتهم التي تدعى بردة واحتفر آبارا ،وكان أول مابنى منها قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين وجعل في الدار صهريجا متوسطا لها ثم اختط للمسجد خطة وبناه ،فولي الخلافة قبل استتمامه فأكمله في خلافته .(٢٤١) ويعلق الدكتور أحمد طوقان على بناء سليمان للرملة " ان اختيار سليمان لتلك المنطقة ليس غريبا اذا عرفنا الحقيقة التالية ،كانت السهول المحيطة بالرملة والممتدة على طول الساحل الفلسطيني ملتفة الأشجار ، وافرة الثروة الحيوانية ، كما كانت المنطقة المجاورة للرملة تتمتع بثروة طبيعية جمة كالمياه والأنهار ،فاختيار سليمان بن عبد الملك لتلك البقعة تتمشى مع الفكرة الأساسية التي جدت بالأمويين الى بناء منشآتهم عموما".(٢٤٢) وفي الرد على الدكتور طوقان أتساءل لماذا نقل سليمان القصبة من اللد الى الرملة مع أن اللد تقع في نفس المنطقة الخصبة الخيرة . ؟ ولو أن اللد بقيت مزدهرة لأمكننا قبول رأى الدكتور طوقان ،أمّا وأنها قد خربت نتيجة لانتقال سكانها الى الرملة

---

(٢٣٧) : ابن عساكر ،تاريخ مدينة دمشق ،المجلدة الثانية ، القسم الاول ، ص ١٥٢ .

(٢٣٨) : المصدر السابق ص ١٥٢ . ،ويشير تيوفانس الى اهتمام هشام بمشاريع الري والزراعة وذلك في أحداث سنة ٧٢٤م/ ١٠٦هـ /٦٢١٦ من تاريخ الخليفة .

(٢٣٩) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٨٤ .

(٢٤٠) : المصدر السابق ،ص ١٥٦ ،ياقوت الحموى ،ج ١ ص ٣٢٨ .

(٢٤١) : البلاذرى ،فتوح ، ص ١٤٩ .

(٢٤٢) : د . أحمد طوقان ، المآثر في العمارة الأموية ،مؤتمر بلاد الشام ،ص ١٢٤ .

../..

فيعني أن هناك أسبابا أخرى غير التي ذكرت دفعت سليمان بن عبد الملك الى بنـــاء الرملة ،وهي رغبته في أن يعرف له ذلك كما عرف لعبد الملك بناؤه لقبة الصخــــرة وللوليد بناؤه لمسجد دمشق .(٢٤٣) ثم ان هذه المنطقة بالرغم من خصوبتها وكثرة فاكهتها ، الا أنها ليست كما ذكر جمّة المياه والأنهار بل ان مياهها قليلة وجوفية بسبب شح الأمطار،(٢٤٤) وهذا يفسر لنا اهتمام سليمان بحفر الآبار العذبة فيها واستمرار خلفاء بني أمية بالانفاق على آبار الرملة وقناتها ، فلما استخلف بنو العباس انفقوا عليها ، وكان الأمر في تلك النفقـــة يخرج في كل سنة من خليفة بعد خليفة ،فلما استخلف المعتصم بالله أسجل بتلك النفقـــة سجلا ،فانقطع الاستئمار وصارت جارية يحتسب بها العمال ،(٢٤٥) وأصبح شربهم من الآبــــار المالحة ، والمترفون لهم صهاريج مقفلة ؛ وكانت أكثر البلاد صهاريج .(٢٤٦)

أما قصور الأمويين في البادية فان سوفاجيه وغزابار يحاولان البرهنة على أنها لم تكن مجرد منازل للنزهة بل مراكز للاستثمار الزراعي ،يدل على ذلك منشآت الري حولها من قنوات وصهاريج ومجارى لارواء حقول ومشاريع زراعية في منطقة بادية الشام ، وهذه القنـــــوات والصهاريــــج وان كانت على آثار مشاريع سابقة ، الا أنها تدل على تقديـــــر الأمويين لأهمية الأرض وعلى احياء أراض خالية بعد الفتح ، وقد توصل سوفاجيه الـــى رأيه هذا اثر مسح أثرى للمواقع الأموية في بوادى حماة وتدمر ومآب والبلقاء وشمال سورية والجزيرة الفراتية ، فتبين له أن جميع المنشآت الأموية لها طابع خــاص ثابت ومحدد ،وهو قصر تلازمه مجموعة أبنية وتوجد فيها آثار استغلال زراعـــي (٢٤٧)

---

(٢٤٣) : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ،ج ٣ ،ص ٦٩ .

(٢٤٤) : د . دويدري ،جغرافية سورية والوطن العربي ،ص ٣٩ـ ٤٠ .

(٢٤٥) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٤٩ .

(٢٤٦) : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ،ج ٣ ،ص ٦٩ .

(٢٤٧) : Jean Sauvajet, Chateaux Omayyades de Syrie, Revue des Etudes Islamiques, XXXV 1967. pp. 1 - 52.

وما ان ظهرت دراسة سوفاجيه سنة ١٩٦٧ حتى تأثر بها جرابار (Grabar) ، وكانت بداية نظرية جرابار مقتصرة على قصر الحير الشرقي ، وكانت البعثة الأثرية التي قامت بالحفر في قصر الحير الشرقي قد كشفت عن معصرة الزيتون والحمام وبعض البيوت داخل البناء الكبير وهي أمور لم تكن معروفة من قبل لدى علماء الآثار الاسلامية ، ولكن غرابار لم يلبث أن عمّم ذلك على جميع هذه القصور ، وذكر غرابار في دراسته لمؤتمر بلاد الشام سنة ١٩٧٤ أن هناك أكثر من مائتي مستوطنة أو مشروع زراعي يرجع تاريخها الى القرنين الأول والثاني الهجريين ، وقال ان الهدف الأول من المنشآت الأموية في جميع الأحوال يرى في مثال قصر الحير الشرقي الذي هو عبارة عن استصلاح زراعي (٢٤٨).

هذه الاشارات سواء في مصادرنا أو ما توصل اليه علماء الآثار كلها تشير الى اهتمام الامويين بالزراعة في الشام ، ولذلك نجد بعض المستشرقين أمثال بلياييف ينوّهون بفضل العرب في ازدهار الزراعة في الشام ، اذ عندما دخل العرب بلاد الشام كما يقول بلياييف كانت مساحة الأراضي الصالحة للزراعة قد تقلصت كثيرا ، وهبط الانتاج الزراعي الى مستوى منخفض بسبب ما أسفرت عنه حروب الروم والفرس من سلب ونهب ، (٢٤٩) ونتيجة للسياسة المالية التي كان يتبعها الامبراطور هرقل ، يضاف الى ذلك أن وسائل الري من أقنية وترع كانت قد تهدّمت بسبب الاهمال ، كما أن عدد سكان الريف الزراعي قد انخفض كثيرا بسبب نزوح الفلاحين عن ديارهم أو بسبب الوفيات من جراء الأوبئة المتعاقبة ، فاستحالت الأراضي الزراعية المروية الى قفار مجدبة ، هذه الأراضي التي فتحها العرب لم تلبث تحت اشرافهم أن استحالت الى حقول ومزارع وحدائق وبساتين وكروم ذات عطاء عظيم . (٢٥٠)

والروايات المتعلقة بالشام في العصر العباسي في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث تشير الى أن الزراعة كانت مزدهرة في الشام ، وهذا دليل على أن المزارع لم يكن يشعر أن كل ما يجنيه سوف يتوجه الى الدولة ، ولذلك لانجد ذكرا لهجرة

---

(٢٤٨) : Grabar, Early Islamic Settlements in the Badyaht al-Sham - in Conference on Bilad al-Sham, Amman, University of Jordan, April, 1974.

(٢٤٩) : بلياييف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ، بيروت ، الدار المتحدة للنشر ١٩٧٣ ص ٢١١ .

(٢٥٠) : المرجع السابق ، ص ٢١١ — ٢١٢ .

../..

الفلاحين من أرضهم في بلاد الشام كما حدث زمن هارون الرشيد عندما ترك بعض أهالي فلسطين أراضيهم هربا من كثرة الخراج ، فوجه الخليفة هرثمة بن أعين لعمارتها ، فدعا قوما من مزارعيها وأكرتها الى الرجوع اليها على أن يخفف عنهم من خراجهم ، وأن يعاملوا معاملة أحسن مما مضى ، فربعوا فسمي هؤلاء بأصحاب التخافيف ، ثم عاد قوم منهم بعد ذلك فردت عليهم أراضيهم على مثل ما كانوا عليه وهم أصحاب الردود ، (٢٥١) كما استاء الخليفة هارون الرشيد من واليه على دمشق الحسين بن عمار واتهمه بأنه ولاه " دمشق وهي جنة بها غدر تتكفأ أمواجها على رياض كالدرارى ، واردة منها كفايات المؤن الى بيوت أموالي ، فما برح بك التعدى لارفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر ، وأوحش من القفر " ، فكان جوابه أنه والله لم يقصد لغير التوفير من جهته " ولكن وليت أقواما ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا الى ميدان التعدى ، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بأضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة ، فلاجرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساءتي " . (٢٥٢)

وقد شعر أهالي الشام بتأخر بلادهم الزراعي ، فقاموا ببعض التحركات التي من شأنها اشعار السلطة بأوضاعهم السيئة ، وحاول الخلفاء العباسيون اتخاذ بعض الاجراءات الاقتصادية لرفع مستوى البلاد الاقتصادى ، أو العودة بها الى ما كانت عليه في عهد الأمويين ، فقد تصدى الخليفة المأمون لتعديل أراضي الشام ، ففرّق المساح في كافة أجنادها وأقام شتاء سنة ٢١٤ هـ كله في دمشق لهذه الغاية . (٢٥٣)

وكان العامل الاقتصادى أحد أسباب ثورة المبرقع اليماني سنة ٢٢٧ هـ في فلسطين والأردن وكان اتباعه ، حسب رواية في الطبرى ، " قوم من فلاحي تلك الناحية وأهل القرى وأنهم في حدود مائة ألف " . وتضيف رواية أخرى أنه لما حل موعد الحراثة

---

(٢٥١) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢٥٢) : محمد كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨ ، ج ٢ ص ٢١٦ .

(٢٥٣) : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، مخطوطة ، مجلد ٤ ، ورقة ٩٧ ، ٩٨ .

../..

انصرفوا الى القرى اذ أن بعضهم كانوا حراثين وبعضهم من أرباب الأرضين ، وبقي المرتقع في نغر زهاء ألف أو ألفين .(٢٥٤)

هذه الروايات تشير الى أن الشام شهدت فترة من الازدهار الزراعي في خلافة بني أمية لم تشهده بعد ذلك فترة طويلة ، اذ أن خلفاء بني العباس وولاتهم لم يوجهوا اهتمامهم في بادئ الأمر للقيام باصلاحات غايتها تنمية الحياة الاقتصادية ودفع عجلتها الى الامام ، وانما كان همهم الوحيد القضاء على الأمويين وانصارهم ومصادرة أموالهم وأموال مؤيديهم ، مما أسفر عن ثورات متكررة جعلت البلاد في وضع مرتبك وفي حالة شديدة من الفوضى .

أثر تعريب النقد الذهبي على العلاقات العربية البيزنطية والاقتصاد :

لم يؤد الفتح العربي الى تغييرات اقتصادية حاسمة في تجارة عالم البحر المتوسط ، فان العرب لم تكن لديهم الرغبة في تحطيم ماضي مصر والشام الاقتصادي ، كما أنهم لم يكونوا تجارا يرتادون البحار ، ولذلك تركوا ممارسة التجارة لمن كانوا يمارسونها سابقا من سكان الاسكندرية أو سكان مدن السواحل الشامية ، كما أن العرب من النواحي الادارية أبقوا الكثير مما كان متبعا في الشام ومصر في العهد البيزنطي مع احداث التعديلات التي يقتضيها الوضع الجديد . وهناك أمثلة عدة على ذلك في هاتين المقاطعتين ،(٢٥٥) فقد بقي الأقباط يصنعون أوراق البردى التي احتفظت بالشارات والتعابير المسيحية ، التي كانت مستخدمة في العهد البيزنطي ،(٢٥٦) وانتقلت دور الطراز في تنيس وتونا ودمياط والتي كانت تحتكرها الدولة البيزنطية الى أيدي العرب ، واستمرت دور الضرب البيزنطية في سك العملة الذهبية التي بقيت حتى عام ٦٩٢م/٧٣هـ النقد الاساسي المتداول في مصر

---

(٢٥٤) : الطبري ، ج ٦ ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٢٥٥) : Lopez, Mohammed & Charlemagne, A Rivision in Speculum, 1943, XVIII, p. 21.

(٢٥٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ .

Grohman, Allgemeine Einfuhrung in der Arabischen Papyri Vien 1924, pp. 77, 92. The Kurrah Papyri from Aphrodite - The Oriental Institute, Chicago 1936, pp. 70 - 72.

../..

والشام .(٢٥٧) ولم يختلف الأمر في الشام عنه في مصر ، فاعتماد معاوية ويزيد على النصارى وبقاء اللغة اليونانية لغة دواوين الخراج ، وتسامح الأمويين مع النصارى من أهل البلاد ، كل ذلك يشير الى استمرار للماضي البيزنطي ، وبالرغم من التغييرات السكانية في منطقة الساحل الشامي والحروب المتكررة مع الدولة البيزنطية ، فان هذه الأمور لم يكن لها تأثير حاسم على الوضع الاقتصادي ، اذ أن النقد الذهبي البيزنطي بقي النقد العالمي المستخدم في المعاملات التجارية في عالم البحر المتوسط .(٢٥٨)

ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن الفتح العربي أدّى الى بعض التغييرات من أهمها ايقاف ماكان يرسل الى القسطنطينية من مصر من حبوب ، والتي أصبحت ترسل الى مكة والمدينة ، مما اضطر هرقل الى ايقاف توزيع القمح مجانا في العاصمة والاعتماد على مناطق أخرى تسد العاصمة بما تحتاجه ، وهذا بدوره أدى الى استفادة سكان بعض المناطق الأخرى التابعة للدولة البيزنطية ، كالمناطق الزراعية في البلقان وآسيا الصغرى ، وجنوبي روسيا لأنها وجدت أسواقا جديدة لمنتجاتها .(٢٥٩)

أما التغيير الثاني فهو التنحي عن كثير من القوانين التي سنّها جستنيان فيما يتعلق بالتصدير والاستيراد في القرن السابق ، ذلك أن العرب عندما سيطروا على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني وسيطروا كذلك على الشام ومصر ، لم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية ، كما أن حكام القسطنطينية في هذه الفترة ، كما تشير الى ذلك الأدلة المختلفة ، لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر ، الا فيما يتعلق بالخشب المستخدم في بناء السفن ، لأن المنع يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين نهائيا . ويبدو أن الحكام البيزنطيين حتى سنة ٦٩٣ م / ٧٤ هـ كانوا يرفضون الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية ، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسلة من هاتين الولايتين قانون جستنيان ، وان كانت الضرائب الجمركية بالطبع تفرض

---

(٢٥٧) : Archibald Lewis, Naval Power in the Mediterranean, 500 - 1100 A.D. P. 79.

(٢٥٨) : Ibid. p. 81 .

(٢٥٩) : Vernadsky, G. Sur L'Origine de la Loi Agraire, in Byzantium, 1925, IV pp. 169 - 180.

على هذه المنتجات المستوردة ، كما أن قوانين الملاحة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقا يبدو وكأنها اختفت في هذه الفترة ، وأصبح التجار أحرارا لا رقابة من الدولة عليهم بعد أن توقف اصدار القمح من الاسكندرية الى العاصمة ، (٢٦٠) وظهر قانون الملاحة الروداني الذى أصبح بموجبه ربابنة السفن أحرارا في أن يتوجهوا الى المكان الذى يريدونه من أجل أخذ حمولتهم ، (٢٦١) ولذلك فان القرن السابع بشكل عام يمكن اعتباره عهد التجارة الحرة غير المقيدة في البحر المتوسط . (٢٦٢)

شهدت الشام مرحلة من الازدهار مماثلة لتلك التي شهدتها مصر في حوالي ٧٠٠ م / ٨١ هـ ، اذ أن علاقات مصر التجارية مع الجنوب والشرق ازدادت ، فالساسانيون الذين هددوا في نهاية القرن السادس توسع التجارة المصرية في البحر الاحمر والمحيط الهندى تحطمت قوتهم على أيدى العرب ، فعادت لهذا الطريق أهميته ، واستفادت دمشق من فائض الأموال التي كانت ترسل الى بيوت أموالها ومن أخماس الغنائم التي كان يرسلها القادة من الشرق والغرب ، كما أن ازالة الحواجز التجارية القديمة بين منطقة العراق والشام قد ساعد على ازدهار التجارة مع الشرق ، ولعلّ الساحل السورى فقط هو الذى كان يعاني أحيانا من تمرد السكان الجراجمة مثلا ومن هجمات الاسطول البيزنطي أحيانا أخرى ، فلم يصل الى المستوى المرتفع في الثروة التجارية والصناعية التي كانت تتمتع بها الأقسام الداخلية ، ومع ذلك لابد من أن نكون حذرين قبل اعطاء أحكام قطعية ، فان هذه المنطقة الساحلية كانت ولا تزال قادرة على أن تمدّ الاسطول

---

(٢٦٠): Charanis, p. The Social Structure of The Later Roman Empire, in Byzantium, 1944 - 1945, XVII pp. 50 - 51

(٢٦١): André M. Andreades, The Economic Life of the Byzantine Empire, In Byzantium, II p. 65

يشير اندريادس الى أن البعض ينسب هذا القانون الى الأباطرة الايسوريين ، ولكن اوستروغورسكي Ostrogorsky يبين أنه لا يمكن أن نقول اكثر من أن هذا القانون قد صدر ما بين ٦٠٠ م و ٨٠٠ ، وهناك اشارة في الموسوعة البريطانية الى هذا القانون ولكن دون ايضاح دقيق .

The largely mythical body of law attributed to the Rhodian mariners has been constructed from a few scattered references in the Digest. E.B. ed 1970. Art. Maritime Law.

(٢٦٢): Archibald Lewis, Op. Cit. p. 83.

العربي بأعداد ضخمة من الأفراد ، كما أن قبرص بالرغم من الغزوات كانت قادرة على أن ترسل جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار الى دمشق ومبلغا مماثلا الى القسطنطينية ، وهذا بدوره يشير الى ازدهار تجارى .

ولذلك فان السنوات الخمسين الاولى من حكم العرب للشام ومصر لم تؤد الى نتائج مضطربة بالنسبة للحياة الاقتصادية في القسم الشرقي من البحر المتوسط ، [illegible] دلائل تشير الى تدهور الاقتصاد في الغرب ، ويقدم لوبيز Lopez أدلة قيمة على استمرار تجارة غير مضطربة نسبيا في كل البحر الابيض المتوسط خلال القرن السابع ،(٢٦٣) وتقدم ايطاليا دليلا واضحا على استمرار التجارة مع الشرق بشكل فعّال ولا سيما مع رافينا Ravenne (٢٦٤) التي كانت لها علاقات وثيقة مع القسطنطينية والاسكندرية .(٢٦٥) كما أن السوريين كانوا معروفين على نطاق واسع ، فأربعة من البابوات في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن كانوا سوريين ، كما وجد دير للسوريين في روما ، وهذا كله قد يشير الى أن العلاقات مع الشام هي أقوى مما كان يعتقد .(٢٦٦) أما فرنسا فقد كانت المركز التجاري الأساسي للتجار السوريين ، وحتى سنة ٧١٦ م/٩٨هـ كان جنوب فرنسا يستورد التوابل الشرقية وأوراق البردى ومنتجات أخرى .(٢٦٧) ونجد دليلا على ذلك كما يقول بيرين في الامتياز الذى منحه الملك الميروفنجي في تلك السنة لدير كوربي Corbie باستيراد البضائع الشرقية دون دفع ضريبة في ميناء فوس Fos . ان هذا الامتياز يؤكد ما كان قد منح من

---

(٢٦٣): Lopez, Op. Cit. p. 22.

(٢٦٤): Diet, ch., Etudes Sur L'Administration Byzantine dans L'xarchat de Revenne, Paris, 1888, pp. 279 - 280.

(٢٦٥): Ibid., pp. 279 - 280.

(٢٦٦): Ibid., pp. 255 - 256 .

(٢٦٧): Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne, New York, 1939, p. 88.

../..

امتيازات في القرن السابق ،ومع ذلك فهنالك شواهد تشير الى وجود أزمة اقتصادية في فرنسا واسبانيا في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين ،ومهما كانت عوامل هذه الأزمة فقد انعكست على النقد المستخدم عند القوط والميروفنجيين . اذ ازداد الاعتماد على النقد الفضي ،بينما أخذ النقد الذهبي بالتضاؤل .(٢٦٨)

ان هذه الأدلة تشير الى أن حوض البحر المتوسط كان وحدة مزدهرة سنة ٧٠٠ م /٨١ هـ، فاذا درسنا الوضع الاقتصادي سنة ٧٥٢ م./١٣٥هـ نجد كما يقول ارشيبالد لويس صورة مغايرة تماما ،نجد مصر والشام في حالة من الاضطراب والفوضى ، وكذلك شمالي افريقيا واسبانيا وفرنسا راكدة ولا نجد أثرا للسوريين والمصريين في الأسواق الغربية ، ونجد أن الاسرة الكارولنجية هي المسيطرة بدلا من الميروفنجيين في اكس لا شابل Aix-La Chapelle والعباسيون بدلا من الامويين وعاصمتهم بغداد ،وكلتا العاصمتين تبعدان عن شواطئ البحر المتوسط . ولا شك أن أمرا هاما قد حدث أدّى الى مثل هذه الثورة الاقتصادية والسياسية العميقة.(٢٦٩)

ان تفسير هذه التغييرات الاقتصادية والسياسية يقع في التبدل الذى أصاب طبيعة النزاع بين الامويين والبيزنطيين ، ما بين ٦٩٣ - ٧٥٢ م/ ٧٤ - ١٣٥هـ ، ذلك أن الاسلوب الذى اتبعه العرب في محاولاتهم للاستيلاء على القسطنطينية كان عسكريا بحتا في البدء . أما في محاولتهم الثالثة للقضاء عليها نرى تدخل العامل الاقتصادى . فبالاضافة الى العداء العسكرى والبحرى أضيفت الحرب الاقتصادية ، وقد بدأت هذه الحرب الاقتصادية عندما ضرب عبدالملك بن مروان الدنانير الذهبية المعربة الأولى وأرسلها لجستنيان الثاني في القسطنطينية كاتاوة ،(٢٧٠) كما أن عبدالملك أمر أن تزال الشارات والتعابير المسيحية من أوراق البردى ،وأن تضاف التعابير الاسلامية.(٢٧١)

---

(٢٦٨): Ibid., pp. 84 - 85.

(٢٦٩): Archibald Lewis, Op. Cit., p. 88.

(٢٧٠): Ibid., p. 89. Lopez. Op. Cit., p. 21.

(٢٧١): البلاذرى ،فتوح ،ص ٢٤١ ، ٢٤٢.

../..

ومن الواضح أن عبد الملك أراد بعمله هذا أن يحرر الدولة الاسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا ،وأن يقيم وحدة اقتصادية مستقلة من جهة ، كما أنه أراد بعمله هذا أن يحقق نوعا من الضغط الاقتصادي على بيزنطة ، وكان جواب جستنيان على ذلك اعلان الحرب على العرب ،ولا شك أنه قام من ناحية أخرى بتدابير لقطع التجارة مع أعدائه ، وهذا هو التفسير الوحيد ربما لذلك التهجير الوحشي الاجباري لسكان قبرص الذين كانوا يتاجرون مع الشام ، فاذا كان هذا التعليل صحيحا فانه يفسّر كذلك ثورة الاسطول في بند كيبرهايوت Kibyrrhaeot (٢٧٢) الذي يعتمد الى حد كبير في تجارته على مصر ، وسيره نحو القسطنطينية لخلع خليفة جستنيان الثاني ، (٢٧٣) وقد يفسّر لنا كذلك لماذا أسهم تجار رافينا وهم الذين كانوا يمدون مصر بالاخشاب في سقوط ذلك الامبراطور، (٢٧٤) كما أنه مما يثير الانتباه أن من أول أعمال تيبريوس الثالث اعادة اسكان قبرص في ٦٩٨م/ ٧٥هـ ، (٢٧٥) كما أنه لم يعد فقط القبارصة الذين تفرقوا في المناطق التابعة لامبراطوريته وانما حاول كما رأينا ارجاع أولئك الذين كانوا قد هربوا الى الشام ، (٢٧٦) وربما حقق تيبريوس بذلك

Ibid., p. 89. Lopez. Op. Cit., p. 21.

(٢٧٢) : يضم بند الكيبرهايوت الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى والجزر القريبة منه
Ostrogorsky, Op. Cit., p. 139.

(٢٧٣) : Archibald Lewis, Op. Cit., p. 89.

(٢٧٤) : Diel, Exarchat, p. 279 - 80.

(٢٧٥) : George Hill., The History of Cyprus, Vol. I., pp. 288 - 289.

(٢٧٦) : Ibid., p. 289.

يشير أوستروغورسكي الى أن جستنيان نقل سكان قبرص الى مقاطعة Cizicus التي كانت قد تأثرت الى حد كبير نتيجة لحصار القسطنطينية ، وكانت بحاجة الى ملاحين متمرسين .
Ostrogorsky., Op. Cit., p. 118.

../..

نوعا من السلم الاقتصادى مع الأمويين لأننا لا نشاهد ضغوطا اقتصادية تمارس من قبل الخليفة في دمشق في عهد ذلك الامبراطور .

ولكن ما أن عاد جستنيان الى السلطة سنة ٧٠٥ م / ٨٧ هـ حتى نلاحظ عودة الى ظهور حرب اقتصادية مرة ثانية ، فنلاحظ من جهة استمرار الوليد في عملية التعريب التي تمت في الشام والعراق في خلافة عبد الملك والتي لم يتم تطبيقها في مصر الا في عهد الوليد بن عبد الملك .(٢٧٧) وتشير أوراق البردى ،أن الأوراق المصرّية تماما تعود الى ٧٠٩م/٩١ هـ وأن آخر ورقة بردى تحمل اللغتين اليونانية والعربية تعود الى ٧١٩ م / ١٠١ هـ . كما أن الوليد هو الذى طبق في نفس السنة ٩١ هـ ولاول مرة الرقابة على سكان مصر ، فقد طبق نظاما صارما أجبر فيه الافراد على حمل سجلاتهم ،وألزم كل فرد يريد الانتقال من جهة الى أخرى في أنحاء القطر المصرى أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل سجله ،وقد أمر الوالي بالقبض على كل شخص لا يحمل سجله معه ، أما من فقد سجله أو أتلفه فقد كان الوالي يلزمه الحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير ،(٢٧٩) كما أن مخطوطة سريانية لمؤلف مجهول تشير الى أن الوليد أصدر عام ٧٠٨ م / ١٠٢٠ سلوقي / ٩٠ هـ أمرا باحصاء المقيمين ، وكذلك كل مسافر يعود الى منطقته أو أرض أجداده أو مكان تولده ،(٢٨٠) أى نلاحظ تشديدا على تحركات الرعايا نجد ما يقابله عند حكام بيزنطة الذين بدأوا يتشددون كذلك على رعاياهم الذين يريدون التوجه الى الأراضي العربية ،(٢٨١) الا أن الاجراءات الاقتصادية التي اتخذها جستنيان الثاني وخلفاؤه هي التي كان لها أكبر الأثر ،ومن الصعب اعطاء صورة متكاملة للنظام الذى طبق ، في حين يمكن اعطاء الخطوط العريضة له في العودة الى النظام التجارى المقيّد

---

(٢٧٧) : الكندى ،ص ٥٨ .

(٢٧٨) : Archibald Lewis. p. 90;

(٢٧٩) : ساويرس ،ج ٥ ص ٧٠ .

(٢٨٠) : ص ١٧٦ من المخطوطة السريانية المترجمة الى اللاتينية — ص ٢٣٣ من المخطوطة الأصلية .

(٢٨١) : Archibald Lewis p. 91

../..

الذى كان متبعا في عهد جستنيان الاول وخلفائه ضد الامبراطورية الساسانية ، حيث كانت طرق التجارة والبضائع المستوردة كلها موجهة بدقة لمصلحة الامبراطورية والدفاع عن مصالحها ، كما أن بيزنطة استخدمت أسطولها لدعم ذلك النظام ، وهنالك من الأسباب مايدفع الى الاعتقاد بأن بيزنطة طبقت في حوالي ٧١٥ ، ٧١٦م / ٩٧ ، ٩٨ هـ الحرب الاقتصادية المدعومة بالقوى البحرية على الولايات الأموية ، وبعض المناطق المجاورة ، والافتراض ، كما يقول هايد Heyd ، بأن هذا النظام قد طبق على الولايات العربية يزداد عندما نعلم أن آخر حمولة ضخمة من البضائع الشرقية تسجل في ميناء فوس Fos كانت ٧١٦م / ٩٨ هـ ، كما أن مملكة لومباردیا أوقفت استخدامها لأوراق البردى ، (٢٨٢) أى أن البيزنطيين أغلقوا البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الأراضي العربية ، الا اذا اتبعت هذه السفن الطرق والتنظيمات المفروضة من قبل بيزنطة . وقد يفسر هذا توجه أسطول اسلامي ضخم في أواخر سنة ٩٩ هـ نحو القسطنطينية ، اذ أن الحصار البيزنطي كان يعني تهديدا للحياة الاقتصادية والتجارية في الشام ومصر. (٢٨٣)

الا أن بيزنطة لم يكن باستطاعتها أن تتخلى عن منتجات العالم العربي ، كما أن التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار العرب كانت مواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية ، ولذلك سمح حكام بيزنطة لموانئ أو مرفأين مراقبين استقبال التجار المسلمين ، منها طرابزون (Trebizond) الذى كان يسمح فيه بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة . (٢٨٤) ويعلق لوبيز (Lopez) أنه بالرغم من أننا لا نملك دليلا واقعيا ، الا أنه ليس مايمنعنا من الافتراض أن هذا الاجراء قد يعود الى سنة ٧١٦م / ٩٨ هـ ، أو قبل ذلك ، لأن اختيار طرابزون كمركز للتجارة

---

(٢٨٢): Heyd, Histoire du Commerce du Levant, Leipsiq 1885, pp. 89 - 92.

(٢٨٣): Lopez. Op. Cit., pp. 26 - 28 .

(٢٨٤): Lopez. Silk Industry in the Byzantine Empire, in Speculum, 1945, XX 26 - 27 .

../..

العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة ، فطرابزون مرفأ أمين على البحر الأسود غير مهدد ، وباتخاذهم طرابزون كمحطة نهائية للتجارة العربية سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام المركزين البحريين لمنافسيهم الأمويين الى بلاد ما بين النهرين التي لم تكن تشكل خطرا عليهم ، وربما كانت القسطنطينية المرفأ التجاري الثاني الذي كان يسمح فيه للتجار بالدخول والخروج منه ، لأننا اذا نظرنا الى التعليمات الواردة في كتاب صادر في القرن التاسع الميلادي والمتعلقة بتجارة العاصمة ، فان هذه التعليمات تشير بصراحة الى أن تجار العرب كانوا يشجعون على المجيء الى المدينة من القرن الذهبي حيث كانوا يعطون امتيازات تجارية خاصة ،[٢٨٥] وربما كان هذا الوضع مطبقا منذ العام ٧١٨م/١٠٠هـ ، فالجامع الذي يقال أن ليون الأيسوري قد بناه في القسطنطينية قد يؤيد هذا الافتراض .[٢٨٦]

غير أن وضع نظام لتقييد التجارة شيء ، وفرضه على الأعداء العرب أمر آخر ، الا أن عاملين اثنين سهلا تنفيذه اكثر مما كان متوقعا ، العامل الأول ، قوة الاسطول البيزنطي الذي خرج منتصرا سنة ١٠٠هـ وأخذ يمخر عباب البحر المتوسط وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من الجزر في البحر المتوسط كجزر البليار ، ساردينيا ، كورسيكا ، التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال الافريقي والساحل الاسباني ، بالاضافة الى سيطرة بيزنطة على مضيق مسينا وعلى مدخل البحر الادرياتيكي ، ولذلك كان من السهل جدا منع أي سفينة تتوجه غربا أو شرقا من الاستمرار . أما العامل الثاني الذي ساعدهم ، هو أن الطريق البحري المحاذي للساحل الجنوبي للبحر المتوسط من مصر الى شمالي افريقيا كان طريقا خطرا للملاحة ، والمرافئ الصالحة للسفن قليلة ما بين برقة وطرابلس ، ولذلك فان الطريق البحري المتبع هو طريق كريت قبرص ، الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، وبالرغم من أن الخط البحري المباشر

---

(٢٨٥): Ibid., p. 27.

(٢٨٦): Archibald Lewis. Op. Cit., p. 94.

../..

من الاسكندرية الى كريت كان مستخدما كذلك ، الا أن قوة الاسطول البيزنطي مكنته من أن يقطع بشكل فعال التجارة ليس مع الغرب فقط ، وانما بين الشام ومصر وشمالي افريقيا أيضا .(٢٨٧) واذا استطاعت سفينة أن تفلت من رقابة الأسطول البيزنطي في نقطة معينة ، فهناك احتمال كبير أن يعترضها الاسطول في مكان آخر ، ونظرة الى شواطيء البحر المتوسط في هذه الفترة تبين لنا أن هذا الحصار الاقتصادى قد طبق وبشكل فعّال ،لأننا اذا اتجهنا بأنظارنا الى الشرق حيث كانت الاجراءات الاقتصادية والبحرية موجهة ضد مصر والشام بالدرجة الأولى ،نلاحظ أن الشام سنة ٧٥٢ م/ ١٣٥ هـ قد خسرت مركزها التجارى الهام وبقيت عاجزة مدة عشرين عاما من تشكيل أسطول.(٢٨٨) وانتقل الحكم الى العباسيين ،حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجارى المتوجه نحو طرابزون ، وخسرت دمشق مكانتها كمركز الخلافة الاسلامية . هذا في الشرق ، أما في الغرب ، فنجد أن فرنسا التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر تمر بفترة ركود اقتصادى بعد سنة ٧١٦ م ، اذ لم نعد نرى تجارا سوريين في موانئها الجنوبية أو تجارا من مناطق أخرى ، كما أن المدن التي هدّمها الكارولنجيون بقيت مهدّمة ،(٢٨٩) كما توقف سك النقود الذهبية مدة خمسين سنة ابتداءا من منتصف القرن الثامن الميلادى ،ولذلك فان بيرين Pirenne يتهم البيزنطيين بتحطيم وحدة البحر الأبيض المتوسط القديمة ، ففي حربهم حتى الموت ضد الأمويين استخدمت بيزنطة الاجراءات الاقتصادية والبحرية للوصول الى النصر في الفترة مابين ٧١٥ - ٧٥٢ م/ ٩٧ - ١٣٥ هـ ، وقد ساعدت الظروف السياسية واضطراب الأمر في الشام وقيام الثورة العباسية بيزنطة على تحقيق مآربها ، وبعملها هذا ،كمايقول بيرين ، حطمت بيزنطة النمط الاقتصادى القديم للحياة في بلدان البحر المتوسط ،وهيّأت المجال لظهور نمط جديد .(٢٩٠)

****

---

(٢٨٧): Ibid., P. 95.

(٢٨٨): George Hill. Op. Cit., Vol. p. 290.

(٢٨٩): Buckler. F.W. Harun al-Rashid, Cambdridge 1927, P. 7.

(٢٩٠): Pirenne, Op. Cit., PP. 162 - 163.

==================

الفصـــل الثالـــث

التنظيم العسكري

عناصر الجيش :

لم يكن هناك في عهد الرسول ثمة فاصل بين مجتمع وجيش،اذ أن الجماعة الاسلامية في المدينة بكاملها كانت تعتبر جماعة محاربة يتوجب على أفرادها المشاركة في الجهاد بشكل أو بآخر ،وان كان الرسول حريصا على أن لا يخرج معه الا الراغب في الجهاد ،[1] ثم سارت الأمور نحو وجود هذا التمايز بقدر ماكان الاسلام يتقدم وينتشر بين القبائل ،[2] اذ أصبح هنالك مسلم مجاهد ، وآخر غيرذلك دعي بالاعرابي .[3] واستمر هذا التمايز وتضخم مع الزمن ، ففي خلافة أبي بكر وأثناء الردة عمد الى التكليف ، فكلف من بقي على الاسلام والطاعة بمواجهة المرتد من قومه ، كما كلف أمراء بعض المناطق بضرب البعث على من لم يلحق طوعا في الجهاد ، فأمر عثمان بن أبي العاص أن يضرب بعثا على الطائف على كل مخلاف بقدره ، فضرب على كل مخلاف عشرين رجلا ،[4] وكتب الى عتاب بن أسيد أن يضرب على أهل مكة وعملها خمسمائة مقو،[5] وعندما بدأت الفتوحات في عهد أبي بكر رفض الاستعانة بأحد من أهل الردة .[6] فلما كانت خلافـــة

---

(١) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٢ ص ٢٧ . الطبري ،ج ٣ ص ١٠٧ .

(٢) : د . أحمد بدر ،التنظيم العسكري عند العرب ،مجلة " دراسات تاريخية" ، العدد الرابع ،نيسان ١٩٨١ ،ص ١١٨ .

(٣) : ابن رشد ،بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، مطبعة الاستقامة ، القاهـــرة ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٢٨ م ،ج ١ ،ص ٣٧٤ . يذكر ابن رشد أنه ثبت أنه عليه السلام كان اذا بعث سرية قال لأميرها ،اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث أو خلال .... أدعهم الى الاسلام فان أجابوك فاقبل وكفّ عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، واعلمهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ماللمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين ، فان أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعـــراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب الا أن يجاهدوا مع المسلمين ....

(٤) : الطبري ،ج ٣ ص ٣٢٢ .

(٥) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٣٢٢ .

(٦) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٣٢٧ ، ٣٤١ ،ج ٤ ص ٢٥ .

../..

عمر بن الخطاب لم يشأ أن تظل هذه القوى معطلة ، فأذن لهم عمر أن يشاركوا في الحروب ولكن كجنود في بادئ الأمر ، يذكر الطبرى أن عمر ندب أهل الردة فأقبلوا سراعا من كل أوب فرمى بهم الشام والعراق ،(٧) أشركهم عمر في الجهاد ولكنه لم يعطهم في الرياسة كما يقول الشعبي ،(٨) وانما بعد سلطانهم دون المائة .(٩) وقد اضطر عمر ازاء تردد العرب في الالتحاق بالجبهة الفارسية أن يعمد الى وضع أسس القاعدة الجديدة للتجنيد حين نص على الالتزام الى جانب التطوع ،فكتب الى عماله على الأقاليم " ولا تدعوا في ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدة ،ولا فارسا الا جلبتموه ، فان جاء طائعا والا حشرتموه".(١٠) كما كتب لبعض قواده : " لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الي والعجل العجل". (١١) وقد اقتضت هذه القاعدة تدابيرا جديدا لضبط نشاطها ، فكان أن أوجد عمر الديوان الذى كانت مهمته كما يقول ابن خلدون " احصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم ". (١٢)

هذا ويمكن اعتبار وضع الديوان الخطوة الاساسية في تنظيم المقاتلة ،لأن المسلم مادام قد ضمن عطاءه وعطاء أهله ،فقد لزمه الجهاد اذا دعي واستوفى شروطه ، كما أن عمر أوضح منذ البدء أن العطاء هو لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم ، وهم أهل المدائن فصاروا بعد الى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والاردن وفلسطين ومصر،(١٣) وقال : " الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ، ولم يفرض لغيرهم ،

---

(٧) : الطبرى ،ج ٣ ،ص ٤٤٨.

(٨) : المصدر السابق ،ج ٤ ص ٢٥.

(٩) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٥٥٧.

(١٠) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٤٧٨.

(١١) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٤٧٩.

(١٢) : ابن خلدون ،المقدمة ،ج ١ ص ٢٠٢.

(١٣) : الطبرى ،ج ٣ ، ص ٦١٩ ، ابن رستة ،الأعلاق النفيسة ، ص ١٠٧.

../..

ألا فبهم سكنت المدائن والقرى وطوبهم بعون الصلح والمهم أدن الجزاء وبهم سـدت الفروج ودوّخ العدو .»(١٤) وإذا علمنا أن عمر وجه أوامره الى أمراء الأجناد أن يتقدموا الى الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون ،(١٥) وأن الرجل اذا أخلّ بوجهه الذى يكتب اليه زمن عمر وعثمان كانت تنزع عمامته ويقام للناس ويشهر أمره ،(١٦) أمكننا القول بوجود جيش ثابت مهمته الجهاد ابتداءً من عهد الخلفاء الراشـدين ، ويرى البعض وجود تناقض في النصوص الواردة في هذا الموضوع فمرة نرى الخليفة يبيـح الزراعة للجند وأخرى نراه ينهاهم عنها ويعاقب من يشتغل بها ، وما ذلك الا لأنه كان يحرمها على الجند النظامي ويبيحها للمتأوعين الذين يلتحقون بالجيش من البوادى والأمصار والبلاد المفتوحة ،فهؤلاء كانوا يجنّدون وقت الحرب ويسرّحون وقت السلم وحظهم من الجهـاد أسهمهم من الغنيمة فقط ،ولا يمنعهم الخليفة من الزراعة .

ومن تتبعنا لجيوش الفتح والامدادات التي تتالت ،يتبين لنـا أن هذه الجيـوش في الشام كانت تتألف بالدرجة الأولى من القبائل العربية ولا سيما اليمانية منها ، يذكـر ابن الاعثم أن الأزد في معركـة اليرموك كانت في ذلك اليوم في القلب ،وحمير وهمـدان ومذحج وخولان وخثعم وكنانة وقضاعة ولخم وجذام وحضرموت ميمنة وميسرة ، ولم يكن فيهـم تميم ولا ربيعة لأنهم كانوا في العراق مع سعد بن أبي وقاص .(١٧) ونلاحظ منذ البـدء استنادا الى ماورد عند ابن سعد والطبرى اشتراك العجم الذين دخلوا في الاسلام مع العرب(١٨) وانضمت جماعات من الروم التي رغبت في الاسلام اثر معركة اليرموك وبعد فتح قيسـاريـة

---

(١٤) : الطبرى ،ج ٣ ص ٦١٥ .

(١٥) : ابن عبد الحكم ،فتوح مصر ،ص ١٦٢ .

(١٦) : ابن الاثير ،ج ٤ ص ٣٨٠ .

(١٧) : ابن الاعثم ،فتوح ،ج ١ ص ٢٥٤ .

(١٨) : الطبرى ،ج ٣ ، ص ٦١٥ ،ابن سعد ،ج ٣ قسم ١ ص ٢١٩ .

../..

الى عمرو بن العاص من الشام وسارت معه الى مصر لفتحها .(١٩) ويذكر المقريزى عدد من رافق عمرو بن العاص من بني بنة مائة رجل ومن بني الأزرق أربعمائة رجل ومن بني روبيل ألف رجل .(٢٠) كما لم يخل جيش عمرو بن العاص في مصر من وجود جماعة فارسية ، وقيل انهم قوم من الفرس الذين كانوا بصنعاء . وقد نزلت الفرس كما يقول ابن عبد الحكم بناحية بني وائل :(٢١) وكان سنبخت على عرافة الفارسيين وكان في شرف العطاء .(٢٢)

نلاحظ أن قادة الفتح يستعينون كذلك في مناطق الثغور والمناطق المعرّضة لهجوم من القوى البيزنطية بالمعاهدين مقابل اسقاط الجزية ، فقد صالح الجراجمة حبيب بن مسلمة الفهرى على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية ،(٢٣) وعندما أرسل أبو عبيدة ميسرة بن مسروق العبسي للدخول في الدروب وراء الأعداء(٢٤) أشار عليه خالد أن يرسل معهم أدلاء يعرّفونهم الطريق ويكونون لهم عيونا على أعدائهم ، فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكونون ناصحا لهم فاختاروا لهم وأعطاهم أبو عبيدة وأحسن اليهم وطرح عنهم الجزية.(٢٥)

وبقيت الاستعانة بالمعاهدين مقصورة على مناطق الثغور في خلافة بني أمية ، الا أنهم لم يكونوا دائما يطرحون عنهم الجزية ، ففي أقصى الشمال عند التوغل في

---

(١٩) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٢٩ .

(٢٠) : أحمد بدر ، التنظيم العسكرى عند العرب ، ص ١٢٠ .

(٢١) : ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٢٢) : ابن ماكولا ، الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الاسماء والكنى والأنساب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ج ٤ ص ٣٨٦ .

(٢٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٦٤ .

(٢٤) : الطبرى ، ج ٤ ص ٢١١٢ ، الواقدى ، فتوح ، ج ٢ ص ٢ ، ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ .

(٢٥) : الواقدى ، ج ٢ ص ٢ .

../..

في أرمينيا باتجاه الخزر في عهد هشام بن عبدالملك نجد أن مروان بن محمد وظف على أهل طبرسرانشاه عشرة آلاف مدى في كل سنة تحمل الى أهراء الباب (٢٦) بعد أن صالحه ملكها، (٢٧) وعلى صاحب طبرسرانشاه أن يكون في الساقة اذا بدأوا بمهاجمة العدو، وفي المقدمة اذا انصرفوا، (٢٨) كما أنه عندما سار الى قلعة صاحب شروان وهي تدعى خرش أذعن بالطاعة والانحدار الى السهل فألزمهم عشرة آلاف مدى في كل سنة وجعل على صاحب شروان أن يكون في المقدمة اذا بدأ المسلمون بغزو الخزر وفي الساقة اذا رجعوا، (٢٩) ولكنه لم يوظف شيئا على فيلانشاه وذلك " لحسن غنائه وجميل بلائه واحماده أمره" (٣٠) وانما جعل عليه أن يغزو معهم فقط. (٣١)

وعندما نقض جستنيان الثاني الهدنة سنة ٦٩٣م/٧٤هـ مع عبدالملك متخذا من مسألة الدنانير تعلة لنقض الصلح، التقى المسلمون بالجيوش البيزنطية بالقرب من قيسارية Caesarea في معركة سيباستبولس Sebastopolis، (٣٢) وكان جستنيان قد اتجه الى محاولة استخدام الصلاف في الدفاع عن الدولة، فجمع عددا كبيرا من الصلاف ووزعهم على أشد المناطق تعرضا لهجمات المسلمين في آسيا الصغرى والتي كانت في طريق زحفهم جنوب القسطنطينية، فكوّن منهم فرقة كبرى بلغت (٣٠،٠٠٠) جندي، وجعل مقرّها الرئيسي في بند الأوبسكيون المطل على الدردنيل، وقد اغترّ جستنيان باستعداداته، ولكنه هزم هزيمة ساحقة كاد معها أن يخسر آسية الصغرى بكاملها، وانحاز عشرون ألفا من الصقالبة

---

(٢٦): البلاذري، فتوح، ص ٢١٠.

(٢٧): المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٢٨): المصدر السابق، ص ٢١١.

(٢٩): المصدر السابق، ص ٢١١.

(٣٠): المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٣١): المصدر السابق، ص ٢١١.

(٣٢): تعرف هذه المنطقة اليوم باسم سولوسراي Sulu Saray

Ostrogorsky. Op. Cit., p. 118.

../..

الى المسلمين مما استثار حقد جستنيان فعمد الى اجراء مذبحة فيمن بقي منهم بجيشه عند لوكاتا،[٣٣] ولذا غدا السلاف مستعدين لخدمة المسلمين في أى نضال حربي ينشب بينهم وبين البيزنطيين ،لا سيما وأنهم كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى. ويذكر المؤرخ ميخائيل السورياني أن عبد الملك أسكن هؤلاء الصقالبة الذين انحازوا الى المسلمين منطقة انطاكية،[٣٤] وربما دخل قسم من هؤلاء بعد ذلك في الاسلام ، اذ يرد في أنساب الاشراف أن مروان بن محمد كان له موالي من الخزر والصقالبة والروم،[٣٥] كما يذكر البلاذري أن سلمان وزياد كانا من الصقالبة الذين رتبهم مروان بن محمد في الثغور،[٣٦] وعندما بنى مروان بن محمد الخصوص شرقي جيحان ،بنى عليها حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقا وأسكنها الفرس والصقالبة وأنباط نصارى وأعطاهم خططا في المدينة وأعانهم على البناء.[٣٧]

أما اذا أردنا التعرّف على العناصر التي كان يتألف منها الجيش الشامي في العصر الأموى ،فلابد من دراسة النصوص المختلفة المتعلقة بالجيوش التي اشتركت اما بقمع الفتن أو الفتوح ،ففي صفين تختلف الروايات في عدد جند معاوية ما بين ٧٠ ألف[٣٨] الى بضع وثمانين ألفا،[٣٩] الى مائة وعشرين ألفا،[٤٠] ولكنّها تتفق على أن جيش معاوية كان يتألف من القبائل العربية[٤١] التي قطنت أو كانت قاطنة في أنحاء الشام ،وأن هذا الجيش

---

(٣٣) Theophanes, Sixth Year of Justinian , 692. A.C. p. 558, 559
George Hill. Op. Cit., p. 287.

ويستبعد اوستروغورسكي رواية تيوفانس القائلة بأن جستنيان قضى على من بقي من الصقالبة لأن الصقالبة وجدوا في القرن العاشر في جند الاوبسيكيون.

(٣٤): George Hill. Op. Cit., P. 288.

(٣٥): البلاذرى ،أنساب ،القسم الثالث ص ١٢١.

(٣٦): البلاذرى ،فتوح ،ص ١٥٥.

(٣٧): المصدر السابق ،ص ١٧٠.

(٣٨): خليفة ،ج ١ ص ٢١٨.

(٣٩): ابن عبدربه ،العقد الفريد ،ج ٣ ص ٣٣٧.

(٤٠): ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ،ج ١ ص ٣٨.

(٤١): خليفة ،ج ١ ص ٢٢٢ ،الطبرى ،ج ٥ ص ١٤ ،ابن الاثير ،ج ٣ ،ص ٢٩٦.

../..

كان جله يتألف من قبائل قضاعة واليمن ولا نجد ذكرا الا لقيس دمشق، (٤٢) وعند الدينوري لقيس حمص (٤٣) (لأن منطقة قنسرين في ولاية معاوية للشام كانت لا تزال تابعة لجند حمص) أما الموالي فلا يرد ذكر لهم الا كتابعين لأسيادهم. (٤٤)

وبالرغم من أن الروايات المتعلقة بالجيش الذى أرسله يزيد الى الحجاز لا تشير الى القبائل وانما الى عدد المقاتلة الذين انضموا الى مسلمة بن عقبة المرى من كل جند، أو عدد المقاتلة من أهل الشام عامة، (٤٥) فانه يمكننا القول أن دور الموالي في الجيش في الفترة السفيانية كان محدودا جدا، فمن جهة نرى أن المقاتلة الذين اشتركوا في معركة مرج راهط سواء مع الضحاك أم مع مروان كانوا كلهم من العرب، (٤٦) كما نستنتج من اقتران عبيد الله بن زياد وعبد الرحمن بن عبيد الله الثقفي بجمع موالي بني أمية وتسليحهم أجمعين (٤٧) حتى يتسنى لهم دعم مروان أن موالي بني أمية حتى هذه الفترة لم يكن يعتمد عليهم في القتال، ولكن هذا الاعتماد يزداد تدريجيا ابتداءً من خلافة عبد الملك، فعندما ثار الجراجمة في جبل اللكام استطاع سحيم بن المهاجر أن يقضي على ثورتهم بجيش من موالي عبد الملك وموالي بني أمية، وجند من ثقات جنده، (٤٨) وأرسل عبد الملك أربعين رجلا من أهل غوغانة مع رجل من بصرى للقبض على الحارث الكذّاب الذى ادّعى النبوة وطلب منهم أن ينطلقوا معه ويطيعون، (٤٩) وعندما ثار يزيد بن المهلب سنة ١٠١، جهز يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة

---

(٤٢) : خليفة، ج ١ ص ٢٢٢، الدينوري، ص ١٧٢.

(٤٣) : الدينوري، ص ١٧٢.

(٤٤) : الطبري، ج ٥ ص ١٩.

(٤٥) : اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥١، تهذيب دمشق، ج ٧ ص ٦٠.

(٤٦) : البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٨، الطبرى، ج ٥ ص ٥٣٨، تهذيب، ج ٧، ص ٧.

(٤٧) : البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٨.

(٤٨) : البلاذري، فتوح، ص ١٦٥، ابن الاثير، ج ٤ ص ٣٠٤.

(٤٩) : ياقوت الحموى، ج ٣، ص ٣٢٤.

../..

وابن أخيه العباس بن الوليد في سبعين ألف مقاتل ، وقيل كانوا ثمانين ألفاً (٥٠) ، فلما سمع أصحاب ابن المهلب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك فخطب ابن المهلب الناس وقال : قد رأيت أهل العسكر وخوفهم ، يقولون قد جاء أهل الشام ومسلمة ، وما أهل الشام ؟ هل هم الآ تسعة أسياف سبعة منها الي وسيفان علي ، وما مسلمة الآ جرادة صفراء أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاحين ، (٥١) أي بمعنى أن نسبة العرب الى الموالي كانت ٧ : ٢ ، واذا تبين لنا كذلك ظهور فرقة عرفت بالوضاحية لعبت دورها في القضاء على ثورة يزيد بن المهلب ، (٥٢) وأن وضاح كان مولى لبني أمية ، وكان بربريا ، وأن ياقوت الحموى اعتمد في قوله هذا على السكرى في قول جرير :

لقد جاهد الوضاح بالحق معلنا

فأورث مجدا باقيا آل بربرا

أمكننا القول أن الوضاحية فرقة من الموالي ، لاسيما أننا نرى هذا البيت في قصيدة لجرير (ضاربو هام الملوك) قالها أيام يزيد بن عبد الملك في أواخر حياته ، حيث نراه يثنى على الموالي ويطيل في ربط العرب بالعجم بأبي الانبياء ابراهيم الخليل . فيقول :

وأبناء اسحاق الليوث اذا ارتدوا

حمائل موت لابسين السنّورا

فيوما سرابيل الحديد عليهم ،

ويوما ترى خزّا وعصبا منيّرا

لقد جاهد الوضاح بالحق معلنا

فأورث مجدا باقيا آل بربرا

أبونا ، أبو اسحاق يجمع بيننا

أب كان مهديا نبيا مطهّرا

---

(٥٠) : ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٥١) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٧٣ ، ٧٤ ، العيون والحدائق ، ص ٧٠ .

(٥٢) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٩٥ ، ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

../..

فيجمعنا والفزر أبنـــاء سـارة

أب لا نبالي بعد من تعـــذرا . (٥٣)

ويستمر جرير في القصيدة في حوالي أربعة عشر بيتا ، وهو في قصيدته هذه قد تراجع من نظرته القديمة ، نظرة الاشمئزاز من الموالي واحتقارهم ، (٥٤) وقد سلك هذا المسلك لاشتراك الموالي مع جيوش الخليفة في القضاء على ثورة يزيد . (٥٥) ونستطيع أن نفهم موقف جرير هذا اذا عرفنا أن جريرا كان شاعرا سياسيا بالمعنى التام ، شاعرا يحامي عن نظرية حق الامويين في الحكم ويناضل عنهم ويسدد سهامه الى خصومهم ، وهو في تضاعيف ذلك يحفهم باطار رائع من التقوى والعمل الصالح مقررا أن شيعتهم على الحق وأن من يخالفهم من الشيع أهل باطل . (٥٦)

يا آل مروان ان الله فضلكـــم

فضلا عظيمـا على من دينه البـــدع .

واعتمد مروان بن محمد على الوضاحية في القضاء على ثورة حمص ، (٥٧) وكان عددهم ثلاثة آلاف كما استخدمهم مروان لقمع ثورة أهل الغوطة ، (٥٨) ويرد كذلك اسم الذكوانية وأنهم

---

(٥٣) : ديوان جرير ، دار صادر ، بيروت ، ص ١٨٥ — ١٨٧ .

(٥٤) : نستشف هذه النظرة من الأبيات التي قالها عندما هجا جرير بني العم الذين أعانوا الفرزدق ، وكانوا قوما من أهالي فارس قد نزعوا الى العراق أيام عمر وعاشوا بينهم فقال فيهم :

سيروا بني العم ، فالاهواز منزلكم ونهر تيرى ، فلم تعرفكم العـــرب

الضاربو النخل لا تنبوا مناجلهم من المذوق ولا يحميهم الكـــرب

وقال لطعمة بن قرط العنبري لما أراد أن يبيعه رفد القرى ، وأن هذا يجب أن يتعفف عنه العربي ولا يأتيه الا الموالي :

قالوا اشتروا جزرا منا فقلت لهم بيعوا الموالي واستحيوا من العرب

وقال في هجاء التيم :

وما جعل القوادم كالذنابى وما جعل الموالي كالصميـــــم

(٥٥) : د . نعمان محمد أمين طه — جرير ، حياته ، وشعره ، دار المعارف ، مصر ، ص ١٧٥ .

(٥٦) : د . شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر الاسلامي ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، مصر ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٥٧) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٣ ، ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٥٨) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٣ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢٩ .

٠٠/٠٠

موالي سليمان بن هشام بن عبدالملك ، (٥٩) وكان مع مروان يوم معركة الزاب ثلاثة آلاف من المحمرّة ومعه الذكوانية والصحصحية والراشدية ، بالاضافة الى القبائل العربية ، قضاعة ، السكاسك ، بني عامر ، بني سليم ، السكون ، غطفان . (٦٠) ويذكر خليفة ابن خياط أن مروان كان في مائة ألف من المقاتلة من أهل الشام والجزيرة ، وحشدت معه بنو أمية بأنفسهم وأتباعهم ، (٦١) أما المحمره فهم على الاكثر موالي مروان بن محمد من الخزر والصقالبه والروم ، (٦٢) وقد رأينا أن الذكوانية هم من موالي سليمان بن هشام بن عبدالملك ، فاذا اعتبرنا المحمرّة والذكوانية فرقا من الموالي أمكننا بالقياس أن نعتبر الصحصحية والراشدية من الموالي كذلك لا سيما وأن الطبرى يورد صراحة أسماء القبائل العربية التي اشتركت في معركة الزاب بالاضافة الى هذه الفرق من الموالي ، ثم اننا اذا رأينا كثرة موالي بني أمية في الأندلس الذين دعموا عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ، (٦٣) استطعنا أن نستنتج أن الجيش الذى أرسله هشام بن عبدالملك للقضاء على ثورة البربر والذى دخل منه حوالي ١٠ آلاف مع بلج بن بشر الى الاندلس كان يضم عددا لا يستهان به من الموالي، وان لم يرد ذلك بشكل صريح عند ذكر الجيش الذى أرسل ، وبالرغم من اسهام الموالي في الجيوش الاموية الشامية الا أن دورهم يبقى متواضعا بالنسبة للمقاتله من أبناء القبائل العربية . أما فيما يتعلق بتحديد أعداد المقاتله في الشام ، فأمر فيه بعض الصعوبه لاشتراك المتطوعين ، ومقاتلة من الامصار الأخرى أحيانا ، ففي الحملة التي وجهت للقسطنطينية في خلافة سليمان ، بلغ الجيش الذى توجه مع مسلمة مائة ألف وعشرين ألفا حسب قول ابن العبرى (٦٤) وخمسمائة ألف وثلاثين ألفا ممن يأخذون العطاء ويتقلبون في الرزق

---

(٥٩) : الطبرى ، ج ٧ ، ص ٣١٢ ، ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ، وذكوان بن عبدالله مولى عبدالملك بن مروان .

(٦٠) : الطبرى ، ج ٥ ص ٤٣٣ .

(٦١) : خليفة ، ج ٢ ص ٦١١ .

(٦٢) : البلاذرى ، أنساب القسم الثالث ، ص ١٢١ .

(٦٣) : ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ ، ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٥ .

(٦٤) : ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٤ .

../..

حسب رواية ابن قتيبة ،(٦٥) وبما أشار ابن العبرى الى عدد المقاتلة من أهل الشام بينما يذكر ابن قتيبة عدد مقاتلة الجيش من أهل الشام والأمصار الأخرى التي اشتركت مقاتلتها في هذه الحملة ،وفي نفس الوقت الذى اشترك فيه الجند الشامي في غزو القسطنطينية ، نجد الطبرى يذكر أن عدد المقاتلة الشاميين في جيش يزيد بن المهلب الذى توجه لفتح جرجان بلغ ٦٠ ألفا ،(٦٦) أى أن عدد المقاتلة في الشام في خلافة سليمان بن عبد الملك بلغ مائة ألف وثمانين ألفا ، وربما ضم هذا العدد أهل الديوان والمتطوعة كذلك ، وفي تاريخ تيوفانس أن الصائفة التي توجهت سنة ١٠٨هـ/٧٢٦ م ضمت مائة ألف مقاتل ،(١٥) ألف مقاتل بأسلحة خفيفة بقيادة عامر بن ضبارة ،و (٨٥)ألف مقاتل بقيادة معاوية بن هشام بن عبد الملك وأنهم هاجموا نيقيا (Nikaie)من منطقة بيثينيا (Bithynien) ؛(٦٧) وبالرغم من أن مسلمة بن عبد الملك كما يذكر البلاذرى أسكن أربعة وعشرين ألفا من أهل الشام في مدينة الباب والأبواب على العطاء في خلافة هشام ،(٦٨) وأن هشاما أرسل جيشا الى الأندلس يتألف من سبع وعشرين ألف مقاتل ، ستة آلاف من كل جند باستثناء جند قنسرين الذى اكتفى منه بثلاثة آلاف فقط ،(٦٩) فاننا نرى أن مروان عندما سار الى الشام لخلع ابراهيم بن الوليد ،وجه ابراهيم الجنود مع سليمان بن هشام بن عبد الملك في عشرين ومائة ألف ،بينما كان مروان في ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وقنسرين ،(٧٠) وهذا يعني تسجيلا مستمرا في ديوان العطاء في أجناد الشام ،وأن متوسط عدد مقاتلة جيش الشام كان يتراوح بين مائة ألف ومائة ألف وعشرين ألفا .

---

(٦٥) : ابن قتيبة ،الامامة والسياسة ،ج ٢ ص ٧٣ .

(٦٦) : الطبرى ،ج ٦ ص ٥٢٩ .

(٦٧) : Theophanes. Tr. Leopold Breyer. p. 38.

(٦٨) : البلاذرى ،فتوح ،ص ٢٠٦ .

(٦٩) : احمد بدر ،تاريخ المغرب والاندلس ،ص ٤٠ .

(٧٠) : الطبرى ،ج ٧ ،ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

../..

كان الجند الشامي على أهبة الاستعداد دائما طيلة خلافة بني أمية ، فالغزوات في الجبهة الشمالية ، والتي كانت تعتمد على جند الشام كانت متواصلة تقريبا بالاضافة الى الصوائف والشواتي التي كانت مستمرة ، فاذا انقطعت فمعنى ذلك انشغال الجند بقمع فتنة ، ولا شك أن نظام الصوائف والشواتي الذى ظل معمولا به طيلة خلافة بني أمية كان عبارة عن تمرينات ومناورات جماعية ، جعلت مقاتلة الشام أكفأ المقاتلين ، لأن بني أمية كما يقول البلاذرى كانت تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام والجزيرة ، (٧١) ولكن هذا لم يكن يمنع الراغبين في الجهاد من الاشتراك في هذه الحملات من الزهاد والعباد والصالحين. (٧٢) بالاضافة الى اشتراك جيش الشام والجزيرة في الصوائف والشواتي ، كانت البعوث تضرب أحيانا على أهل المدينة ، فقد ضرب الوليد بن عبد الملك البعث على أهل المدينة في سنة ٨٨ هـ ، فذكر محمد بن عمر عن أبيه أن مخرمة بن سليم الوالبي ، قال : ضرب عليهم بعث ألفين ، وأنهم تجاعلوا ، (٧٣) فخرج ألف وخمسمائة ، فغزوا الصائفة مع مسلمة والعباس. (٧٤)

وعندما حج هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ هـ بالناس ، قدم المدينة فوافق قدومه موت سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فصلى هشام على سالم بالبقيع لكثرة الناس ، فلما

---

(٧١) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٦٧ ، العيون والحدائق ، ص ٨٩.

(٧٢) : مصعب الزبيرى ، نسب قريش ص ٣٣٩ ، ابن خلكان ، ج ٢ ص ٤٢١ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٤ ص ٤٠٦.

(٧٣) : المعنى الاصطلاحي كما ورد في لسان العرب ، أن يكتب الغزو على الرجل فيعطى رجلا آخر شيئا ليخرج مكانه ، وقيل الجعل والجعالة أن يكتب البعث على الغزاة فيخرج من الاربعة أو الخمسة ، رجل ويجعل له جعل (لسان العرب ، طبعة بولاق ، سنة ١٣٠١ هـ ، مادة جعل) ، وفي حديث ابن سيرين أن ابن عمر ذكروا عنده الجعائل فقال : لا أغزو على أجر ولا أبيع أجرى من الجهاد.

(٧٤) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٣٤.

../..

رأى كثرتهم قال لابراهيم بن هشام المخزومي : اضرب على الناس بعث أربعة آلاف فسمي عام الأربعة آلاف .(٧٥) وكان الناس اذا دخلوا الصائفة غزى أربعة آلاف من المدينة الى السواحل ، فكانوا هناك الى انصراف الناس وخروجهم من الصائفة .

الى جانب المقاتلة كان هناك الطلائع الذين يرتادون سكان نزول الجيش قبل نزوله وكان الخليفة عمر بن الخطاب يؤكد على أهمية هؤلاء في تتبع عورات العدو وأن يكون هؤلاء من أهل الرأى والبأس ،(٧٦) ثم صاحب الأقباض ، وصاحب المقاسم(٧٧) أو والي المقاسم ، وقد توكل المهمة لشخص واحد يتولى جمع وتقسيم الغنائم ،(٧٨) ثم هناك أصحاب الساقة الذين يخلفون الجيش ، يسوق الناس ، وحفظ ماعساه يسقط منهم أثناء السير ، ويذكر ابن خلدون أن العرب كانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد كثيرة ، حتى في العهد الأموي ولذلك كانت عساكرهم كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء ، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى ،(٧٩) ولذلك كان عبد الملك يحتاج الى ساقة تحشد الناس على أثره أن يقيموا اذا ظعن وأن يرحلوا اذا رحل ، ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنباع ، وقصته في احراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة .(٨٠)

بالاضافة الى الطلائع والساقة كان هناك السعاة الذين يقومون بحمل الرسائل والكتب بين القواد والولاة أو بين القواد والخليفة ، كما وجدت بعض الفئات المدنية

---

(٧٥) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٩ .

(٧٦) : النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٦ ص ١٦٩ .

(٧٧) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٧ .

(٧٨) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١٢٦ ، الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٧٦ ، ٨٩ .

(٧٩) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٨١٨ .

(٨٠) : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٥ ص ١٤ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٨١٨ ، شرف الدين بن يوسف الانصاري ، التذكرة الايوبية ، ص ١٢٣ .

../..

كالقرّاء والقصاص ، وفئة العمال والفعلة والأطبة .

اعتاد المسلمون أول أمرهم أن يترنّموا أثناء معاركهم بالشعر الحماسي جريا على عادة العرب في جاهليتهم متخذين من الرجز وأنغامه مثيرا لنفوسهم ومنشطا لدوابهم ، كما وجدوا في شعر حسان بن ثابت وابن رواحة معينا لا ينضب ، فلما توالى نزول القرآن ونصحهم الله بالذكر في قوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون " ،(٨١) صاروا يكثرون من تلاوته وذكر الله في حروبهم يتلمّظون به بلا صوت تلمّظ الأفاعي ،(٨٢) ثم عرف جماعة منهم بحفظ القرآن يسمّون القراء ، كانوا يخرجون من الجيش ويتفرقون بين صفوفه يسمعون الناس سورة الأنفال لما فيها من ذكر الثواب في الآخرة على الجهاد . وكان القارئ في الجيش الاسلامي في معركة اليرموك المقداد بن الأسود ،(٨٣) ثم ازداد عدد القرّاء بعد ذلك بحيث أنهم شكلوا في العراق كتيبة عرفت بكتيبة القرّاء اشتركت مع ابن الأشعث في ثورته على الحجاج .(٨٤) بالاضافة الى القراء وجد القصاص منذ وقت مبكر ، فكان أبو سفيان بن حرب هو القاص في معركة اليرموك ،(٨٥) ولا شك أن عددهم ازداد في العصر الأموي ، وان كانت الروايات تشير الى كثرتهم في المساجد ولم تشر الى دورهم في اثارة روح الفداء والروح المعنوية للجند أثناء القتال .(٨٦)

---

(٨١) : سورة الانفال ، آية ٤٦ .

(٨٢) : ابن سعد ، ج ٢ ص ١٠ .

(٨٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٧ .

(٨٤) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٣٥٠ ، ٣٥٧ .

(٨٥) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٩٧ .

(٨٦) : فيما يتعلق بالقاص ودوره في العصر الأموي يمكن العودة الى كتاب الادارة في العصر الأموي ، ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

../..

وكان المسلمون أول أمرهم يقومون بواجب الجهاد كما يقومون بالأعمال الأخرى اللازمة لهم من حفر الخنادق واقامة التحصينات وزرع الحسك (٨٧) يشترك في ذلك كبيرهم وصغيرهم ، فلما فتحوا الأقطار وكثر في أيديهم الرقيق كان من الطبيعي أن يستعينوا بهم على أعمال الجهاد المهينة كتعهد الجمال والخيل وحزم الأمتعة وحراستها في الحل والترحال ، واقامة القناطر والجسور ، لا سيما وأن العرب رأوا كثرة الأتباع لدى الفرس ، فقد روى السرى عن شعيب عن سيف أن رستم خرج في عشرين ومائة ألف كلهم متبوع ، وكانوا بأتباعهم أكثر من مائتي ألف وأنه خرج من المدائن في ستين ألف متبوع (٨٨) وكان هذا النظام متبعا كذلك عند البيزنطيين حيث كان قادتهم يحضرون معهم عددا من الغلمان بعضهم أرقاء وبعضهم خدم مأجورون ، واستحسن الامبراطور ليون تلك العادة وأوصى بتشجيع الفقراء من الفرسان أن يقتني كل أربعة أو خمسة منهم خادما وتابعا لحمل أمتعتهم التي لا يمكن حملها معهم بسهولة (٨٩).

وبالرغم من أن الاشارات الى كثرة الاتباع لا ترد صراحة في مصادرنا ، فاننا نستطيع القول بأن العرب اتبعوا هذه الطريقة ، فقد ورد في الطبرى أن عدد رجال ابن الأشعث في معركة دير الجماجم كانوا مائة ألف ممن يأخذون العطاء ومثلهم من مواليهم (٩٠). كما أن مروان في

---

(٨٧) : أصل الحسك الشائك في اللغة نبات له ورق كورق الرجلة ، وعند ورقه شوك ملزّز وصلب ذو ثلاث شعب ، تعلق ثمرته بصوف الغنم ، ويظهر أن هذا الشوك كان كثير الوجود في بلاد العرب ، فقد ضربوا بشوكه المثل في الصلابة ، وقد استخدمه المسلمون في حروبهم ، كما استخدمه الفرس والروم في التحصين ، والرسول عليه السلام أول من استخدمه في الاسلام وذلك في حصار الطائف ، ثم نرى المسلمين فيما بعد يصنعونه من أصابع حديدية مدببة لها شعب ثلاث أو أربع يبثونه حول الخنادق لمنع تقدم الخيل والرجال ، وقد استخدم الفرس حسك الحديد في صد هجوم النعمان بن مقرّن (الطبرى ج ٤ ص ١١٥ ، ١١٩) وقد ذكر صاحب آثار الأول ، ما يفيد أن العرب أجادوا ذلك النوع من وسائل الدفاع وصار للحسك عندهم صنّاع يعدونه وعمال ينقلونه على الدواب ، ويبثونه في الطرق التي يحتمل قدوم العدو منها . الحسن العباسي ، آثار الأول في تدبير الدول ، مخطوط بالمتحف العربي بالقلعة برقم (٣٨٣) ومطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ط مصر ١٣٠٥ هـ ، ص ٢١٥ .

(٨٨) : الطبرى ، ج ٣ ص ٥٠٥ .

(٨٩) : Dr. Omar. A History of the art of war. p. 190.

../..

(٩٠) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٤٧ .

حربه سنة ١٢٧ هـ ضد الخوارج كان جيشه يضم الكثير من العبيد ، ومما يدل على أن هؤلاء العبيد لم يكونوا مسلحين أو فرقة محاربة هو أن مروان عندما هزم ودخل الخيبري حجرة مروان وقطع أطنابها ، ورأى أهل معسكر مروان قلة من مع الخيبري ، ثار اليه عبيد من أهل العسكر بعمد الخيام فقتلوا الخيبري وأصحابه جميعا .(٩١) وفي تاريخ خليفة بن خياط أنه كان في حرس مروان رجل يقال له سليمان بن محروح البهرى فنادى في العبيد من اتبعني فهو حر ، فاجتمع اليه من العبيد ثلاثة آلاف رجل فقتل الخيبري .(٩٢) كما أن مروان بن محمد في حربه مع سليمان بن هشام بن عبد الملك أرسل الفعلة بالفؤوس لقطع الأشجار ليعقدوا جسورا ، ويجوزوا الى عسكر سليمان .(٩٣)

أما من حيث الأطباء ومن يعينهم في مداواة الجرحى ، فقد كان الطب لدى المسلمين ضعيفا في عهد الرسول (صلعم) ولم يكن للمجروح في القتال من يقوم بعلاج جراحه الا زوجه أو من يلوذ به من أهله ، فقد كثرت الجراحات بالمسلمين يوم أحد وليس من يعني بجراحاتهم .(٩٤) ولكن في معركة الخندق نجد ذكرا لامرأة يقال لها رفيدة في خيمة لها بمسجد المدينة تداوي الجرحى الذين يذهبون اليها ، وعندما جرح سعد بن معاذ طلب الرسول من قومه أن يجعلوه في خيمة رفيدة .(٩٥) ثم ان هذه المهمة كما يبدو صارت من خصائص بعض النساء المسلمات المتطوعات ، فعن أم عطية الأنصارية " كنا نغزو مع رسول الله (صلعم) فنداوي الجرحى ونمرّض المرضى وكان يرضخ لنا من الغنيمة " ،(٩٦) أي يعطيهن ولا يضرب لهن بسهم كالرجال .

ونلاحظ أنه باتّساع الفتوح وبعد الأسفار صار المسلمون يصحبون معهم نسائهم ، فكان أول واجباتهن سقي المحاربين والعناية بالجرحى ، وحمل الماء لهم ونقلهم الى مكان أمين لعلاجهم ، وحفر القبور لموتى المسلمين ، " فكان النساء يطفن في أرض المعركة ومعهن أولادهن

---

(٩١) : الطبري ، ج ٧ ص ٣٤٧ .

(٩٢) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٦٩ .

(٩٣) : الطبري ، ج ٧ ص ٣٠١ .

(٩٤) : الطبري ، ج ٢ ص ٥١٤ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ص ٢٨ .

(٩٥) : الطبري ، ج ٢ ص ٥٨٢ .

(٩٦) : ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ج ١ ص ٣٧٩ .

../..

فيه فنون الشهيد ، ويحطون الرثيث الى النساء ويعالجونهم من كلومهم ، (٩٧) وأول ذكر للأطباء عند الطبرى نجده في رواية سيف في قوله ان عمر بعث بالاطبة الى سعد . (٩٨) وفي خلافة بني أمية نجد ذكرا لأبي الحكم الذى كان طبيبا نصرانيا عالما بأنواع العلاج والأدوية وكان طبيبا لمعاوية ، وقد أرسله مع يزيد بن معاوية عندما ولاه الموسم متطببا له . (٩٩) وعندما وجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المرى نحو الحجاز أصحب معه طبيبا ، (١٠٠) ولا شك أن عدد الأطباء وسماونيهم قد ازداد مع مرور الزمن بعد أن حذق العرب الطب من الفرس والروم .

التعبئة والقيادة :

ما أن تم فتح الشام حتى عمد عمر بن الخطاب الى تقسيم الشام الى أجناد أو مراكز عسكرية أربعة هي جند حمص ، ودمشق ، والأردن ، وفلسطين ، ولقد أوجد معاوية فيما بعد جند قنسرين ، وأوضح البلاذرى أن هذه الأجناد كانت مراكز للمقاتلة يأخذون أعطياتهم من فيئها ، وكان ديوان كل جند يضم سجلات بمقاتلة القبائل المقيمين في ذلك الجند ومن يلوذ بهم ، ولذا نجد أن كثيرا من المصادر لا تذكر أسماء القبائل التي اشتركت وانما تشير الى عدد المقاتلة من كل جند ، (١٠١) وبالرغم من أن الروايات المتعلقة بالعرفاء ودورهم تكاد تكون معدومة ، فان الاشارة الى وجود عريف السكاسك في الشام مثلا ، (١٠٢) تجعلنا نميل الى الاعتقاد أنه كان لكل قبيلة عريفها ، كما كان الأمر في مصر والعراق في خلافة بني أمية ، (١٠٣) وأن هذا العريف كان مسؤولا عن أفراد قبيلته ، ولكن ليس لدينا أدلة تشير الى أن دورهم

---

(٩٧) : المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٥١٤ ،

(٩٨) : الطبرى ، ج ٢ ص ٥٨٢ .

(٩٩) : ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ١٧٥ .

(١٠٠) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٤ قسم ٢ ص ٤١ .

(١٠١) : اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٥١ ، تهذيب ، ج ٧ ص ٦٠ .

(١٠٢) : تهذيب ، ج ٥ ص ٢٥ .

(١٠٣) : أنظر كتاب الادارة في العصر الأموى فيما يتعلق بالعريف وتداور واجباته ، ص ٣١٩ ، ٣٢٤ .

../..

في الشام كان كدورهم في العراق حيث كان العرفاء مسؤولين من أفراد عراقاتهم ، ومن توزيع العطاء وعن الأمن والنظام في عرافاتهم، (١٠٤) ومن تقديم العدد اللازم من الجند عند ارسال البعوث. (١٠٥)

أما تقديم العدد اللازم من المقاتلة في الشام فيبدو أنه كان يتم عن طريق الانتخاب أو القرعة ، هذا ما نستنتجه من الرواية الواردة عند الطبري في صدد الكلام من غزوة قبرص ، اذ أن عثمان عندما أذعن لالحاح معاوية في غزو البحر ، سمح له بذلك شريطة أن لا ينتخب ولا يقرع بينهم وانما يخيرهم " فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ". (١٠٦)

وكان سفيان بن عوف الأزدي قد اتخذ من كل جند من أجناد الشام أهل فروسة ونجدة وعفاف وسياسة للحرب ، فكانوا عدة له قد عرفهم وعرفوا به ، (١٠٧) أي أنه كان ينتخب هؤلاء انتخابا ، وربما كان ذلك يتم وفق المهمات التي توكل الى القائد ، وعندما عين عبد الملك بشر بن مروان واليا على العراق كتب اليه أن يبعث المهلب في أهل مصره الى الأزارقة ، ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولي الفضل والتجربة منهم لأنه أعرف بهم. (١٠٨)

---

(١٠٤) : من أبي مخنف أن عبيد الله بن زياد حين ولاه يزيد الكوفة ، أخذ العرفاء والناس أخذا شديدا وقال للعرفاء : اكتبوا اليّ الغرباء ، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق ، فمن كتبهم لنا فبرئ ، ومن لم يكتب لنا أحدا فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف ولا يبغي علينا باغ ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا ماله وسفك دمه ، وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء (الطبري ج ٥ ص ٣٥٩).

(١٠٥) : عندما قرر الحجاج ارسال عثمان بن سعيد لقتال شبيب الخارجي ، دعا أصحاب الدواوين فطلب منهم أن يضربوا البعث على الناس ، وأن يخرجوا اربعة آلاف من الناس من كل ربع ألف رجل ، وأن يعجّلوا في ذلك ، فجمعت العرفاء وجلس أصحاب الدواوين ، وضربوا البعث فأخرجوا أربعة آلاف (الطبري ، ج ٦ ص ٢٣١) ، كما أن الحجاج دعا العرفاء وطلب منهم أن يلحقوا الناس بالمهلب وأن يأتوه بالبراءات بموافاتهم (الطبري ج ٦ ص ٢٠٥).

(١٠٦) : الطبري ، ج ٤ ص ٢٦٠ ، ابن الاثير ، ج ٣ ص ٩٦.

(١٠٧) : تهذيب ، ج ٣ ص ٤٥٥.

(١٠٨) : الطبري ، ج ٦ ص ١٩٦.

../..

يتبين لنا مما تقدم أن التسجيل في الديوان يلزم المقاتلة البقاء ضمن نطاق جندهم ويلزمهم الخروج للقتال في نفس الوقت ، الا أن الانضمام في الديوان كان اختياريا من حيث المبدأ ، كما لم تفرض الدولة على الفرد الانضمام الى الديوان الا وقت الضرورة ، وفي حالة تسجيل الشخص في الديوان كان عليه الاجابة حين دعوته ، (١٠٩) وان الفرض لأناس في العطاء عند الحاجة ، (١١٠) يشعر بأن الكثيرين لم يكونوا في الديوان والامثلة المتعلقة بالعراق كثيرة . (١١١) ويبدو أن تعبير الفرض يشير الى التسجيل لاول مرة في الديوان . يذكر أبو مخنف أن الحارث بن عميرة خرج لمحاربة الخوارج في " ألف من المقاتلة الأولى ، وألفين من الفرض الذين فرض لهم الحجاج " . (١١٢) كما يذكر المدائني أن اعرابيا من طيء خرج الى الشام الى بني عم له ، فطلب صلتهم ، فلم يعطوه طائلا وعرضوا عليه الفرض فأبى ثم قدم قنسرين فأعادوه شيئا قليلا وقالوا : تفترض ، فقال :

أقمنا بقنسرين ستة أشهر ونصفا من الشهر الذي هو سابع

يؤمونني موقان أو يفرضون لي الى الري لا يسمع بذلك سامع (١١٣)

لا شك أن هذه الأبيات تعكس وضع مقاتلة الشام الذين كانوا مصدر النجدات لاخماد الثورات أو للمعونة في الفتح ، ولعل ذلك كان يدفع البعض الى الامتناع من التسجيل في الديوان كهذا الاعرابي الذي خشي أن يؤدي تسجيله في الديوان الى ارساله الى موقان أو الري ولذلك نجد يزيد الثالث يعد في خطبة وعوده التي أطلقها لنيل الدعم لحكمه ، أن يبقى القوات الشامية في أرضها ولا يرسلها الى الخارج كما جرى الأمر مرارا وتكرارا . (١١٤)

---

(١٠٩) : ابن سعد ، ج ٦ ص ٢٣٤ .

(١١٠) : الطبري ، ج ٥ ص ٦٢٠ ، ج ٧ ص ٤٦٤ ، تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول ، ص ٢٥٥ .

(١١١) : الطبري ، ج ٥ ص ٦٢١ ، ج ٦ ص ٢٢٢ ، ج ٧ ص ٤٦٤ ، ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ١ ص ٢٧٤ .

(١١٢) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٢٠ .

(١١٣) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٠٤ ، ج ٥ ص ٢٢٥ . وموقان ، ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم ، وهي بأذربيجان كما يذكر ياقوت عن ابن الكلبي أن موقان وجيلان هما أهل طبرستان وأهله يسمونه موغان .

(١١٤) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٥١ ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٦٩ .

../..

ومع ذلك نلاحظ أن التسجيل في الديوان في الشام كان يتم باستمرار ، يدل على ذلك الأعداد الكبيرة من المقاتلة التي وجدت في دمشق عندما حاصرها عبدالله بن علي ، فقد بلغ عدد الجند (٥٠) ألفا ،[١١٥] بينما نجد قلة عدد أهل الديوان في الكوفة مثلا في نهاية الدولة الأموية ، فعندما كتب مروان بن محمد الى يزيد بن عمر بن هبيرة أن يوجه اثنى عشر ألفا من المقاتلة ويفرض لأناس آخرين ويلحقهم بنصر بن سيار كتب يزيد بن عمر الى مروان ، بأن ما معه من الجنود لا يفون باثني عشر ألفا ويعلمه أن فرض الشام أفضل من فرض العراق ، لأن عرب العراق ليست لهم نصيحة للخلفاء من بني أمية وفي قلوبهم احن .[١١٦]

تطور شكل التعبئة عندما اضطر القواد المسلمون الى مواجهة جيوش الفرس والبيزنطيين الضخمة والتي كانت لا تقاتل الا على نظام وتعبئة ، ومعنى التعبئة لدى ابن خلدون : تقسيم الجيوش والعساكر أقساما لكثرتها ويسمونها كراديس ، ويسوون في كل كردوس صفوفه ، ويرتبونها ترتيبا قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ، فالقائد أو الأمير العام في القلب ثم هناك الميمنة والميسرة والمقدمة والساقة ، فاذا تمهم هذا الترتيب المحكم اما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة اكثرها اليوم أو اليومان بين كل عسكرين منها أو حسب حال الجند في القلة والكثرة ، فحينئذ يكون الزحف بعد هذه التعبئة ".[١١٧]

وعندما وصل خالد مددا لقوات الشام بناء على أمر أبي بكر وجد أن قتال الجند كان على تساند ،[١١٨] كل جند وأميرهم لا يجمعهم أحد وهم متضايقون بعدد الروم ، فبين لهم أنه لا يجوز لهم مقاتلة الروم وهم قوم على نظام وتعبئة بينما العرب على تساند وانتشار ، وأن أبا بكر لو علم بالذي كان ويكون لجمعهم ، وخوفا من أن يرفض رأيه ، اقترح أن يتعاوروا الامارة ، " فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني اليكم اليوم ،[١١٩] ونتيجة لذلك خرج خالد كما يقول السرى عن شعيب عن سيف في تعبية

---

(١١٥) : الأزدى ، تاريخ الموصل ، ص ١٣٤ ، تهذيب ، تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٦٢ .

(١١٦) : الدينورى ، الاخبار الطوال ص ٣٦٠ .

(١١٧) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٨٢٤ ، ٨٢٥ .

(١١٨) : خرج القوم متساندين ، أى على رايات شتى ، اذا خرج كل بني أب على راية ولم يجتمعوا على راية واحدة تحت راية أمير واحد (الطبرى ج ٣ ص ٣٩٦) .

(١١٩) : الطبرى ، ج ٣ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

../..

لم تعبئها العرب قبل ذلك ، فخرج في ستة وثلاثين كردوسا الى أربعين فجعل القلب كراديس وجعل القيادة لأبي عبيدة ،وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان ، والميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص . واذا قمنا باحصاء الكراديس في القلب والميمنة والميسرة لوجدنا أن القلب كان يضم ستة عشر كردوسا ، بينما نجد عشرة كراديس في كل من الميمنة والميسرة ، واذا عرفنا أن المقاتلة كان يتراوح عددهم بين ٣٦ ألفا الى ٤٠ ألفا أمكننا القول ان الكردوس كان يتألف تقريبا من ألف مقاتل ،وعلى كل كردوس قائد ، وهؤلاء يأتمرون بأمر قواد الميمنة أو الميسرة أو القلب ،وهؤلاء بدورهم يأتمرون بأمر القائد الأعلى خالد بن الوليد .

والقتال على التعبئة كما يقول ابن خلدون ،مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين في صدر الاسلام ،أي الخلافة الراشدة ودولة الأمويين ،(١٢٠) أي أن الامويين استمروا في اتباع هذا النظام في تقسيم الجند الى ميمنة وميسرة وقلب ، ولكننا نجد عودة الى نظام الصفوف في معركة صفين ،اذ حرّض علي أصحابه فقال في كلام له : " فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص ". (١٢١) ويقدم لنا كل من الدينوري وخليفة بن خياط لوحة يكمل بعضها البعض ، فيذكر الدينوري أن كل فريق منهم اصطف في سبعة صفوف ، صفين في الميمنة وصفين في الميسرة وثلاثة صفوف في القلب وأن القائد العام أو الأعلى في جيش معاوية كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي دفع اليه معاوية باللواء الأعظم ، ثم وجد قائد عام للرجالة وآخر للخيالة ، وقائد للميمنة وآخر للميسرة وثالث للقلب ، ثم كان لكل مقاتلة جند قائد ولكل قبيلة ضمن الجند قائدها وزعيمها ، (١٢٢) أي نلاحظ أن رابطة النسب القبلية ظلت تراعي في تشكيل الكتائب أو وحدات الجيش التي تدخل ضمن وحدات اكبر قائمة على أساس الروابط الجديدة التي نشأت بعد موجة الفتوحات كرابطة القاعدة العسكرية أو الجند . (١٢٣)

---

(١٢٠) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٨٢٥ .

(١٢١) : ابن الاثير ،ج ٣ ص ٢٩٧ .

(١٢٢) : الدينوري ، ١٧٢ ،خليفة ،ج ١ص ٢٢٢ .

(١٢٣) : خليفة ،ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ ،الدينوري ،ص ١٧١ — ١٧٢ .

../..

ويبدو أن الزحف بالصف استمر طيلة الفترة الأموية حتى خلافة مروان بن محمد الذى أبطل الصف وصار الى التعبئة كراديس في قتال الضحاك الخارجي والخيبرى من بعده (١٢٤)، ويورد الطبرى ذلك في قوله : فلما قتل الخيبرى سنة ١٢٧هـ وبويع شيبان قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف منذ يومئذ ،وجعل الآخرون يكردسون بكراديس مروان كراديس تكافئهم وتقابلهم (١٢٥).

القيـــادة :

كانت القيادة منذ عهد الرسول تعهد الى أشخاص يتمتعون بخصال معينـة ، فقد أثر عنه (صلعم) قوله :" اني لأؤمّر الرجل على القوم وفيهم من هـو خير منـه لأنـه أيقظ عينـا وأبصر بالحـرب " ، وبعث الرسول بعثا على رأسه عمرو بن العاص ومعـه أبو بكر و عمر لعلمه بالحرب (١٢٦).

وعند ما قرر أبو بكر توجيه الجيوش الى الشام جعل القيادة للصحابة المشهود لهـم بالحزم وبقوة الشكيمة عند القتال والقدرة على تنظيم الجند واعدادهم ،وكان عمر كذلك يؤمر الصحابة " اذا وجد من يجزى عنه في حربه ، فان لم يجد ففي التابعين باحسان" (١٢٧).

وظلت قضية السابقة تراعـى حتى في التعيين للقيادات الأصغر ، فعندما سـمع عمر لسعد بن أبي وقاص باستخدام المرتدين أمره أن لا يولي رؤساءهم على مائـة (١٢٨)، ولكن عمرا شـذّ عن قضيـة السابقة في تعيين أبي عبيد بن مسعود لأنه كان أول النـاس انتدابـا لحرب الفـرس ، اذ أنه عندما قيل لعمر بعد أن ابتمع البعث المقرر توجيهـه الى العـراق : أمر عليهم رجلا من السـابقين من المهاجرين والانصار ،قال : " لا والله ،لا أفعل ،ان الله انما رفعكم بسبقكم وسـرعتكـم الى العدو ، فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسـة منكم من سبق الى الدفع وأجاب الى

---

(١٢٤) : ابن خلدون ،المقدمة ،ج ٢ ص ٨٢٨.

(١٢٥) : الطبرى ،ج ٧ ص ٣٤٩.

(١٢٦) : النويرى ،نهاية الأرب ، ج ٦ ص ١٥٢.

(١٢٧) : الطبرى ،ج ٤ ص ٢٥.

(١٢٨) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٥٥٧.

../..

الدعاء ،والله لا أؤمر عليهم الا أولهم انتدابا " . وكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود وقيل سليط بن قيس ،فأمر أبا عبيد ، (١٢٩) وعن رجل من الأنصار أن عمر رضي الله عنه قال لأبي عبيد " انه لم يمنعني أن أؤمر سليطا الا سرعته الى الحرب،وفي التسرع الى الحرب ضياع الا من بيان ،والله لولا سرعته لأمرته ولكن الحرب لا يصلحها الا المكيث " . (١٣٠)
كما أنه أوصى أبا عبيد أن يسمع من أصحاب النبي (صلعم) وأن يشركهم في الأمر ، (١٣١)
ولكن شرط السابقة بدأ يتضاءل وان كان معاوية في الشام قد جعل القيادة للصحابة وأبنائهم المشهود لهم بالكفاءة والاخلاص له بالاضافة الى اعتماده على سادات القبائل في كل جند . (١٣٢)

أما في الفترة المروانية فنلاحظ ازديادا كبيرا في الاعتماد على أمراء بني أمية من آل مروان كقادة وان بقي لسادات القبائل قيادة قبائلهم ،اذ نرى عبد الملك عندما حشد جيشا لقتال الروم واجتمع هذا الحشد خارجا من مدينة دمشق ، خرج اليهم عبد الملك فعبأهم فجعل على كل قبيلة من القبائل رجلا من ساداتهم يقتدون برأيه وينتهون الى أمره ،وأمر ابنه مسلمة بن عبد الملك عليهم وطلب منه عندما يعزم على حرب عدوه أن يجعل عمه محمد بن مروان على ميمنته وابن عمه محمد بن عبد العزيز على ميسرته . (١٣٣)

وبينما نجد معاوية يعتمد على قادة متعددين ينتمون الى قبائل مختلفة لقيادة الصوائف والشواتي وفي قيادة الحملات الموجهة الى أرمينية، (١٣٤) نرى أن النسبة الكبرى من ولاة

---

(١٢٩) : الطبري ،ج ٣ ص ٤٤٥ ،البلاذري ،انساب ج ٥ ص ٢١٤.

(١٣٠) : الطبري ،ج ٣ ص ٤٤٥.

(١٣١) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٤٤٥.

(١٣٢) : خليفة ،ج ١ ص ٢٢٢ ،الدينوري ،ص ١٧٢.

(١٣٣) : ابن الاعثم ،فتوح ،ج ٧ ص ١٦٨ ، ١٦٩.

(١٣٤) : تظهر في خلافة معاوية أسماء قواد كانت لهم مكانتهم ،كعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، مالك بن هبيرة السكوني ،فضالة بن عبيد ،يزيد بن شجره الرهاوي، وسفيان بن عوف الازدي ، وعبد الله بن قيس الفزاري (الطبري ج ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٥٢٠.

../..

الصوائف والشواتي ومن قادة الجبهة الشمالية كانوا من أمراء البيت الأموي الذين تتابعوا على جهاد الروم ، (١٣٥) ويبدو أن خلفاء بني أمية كانوا يعلقون أهمية كبيرة على هذه الحملات ،

(١٣٥) : غزا محمد بن مروان والي الجزيرة الصائفة سنة ٧٣هـ-٧٥هـ وغزا الوليد بن عبد الملك سنة ٧٧ هـ ، ولعبد الله بن عبد الملك بلاء مذكور في غزوة المصيصة من الثغور الشامية (الطبري ج ٦ ص ٣٨٥) وفي عهد الوليد بن عبد الملك غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم سنوات ٨٦ هـ ، ٨٧ هـ ، ٨٨ هـ ، ٨٩ هـ ، ٩٠ هـ ، ٩١ هـ ، ٩٢ هـ ، ٩٣ هـ (الطبري ج ٦ ص ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ ، ٤٢٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩) ويذكر ابن العديم أن الوليد تولى الخلافة ومحمد بن مروان على ولايته فمازال كذلك حتى عزله الوليد سنة ٩٠ هـ وولى مكانه أخاه مسلمة ، فدخل مسلمة حرّان وكان أكثر مقامه بالناعورة وبنى فيها قصرا بالحجر الأسود الصلد وجصنا بقي منه الى عهد ابن العديم برج . وكذلك ظهرت في الغزوات الموجهة لأرض الروم أسماء العباس بن الوليد سنة ٨٨ هـ ، ٨٩ هـ ، ٩٠ هـ ، ٩٣ ، ٩٤ هـ ، ٩٥ هـ . وقد عمر مرعش وحصنها وكان يقطع اليها بعثا من أهل قنسرين سنويا ، وعبد العزيز بن الوليد ، (الطبري ج ٦ ص ٤٥٤) وعمر بن الوليد سنة ٩٢ هـ (ج ٦ ص ٤٦٨) ومروان بن الوليد (ج ٦ ص ٤٦٩) .

وفي خلافة سليمان بن عبد الملك جهزّ الجيوش الى القسطنطينية سنة ٩٧ هـ واستعمل ابنه داود على الصائفة ، وواصل مسلمة غزواته سنة ٩٦ هـ ، ٩٨ هـ ، وتوفي سليمان سنة ٩٩ هـ ، وهو مرابط بدابق من أرض قنسرين . وفي خلافة هشام بن عبد الملك يبرز اسم معاوية بن هشام ، سنة ١٠٧ هـ ، ١٠٩ هـ ، ١١١ هـ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ هـ ، ١١٧ هـ ، (الطبري ، ج ٧ ص ٤٠ ، ٤٦ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٩) (تيوفانس ، ترجمة Leopold Breyer ص ٤٦) بالاضافة الى معاوية ، قلد هشام كذلك أبناءه ابراهيم بن هشام ، وسعيد بن هشام ، وسليمان بن هشام . (الطبري ، ج ٧ ص ٤٣ ، ٦٧ ، ٩٩ ، ١٣٩) ويورد تيوفانس اسم سليمان بن هشام في غزوة سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م ويشير الى أن الجيش ضم (٩٠) ألف مقاتل ، عشرة آلاف من ذوي الأسلحة الخفيفة ، وان البطال كان مع سليمان في هذه الغزوة مع (٢٠) ألف فارس وسليمان في (٦٠) ألفا ، (تيوفانس ص ٤٨ ، ٤٩) .

../..

ولذلك كانوا يسندون قيادتها لابنائهم ، أو اغوتهم ، لأنهم بمعلمهم هذا انما يتابعون عملية الجهاد ضد أعداء المسلمين ، كما أن هذه الحملات كانت تكسب الامراء هالة من المجد ، بالاضافة الى أن عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من أن تحافظ جيوشهم الشامية على ماتتمتع به من نظام وسجايا حربية ، ومن ثم كانت هذه الجيوش مصدر قلق لاباطرة بيزنطة ، نجد ذلك منعكسا فيما كتبه الاباطرة لعون في الكتيب الذى أصدره والذى زاد عليه فوكاس Nicephoruis Phocas اذ يبين أن البيزنطيين في حروبهم لم يواجهوا عمليات حربية حصيفة ومحكمة ومدروسة بدقة كخطط العرب ، وان القائد المكلف بمواجهتهم كان يحتاج الى كل قدراته الاستراتيجية والتكتيكية ، كما أن الفرق التي يقودها يجب أن تكون انضباطية وجريئة ، اذا اراد أن ينجح في صد العرب الكفرة (١٣٦).

ويرتبط بقضية الصوائف والشواتي على الأرض البيزنطية ، وضع نظام خاص لمعاملة الاسرى ، ووسائل اطلاق سراحهم ، ويقدم لنا المقدسي صورة عن حياة الاسرى المسلمين الذين أسرتهم الدولة البيزنطية ، ويشير الى أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلاد الروم اشترط على ملك الروم أن يبني دارا بازاء قصره في الميدان ينزلها الوجوه والاشراف ، اذا أسروا ، ليكونوا تحت كنفه وتعاهده ، فأجابه الى ذلك فبنى دار البلاط (١٣٧) ويضيف " ولا يسكن دار البلاط الا وجيه في اجراء وتعاهد وتنزه ، وسائر الاسرى من عامة المسلمين مستعبدون ويستعملون في الصنائع ، فالحازم اذا سئل عن صنعته لم يقربها وربما اتجر الأسارى

---

(١٣٦): Dr. Omar. A History of The Art of War, p. 208.
Tactica XVIII § 120. " The Commander who has to meet with them will need all his stratigical ability, The troops must be well disciplined and courageous, if the barbarous and blaspheming Saracen is to be driven back. "

(١٣٧): المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ١٣٨ .

../..

بينهم وانتفعوا ، وكان البيزنطيون لا يكرهون أحدا على أكل لحم الخنزير ولا يشقون لسانا.(١٣٨) أى أن الدولة البيزنطية كانت تراعي مبادئ التعاليم الاسلامية في معاملتها للأسرى المسلمين فلم تكره أحدا على تناول لحم الخنزير أو أى شيء يخالف السنن الاسلامية ، ولعلّ هذه المعاملة الجيدة التي حظي بها الأسرى المسلمون تعود الى ماتمتعت به الدولة الأموية من مهابة وجلال، والى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين .

أما نظام الفداء فلم يظهر بشكل واضح الا في عهد الدولة العباسية ، ويذكر المقريزى أن أول فداء وقع بحال في الاسلام كان أيام بني العباس ولم يقع في أيام بني أمية فداء مشهور ، وانما كان يفادى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وبلاد ملاطية وبقية الثغور الجزرية ، الى أن كانت خلافة هارون الرشيد ،(١٣٩) والروايات القليلة المتعلقة بالفداء في العصر الأموى تعود كلها الى خلافة عمر بن عبد العزيز ، اذ يذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز أرسل شخصا ليفادى الأسارى صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وحرهم ومملوكهم بما سئل عنه(١٤٠) بمعنى أنه قرر مفاداتهم بالمال ، كما أنه ورد في طبقات ابن سعد أن عمر أعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم وأخذ المسلم ،(١٤١) وكان عمر بن عبد العزيز يقبل فدية الأسير من أسرى العدو بالمال ، فعن محمد بن عمر عن ابراهيم بن عبد الله ... من عمر بن عبد العزيز، أنه أتي بأسير أسره مسلمة بن عبد الملك ، وأن أهله سألوه أن يفتدوه بمائة مثقال ، فرده عمر وفداه بمائة مثقال ،(١٤٢) وعندما أغار الروم على ساحل اللاذقية في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ وهدموا مدينتها وسبوا أهلها أمر عمر ببنائها وتحصينها ، ووجّه الى امبراطور الروم في فداء من أسر من المسلمين .(١٤٣)

---

(١٣٨) : المقدسي ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ط ليدن ١٨٩١ م ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(١٣٩) : المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ٦٠ .

(١٤٠) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٠ .

(١٤١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٣٦٠ .

(١٤٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٦٠ .

(١٤٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٩ .

../..

أما في العصر العباسي ، فان كلا من الدولتين العباسية والبيزنطية قد حرصتا على سلامة كبار رجال الدولة الذين وقعوا أسرى في أيديهما ليبادلا نهم بكبار رجال دولتيهما ، وكان هناك مكان خاص على شاطئ آسيا الصغرى يسمّى اللامش ،(١٤٤) وكان يسبق حركة التبادل ايفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقرير أسس الفداء ،ويتضح أن تبادل الأسرى كان يجري طبقا لقواعد مرسومة ونظم خاصة .(١٤٥)

الأسلحة ووسائل الدفاع والتحصين في الشام :

عندما انطلقت جيوش الفتح العربية لم يكن مقاتلتها على مستوى واحد من حيث الآلة والسلاح ، كما أن بعض الأسلحة التي استخدمها العرب كانت دون مستوى أسلحة الأعداء ، فقد شبه الفرس نبّال المسلمين يوم القادسية بالمغازل استهانة بها ،(١٤٦) كما أن المقاتلة المسلمين الذين استخدموا الدرق أو الجحف كانوا قلة(١٤٧) اذ أن عامتهم كانوا يترسون بأشياء مختلفة حسب درجاتهم في اليسار والفقر ، يقول الطبري : " وعامة جننهم غير برادع الرحال قد عرّضوا فيها الجريد يترسون بها من أنفسهم ،وعامة ماوضعوه على رؤوسهم الا انساع الرحال يطوي الرجل تسع رحله على رأسه يتقي به ، والفرس فيما بينهم بالحديد واليلامق ،(١٤٨) وعندما حاصر المسلمون حمص بقيادة أبي عبيدة وخالد بن الوليد استمر الحصار طويلا ،اذ تمسك القوم بالمدينة رجاء أن يهلكهم الشتاء ،وكان أهل حمص يتواصون فيما بينهم ويقولون : " تمسّكوا فانهم حفاة فاذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون "،(١٤٩)

---

(١٤٤) : المقريزي ،الخطط ،ج ٣ ص ٦ .

(١٤٥) : المصدر السابق ،ج ٣ ص ٦-٨ .

(١٤٦) : الطبري ،ج ٣ ص ٤٩٦ ،البلاذري ،فتوح ،ص ٢٦٠ .

(١٤٧) : الدرق والجحف جمع درقة ،وجحفه وهي كما في الافصاح ، والقاموس المحيط ترس من جلد الابل أو البقر ليس فيها خشب ولا سيور من الجلد أو العصب ،ولكن ورد في شرح البخاري مايفيد أن الدرقة زمن الرسول (صلعم) كانت تصنع من الخشب ثم تلصق عليها جلدة مساوية (القسطلاني ،ارشاد الساري ،ج ٥ ص ١٠٥) وهذا الشرح أدق اذ أن الجلد لا يثبت وحده أمام طعنات السلاح الا اذا كان مستندا الى جريد أو خشب يقويه .

(١٤٨) : الطبري ،ج ٣ ،ص ٥٧٥ .

(١٤٩) : الطبري ،ج ٣ ،ص ٦٠٠ .

../..

بينما كان فرسان الروم يلبسون في أرجلهم أحذية حديدية طويلة ،أما سواعدهم فكانت محصنة وأما أعضادهم فكان الكثير منهم يقيها بسوار ضيق من المعدن ،(١٥٠) اذا فقد شاهد المسلمون أعداءهم يحصّنون أطرافهم بالحديد ،ولا شك في أنهم غنموا دروعا كثيرة من الفرس والروم ،(١٥١) ومن الطبيعي أن يعمدوا الى تقليدهم ، وقد كثرت الأموال بين أيديهم ، وما هم أقل منهم في أية ناحية من النواحي الحربية ، ونجح معاوية خلال ولايته على الشام أن يكوّن جيشا منظما مدربا نتيجة للّقاءات المستمرة مع الامبراطورية البيزنطية لاسيما وأن معاوية ومن أتى بعده اتخذوا الجيوش البيزنطية كنموذج لقواتهم في السلاح والستراتيجية ،(١٥٢) ولذلك فان جيش معاوية في صفين كان مجهزا تجهيزا كاملا حتى أطلق عليه اسم الخضرية لاسوداده بالدروع والسلاح ،(١٥٣) بينما لم يكن مقاتلة العلوية

---

(١٥٠) : Dr. Omar, Op. Cit., pp. 80, 90, 91.

(١٥١) : الطبرى ،ج ٤ ص ٨٠

(١٥٢) : Dr. Omar. Op. Cit., p. 208. Tactica XVIII . § 120.

كان البيزنطيون يعتمدون في حروبهم بالدرجة الأولى على فرق الخيالة الثقيلة السلاح التي يلبس أفرادها الخوذ الفولاذية والدروع المصفحة Scale Armour أو الدروع المزرّدة Coat of mail التي تغطي الجسم كله ، وكانت أسلحتهم السيف والخنجر والرمح والنبل ، أما خيولهم فكانت تحميها أطواق الصدر Breast Plates ،وصفائح الجبهة Frontal Plates وتستخدم فرق الخيالة الخفيفة للهجوم السريع للاستطلاع ولا رهاق العدو ومضايقته ، وكان سلاح أفرادها الرئيسي النبال ،أما المشاة ذو الأسلحة الخفيفة فكانوا يستخدمون النبال كذلك ولكن وجدت فرق تستخدم الرماح ، بينما يستخدم المشاة ذووا الأسلحة الثقيلة الدروع المزرّدة ويحملون الرماح والسيوف والتروس .

Wilhelm Ensslin, The Army and The Fleet, Byzantium, pp. 301 - 302.

(١٥٣) : ابن عبدربه ،العقد الفريد ،ج ٣ ص ٣٣٧ ،المسعودى ،مروج الذهب ج ٣ ص ٣٨٠ - ٣٨٨ ،ويذكر المسعودى أن ميمنة معاوية كانت تضم ١٠ آلاف من مذحج وعشرون ألفا مقنعين بالحديد ،وكان العرب يطلقون على الكتيبة المغطاة بالحديد ، كتيبة خضراء (الطبرى ج ٣ ص ٥٤) .

../..

علي بن أبي طالب على هذا المستوى ، نستنتج ذلك من قول علي يحرّض أصحابه بأن يسووا صفوفهم كالبنيان المرصوص ، وأن يقدّموا الدارع ويؤخروا الحاسر ،(١٥٤) وكان سفيان بن عوف الأزدي في خلافة معاوية لا يجيز في العرض الا رجلا بفرس ورمح ومخصف(١٥٥) ومسلة وترس وخيوط كتان ومخلاة ومهضع ومقود وسكة حديد .(١٥٦) وعندما أرسل مروان بن محمد عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي الى المدينة لقتال حمزة الخارجي قدمها في أربعة آلاف فارس عربي منهم من عليه درعان أو درع وسنوّر و تجافيف عدة لم ير مثلها في ذلك الزمان ،(١٥٧) واذا رأينا الامبراطور ليون يعترف بالرغم مما عرف عنه من تحامل على العرب بأن الجندي العربي لم يكن يفترق عن الجندي البيزنطي في السلاح ووسائل الدفاع وآلاته ،(١٥٨) نتبين مدى التقدم السريع الذي أحرزه المسلمون ولا سيما مقاتلة الشام .

لم ينحصر هذا التقدم في الأسلحة الخفيفة التي يستخدمها الجندي فقط ووسائل الدفاع من ترس ودرع ومغفر وبيضة ، وانما في الأسلحة الثقيلة التي يشترك في استخدامها أكثر من جندي . يذكر ابن هشام في كلامه عن غزوة الطائف أن أول من رمى في الاسلام بالمنجنيق هو الرسول (صلعم) رمى به أهل الطائف ،(١٥٩) كما يرد عند ابن هشام والطبري أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يشهدا حنينا ولا حصار الطائف لأنهما كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابة والمجانيق والضبور ،(١٦٠) واذا علمنا أن جرش من أرض البلقاء ، والبلقاء

---

(١٥٤) : ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٩٧ .

(١٥٥) : المخصف ، مخرز الاسكاف والجمع مخاصيف .

(١٥٦) : تهذيب ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(١٥٧) : الطبري ، ج ٧ ص ٣٩٩ .

(١٥٨) : Von Kremer. The Orient under the Caliphs . p. 328.
Dr. Omar. Op Cit., pp. 208 - 209.

(١٥٩) : ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ص ٦٤ .

(١٦٠) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٩٠ ، الطبري ، ج ٣ ، ص ٨١ ، ٨٢ .

الدبابة والضبور ، اسم الدبابة لغة مشتق من (دب يدب دبيبا إذا مشى على مهل) وسميت بذلك لأنها تدب حتى تصل الى الحصون ، ثم يعمل الرجال الذين بداخلها في ثقب أسوارها بآلات الحفر . ويظهر أن الضبر نوع منها ، أو هي الدبابة نفسها من ترادف الاسماء ، ففي القاموس المحيط ، أن الضبر جلد يغشى خشبا فيه رجال تقترب الى الحصون للقتال ، والجمع ضبور ، وليست الدبابة شيئا غير هذا . ويبين صاحب آثار الأول (ص ٢١٤) ان الدبابة آلة تتخذ من الخشب الثخين الملزز وتغلف باللبود او الجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجل مستدير وتحرك وربما جعلت برجا من خشب ودبر فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على بكر .

../..

من عمل دمشق ، وأن هذه المنطقة كانت تحت الحكم البيزنطي ، فمن الجائز أن يكون العرب قد نقلوا هذا السلاح من البيزنطيين . ويرى فون كريمر أن العرب نقلوا عن البيزنطيين استعمال المنجنيق والعرّادة لرمي الكتل الصخرية ، ويوافقه في هذا الرأى الدكتور أومار Omar (١٦١) .

اضطر المقاتلة في الشام الى استخدام المنجنيق عند حصارهم للمدن المحصنة ، (١٦٢) فقد حصر المسلمون دمشق سبعين ليلة حصارا شديدا بالزحوف والترامي والمجانيق ، وأغار مقاتلة أهل الشام على أطراف صقلية في ولاية معاوية وأخرجوا مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموها رميا متداركا ، الا أن الحجارة التي استخدمت كانت معتدلة . (١٦٣) واستمر استخدام الحجارة سواء عندما حاصر عبد الملك قرقيسيا في طريقه لقتال مصعب بن الزبير ، (١٦٤) أو في حصار مكة عندما توجه الحجاج لقتال عبد الله بن الزبير . (١٦٥) وحتى مروان بن محمد الذى استخدم المنجنيق على نطاق واسع استعمل الحجارة فقط ، اذ عندما حاصر مروان أهل حمص سنة ١٢٧هـ نصب عليها كما تذكر الرواية نيفا وثمانين منجنيقا وأنه طرح عليهم حجارتها بالليل والنهار ، (١٦٦) ولكن مسلمة بن عبد الملك عندما هاجم مدينة الباب والأبواب حاصرهم ورماهم بالحجارة ثم بحديد اتخذه على هيئة الحجارة . (١٦٧) تجاه هذه الروايات نتساءل عن مدى الدقة فيما يرويه المسعودى عندما يذكر أن الحصين بن نمير السكوني رمى الكعبة بالأحجار والنار والنفط ومشاقات الكتان ، (١٦٨) فهل نسب المسعودى الى فترة يزيد ما حدث في وقت متأخر بعض الشيء لكي يعلل بذلك احتراق الكعبة التي يقال انها احترقت أثناء الحصار؟ (١٦٩)

---

(١٦١) : Von Kremer, Op. Cit., p. 327, Omar, Op.Cit., p. 219.

(١٦٢) : الطبرى ، ج ٣ ص ٤٣٨ ، ابن الاثير ج ٢ ص ٤٢٨ .

(١٦٣) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١٤٣ .

(١٦٤) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٦٢ .

(١٦٥) : الطبرى ، ج ٦ ص ١٨ .

(١٦٦) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٣٢٦ ، ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٣٣ .

(١٦٧) : البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٠٩ .

(١٦٨) : المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٧١ .

(١٦٩) : من أجل تعليل احتراق الكعبة يمكن العودة الى كتاب الدكتور نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ١١٤ - ١١٥ .

../..

مهما يكن من أمر ، فان الاشارات الى استخدام المنجنيق وبأعداد كبيرة لا يمكن أن تتأتى الجيش ما لم يكن لديه دار لصناعتها ، وفرق تقوم على تجهيزها واعداد القذائف لها والعمل على صيانتها وحفظها سليمة صالحة للاستعمال .

الى جانب آلات الهجوم لابد من أن نشير الى وسائل الدفاع الثابتة التي كانت تستخدم وعلى نطاق واسع كالخندقة وبناء الحصون والأسوار ، وأول من استخدم الخنادق في خلافة أبي بكر وأكثر منها العلاء بن الحضرمي أثناء قتاله المرتدين ، فكان المسلمون والمرتدون هناك يحفرون الخنادق يتحصنون بها ثم يتراوحون القتال منها.(١٧٠)

وفي أثناء الفتوح ، كان الخلفاء ينصحون قوادهم بالتزام الخنادق خشية البيات ، كما أنهم اذا حاصروا عدوا متخندقا على نفسه وأرادوا اشعاره بدوام الحصار ضربوا خندقا حول خندقه ليبأس من فك الحصار ويبادر بالتسليم ، وقد طبقت هذه الخطة في حصار مدينة هيت ليجبروهم على التسليم ،(١٧١) ومن القواد الذين عرفوا بالتزام الخندقة في الميدان المهلب بن أبي صفرة في حربه للخوارج ، " وكان المهلب شديد الاحتياط والحذر لا ينزل الا في خندقه وهو على تعبية ويتولى الحرس بنفسه ".(١٧٢) وفي الحرب بين الحجاج وابن الأشعث خندق الحجاج على نفسه بالزاوية ، وخندق عبد الرحمن على البصرة ،(١٧٣) وخندق مسلمة بن عبد الملك في قتاله ليزيد بن المهلب .(١٧٤) ومع استخدام الخنادق كان لا بد من التفكير في وسيلة لاقتحامها ، ففي موقعة الأحزاب كانت محاولات قريش لاقتحام الخندق الذى حفره الرسول بدائية ، فكان أبطال قريش يدورون حوله يحاولون اقتحام

---

(١٧٠) : الطبرى ، ج ٣ ص ٣٠٨ ، ابن الاثير ج ٢ ص ١٥٥ .

(١٧١) : الطبرى ، ج ٤ ص ٣٨ .

(١٧٢) : ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣٨٨ .

(١٧٣) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٦٥ .

(١٧٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٨٠ .

../..

الخندق ، من أضيق أماكنه ، ولم يفكر أحد منهم في العمل على ردم جزء منه وعبوره لأنه كان مكيدة غريبة عليهم لم يألفوها ، فلما فتح المسلمون الأقطار بعد الرسول اكثروا من استخدام الخنادق مهاجمين ومدافعين ، ففتحت أمامهم سبل الحيل ولعل خالد بن الوليد أول من عمد الى قتل الابل المسنة ورميها مع رحالها في أضيق مكان منه أثناء فتح الأنبار، (١٧٥) وفي حصار دمشق قطع المقاتلة الخندق وعلى ظهورهم القرب ، (١٧٦) وعندما خندق مسلمة بن عبد الملك فكّر يزيد بن المهلب أن يرسل مع محمد بن المهلب من يدفن خندق مسلمة بالبرادع والاكف والزّبل . (١٧٧)

وتطور عبور الخنادق بسرعة بعد ذلك ، ففي سنة ١٤٥ هـ عندما خرج محمد بن عبد الله المحسن بالمدينة أعاد حفر خندق الرسول حولها وبنى عليه جدارا من جهة العدو ، وأوقف عليه حراسا من أصحابه يدافعون عنه ، فلما جاءت القوات العباسية بقيادة عيسى بن موسى ، تقدّم بعض قواد عيسى الى جداره في مائة من جنده ، فهدموه ، وانتهوا الى الخندق ، فنصبوا عليه أبوابا خشبية ثم عبروه ، وفي رواية ثانية أنهم طرحوا حقائب الابل في الخندق ثم طرحوا أبوابا خشبية بقدر الخندق فجازت الخيل . (١٧٨)

الحصون والأسوار :

كان عامة العرب في الجاهلية رحّلا أهل بداوة لا يعرفون الحصون أو الاحتماء بالأسوار ، وانما حصونهم ظهور خيولهم وشفرات سيوفهم ، وقد عرف الحصون منهم أهل الحيرة لمجاورتهم الفرس ، وأهل الشام لمجاورتهم الروم ، وعرفها أهل الحجاز من طريقين بعد ذلك ، من طريق رحلتهم الى اليمن ذات القصور الشاهقة ، ومن طريق اليهود الذين نزعوا اليها من الشام بعد أن طردهم الرومان منها ، فأدخلوا

---

(١٧٥) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٧٤ .

(١٧٦) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٣٩ .

(١٧٧) : ابن الاثير ، ج ٥ ص ٨٠ .

(١٧٨) : الطبري ، ج ٧ ص ٥٩٠ .

../..

اليها نظام الأطام والحصون ، وأدّى احتكاك المسلمين بقوات الروم الى تزايد ادراكهم لأهمية الحصون لا سيما أنهم ، كما يقول كريزول (Creswell) ، في انطلاقهم للفتح ، قد اتبعوا خطاً يكاد يتفق مع خط الحجاز الحديدى في العصر الحديث ، وكانت هذه الجيوش في طريقها تمر بسلسلة من قلاع الحدود الرومانية ،(١٧٩) التي كانت تمتد من خليج العقبة الى دمشق ، ومن دمشق الى تدمر ، وقد وصف هذه الحصون كل من برونو (Brunow) ودوماز يفسكي (Domaszewski) في كتابهما القيم (Die Provincie Arabie) ، وأشهر هذه القلاع قلعة أذرع التي بناها ترابان ، ويظهر أن ترابان بنى كذلك القلاع في اللجون والدّجانية (Dajaniya) وقلعة بشير التي تعود الى عهد ديوكليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م) وقلعة الضمير التي تعود الى ١٦٢ م . كما أن بعض الأمراء الأمويين قد عاشوا في بعض قلاع الحدود الرومانية ، فالوليد الثاني كان يقيم أحيانا في حصن الأزرق الذى تم تجديده بعد ذلك سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م ، وكان في أيام الوليد قلعة رومانية ، وعندما هوجم الوليد من قوات يزيد الثالث كان في حصن البخراء الذى هو اسم عربي لقلعة رومانية تقع على بعد (١٥) ميلا الى الجنوب الغربي من تدمر ،(١٨٠) وفي قلب الصحراء وعلى مسيرة (٢٠) ميلا شرقي الزرقاء كانت هناك قلعة رومانية تعرف بتسميتها الحديثة بقصر العلايات ، وقد بدأ بتشييدها كراكلا سنة ٢١٣ / ٢١٧ م وأتمها جستنيان سنة ٥٢٩ م ، وعلى بعد ١٥ ياردة من ركنها الجنوبي الشرقي يوجد مسجد صغير يرجع الى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى ، وقد بناه ولا شك أحد أمراء بني أمية الذى أقام في القلعة المجاورة ، وكانت النتيجة كما يقول كريزول مزدوجة ، فقد أعطت هذه الخبرة بالحصون الرومانية خلفاء بني أمية المعرفة الضرورية لبناء قلاعهم على الحدود البيزنطية ، كما أنها أثرت على طراز بنائهم لقصورهم .(١٨١)

---

(١٧٩) : Creswell, K.A.C. The Castra of The Roman Limes, Fortification in Islam, From the Proceedings of the British Academy, 1952 - Vol. XXXVII London, 1952, p. 89.

(١٨٠) : Ibid., p. 89.

(١٨١) : Ibid., p. 90.

../..

حظيت الثغور الشامية والجزرية باهتمام الخلفاء الأمويين ، وكانت ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التي سمّاها الرشيد عواصم، (١٨٢) وهي كورة قورس والجومة ومنبج وأنطاكية وبالس والرصافة ، رصافة هشام ، وكانت دابق هي القاعدة الرئيسية العسكرية في الداخل في العصر الأموى ، (١٨٣) ثم أصبحت منبج هي مركز المنطقة التي أطلق عليها الرشيد اسم العواصم ، (١٨٤) أما في الساحل فقد كانت أنطاكية هي المركز الرئيسي . (١٨٥)

لم يهتم الخلفاء الراشدون ببناء الحصون أو مدن ثغرية شمالي الشام وراء أنطاكية ، انما بدأ الاهتمام في عهد بني أمية وخاصة في خلافة هشام بن عبد الملك ، حتى أنه لم ينته عصر بني أمية حتى كان نظام التحصين الهرى قد استكمل معالمه . (١٨٦)

اهتم معاوية منذ أن كان واليا على الشام والجزيرة بمنطقة الثغور ، فتعهد حصون مرعش والحدث ، (١٨٧) واهتم بمنطقة منبج وبنى لها جسرا لمرور الصوائف الى الأراضي البيزنطية منذ عهد عثمان . فلما توفي معاوية سنة ٦٠ هـ اضطر يزيد الى توجيه اهتمامه الى توطيد الكيان الداخلي ، فاستغل البيزنطيون ذلك الوضع الداخلي للدولة الأموية وكثرت غاراتهم على الثغور وحاصروا مرعش التي تركها أهلها بسبب الضغط البيزنطي عليها . (١٨٨) كما هدد الروم ملطية في فترة الاضطراب السياسي ، (١٨٩) مما دفع عبد الملك بمجرد أن قضى على منافسيه الى أن يتخذ اجراءات سريعة وجريئة واستراتيجية ، فاختار مواضع متقدمة في الأراضي البيزنطية تحل محل مرعش وملطية ، وهي طرندة والمصيّصة ، وقد بنى عبد الله بن عبد الملك

---

(١٨٢) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٦٨ ، ياقوت الحموى ، ج ٢ ص ٨٠ .

(١٨٣) : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤١٦ .

(١٨٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ .

(١٨٥) : جون باجوت ، الفتوحات العربية الكبرى ، ترجمة خيرى حماد ، بيروت ص ٦٢٩ .

(١٨٦) : د . محمد عبد الهادى شعيره ، المرابطون في الثغور الاسلامية الرومية ، بحث في كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين . ص ٤٣٢ .

(١٨٧) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(١٨٨) : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(١٨٩) : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

../..

ملطية سنة ٨٣ هـ .(١٩٠) كما أنه خرج سنة ٨٤ هـ على الصائفة فأتى مصّيصة وبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكانا من الجند منهم ثلثمائة رجل انتخبهم من ذوى البأس والنجدة ،(١٩١) ومنذ أن بنيت المصّيصة كانت الطوالع من انطاكية تطلع عليها في كل عام فتشتوا ثم تتصرف ،(١٩٢) فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك أحاط المصّيصة بثلاثة حصون ، هي حصن الربض ،(١٩٣) ثم حصن المثقّب بناه حسان بن ماهويه الأنطاكي ،(١٩٤) وحصن قطرغاش .(١٩٥)

كذلك اهتم هشام بالطريق الداخلي الموصل بين أنطاكية والمصيصة فبنى حصن مورة وحصن بغراس وحصن بوقا من عمل أنطاكية .(١٩٦) واهتم هشام بن عبد الملك بأمر ملطية عندما هاجمها الروم سنة ١٢٣ هـ فأرسل خيلا مع الرسول الذى خرج من ملطية مستغيثا وهو بالرصافة ، ثم غزا هشام بنفسه ونزل ملطية وعسكر عليها حتى بنيت ،(١٩٧) وفي سنة ١٢٥ هـ أعاد الوليد بن يزيد بناء حصن زبطرة ، وكان هذا الحصن قد خرّبه البيزنطيون فاحتاج الامر الى اعادة بنائه .(١٩٨) وفي عهد مروان بن محمد تركز الاهتمام كذلك بالمصيصة فبنى حصن الخصوص شرقي جيحان ،(١٩٩) وحصن منصور نسبة الى منصور بن جعونه بن الحارث العامرى الذى تولى بناءه وأقام فيه مع جند كثيف من أهل الشـام والجزيرة ليرد العدو .(٢٠٠)

---

(١٩٠) : البلاذرى ، ص ١٨٩ .

(١٩١) : المصدر السابق ، ص ١٦٩ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢١ ص ٢٠٤ .

(١٩٢) : البلاذرى ، فتوح ص ١٦٩ .

(١٩٣) : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(١٩٤) : المصدر السابق ، ص ١٧١ ، ياقوت الحموى ، ج ٥ ص ٥٤ ، وهو حصن على ساحل البحر قرب المصيصة .

(١٩٥) : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(١٩٦) : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(١٩٧) : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(١٩٨) : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(١٩٩) : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٢٠٠) : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

٠٠/٠٠

البحريــــة :

أدرك معاوية ، منذ أن كان واليا على جند دمشق والاردن في خلافة عمربن الخطاب، الخطر الذى يلوح في الأفق مهددا الشام بسبب وجود أسطول الروم قريبا من شواطئه ، وافتقاره الى وسائل الدفاع ، ذلك أن معاوية كان قد اشترك في فتح كثير من المدن الساحلية التي قاومت مقاومة عنيفة نتيجة لتلقيها الامداد والموٌن من دولة الروم ، وهذا ماضمن لها البقاء والمقاومة فترة أطول (٢٠١) .

وقد نهج العرب في البدء سياسة بحرية دفاعية بوضع حاميات قويــة في المدن الساحلية الهامة مثل اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل على الساحل الشامي ، (٢٠٢) وفي مرمة حصونها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها . (٢٠٣) ولكن اثر غارة الروم على الشام ومصـــر سنة ٢٥ هـ والتي كانت من أشـد الغارات عنفا ، (٢٠٤) تبيــن أن السياسة البحرية الدفاعية لم تعد كفيلة بالمحافظة على سلامة ممتلكاتهم وأنه لابد للعـرب من الهجوم على قبرص والاستيلاء عليها ،لأنهم اذا نجحوا في ذلك امكنهم أن يتصــدوا للأساطيل البيزنطية قبل اقترابها من الساحل الشامي ،فلما سمح عثمان لمعاوية بغزوهـا كتب الى أهل الساحل يأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها الى ساحل حصن عكا . (٢٠٥) وكانت هذه خطوة معاوية الأولى ،اذ لم يلبث أن استولى المسلمون علــى أرواد Aradus (٢٠٦) ثم في عام ٣٥ هـ / ٦٥٥م أى بعد مرور أقل من عشرين عاما على نزول العرب لأول مرة الــى الشواطيء الشرقية للبحر المتوسط ،عقد لواء النصر للعرب في الموقعة البحرية الكبيرة، ذات

---

(٢٠١) : Ostrogorsky. Op. Cit., P. 104

(٢٠٢) : هناك أمثلة كثيرة في البلاذرى عن هذه السياسة الدفاعية ، فتوح ،ص ١٢٤، ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٥٠، ١٥٣.

(٢٠٣) : البلاذرى ،فتوح ،ص ١٣٤، ١٣٥ .

(٢٠٤) : Bury, A History of the Later Roman Empire, Vol. II P. 288

(٢٠٥) : ابن الاعثم ،فتوح ،ج ٢ ص ١١٨.

(٢٠٦) : جورج فضلو حوراني ،العرب والملاحة في المحيط الهندى ، ترجمة د. يعقوب بكر، دار الكتاب ، القاهرة ،ص ١٨١.

../..

الصوارى . وكان خوض معركة كهذه يتطلب عدة أمور ، قواعد بحرية ، وتشمل الأحواض ، وأماكن بناء السفن ومواد البناء ومهرة البنائين ، ثم السفن الحربية وما يتبعها من ملاحين مدرّبين وجنود بحريين وضباط . وكانت الاسكندرية قاعدة بحرية كاملة تشتمل على ميناء رائع ، وأحواض متسعة لبناء السفن وبنائين من الاقباط ،(٢٠٧) ولم يكن ينقص سوى الخشب الجيد الذى تفتقر اليه مصر ، فلم يكن بد من جلبه من الشام أو غيرها من المناطق ، وكانت موانئ الشام ولا سيما عكا وصور قواعد بحرية أبحر منها جزء من الاسطول الذى اشترك في ذات الصوارى .(٢٠٨) ولكن الساحل الشامي كان في ذلك الوقت عاطلا من بناء السفن ، فلما كانت سنة ٤٩ هـ وشنّ الروم غارة عنيفة على سواحل الشام ، عمد معاوية الى انشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها الى جانب دور الصناعة بمصر ، لأن صناعة السفن كما يقول البلاذرى كانت بمصر فقط .(٢٠٩) وقد فعل معاوية ذلك لكي يجد لديه أساطيل على أهبة الاستعداد . فجلب الصنّاع والنجارين الى عكا من جند الأردن التي وقع اختياره عليها لينشئ بها أول دار لصناعة السفن بالشام .(٢١٠) وبقيت دور الصناعة في عكا حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذى نقلها الى صور ،(٢١١) ولكن التعاون بين مصر والشام بقي مستمرا سواء في استخدام الأقباط كملاّحين في سفن الشام أو في استيراد الأخشاب التي تصلح لبناء السفن من الشام . ويظهر أن بناء السفن بمصر بالرغم من

---

(٢٠٧) : المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، وقد تخصص الأقباط في سد ثغرات واستخدام المسامير الحديدية في بنائها ، وقد ثبت أن السفن التي تستخدم المسامير في تثبيت ألواحها أفضل من السفن التي تشد بالحبال (هونيرباخ ، فلهلم ، البحرية الحربية وتطورها في البحر المتوسط ، تطوان ١٩٥٤) من تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، د . أحمد مختار العبادى ، د . السيد عبد العزيز سالم ، طبعة ١٩٧٢ ، ص ٦ .

(٢٠٨) : ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢٠٩) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٢٤ .

(٢١٠) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٢١١) : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

../..

انشاء دار للصناعة في الشام ،كان له شأن عظيم في العصر الأموى ، فقد ألقت أوراق بردى أفروديتو (Aphrodito) ٧١٠ م/٩٢ هـ (وهي كوم أشقاو أشقوه) (٢١٢) شعاعا من النور على صناعة السفن في مصر ،وأظهرت مهارة المصريين في تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة المركزية لتلك المهارة ، ومدى استغلالها على يد الأمراء المسلمين ،كما أنها تدل على أن القبط كانوا يجندون في صعيد مصر للعمل في أحواض السفن بالاسكندرية والاشتراك في الغارات السنوية (Koursa) بل انهم كانوا يرسلون للعمل في الاساطيل التي تتخذ قواعدها في الشام. (٢١٣)

نتيجة لاهتمام معاوية بالأسطول وبالسيطرة على عدد من الجزر استطاع سنة ٥٣ هـ/ ٦٧٢ م قسم من أسطوله أن يحتل ازمير ،وأن يحتل قسم آخر شواطئ ليسيا (Lycia) وكيليكيا . وفي سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م بدأ حصار القسطنطينية برا وبحرا ،واستمر هذا الحصار مدة أربع سنوات كانت قطع الأسطول العربي خلالها تنسحب في الخريف الى سيزيكس لتعاود الكرة في الربيع ،وقرر معاوية سنة ٥٦ هـ /٦٧٨ م سحب قوات المحاصرة للقسطنطينية لشعوره بدنو أجله ،وبأن بيعة يزيد ستلقى معارضة الكثيرين . (٢١٤)

ولكي نأخذ فكرة من مدى التقدم الذى أحرزه الأمويون في سياستهم البحرية يكفي أن نذكر بأن الاسطول العربي الذى توجه في خلافة سليمان بن عبد الملك لدعم القوات البرية ولاحكام الحصار على القسطنطينية برا وبحرا كان يتألف من (١٨٠٠) سفينة فيها سفن حربية — Kampf Schiffen — وسفن لنقل المؤن — Proviant Schiffen (٢١٥) أصغر حجما ولكنها كانت تضم (١٠٠) من المقاتلين المسلحين تسليحا ثقيلا ،وكان حصار المسلمين للقسطنطينية حصارا قاسيا شديدا نتيجة للثلوج التي هطلت مدة مائة يوم في تراقيا مما عرقل عملية الحصار ،واضطر المسلمون الى تحمل الكثير من المشاق والجهد . (٢١٦)

وفي الربيع وصلت نجدات برية وبحرية لمسلمة بن عبد الملك ، فقد وصل أسطول من مصر يتألف من (٤٠٠) سفينة ،ويتألف كذلك من سفن حربية وأخرى لنقل المؤن ،ووصل أسطول آخر

---

(٢١٢) : جورج حوراني ،المرجع السابق ،ص ١٨٤ ،وكوم أشقوه على بعد نحو سبعة كيلومترات الى الجنوب الغربي من طما في صعيد مصر.

(٢١٣) : المرجع السابق ،ص ١٨٤.

(٢١٤) : نبيه عاقل ،خلافة بني أمية ، ص ٨٨.

(٢١٥) : Theophanes. Tr. by Leopold Breyer p. 27.

(٢١٦) : Ibid., p. 28.

../..

من افريقيا مؤلف من ٣٦٠ سفينة محملة بالاسلحة والمؤن ، الا أن معظم هذه السفن ، كما يقول تيوفانس ، دمرت نتيجة لاستخدام البيزنطيين للنار الاغريقية .(٢١٧)

هذا ويجب أن نشير الى أنه بالرغم من وجود أسطول لدى البيزنطيين ، الا أنه لم يكن يلعب الا دورا ثانويا في العمليات الحربية(٢١٨) في الفترة السابقة للفتوح الاسلامية ، وكان سكان سواحل البحر المتوسط الشرقية هم الذين يظهرون تفوقهم في هذا المجال ، فلما لاحق معاوية القوات الامبراطورية بحرا وظهر أمام أسوار القسطنطينية ، بدأ انتباه البيزنطيين بشكل جدي لأهمية الأسطول وضرورة العناية به كقوة حربية ، وأصبحت المقاطعات الساحلية في آسيا الصغرى ، والجزر الايجية ، تمد الأسطول بالسفن والرجال ، وكانت المقاطعات البحرية الاساسية هي بند الكبيرهايوت — Cibyrrhaeot — نسبة الى مدينة كيبيرا Cibyra في بامفيليا Pamphylia في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى ، ثم جند الدوديكانيز أو البحر الايجي — Dodecanese —.(٢١٩) وقل الاهتمام بالأسطول في عهد الأسرة الايسورية ، فلما استولى الأندلسيون على كريت وظهرت قوة الأغالبة ، عاد الاهتمام ثانية الى الأساطيل البحرية الحربية ، فظهر بند ساموس — Samos — غرب آسيا الصغرى ، كبند بحري ثالث ، وأصبحت هذه البنود كلها تحت قيادة قواد برتبة (٢٢٠) — Strategoi — ، كما أوجدوا قواعد في البنود الأوربية خاصة في Cephalonia

من الطبيعي أن يكون اعتماد العرب في الفترة المبكرة من نشاط أساطيلهم على أقباط مصر ، وسكان الشام القدامى الذين مهروا في ركوب البحار وتدربوا على فنون القتال .(٢٢١) وقد رأينا أن عثمان بن عفان عندما سمح لمعاوية بركوب البحر اشترط أن لا ينتخب بين

---

(٢١٧) : Ibid., p. 28 .

(٢١٨) : Wilhelm Ensslin, The Army & The Fleet, Byzantium. P. 304.

(٢١٩) : Ibid., P. 304

(٢٢٠) : Ibid., P. 304

(٢٢١) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١١٨ ، ١٢٩

../..

الناس ولا يفرع بينهم وأن يحترسم ، (٢٢٢) ولكن كان على من تطوع وأخذ رزقه أن يلتحق . (٢٢٣)

ويبدو أن معاوية اعتمد في بادئ الأمر على اليمانية في غزو البحر لتفوقهم على القبائل القيسية في هذا المجال ، والواقع أن عرب اليمن منذ عصر ما قبل الاسلام وحتى عصر الفتوح الاسلامية وان كانوا قد قطعوا كل اتصال لهم بالبحر وأهملوا شؤونه لانصرافهم الى التجارة البرية ابان الغزوين الحبشي والفارسي لليمن ، فانهم لم يفقدوا تماما تقاليدهم البحرية التي اكتسبوها من خلال تاريخهم الطويل وتجاربهم الماضية في ممارسة الملاحة والطواف بسفنهم في البحر الحبشي أو الاريتري وترددهم على موانئ البحر العربي والمحيط الهندي ، فقد رسخت منذ التقاليد في كيانهم ، وظلت كامنة في أعماقهم ، الى أن تهيأت لها ظروف مؤاتية للظهور منذ عصر الفتوحات ، فنشطت بعد خمول . ونلاحظ أن القادة البحريين الذين تجرأوا على قيادة حملات بحرية في خلافة عمر بن الخطاب كانوا من اليمانيين ، فالعلاء بن الحضرمي الذى حمل أهل البحرين في البحر الى فارس بغير اذن من عمر كان يمانيا حضرميا ، (٢٢٤) وعلقمة بن مجزز المدلجي صاحب الحملة البحرية الى الحبشة سنة ٢٠ هـ كان يمني الأصل لخميا ، (٢٢٥) ومع ذلك نلاحظ أن المقاتلة العرب من اليمانية لم يكونوا متحمسين لغزو البحر ، نستنتج ذلك مما يرويه ابن عساكر من أن شاعر اليمن عندما رأى اعتماد معاوية على اليمانية في الغزو البحرى قال :

ألا أيها القوم الذين تجمعوا

بعكا أناس أنتم أم أباعر

أنترك قيسا آمنين بدارهم

ونركب ظهر البحر والبحر زاخر .

ويروى أن شاعر اليمن لما قال هذه الأبيات رجع قومه جميعا من وجههم ، فلما بلغ

---

(٢٢٢) : الطبرى ، ج ٤ ص ٢٦٠ .

(٢٢٣) : ابن الأعثم ، فتوح ، ج٢ ، ص ١١٨ .

(٢٢٤) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٧٩ - ٨١ .

(٢٢٥) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١١٢ .

../..

معاوية ماكان منهم ، دعاهم فسكّن منهم ، وقال : " أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق من الجبل وأقل مؤونة ، وأنا أعاقب بينكم في البر والبحر "(٢٢٦) ثم فعل ذلك ، أي أن معاوية وعدأن يعاقب بينهم في البر والبحر ، أي لم تنشأ لدى الأمويين في هذه الفترة فرق خاصة من المقاتلة تابعة للبحرية ، وان ظهر بعض القادة الذين اشتهروا بغزوهم في البحر ، كعبد الله بن قيس حليف بني فزارة الذى غزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر ،(٢٢٧) وجنادة بن أميه الأزدي اليماني(٢٢٨) الذى اعتمد عليه معاوية في غزو أرواد ورودس وكريت ، وخالد بن كيسان صاحب الروم في خلافة عبد الملك والوليد ،(٢٢٩) ولذلك نجد أن القتال في البحر كان أشبه مايكون بالقتال في البر ، ويقدم ابن الاعثم صورة حية عن معركة ذات الصوارى ، اذ عند ما بلغ المسلمين خبر توجه ملك الروم قسطنطين بن هرقل في جمع كبير لغزو المسلمين في البحر ، كتب عثمان الى معاوية وأمره أن يركب في البحر بجنود المسلمين من أهل الشام ، وكتب الى عبد الله بن سعد بن أبي سرح يأمره أن يركب بأهل مصر ، فاجتمع أهل مصر وأهل الشام بساحل مدينة عكا في جمع كبير من العدة والعدد والسلاح ، ثم انهم حملوا الخيل معهم في المراكب ، وانطلقوا من عكا في خمسمائة مركب فيها رجالة مقاتلة والخيل والسلاح والطعام الكثير ، وخرج الروم في ألف مركب من مراكبهم فيها المقاتلة والنفط والنيران.(٢٣٠) وعند ما رفض الروم اقتراح معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح بالخروج الى الساحل والاقتتال في البر ، ربط المسلمون المراكب بعضها الى بعض واصطف المسلمون على جوانب المركب في أيديهم الرماح والسيوف والقسي والسهام ، واقتتل الفريقان وليس بينهم رمية سهم ولا طعنة رمح الا الضرب بالسيوف والبواتر والخناجر والسكاكين حتى احمر ماء البحر ، وقتل عدد كبير من المسلمين ومن الروم ، وبما أن عبد اله بن سعد أمير مصر وعد القبط من النواتية ثلاثة دنانير عن كل رجل من الروم يقتلونه ، فان القبط قتلوا منهم في ذلك قريبا من سبعمائة رجل.(٢٣١)

---

(٢٢٦) : تهذيب ، ج ٥ ص ٣٠٥.

(٢٢٧) : الطبرى ، ج ٤ ص ٢٦٢ ، ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٩٧.

(٢٢٨) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٣٠٩.

(٢٢٩) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٤٢٢.

(٢٣٠) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١٢٨.

(٢٣١) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٩.

../..

أما عن أشكال السفن العربية ومعداتها في العصر الأموي ، فان مصادرنا لا تمدنا بمعلومات على الاطلاق ، وأكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيرا عن السفن المعروفة لدى الروم في ذلك العصر ، لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين ، ويعتقد جورج حوراني ، أن الاسطول العربي في معركة ذات الصواري كان يتكون من درامين من الطراز البيزنطي العادى وهي سفن حربية سريعة خفيفة تشتمل على طبقة أو طبقتين من المجاديف . (٢٢٢) لأن سفن البحر المتوسط القديمة ذات الشرع المربعة كان يمكن استعمالها في الرحلة لا في الحروب ، ومن الطبيعي أن تتنوع المراكب العربية بعد ذلك في أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الاسماء المختلفة التي أطلقت عليها مثل الحراقات والشواني ، والطرادات والعشاريات والشلنديات والمسطحات ، (٢٢٣) ويمكن القول

(٢٢٢) : جورج حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندى ص ١٨٣ ، والدرامين جمع درمونة معرّب dromon في اليونانية والتي ترجع اليها أيضا الكلمة المقابلة في السريانية .

Frankel, Die Aramaischen Fremd Worter, in Arabischen (Shiffahrt und See Verkehr) Leyden 1886, p. 221.

(٢٢٣) : - محمد ياسين الحموى - تاريخ الاسطول العربي ، ط ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م ص ٣٦ - ٤١

الحراقة : ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر ، وقال دوزى : هي نوع من السفن الخفيفة .

الشونة ، المركب المعد للجهاد في البحر والجمع الشواني ، وكان من أهم القطع التي يتألف منها الاسطول الاسلامي والرومي لأنها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة للجهاد ، وكانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد ١٥٠ رجلا ، ويقابل الشونة في الفرنسية Galere وفي الايطالية Galera .

الطراد : سفينة صغيرة سريعة السير والجرى ، وقال دوزى هي نوع من المراكب العربية اكثر شبها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكان يستعمل غالبا في حمل الخيول والفرسان ، واكثر ما يحمل فيها اربعون فارسا ، واستعملها الفرنج فأطلق عليها الاسبان اسم Tarida وأطلق عليها الطليان Tartana والفرنسيون اسم Tartan

العشاري ، جمعها عشاريات ، نقل المقريزى عن ابن الطوير أنها من توابع الاسطول وكان يسار بها في النيل ، منها برسم الخليفة ومنها ما هو برسم ولاة الأعمال .

الشلندى : جمعها شلنديات ، مراكب حربية كبيرة مسطحه لحمل المقاتلة والسلاح وتعادل في أهميتها الشونه والحراقه وأصلها اللاتيني Chelandium

المسطح : وهذه من اكبر سفن الاسطول الاسلامي ، وكانوا يجرونها في البحار خلف السفن الصغيرة لئلا تغرق هذه في واديها .

../..

أن القوات البحرية لم تظهر بشكلها المنظم الا في عهد المتوكل وفي مصر ، عندما نزل الروم دمياط سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، اذ يذكر المقريزي " أنه وقع الاهتمام منذ ذلك الوقت بأمر الأسطول وأنشئت الشواني برسم الاسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الاسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ، ويشير المقريزي الى أنه " كان لخدام الاسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة في أن يعد من جملتهم ، فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه "(٢٣٤) أي ظهرت في هذه الفترة أهمية الأسطول وغزاة البحر ، بحيث أن الناس أصبحوا يسعون بكل الوسائل للانضمام الى هذه القوات البحرية ، بينما رأينا أن المقاتلة من عرب اليمن في خلافة معاوية لم يكونوا متحمسين لغزو البحر مما دفعه الى أن يعقب بينهم في البر والبحر ، وهذا دليل على مدى التطور الذى أصاب البحرية في هذه الفترة الزمنية .

النظام المالي للجيش :

لم يكن المقاتلة ينالون في البدء وقبل تنظيم ديوان العطاء سوى الأنفال والغنائم ، وجماع معنى النفل والنافلة كما يرد في لسان العرب ما كان زيادة على الأصل ، سميت الغنائم أنفالا لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم ، والنفل ، الهبة ، والنفل ، التطوع . وعن ابن السكيت . تنفل فلان على أصحابه ، اذا أخذ أكثر مما أخذوا عند الغنيمة ، والنفل بالتحريك الغنيمة ، وفي الحديث أن الرسول (صلعم) بعث بعثا قبل نجد ، فبلغت سهمانهم اثني عشر بعيرا فنفلهم بعيرا بعيرا ، أى زادهم على سهمانهم ، ويكون من خمس الخمس ، وفي حديث ابن عباس " لانفل في غنيمة حتى يقسم جنّة كلها أى لا ينفل منها الأمير أحدا من المقاتلة بعد احرازها حتى يقسم كلها ، ثم ينفله ان شاء من الخمس ، فأما قبل القسمة فلا "(٢٣٥)

---

(٢٣٤) : المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ٦٠ .

(٢٣٥) : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نفل .

٠٠/٠٠

أما الغنائم فهو كل ماغلب عليه المسلمون بالقتال ، قل أو كثر حتى الابرة ،[٢٣٦] والواجب في المغنم تخميسه اذ يقول الله تعالى في سورة الانفال " واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل".[٢٣٧] أما الباقي فيقسم بين الجند من أهل الديوان وغيرهم ،[٢٣٨] اذ قال عمر بن الخطاب " الغنيمة لمن شهد الوقعة ".[٢٣٩] وكان توزيع الغنائم يتم بالسوية للراجل سهم وللفارس سهمين .[٢٤٠] وكانت الغنائم تجمع عند نيلها لدى صاحب الأقباض ثم ترسل الى صاحب المقاسم ،[٢٤١] الذى ينادى على مابين يديه ويثمن . وقد أرسل معاوية الى صاحب المقاسم بخاتم ذهب وفيه فص ياقوت أحمر من مغانم رودس وأمر أن ينادى عليه ، ثم أخذه معاويه لنفسه وحسبه للمسلمين من سهمه .[٢٤٢]

وبما أن عمر بن الخطاب رفض تقسيم الأراضي التي افتتحها عنوة وأجراها كلها مجرى أرض الصلح وتركها في أيدى أصحابها على الجزية والخراج ، فانه اجتمع بالصحابة لتقرير الوجوه التي تصرف فيها واردات البلاد ، فقرروا أن يكون من وجوه صرفها ، توزيع الأعطيات على المقاتلة . فيذكر سيف أنهم اتفقوا على " فرض الأعطية من الجزاء على من صالح أو دعي الى الصلح من جزائه مردود عليهم بالمعروف ، وليس في الجزاء أخماس ، والجزاء لمن منع الذمة ، ووفى لهم فيمن ولي ذلك منهم ولمن لحق بهم وأعانهم ".[٢٤٣] ويذكر سيف عن الشعبي ومحمد بن سيرين " فرض العطاء حين فرض لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم ، الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ولم يفرض لغيرهم ، ثم كتب في اعطاء أهل العطاء أعطياتهم عطاء واحدا سنة ١٥هـ ".[٢٤٤]

---

(٢٣٦) : أبو يوسف الخراج ، ص ١٦ .

(٢٣٧) : سورة الانفال ، آية ٤١ .

(٢٣٨) : يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٣ ، ابو يوسف ، ص ٢١ .

(٢٣٩) : ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص ٣٠ .

(٢٤٠) : الطبرى ، ج ٣ ص ٤٤٠ .

(٢٤١) : الطبرى ، ج ٣ ص ٣٩٧ ، ٤٣٦ ، الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٧٦ .

(٢٤٢) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١٢٦ ، وقد يعهد الأمر الى شخص واحد يقبض الغنائم ويقسمها فيسمى صاحب الأقباض والمقاسم .

(٢٤٣) : الطبرى ، ج ٣ ص ٦١٨ .

(٢٤٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٦١٥ .

ولعل اشارة سيف الى أن العطاء وزع في سنة ١٥ هـ واقعية وتعبّر عما كان يجري فعلا في الأمصار بعكس ماكان في المدينة من توزيع الأموال حين حضورها، (٢٤٦) ولذلك قيل عن توزيع الأموال بشكل راتب معين في كل سنة عطاء، ويبين ذلك الشعبي فيقول عمّن رأى عمر أنه قال لمّا فتح الله عليه، وفتح فارس والروم، جمع أناسا من أصحاب رسول الله، فقال: ماترون ؟ فاني أرى أن اجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فانه أعظم بركة، ففرض الأعطيات. (٢٤٧)

ويبدو أن العطاء بقي يوزع بالتساوي بين المقاتلة في العراق والشام حتى سنة ٢٠هـ مع زيادة أهل البلاء في عطاياهم، (٢٤٨) ومن رافع مولى عمر قال: سمعت العباس بالجابية يقول لعمر: أربع من عمل بهن استوجب العدل، الأمانة في المال والقسم في السوية... (٢٤٩)
ويذكر سفيان بن وهب الخولاني أنه لما اجتمع الفيء، أرسل أمراء الأجناد الى عمر بن الخطاب أن يقدم بنفسه، فلما قدم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد فان هذا المال نقسمه على من أفاء الله بالعدل، الرفيع فيه بمنزلة الوضيع ليس أحد به أحق من أحد." ثم قسّم بين الناس فأصاب كل رجل منهم نصف دينار اذا كان وحده، فاذا كانت معه امرأة أعطاه دينارا. (٢٥٠)

الا أن زيادة وارد الدولة بعد استقرار الشام والعراق ومصر وحصول اختلاف في الرأى في أحقية المسلمين الأوائل ومن أسلم بعدهم في المدينة في نصيبهم من الأموال وبين الفاتحين والروادف في الأمصار في وارد البلاد اضافة الى توسع رقعة الدولة الاسلامية، كان دافعا لايجاد جهاز اداري ومالي جديد يتمشى والظروف الجديدة لهذه الدولة، فوضع ديوان العطاء على التفضيل. (٢٥١)

---

(٢٤٦): أبو عبيد الأموال، ص ٢٤٢.
(٢٤٧): أبو يوسف، ص ٤٩.
(٢٤٨): الطبري، ج ٣ ص ٦١٦، رواية سرى من سيف "القسم بالسوية وأن يعطى أهل البلاء على قدر بلائهم".
(٢٤٩): الطبري، ج ٤ ص ٦٤.
(٢٥٠): أبو زرعة الدمشقي، تاريخ، ج ١ ص ١٧٨، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٧٦.
(٢٥١): لم يلاق قرار عمر بوقف الأرض على جميع المسلمين استحسانا لدى المقاتلة وقالوا له بعد ذلك: "أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا". وقال عمر للأنصار بعد اتخاذه القرار: "وقد زعموا أني قد ظلمتهم حقوقهم". (أبو يوسف، الخراج، ص ٢٦).

../..

كان العطاء في الشام يتدرج بين أهل الايام ومقاتلة اليرموك ومن أتى بعدهم والروادف، فعطاء أهل الأيام ثلاثة آلاف، وأهل اليرموك ألفان، ولأهل البلاء الرائع منهم ألفان وخمسمائة، وفرض لمن بعد اليرموك ألفا ألفا ثم فرض للروادف حسب تتابعهم المثنى، خمسمائة، الروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة وسوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم، وفرض للروادف الربيع على مائتين وخمسين وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد على مائتين، كما أنه فرض لنساء أهل اليرموك مائتين مائتين، ثم سوّى بين النساء وجعل الصبيان سواء على مائة مائة، (٢٥٢) ويذكر البلاذري أن عمر فرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل مابين ألفين الى ألف الى تسعمائة الى خمسمائة الى ثلاثمائة ولم ينقص أحدا عن ثلاثمائة، بينما يشير النص الذى أورده الطبرى الى أن الحد الأدنى كان مائتين. (٢٥٣)

نلاحظ من هذين النصين أن الحد الدائم بالنسبة للمقاتلة أصبح العطاء، وأن عطاء مقاتلة العراق والشام كان بنسبة واحدة في هذه الفترة، وأن عمر اعتمد في فرض العطاء على قواعد معينة، وهي الرجل وبلاؤه في الاسلام، والرجل وقدمه في الاسلام، والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته. (٢٥٤) أما في العهد الأموي، فنلاحظ أن الولاء للبيت الأموي والاخلاص له كان دافعا هاما لزيادة العطاء لأهل الشام، وظهر ذلك منذ خلافة معاوية الذى نقل بيت مال الدولة من الكوفة الى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام وأنقص عطاء أهل العراق. (٢٥٥) كما أن عبد الملك وعد أهل العراق خلال ثورة ابن الأشعث أن يجعل عطاءهم مساويا لعطاء أهل الشام، ولكن نظرا لرفض مقاتلة العراق بشروط عبدالملك، فانه لم يبر بوعده، (٢٥٦) أما الوليد بن يزيد الذى عرف بسخائه في العطاء

---

(٢٥٢) : الطبرى، ج ٣ ص ٦١٤.

(٢٥٣) : البلاذرى، فتوح، ص ٤٣٨.

(٢٥٤) : ابن سعد، الطبقات، ج ٣، قسم ١ ص ٢١٥.

(٢٥٥) : فلهوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده، ص ١٢٦، نقلا عن تيوفانس.

(٢٥٦) : الطبرى، ج ٦ ص ٣٤٧.

فقد زاد عطاء جميع الأمصار ، غير أنه مالبث أن زاد عطاء أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة ،(٢٥٧) ومثل هذا الأمر منطقي لما عرف عن أهل الشام من ولاء للأمويين ، ومع ذلك فلم تكن كل قبائلهم على نفس الدرجة من الولاء ، ولذلك نجد أن معاوية لم يكن ليفرض في بادئ الأمر الا للقبائل اليمانية ، فلما قدم مسكين الدارمي الشاعر الى معاوية وسأله أن يفرض له أبى فخرج مسكين وهو يقول :

أخاك ، أخاك ، ان من لا أخا له

كساع الى الهيجا بغير سلاح

وقال أيوب السعدى ، ولم يزل معاوية كذلك حتى أغزى اليمن وكثرت ، وضعفت عدنان ، فبلغ معاوية أن رجلا من أهل اليمن قال يوما ، " لهممت أن لا أحل حبوتي حتى أخرج كل نزارى بالشام " ، فلما بلغت معاوية فرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس وجعل مسكين في شرف العطاء ،(٢٥٨) فاذا صحّت هذه الرواية فهي تشير الى أن التسجيل في ديوان الجند لم يكن احتياطيا أو مفتوحا للجميع ، وانما يخضع لتوجيهات من الخليفة ، ونجد صدى لذلك أيضا في توجيهات عمر بن عبد العزيز وان كانت مبنية على أسس أخرى ، فقد أمر واليه على مصر أيوب بن شرحبيل بفريضة للجند وطلب منه أن يلصق ذلك بأهل البيوتات الصالحة " كما أن عمر بن عبد العزيز كتب الى يزيد بن الحصين " أن مر للجند بالفريضة وعليك بأهل الحاضرة واياك والأعراب ، فانهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم ،(٢٥٩)(٢٦٠) بمعنى أنه لا يجوز تسجيل أعرابي في ديوان الجند ، ويعلق أبو عبيد على هذا الأمر : وليس وجه هذا عندنا أن يكونوا لم يروا لهم في الفيء حقا ولكنهم أرادوا أن لا فريضة لهم راتبة تجرى عليهم من المال كأهل الحاضر الذين يجامعون المسلمين على أمورهم ويعينونهم على عدوهم بأبدانهم وأموالهم ، وهم مع هذا أهل المعرفة بكتاب الله وسنة رسوله والمعونة على اقامة الحدود ، وحضور الأعياد والجمع وتعليم الخير فلهذا آثروهم

---

(٢٥٧) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢١٧ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦٨ .

(٢٥٨) : تهذيب ، ج ٥ ص ٣٠٣ .

(٢٥٩) : الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٦٨ .

(٢٦٠) : ابو عبيد ، الأموال ، ص ٢٢٧ .

../..

بالأعطية الجارية ،(٢٦١) وفي كتاب عمر بن عبد العزيز الى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم نلاحظ أنه يأمره أن يفرض للناس الا للتاجر ، ولما سئل سليمان بن يسار حول كتاب عمر قال : أصاب عمر ، التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين ،(٢٦٢) بمعنى أن الفرض وهو التسجيل للمرة الأولى لا يكون لتاجر أو اعرابي وأنه يفضل أهل البيوتات الصالحة .

لم يكن عطاء المقاتلة في العهد الأموي بنسبة واحدة ، فقد كان هناك حد أعلى للعطاء يدعى شرف العطاء ، وبينما كان شرف العطاء محددا بألفين وخمسمائة درهم في عهد عمر و من تبعه من الخلفاء الراشدين ،(٢٦٣) فانه انخفض في خلافة بني أمية الى ٢٠٠٠ درهم . يذكر البلاذري أنه قتل مع الضحاك في مرج راهط ثمانون من الأشراف كان لكل رجل منهم في العطاء ألفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم .(٢٦٤)

واذا كان شرف العطاء قد أعطي في بادىء الأمر لأهل الأيام والفتوح الأولى مجازاة لهم لمساهمتهم في تلك الحروب الخطيرة وبلائهم فيها أو لمن قام ببعض الأعمال الادارية والقيادية ،(٢٦٥) فانه أضيف اليهما في العصر الأموي /لبني أمية الولاء/ مع التوريث في شرف العطاء الذى لم يكن يورث قبل ذلك ، فقد اشترط حسان بن مالك بن بحدل وكان سيد أهل الشام على مروان فيما كان لهم من شروط على معاوية وابنه يزيد منها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين ، وان مات قام ابنه او ابن عمه مكانه ،(٢٦٦) ولا شك أنه كان يفرض في شرف العطاء لأشراف القبائل وساداتهم ومن يظهر البلاء في الحروب .

---

(٢٦١) : أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٢٧ .

(٢٦٢) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٣٥٥ .

(٢٦٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٦١٤ ، ج ٤ ص ٧٥ .

(٢٦٤) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٣٦ ، ابن سعد ، ج ٥ ص ٢٥٥ .

(٢٦٥) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٤٣ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٤٤٢ .

(٢٦٦) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٨٦ .

../..

أما عدد من كان يفرض لهم في شرف العطاء فقليل اذا ماقيس ببقية الأعطيات ، وان كنا نفترض أن نسبتهم في الشام أكبر مما هو في الأمصار الأخرى كمصر مثلا حيث يذكر ابن عبد الحكم أن عدد المقاتلة المسجلين في الديوان زمن معاوية كان أربعين ألفا وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين (دينار) ، (٢٦٧) أما أغلبية المقاتلة فكان عطاؤهم يتراوح بين مائتين الى ثلاثمائة الى ألف وألف وخمسمائة درهم ، (٢٦٨) ونلاحظ أن عدد المقاتلة في الشام الذين يأخذون عطاء مرتفعاً كان كبيرا ، لأننا اذا اعتمدنا رواية أبي عبيد معمر بن المثنى المتعلقة بكتاب الحجاج الى رتبيل يتبين لنا أنه كان مع عمارة بن تميم ٣٠ ألفا كل واحد منهم يأخذ مائة درهم في الشهر أى ١٢٠٠ درهم في السنة ، فقد كتب الحجاج الى رتبيل : أما بعد فاني قد بعثت اليك عمارة بن تميم في ثلاثين ألفا من أهل الشام لم يخالفوا طاعة ولم يخلعوا خليفة ولم يتبعوا امام ضلالة ، يجرى على كل رجل منهم في كل شهر مائة درهم يستطعمون الحرب استطعاما . (٢٦٩)

بالاضافة الى العطاء كان المقاتلون ينالون الرزق شهريا ، فقد روى ابن عساكر أن عمر بن الخطاب لما وصل الجابية ، كان من جملة مافعله أنه دعا ابن قاطورا صاحب الأرض فقال : أخبرني مايكفي الرجل من القوم في الشهر واليوم ؟ فأتى بالمدى والقسط فقال يكفيه مديان في الشهر وقسط زيت وقسط خل ، فأمر عمر بمديين قمحا فطحنا ثم عجنا ثم أدمهما بقسطي زيت ثم أجلس عليهما ثلاثين رجلا فكان كفاف شبعهم ، (٢٧٠) وكانت هذه المؤن تحفظ في هرى ثم توزع على المقاتلة . (٢٧١)

كان المقاتلة يأخذون زيادة عن العطاء والرزق أموالا اضافية تسمى المعاون ، وجدت هذه منذ أيام عمر بن الخطاب ، (٢٧٢) فقد خطب حين أراد الرجوع

---

(٢٦٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠٢ ، المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢٦٨) : الطبرى ، ج ٥ ص ٢٢٣ ، البلاذرى ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٥٤ ، ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢٦٩) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٩٠ .

(٢٧٠) : ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الاولى ، ص ٥٥٦ .

(٢٧١) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٤٠ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢٧٢) : الطبرى ج ٤ ص ٤٣ ، ٦٥ .

٠٠/٠٠

من الشام الى المدينة ، فبيّن لأهل الشام بأنه قضى ماعليه وأنه جنّد الجنود وهيأ لهم الفروج ووسع عليهم مابلغ فيؤهم وماقاتلوا عليه من شامهم ،وأنه سقّ لهم أطماعهم، وأمر لهم بأعطياتهم وأرزاقهم ومعاونهم ،(٢٧٣) وقد ارتفع مقدار المعونة في الشام حين دعوة المقاتلة الى حملة مهمة أو للقضاء على ثورة ما ،فقد أعطى يزيد بن معاوية الجند الذين انتدبهم لمقاتلة ابن الزبير مائة دينار معونة فوق أعطياتهم .(٢٧٤) وعندما وجه مروان جيشا من فلسطين مع حبيش بن دلجة القيني الى ابن الزبير في ستة آلاف وأربعمائة جندي ، قيل انه لم يقتل رجل من أصحاب ابن دلجة الا كان أقل ماوجد معه مائة دينار.(٢٧٥)

وقد جعل عمر بن عبد العزيز العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء ، الا أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين دينارا .(٢٧٦) وعندما أراد يزيد بن الوليد بن عبد الملك أن يوجه المقاتلة الى الوليد بن يزيد قرر منح ١٠٠٠ درهم معونة لمن ينتدب لقتال الوليد ونظرا لقلة من تقدم رفع القيمة الى ١٥٠٠ درهم ثم الى ٢٠٠٠ درهم.(٢٧٧)

وهكذا نرى أن بني أمية في الشام استطاعوا الجند بادرار أرزاقهم وسدّ حاجاتهم والمكافأة لهم على قدر غنائمهم وبلائهم ، سئل عمرو بن معاذ وكان على الصوائف ،بما قدرت على جيوش الصوائف ؟ وكان يغزو في كل سنة ويجر الجيوش الى بلاد الروم ، فقال بسمانة الظهر والقديد وكثرة الكعك .(٢٧٨)

كان العطاء يدفع سنويا للمقاتلة في المحرم عند بداية السنة الهجرية في

---

(٢٧٣) : الطبري ،ج ٤ ص ٦٥.

(٢٧٤) : المصدر السابق ،ج ٥ ص ٤٨٣ ،ابن الاثير ،ج ٤ ص ١١٢.

(٢٧٥) : البلاذري ،أنساب ،ج ٥ ص ١٥١.

(٢٧٦) : ابن سعد ،الطبقات ،ج ٥ ص ٢٧٧.

(٢٧٧) : الطبري ،ج ٧ ص ٢٤٢.

(٢٧٨) : الطرطوشي ،سراج الملوك ،الطبعة الأولى ،١٣١٩ هـ ص ١٠٦.

../..

خلافة عمر بن الخطاب ، كما أنه مابلغ الناس عاشوراء قط في أيام زياد الا وطائفة (٢٧٩) يأخذون العطاء ، وكان زياد اذا أهلّ المحرّم أخرج للمقاتلة أعطياتهم (٢٨٠) ، غير أن دفع العطاء في وقته المحدد لم يكن أمرا ميسورا دائما وخاصة اذا لم يصل الخراج في وقته المعين ، أو بسبب الاضطرابات ، وفي هذه الحال كان العطاء يدفع أقساطا أو يؤخر دفعه عن الموعد المقرر ، فقد وعد يزيد بن معاوية الناس أن يجمع لهم عطاءهم كله ، اذ أن معاوية كان يخرج لهم العطاء ثلاثا (٢٨١) ، كما أننا نرى يزيد بن الوليد يعد المقاتلة أن يدفع لهم عطاءهم كل سنة ورزقهم كل شهر (٢٨٢) ، وهذا يعني أن الأعطيات أحيانا لم تكن توزع سنويا ولا الأرزاق شهريا ، كما أن الخليفة اذا كان بحاجة الى الأموال أخذها من بعض الولايات ، فكان هذا يؤدي الى حبس العطاء من مقاتلة ذلك المصر ، فقد اضطرت الأحداث الداخلية مروان بن محمد الى تأخير العطاء من ديوان مصر ، ثم دفعهم في العام التالي معتذرا لهم بقوله ، " اني انما حبست عنكم العطاء في السنة الماضية لعدو حضرني ، فاحتجت فيه الى المال ، وقد وجهت اليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنه " (٢٨٣) .

ويعود لزياد بن أبيه فضل تنظيم العطاء في العراق على أسس جديدة غير تلك التي كانت متبعة سابقا والتي أصبح فيها لكل عشيرة عريف خاص بها يتولى توزيع العطاء على أفراد عشيرته المثبتين في الديوان (٢٨٤) . وبما أن هذا التنظيم هو تنظيم منطقي يسهل تطبيقه ، وكان مطبقا كذلك في مصر على هذا الأساس (٢٨٥) ،

---

(٢٧٩) : الطبرى ، ج ٤ ص ٤٣ . في رواية سيف أن عمر كتب الى سعد بن مالك والى عتبة بن غزوان أن يتربعا بالناس في كل حين ربيع في أطيب أرضهم ، وأمر لهم بمعاونهم في الربيع من كل سنة وبأعطائهم في المحرم من كل سنة .

(٢٨٠) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٤ ، قسم ١ ص ١٩ .

(٢٨١) : ابن كثير ، البداية والنهاية ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ص ١٤٣ .

(٢٨٢) : الطبرى ، ج ٧ ، ص ٢٦٩ ، خليفة ، ج ٥ ص ٥٥١ .

(٢٨٣) : المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٣ .

(٢٨٤) : القلقشندى ، ج ١ ص ٤٢٤ ، ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٦٣ ، ١٣٥ .

(٢٨٥) : المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٩٣ ، ياقوت الحموى ، ج ١ ص ٤٩٢ .

../..

يمكننا أن نفترض بأن توزيع العطاء في الشام كان يتم وفقا للمبدأ ذاته ، لاسيما وأن هناك اشارة الى وجود عريف للسكاسك (٢٨٦) ، ووجود عريف لكل قوم (٢٨٧) .

أما عطاء الأسرى ، فليس بين أيدينا سوى نص واحد يعود الى عهد عمر بن عبد العزيز يتعلق بالأسارى بالقسطنطينية ، اذ أنه كتب اليهم حسب رواية ابن عبد الحكم : " أما بعد فانكم تعدون أنفسكم أسارى ، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله ، واعلموا أنني لست أقسم شيئا بين رعيتي الا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه ، واني قد بعثت اليكم بخمسة دنانير خمسة دنانير ، ولولا أني خشيت ان زدتكم أن يحبسه طاغية الروم منكم لزدتكم " (٢٨٨) ، بمعنى أن عطاء الأسير كان يعطى لأهله ، ولا بد أن هذا المبدأ كان مطبقا في الفترات السابقة ، فخلفاء بني أمية كان يهمهم أمر مقاتلتهم في الشام ويستبعد أن يكونوا قد أهملوا أمرهم وأمر أسرهم ، وهذا بدوره يقتضي تسجيلا في الديوان لمن يقتل أو يفقد أو يؤسر . وقد اتخذ عمر بن عبد العزيز اجراءات معينة متعلقة بالغائب ، فاذا كان قريب الغيبة أعطى العطاء لأهل ديوانه ، وان كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه الى أن يقدم أو يأتي نعيه ، أو يوكل عنده بوكالة ببينة على حياته فيدفع العطاء الى وكيله (٢٨٩) ، أما اذا مات أو قتل كان مايستحق من عطائه موروثا عنه على فرائض الله تعالى وهو دين لورثته في بيت المال (٢٩٠) . واختلف الفقهاء في استيفاء نفقات ذريته من عطائه في ديوان الجيش فبعضهم يقول ان ورثته يحالون على مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته ، والبعض الآخر

---

(٢٨٦) : تهذيب ، ج ٥ ص ٢٥ .

(٢٨٧) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ١١٧ .

(٢٨٨) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٤٠ .

(٢٨٩) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٣٥٧ .

(٢٩٠) : الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٠٦ .

../..

يرى أنه يستحق من عطائه نفقات ذريته ترغيباً وتشجيعاً للجنود على التجنيد . (٢٩١)

واختلف الفقهاء كذلك في سقوط عطائه اذا حدثت به عاهة تمنعه من القتال ، فالبعض يرى أن عطاءه يسقط لأنه في مقابل عمل لم يعد يستطيع القيام به ، والقول الثاني انه باق على العطاء ترغيبا في التجنيد والارتزاق . (٢٩٢)

كان على أهل العطاء أن يجهزوا أنفسهم بالأسلحة ، ويذهبوا للقتال عندما يضرب عليهم البعث ويدعون الى الخدمة ، (٢٩٣) ويظهر أن هذا كان منذ البداية كما يتضح من قول عمر بن الخطاب : " لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف ، ألفا يجعلها في أهله ، وألفا يزودها معه ، وألفا يتجهز بها وألفا يترفق بها " . (٢٩٤) وروى الهيثم بن عدى عن ابن عباس الهمداني وغيره أن كثير بن شهاب كان على الرى ودستبى وقزوين كان اذا غزا أخذ كل امرئ ممن معه ، بترس ودرع وبيضة ومسلة وخمس ابر وخيوط كتان ومقص ومقراص ومخلاة ، (٢٩٥) ووجه عمر بن عبد العزيز كتابا الى ولاته حين أخرج العطاء جاء فيه : " لا يقبل من رجل له مائة دينار الا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل " . (٢٩٦)

وكان أخذ العطاء يحتم على صاحبه أن يقوم بالغزو ، الا أنه كان باستطاعة من لا يريد الغزو أن يخرج بدلا ، ويروى المدائني أنه لم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء الا وعليه الغزو ، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلا . وكان لهشام بن عبد الملك مولى يقال له يعقوب ، فكان يأخذ عطاء هشام مائتي دينار ودينار ، فيأخذها يعقوب ويغزو ،

---

(٢٩١) : الماوردي ، ص ٢٠٦ .

(٢٩٢) : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢٩٣) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢٩٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٦١٥ .

(٢٩٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ٣١٤ .

(٢٩٦) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٥٨ .

../..

وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان ، وفي بعض مايجوز لهم المقام ويوضع به الغزو عنهم ، أي بامكان أهل العطاء التخلص من البعوث اذا عطوا في الوظائف التي تقتضي البقاء في المصر او اذا أرسلوا عنهم بديلا (٢٩٧) ،أما المرتزقة فكانوا لا يشاركون في البعوث والقتال في اكثر الأحيان ، " لأنهم خلفاء الغزاة في عيالهم " (٢٩٨) ،ولكن هذا لايمنع من مشاركتهم في القتال اذا دعت الحاجة الى ذلك (٢٩٩) ، لأنهم كانوا يعدون من أهل الديوان ويأخذون العطاء.

وهكذا يتبين لنا من دراستنا للتنظيم العسكرى في الشام أن الجيش الشامي كان يتألف بالدرجة الأولى من القبائل العربية المقيمة في الشام ،وبما أن القبائل اليمانية والقضاعية كانت تؤلف الأكثرية ،فمن الطبيعي أن يتألف الجيش في معظمه من هذه القبائل بالاضافة الى القبائل القيسية التي كان مستقرها الجزيرة وجند قنسرين ، ولكننا نلاحظ استفادة بني أمية من كل الطاقات البشرية ،فقد استعانوا بأهل الذمة في مناطق الحدود والثغور ، كما أنهم استخدموا الموالي الذين ازدادت نسبتهم في الفترة المروانية حيث ظهرت لدينا فرق خاصة ، كالوضاحية والذكوانية والحمرّة وغيرهم ، ولكن القيادات العليا في الشام بقيت بيد العرب من الصحابة وأبنائهم ومن أشراف القبائل في الفترة السفيانية وبيد أمراء بني أمية في الفترة المروانية ،ولا سيما في قيادة الصوائف والشواتي ، اذ أن أمراء بني أمية كانوا يعلقون أهمية كبيرة عليها لأنهم انما يتابعون عملية الجهاد ضد أعداء المسلمين من جهة كما أنها كانت تكسبهم هالة من المجد من جهة ثانية ،ثم ان عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من أن تحافظ جيوشهم الشامية على ماتتمتع به من نظام وسجايا حربية ، ولقد بقيت القبيلة أو العشيرة عنصرا مكونا

---

(٢٩٧) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢٠٢.

(٢٩٨) : تهذيب ،ج ٧ ص ١٥٢.

(٢٩٩) : الطبرى ،ج ٦ ص ٢٥٤ ،٢٥٥.

../..

بارزا في مجال التعبئة سواء في اعتمادهم على نظام الصف أو الكراديس أو عندما تدمج لغايات عسكرية أو مالية في تنظيمات أكبر . ونلاحظ في مجال الأسلحة ووسائل الدفاع وآلات الحصار أن مجال الاقتباس يظهر واضحا ، الا أن التطور الذاتي والابتكار على شكل استجابة ناجحة لمتطلبات التطور قد سارا جنبا الى جنب مع الاقتباس ، ويكفي أن نقارن بين البداية والأوج وبينهما مدة لا تتجاوز الخمسين سنة في كثير من الأحيان سواء على صعيد العدد أو على صعيد الآلات والعدد ، حتى نرى هذه القفزة الواسعة التي حققها الحرب عامة ومقاتلة أهل الشام خاصة .

============
=====
==
٥٠

الخاتمـــة

ألقت هذه الدراسة الضوء على أهمية بلاد الشام في صدر الاسلام ، لاسيما عند ما أصبحت الشام الولاية المركزية في عهد بني أمية ، فأضحت لها المكانة السياسية الأولى وتمتعت بقوة عسكرية فائقة وبأوضاع ادارية واجتماعية متميزة ، فالأكثرية الساحقة من الروم ومرتزقتهم نزحوا من المدن الساحلية والداخلية الهامة ولحقوا بهرقل الى آسيا الصغرى والقسطنطينية . والقبائل العربية النصرانية ، التي كانت تشكل نسبة سكانية لا يستهان بها في الشام قبل الفتح ، اعتبرت اجتماعيا بمستوى العرب المسلمين الفاتحين عند ما اعتنقت الاسلام ، والدليل على ذلك هو الازدياد المستمر في أعداد المقاتلة العرب في كل جند ، وهذا الازدياد لم يكن ناجما عن هجرة القبائل من الجزيرة العربية فقط ، وانما من اعتناق القبائل العربية النصرانية للدين الاسلامي . كما أن معظم العرب في الشام في العصر الاموي كانوا من عرب الجنوب ، باستثناء جند قنسرين حيث كانت الاكثرية قيسية ، وأصبح العرب يشكلون الغالبية الكبرى من السكان في معظم الأجناد سواء في المناطق الساحلية أو الداخلية ، الا في جند دمشق حيث نلاحظ أن السكان في مدن جند دمشق الساحلية كان أكثرهم من اليهود والفرس نتيجة للسياسة التي اتبعها معاوية وعبدالملك من بعده .

ونظرا لسياسة التسامح الديني التي اتبعها خلفاء بني أمية ، وعدم فرض ضرائب اضافية على أهل الذمة ، كما حدث في العراق ومصر مثلا ، بقيت النصرانية واسعة الانتشار نسبيا بين السكان من غير العرب ، ومن ثم فان النسبة الكبرى من الموالي وفقا للروايات المتوافرة كانوا موالي عتاقة ينتمون الى أصول مختلفة ، وكان خلفاء وأمراء بني أمية يملكون أعدادا كبيرة منهم ازدادت في الفترة المروانية نتيجة للفتوحات في الشرق والغرب . ولذلك ازداد اعتماد خلفاء بني أمية في هذه الفترة على الموالي في كل دوائر الدولة ، كما ظهرت فرق للموالي ، كالوضاحية والذكوانية والمحرّة ، شاركت في قمع الثورات التي نشبت ضد الأمويين ، ولكن القيادات في الجيش في الشام بقيت تسند الى العرب ، الى أبناء الصحابة وأشراف القبائل في الفترة السفيانية ، والى أمراء البيت المرواني خاصة وبني أمية عامة في الفترة المروانية ، كما أن بعض الوظائف

./..

الأساسية بقيت تسند الى العرب ، كولاية الأجناد والقضاء والشرطة ،أما المستشارون والوزراء فكان منهم العرب ومنهم الموالي .

ونتيجة لسياسة معاوية المالية التي أصبح على الولايات بموجبها ارسال الفائض من الأموال الى بيت المال المركزي ، تدفقت الأموال على الشام بالاضافة الى أخماس الغنائم التي كانت ترسل اليها مما أدّى الى ازدهار الشام وتمتع أهلها كافة بمميزات خاصة، فعطاء مقاتلة الشام كان أكثر من عطاء المقاتلة في الأمصار الأخرى . كما لا نجد ذكرا لضرائب اضافية كتلك التي فرضت في العراق ومصر ،مما أدّى الى ازدهار الزراعة لعدم شعور المزارع بأن كل ما يجنيه سوف يتوجه الى الدولة ،ومن ثم لا نجد ذكرا لهجرة الفلاحين من أرضهم ، كما حدث في العراق ومصر في العصر الاموى ، أو كما حدث في الشام زمن هارون الرشيد عندما ترك بعض أهالي قرى فلسطين أراضيهم هربا من كثرة الخراج .وشهدت الشام كذلك ازدهارا تجاريا نتيجة لسيطرة العرب على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني وسيطرتهم كذلك على الشام ومصر، فلم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية . كما أن حكام القسطنطينية في هذه الفترة ،كما تشير الى ذلك مختلف الأدلة ،لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر ، لأن المنع كان يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين ،ويبدو أن الحكام البيزنطيين حتى سنة ٦٩٣ م / ٧٤ هـ كانوا يرفضون الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية ، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسلة من هاتين الولايتين قانون جستنيان . كما أن قوانين الملاحة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقا يبدو وكأنها اختفت ، ولكن عندما عمد عبد الملك ابن مروان الى تحرير الدولة الاسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا والى اقامة وحدة اقتصادية مستقلة من جهة ، والى تحقيق نوع من الضغط الاقتصادى على بيزنطة من جهة أخرى بسكه للدنانير العربية الاسلامية ، نلاحظ أنه أضيفت الحرب الاقتصادية الى العداء العسكرى البرى والبحرى . ولكن عدم فرض خلفاء بني أمية قيودا على التجارة الخارجية للدولة الاسلامية ، كتلك التي فرضها البيزنطيون ، أدى الى سحب تجارة منتجات العالم العربي وتجارة الحرير والتوابل ،التي كان البيزنطيون بأمس الحاجة اليها ،من مصر

../..

والشام المركزين البحريين لمنافسيهم الأمويين الى العراق . ومما ساعد البيزنطيين على اغلاق البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الشام ومصر ، تسوة الأسطول البيزنطي الذى خرج منتصرا سنة ١٠٠ هـ ،وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من جزر البحر المتوسط التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال الافريقي والساحل الاسباني . فاذا أضفنا الى ذلك انقسام الصف الأموى سنة ١٢٦هـ اثر مقتل الوليد بن يزيد ، وانقسام كلمة أهل الشام الذين كانوا يشكلون القاعدة المتينة والجبهة المتراصّة التي كان الحكم الاموى يقوم عليها ، فانه لم تأت سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م حتى كانت الشام قد خسرت مركزها السياسي والتجارى الهام ، فقد انتقل الحكم الى العباسيين ،وأصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجارى المتوجه نحو طرابزون ،وخسرت دمشق مكانتها السياسية الهامة ،ولم تستعدها ، الا فترة من الزمن والى حين ، في عهد كل من نور الدين وصلاح الدين ، حيث عادت الى مسرح الأحداث كعاصمة كبرى لزعيمين عظيمين من زعماء العالم الاسلامي ، وحظيت ابّان حكمهما بقدر كبير من العز والمجد والازدهار .

* * * * *

* * * *

* * *

* *

*

" المصادر والمراجع "

* المصادر العربية :

- الأبشيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي) ، (ت ٨٥٠ هـ)
المستطرف في كل فن مستظرف وبهامشه كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات للامام تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموى .

- ابن ابكار (اسكندر بن يعقوب) .
نهاية الأرب في أخبار العرب ، مرسيليا ، ١٨٥٢م .

- ابن أبي حديد (عزالدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن الحسين)
(ت ٦٥٦ هـ) ، شرح نهج البلاغة ، ١٧ ج ، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٩ .

- ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ، تونس ، ١٣٨٦ هـ .

- ابن أبي السرور (أبوالحسن علي بن أبي عبدالله بن محمد) .
بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ، مطبعة النجاح ، مصر ، الطبعة الاولى ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩م .

- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجي) ، (ت ٦٦٨ هـ) .
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

- ابن الأعثم (ابو محمد أحمد بن أعثم الكوفي) ، (ت ٣١٤ هـ) .
الفتوح ٧ أجزاء ، تحقيق الدكتور محمد عبدالمعيد خان ، ١٣٨٨ - ١٣٩٤هـ / ١٩٦٨ - ١٩٧٤م .

- الأزدى (أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم) ، (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)
تاريخ الموصل ، تحقيق الدكتور علي حبيبة ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

../..

- الاصطخري (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي) .

المسالك والممالك ، تحقيق دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٢٧ .

- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) ، (ت ٣٥٦ هـ) :

١- مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهـــرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .

٢- الأغاني ، ١٨ ج ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٧ - ١٩٦١ .

- الأنصاري (شرف الدين موسى بن يوسف) .

التذكرة الأيوبية ، مخطوطة في المكتبة الظاهرية برقم ٧٨١٤ .

- بحشل (أسلم بن سهل الرزاز الواسطي) ، (ت ٢٩٢ هـ) .

تاريخ واسط ، تحقيق كوركيس عواد .

- البخاري ، الجامع الصحيح ، ٤ أجزاء ، طبعة ليدن .

- أبو البقاء (عبد الله محمد البدري المصري الدمشقي) .

نزهة الأنام في محاسن الشام ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ .

- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) :

١- فتوح البلدان - تحقيق محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر .

٢- أنساب الأشراف ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

القسم الأول من الجزء الرابع ، مؤسسة الدراسات الافريقيـــة الاسلامية ، الجامعة العبرية ، القدس ١٩٧٢ .

القسم الثاني من الجزء الرابع ، مكتبة المثنى ، بغداد .

القسم الثالث ، العباس بن عبد المطلب وولـده ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٠٠/٠٠

الجزء الثالث ، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، بيروت ،
الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
الجزء الخامس ، مؤسسة الدراسات الشرقية ،
الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٦ .

- البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل) .
كتاب البدء والتاريخ ، الجزء الثاني ، باريز ١٩١٩ .

- البيروني ، الآثار الباقية في القرون الخالية ، طبعة ليبزك ، ١٩٢٣ م .

- البيهقي (أحمد بن الحسين) .
سنن البيهقي ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ،
طبعة أولى ، ١٣٥٤ هـ .

- ابن تيمية ، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ، دار الكتب العربية ، بيروت .

- التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، القاهرة ، الطبعة الأولى .

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب) :
١- البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندوبي ، دار الفكر ، بيروت .
٢- كتاب التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق فوزي عطوى ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت .
٣- العثمانية ، طبعة القاهرة ، ١٩٥٥ م .
٤- ثلاث رسائل ، القاهرة ، الطبعة السلفية ، ١٣٤٤ هـ .

- جرجس بن العميد ، تاريخ ابن العميد ، ليدن .

- جرير ، ديوان جرير ، دار صادر ، بيروت .

- الجمحي (محمد بن سلام)
طبقات الشعراء ، طبعة أوفست ، دار النهضة ، عن طبعة ليدن ، ١٩١٣ م ، بيروت .

../..

- الجهشياري كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ الشلبي ، طبعة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .
- ابن الجوزي (ابو الفرج) (ت ٥٩٧ هـ)
تاريخ عمر بن الخطاب ، دار احياء علوم الدين بدمشق .
- ابن حبيش (عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن يوسف)
الفتوح ، مخطوطة منسوخة من مكتبة الدكتور سهيل زكار .
- حسان بن ثابت ، الديوان ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- ابن حزم (ابو محمد علي بن سعيد الاندلسي)
جمهرة أنساب العرب ، نشر وتحقيق ا . ليفي بروفنسال ، دار المعارف مصر .
- الحميري (عبدالمنعم)
الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
- ابن حنبل (أحمد بن محمد) (ت ٢٤١ هـ)
المسند ، ٤ أجزاء ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .
- أبو حنيفة (النعمان بن ثابت) (ت ١٥٠ هـ)
جامع المسانيد ، جزءان ، حيدر أباد ، ١٣٣٢ هـ .
- ابن خرداذبة (عبيدالله بن عبدالله) (ت ٢٧٢ هـ)
المسالك والممالك ، تحقيق دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٩ م ، اوفست مكتبة المثنى ، بغداد .
- ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي) (ت ٨٠٨ هـ)
المقدمة ، تحقيق عبدالواحد وافي ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ م .

../..

- ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان .
- خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، دمشق ١٩٦٧ .
- الخوارزمي (محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب) (ت ٣٨٧ هـ)
مفاتيح العلوم ، القاهرة ، ١٣٤٢ هـ .
- الخولاني (القاضي عبد الجبار)
تاريخ داريا ، تحقيق سعيد الأفغاني ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ،
١٣٦٩ هـ ، ١٩٥٠م .
- الدينوري (أحمد بن داود) (ت ٢٨٢ هـ)
الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مراجعة الدكتور جمال الدين
الشيال ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، الاقليم الجنوبي ، القاهرة ١٩٦٠م .
- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٧٤م) .
سير أعلام النبلاء ، ٨ أجزاء ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ،
١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .
- الرازي ، التفسير الكبير ، المجلد الثامن ، الطبعة الثانية .
- ابن رجب (عبد الرحمن بن أحمد) (ت ٧٥٩ هـ) .
الاستخراج لأحكام الخراج ، تحقيق عبد الله الصديق ، القاهرة ١٩٣٤م .
- ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) (ت ٢٩٠ هـ) .
الأعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩١ م .
- ابن رشد (محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي)
بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، جزءان ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ،
١٣٥٧هـ / ١٩٢٧ م .
- أبو زرعة (عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان) (ت ٢٨١ هـ)
تاريخ أبي زرعة ، جزءان ، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني ،
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

- ساويرس، سير الآباء البطاركة ،الجزء الخامس ، باريز ، ١٩١٠ .

- ابن سعد (محمد) (ت ٢٣٠ هـ) .

كتاب الطبقات الكبير ، الأجزاء السبعة الأولى ،ليدن ١٣٢٢هـ.

- السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر) (ت ٩١١ هـ) :

١- الاقتراح في علم أصول النحو ، تحقيق أحمد صبحي فرزات ، استانبول ،مطبعة كلية الآداب ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

٢- تاريخ الخلفاء ، تحقيق لجنة من الأدباء ،دار الثقافة ، بيروت .

- الشابشتي (أبوالحسن علي بن محمد)

الديارات ،تحقيق كوركيس عواد ،مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٥١م .

- الشافعي (محمد بن ادريس) (ت ٢٠٤ هـ)

الأم ، ٦ أجزاء ، القاهرة ،١٣٢١ هـ - ١٣٢٦ هـ .

- ابن شداد (عزالدين أبي عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي) (ت ٦٨٤هـ)

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الأول من القسم الأول ، تحقيق دومينيك سورديل ، دمشق ١٩٥٣م .

تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق الدكتور سامي الدهان .

- الصابي ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ،دار احياء الكتب العربية، القاهرة ، ١٩٥٨م .

- الصولي (محمد بن يحيي) (ت ٣٣٦هـ) .

أدب الكاتب ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١هـ .

- ابن طباطبا (محمد بن علي) (ت ٧٠٩ هـ)

الفخري في الآداب السلطانية ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ١٣٤٥ هـ /١٩٢٧م .

../..

- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) (ت ٣١٠ هـ)
تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية.

- الطرطوشي (محمد بن الوليد)
سراج الملوك ، المطبعة الأزهرية المصرية ، الطبعة الأولى ١٣١٩هـ.

- ابن طولون (شمس الدين)
الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦م .

- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي) (ت ٤٦٣هـ)
الأنباه على قبائل الرواة ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .

- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) (ت ٢١٢ هـ)
سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م.
فتوح مصر وأخبارها ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٣٠م.

- ابن عبد ربه العقد الفريد ، ٧ أجزاء ، تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الابياري ، ١٩٤٩ - ١٩٦٨ .

- ابن العبري (غريغوريس أبي الفرج بن هارون الملطي)
تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت.

- أبو عبيد (القاسم بن سلام) (ت ٢٢٤ هـ)
كتاب الأموال ، تحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة .

- ابن العديم (كمال الدين ، أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله) (ت ٦٦٠هـ)
زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق الدكتور سامي الدهان .

- ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، جزءان ، دار بيروت صادر ١٣٨ هـ / ١٩٦٨ م .

../..

- ابن عساكر (القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي)
تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الأولى والثانية ، تحقيق صلاح الدين المنجد .
المخطوطة ، رقم ٣٣٧٠ ، نسخة سليمان باشا المعظم ، المكتبة الظاهرية .

- العمري مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مطبعة الدار ، مصر .

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين ابو الفدا) (ت ٧٣٢ هـ)
المختصر في تاريخ البشر ، الجزء الاول ، دار الكتاب اللبناني .

- ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني)
كتاب البلدان ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ .

- أبو الفضل النيسابوري ، مجمع الأمثال ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .

- ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم) (ت ٢٧٦) :
١- عيون الأخبار ، مجلدان ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م .
٢- المعارف ، تحقيق محمد اسماعيل عبدالله الصاوي ، بيروت ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
٣- الامامة والسياسة ، جزءان ، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع .

- قدامة بن جعفر ، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٦ هـ .

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود)
آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت .

../..

- القشيري (أبو علي بن سعيد بن عبدالرحمن القشيري الحرّاني) (ت ٣٣٤هـ)
تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله والتابعين والفقهاء والمحدثين ،حقق وعلق حواشيه وقدم له طاهر النعساني .

- القسطلاني (شهاب الدين أحمد بن محمد)
ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ،طبعة بولاق ، ١٣٢٧هـ .

- القلقشندي (أحمد بن عبدالله) (ت ٨٢١ هـ) :
١- مآثر الاناقة في معالم الخلافة ، جزءان - الكويت ١٩٦٤م.
٢- صبح الأعشى ، ١٤ جزء ،المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٣٣١ هـ / ١٩١٣م .

- ابن قيم الجوزية (الشيخ شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر) (ت ٧٥١ هـ)
أحكام أهل الذمة ،جزءان ، مطبعة جامعة دمشق ،الطبعة الأولى ، ١٩٦١م .

- ابن كثير (اسماعيل بن عمر) (ت ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية في التاريخ ، الجزء السادس ، القاهرة .

- ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب)
جمهرة النسب ، الجزء الأول ، مخطوطة برقم /٣٨٢ /في مركز الوثائق والتوثيق ،الجامعة الأردنية .

- الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف)
كتاب الولاة وكتاب القضاة ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م .

- ابن ماجة (ت ٢٧٣ هـ)
السنن ، القاهرة ، ١٣١٣ .

../..

- ابن ماكولا (ت ٤٧٥ هـ، ١٠٨٢ م)
الاكمال في رفع الارتياب من المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى ،
٧ أجزاء ، الطبعة الثانية ، بيروت .

- مالك بن أنس ، المدونة ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ .

- المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي)
رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونساكهم
وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، نشر حسين مؤنس ، مكتبة
النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥١م .

- الماوردى (أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصرى البغدادى) (ت ٤٥٠هـ) :
١- الأحكام السلطانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ،
مصر ، ١٩٧٣م .
٢- أدب القاضي ، تحقيق محي الدين هلال السرحان ، بغداد ،
١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) (ت ١٨٥ هـ)
الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف ، بيروت .

- المسعودى (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) (ت ٣٤٦ هـ) :
١- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ أجزاء ، دار الأندلس .
٢- التنبيه والأشراف ، تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوى ، مكتبة
المثنى ، بغداد .

- ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب) (ت ٤٢١ هـ) .
كتاب تجارب الأمم ، الجزء الخامس ، مطبعة التمدن الصناعية بمصر ،
القاهرة ، ١٣٣٢ هـ .

- مصعب الزبيرى (أبو عبد الله مصعب بن عبد الله) (ت ٢٣٦ هـ)
نسب قريش ، تحقيق أ. ليفي بروفنسال .

../..

- المقدسـي (شمس الدين) (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م)
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق غازي طليمات، طبعة ١٩٨٠م.

- المقري التلمساني (أحمد بن محمد)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار بيروت صادر،
١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م.

- المقريـزي (أبو العباس أحمد بن علي) (ت ٨٤٥ هـ):
١- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ثلاثة أجزاء دار التحرير
للطبع والنشر، عن طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ.
٢- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة، ١٣٥٦هـ.

- ابن منظـور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- مؤلف مجهول (من القرن الثالث الهجري)
أخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الـدوري،
والدكتور عبد الجبار المطلبي، بيروت ١٩٧١م.

- مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق
(من خلافة الوليد بن عبد الملك الى خلافة المعتصم)
مكتبة المثنى، بغداد.

- مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، بيروت ١٩٧١.

- ميخائيل الصمعاني، سيرة يوحنا الدمشقي، مطبعة القديس بولس، لبنان، ١٩٠٢م

- النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق وشرح كرم البستاني، دار بيروت صادر.

- نصر بن مزاحم، وقعة صفين، القاهرة، ١٣٦٥هـ.

- النويـــري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (ت ٧٢٣ هـ)
نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الحادي والعشرون، تحقيق
محمد علي البجاوي، الجزء الخامس والسادس، نسخة مصورة
من طبعة دار الكتب.

../..

- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى) (ت ٢١٣ هـ)

السيرة النبوية ، ٤ أجزاء ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٥ .

- أبو هلال العسكرى ، الأوائل ، جزءان ، تحقيق محمد المصرى ، وليد قصاب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، احياء التراث العربي .

- الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب)

صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- الواقدى (أبو عبدالله محمد بن عمر)

فتوح الشام ، جزءان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- ابن الوردى (عمر بن مظفر)

تاريخ ابن الوردى ، النجف ١٩٦٩ م .

- وكيع (محمد بن خلف بن حيان)

أخبار القضاة ، جزءان ، تعليق عبدالعزيز مصطفى المراغي ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

- ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م

- يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣ هـ)

كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .

- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب) :

١- تاريخ اليعقوبي ، جزءان ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

٢- كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ م .

- أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم)

كتاب الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .

الآثار ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ .

* * * * *

* المراجع العربية والمترجمة :

- د . ابراهيم أحمد العدوى :

١- الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٢- الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٩٥٧.

- د . احسان صدقي العمد ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، بيروت ١٩٧٣م .

- د . احسان النص ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، منشورات ، دار اليقظة العربية ، بيروت .

- أحمد أمين ، فجر الاسلام ، بيروت ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٩م .

- د . أحمد بدر :

١- دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢.

٢- تاريخ المغرب والاندلس ، دمشق ، ١٩٨٠ .

٣- التنظيم العسكري عند العرب المسلمين ، بحث في مجلة دراسات تاريخية ، العدد الرابع ، ١٩٨١م.

- د . أحمد شفيق ، الرق في الاسلام ، تعريب أحمد زكي ، المطبعة الأميرية ، طبعة أولى ، ١٣٠٩هـ.

- د . أحمد مختار العبادي ، د . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، طبعة ١٩٧٢م.

- آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ، ١٩٤٠م.

- أنستاس الكرملي ، النقود العربية وعلم النميات ، طبعة ١٩٢٩م .

- بتلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٣٥١هـ/١٩٣٣م .

../..

- بليايف ، العرب والاسلام والخلافة العربية . الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣م.

- ترتون ،أهل الذمة في الاسلام ، ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٧م.

- جواتياين ،س .د . Goiti Yayen قداسة بيت المقدس وفلسطين في صدر الاسلام ، تعريب الدكتور عطية القوصي ، وكالة المطبوعات ،

- جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الرابع ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م - الجزء السادس ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

- جورج فضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندى ، ترجمة د . السيد يعقوب بكر ، مراجعة الدكتور يحيى خشاب ، مطبعة دار الكتاب العربي ، القاهرة .

- جون باجوت ،الفتوحات العربية الكبرى ، ترجمة خيرى حماد ، بيروت .

- حبيب الزيات :

١- الديارات النصرانية في الاسلامية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٨م

٢- سمات النصارى واليهود في الاسلام ،المطبعة الكاثوليكية ،بيروت، ١٩٥٠م.

- حسام السامرائي ،المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ، ١٩٧١ م .

- حسين مولوى ، الادارة العربية ، ترجمة ابراهيم أحمد العدوى ، ١٩٥٨ م.

- الخضري ،محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ،دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م.

- دوسو ، العرب في سورية قبل الاسلام ، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ،مراجعة محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩م.

- د . رجاء الدويدرى ،جغرافية سورية والوطن العربي ،مطبعة طربين ، دمشق ، ١٩٨١م.

../..

- الزركلـــي . الأعلام ،أحد عشر جزءاً ، ١٩٧٠ م.
- ستيفن رونسيمان ، Steven Runciman ، الحضارة البيزنطيـة ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١م.
- سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، دار المعارف ، مصر .
- سعيد الأفغاني ، في أصول النحو ، دمشق ، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .
- شكري فيصل ، المجتمعات الاسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الاسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣م.
- صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، دار الطليعة ، بيـروت ، ١٩٦٩م.
- صلاح الدين البحيرى ، جغرافية الأردن ، عمان ، ١٩٧٣م .
- الطحـــاوى ، مشكل الآثار ، مطبعة دار المعارف النظامية في الهند ، حيدر أباد ، الطبعة الأولى ، ١٣٣٣هـ .
- ظافر القاسمي :
١- نظام الحكم في الشريعة والاسلام ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعـة الأولى ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
٢- نظام الحكم في الشريعة والاسلام ، السلطة القضائية ، دار النفائس ، بيروت ، ١٣٩٨هـ .
- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ، التراتيب الادارية ، فاس ، ١٣٤٩هـ .
- عبد الرحمن زيدان ، كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة ، الرباط ، ١٩٦٢م .
- عبد السلام محمد هارون ، الألف المختارة من صحيح البخاري ، بيروت ١٩٧٩م.
- د . عبد العزيز الدوري :
١- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، بيروت ١٩٦٩ .
٢- العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام ، بحث ألقي فـي المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، جامعة الأردن ، ١٩٧٤م.

../..

٣- نظام الضرائب في صدر الاسلام ، ملاحظات وتقويم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية ، بدمشق ، الجزء الثاني .

- عبد العزيز فهمي ، مدونة جستنيان في الفقه الروماني (ترجمة) دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦م .

- عبد القادر بدران ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير للامام الحافظ المؤرخ علي بن الحسن ابن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر ، دار المسيرة ، بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

- د . عدنان البني ، تدمر والتدمريون ، رسالة دكتوراة منسوخة ، دمشق ، ١٩٧٧م .

- ابن العربي ، أحكام القرآن ، القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

- علي أحمد الجرجاوي ، حكمة التشريع وفلسفته ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٣٨م .

- علي حسني الخربطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٩م .

- عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، بيروت ، لبنان .

- د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م .

- فان فلوتن ، السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، محمد زكي ابراهيم ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥م .

- فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، الكتاب الأول ، الدار القومية للطباعة والنشر .

- فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة .

- فنسنك ، مفتاح كنوز السنة ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة مصر ، ١٩٣٤م .

../..

- فيليب حتي :

١- تاريخ سورية ولبنان ، ترجمة د. حداد وعبد الكريم رافق ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٨م.

٢- تاريخ العرب مطول ، ثلاثة أجزاء ، ترجمة الدكتور جبرائيل جبور ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٩٥٢م.

- د. فؤاد أحمد طوقان ، الحائر ، بحث في القصور الأموية في البادية ، وزارة الثقافة والارشاد ، عمان ، المملكة الاردنية الهاشمية ، ١٩٧٩م.

- د. محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩م.

- محمد ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، الطبعة الثالثة دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩م.

- محمد أبو الفرج العش ، النقود العربية الاسلامية ، مصدر وثائقي للتاريخ والفن ، بحث ألقي في المؤتمر الدولي لبلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، ١٩٧٤م.

- د. محمد عبد الهادى شعيرة ، المرابطون في الثغور الاسلامية الرومية ، بحث في كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين.

- محمد كرد علي :

١- خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٦م.

٢- الاسلام والحضارة العربية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٨م.

٣- أمراء البيان ، دار الأمانة ، بيروت ، الطبعة الثالثة.

٤- غوطة دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق - الطبعة الثانية.

- محمد ياسين الحموى ، تاريخ الأسطول العربي ، ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م.

- د. محمد يوسف موسى ، نظم الحكم في الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤م.

- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤هـ /١٩٦٥م .

- د . منير العجلاني ، عبقرية الاسلام في أصول الحكم ، دمشق ، الطبعة الأولى .

- د . نبيه عاقـــل :

  ١- خلافة بني أمية ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥م .

  ٢- الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٦م .

- نجدة خمـاش ، الادارة في العصر الأموي ، دار الفكر ، دمشق ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

- د . نعمان محمد أمين طه ، جرير ، حياته وشعره ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف ، مصر .

- نولـــدكه ، أمراء غسان من آل جفنة ، ترجمة الدكتور بندلي جوزي ، والدكتـــور قسطنطين زريق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٣م .

- يوسف الياس الدبس ، تاريخ سورية الدنيوي والديني ، الجزء الثاني ، المجلد الرابـع ، بيروت ، ١٨٩٩م .

  الجزء الثالث ، المجلد الخامس ، بيروت ، ١٩٠٠م .

= = = = = = =
= = =
=

BIBLIOGRAPHY : المصادر والمراجع الأجنبية :

- Arculfus , The Pilgrimage of Arculfus in the Holy Land about the year 670 A.D.
Translated and annotated by the Rev. James Ros. Macpherson, London, 1889.

- Bell, Gertrud, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, The Clarendon Press, 1914.

- Brown , A Literary History of Persia, London, 1959 .

- Buckler, F. W. Harun al-Rashid, Cambridge, 1927 .

- Bury, A History of the Later Roman Empire, London, 1889.

- Caetani, L. , Annali dell Islam, Milan 1904 - 1918 , Vol. III , Vol. V .

- Cocke , G.A. , A Text Book of North Semetic Inscriptions, Oxford, 1903 .

- Creswell, K. A. C. :

1. Early Muslim Architecture, Oxford , The Clarendon Press, 2nd Edition .

2. Fortification in Islam before 1250 A.D. From the Proceedings of the British Academy, 1952, Vol. XXXVII .

- Dennette, Daniel, C., Conversion and the Poll-tax in Early Islam, Cambridge, 1950.

- Diel, Ch., Etudes Sur L'Administration Byzantine dans L'Exarchat de Ravenne, Paris, 1888 .

- Duchesne, L. Autonomie Ecclesiastique, Eglises Séparees, 1896.

- Gregory. J. W., The Rift Valleys of East Africa, London, 1971.

- Grohman, Allgemeine Einfuhrung in der Arabischen Papyri, Wien , 1924 .

- Heyd, Histoire du Commerce du Levant, Leipsig, 1885.

- Hill, George. The History of Cyprus, Vol. I. to the conquest by Richard Lion Heart, Cambridge University Press, 1940 .

- Hodgson , Marshal, G. S., The Venture of Islam, Conscience and History in a World of Civilization, The University of Chicago Press.

- King. L. C. The Morphology of the Earth, New York, 1962.

- Levy, Reubens, The Social Structure of Islam, 2nd Edition, Cambridge University Press.

- Lewis, Archibald, R., Naval Power and Trade in the Mediterranean , A.D. 500 - 1100 .

- LØkkegaard, Frede, Islamic Taxation in the classical Period, Copenhagen, 1950 .

- Mclean Harper, George, Village Administration of the Roman Province of Syria, Princeton, 1908 .

- Michel Le Syrien, Chronique, Edition et Traduction de Y. B. Chabot. t. II .

- Miles, The Earliest Arab Gold Coinage, 1967 .

- Omar Charles, K.B.E., A History of the Art of War in the Middle Ages, Vol. I, A.D. 378 - 1278 . Burt Franklin, New York.

- Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Tr. Joan Hussey, Oxford, 1956 .

- Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne, New York, 1939 .

- Lane Pool, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925 .

- Le Strange :

  1. Palestine Under the Moslems, Published for the Committee of the Palestine Exploration Fund 1890.
  2. The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge, 1980 .

- Theophanes, Bilderstreit und Arabersturm In Byzans, Das 8 Jahrhundert 717 - 813 Aus der Welt Chronike des Theophanes, Ubersetzt, eingeleitet und erklart von Leopold Breyer, Wien, 1957 .

- Thomas Bishop of Marga, (A.D. 840) The Historia Monastica, Edited from Syriac Manuscripts in the British Museum and other Libraries.
  By E. A. Wallis Budge , Vol. II .
  The English Translation, London, 1893.

- Tritton, A. S., The Caliphs and their Non-Muslim Subjects, Oxford University Press, 1930 .

- Von Kremer, Kulture Geschichtlischè Streifzug auf dem Gebeit des Islames, Calcutta, 1950 .

- Walker, A Catalogue of the Muhammaden Coins in the British Museum, Vol. II.
  The Arab Byzantine and Post Reform Coins.

- Washington, Irving, Lives of the Successors of Mohammet, Vol. II. London, 1850 .

- Wiet, Gaston, L'Egypte Musulmane, Précis de L'Histoire d'Egypte, t. II.

- Willibald, The Hodœ poricon of St. Willibald 754. A.D. Translated by the Rev. Canon Brownlow, M.A. London, 1891 .

Articles :

- Andreades, Andre, M., The Economic Life of the Byzantine Empire, Population, Agriculture, Industry, & Commerce, In Byzantium II. An Introdution to East Roman Civilization ed. by Norman H. Baynes & H. St. B. Moss .

- Cahen, Claude, Economy, Society, Institution , The Cambridge History of Islam, Vol. II. The Cambridge University Press .

- Charanis, P., The Social Structure of the Later Roman Empire, in Byzantium, 1944 - 1945 XVII.

- Ensslin, Wilhelm, The Emperor and Imperial Administration, in Byzantium X .

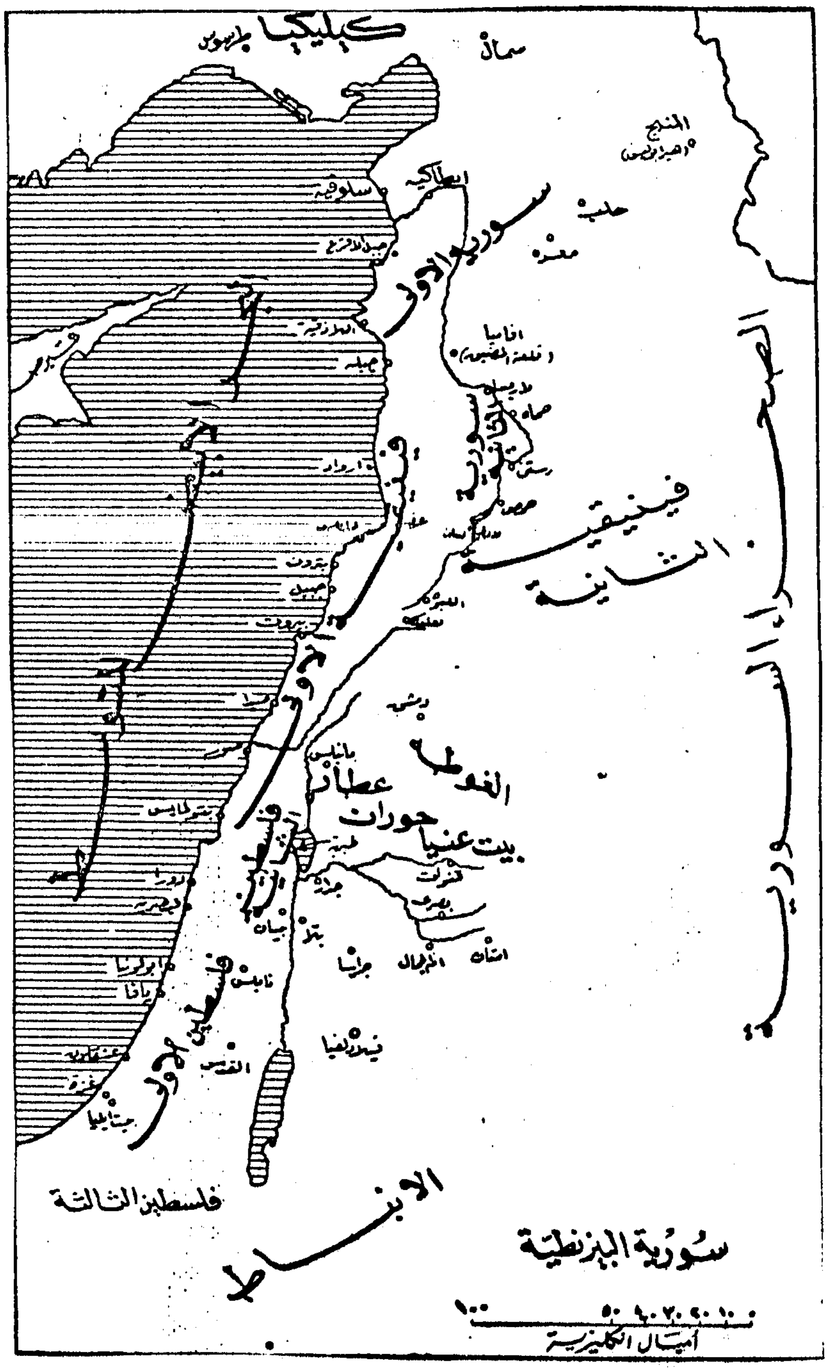
- Grabar, Early Islamic Settlements in the Badyaht al-Sham, in Conference on Bilad al-Sham, Amman University of Jordan, April, 1974 .

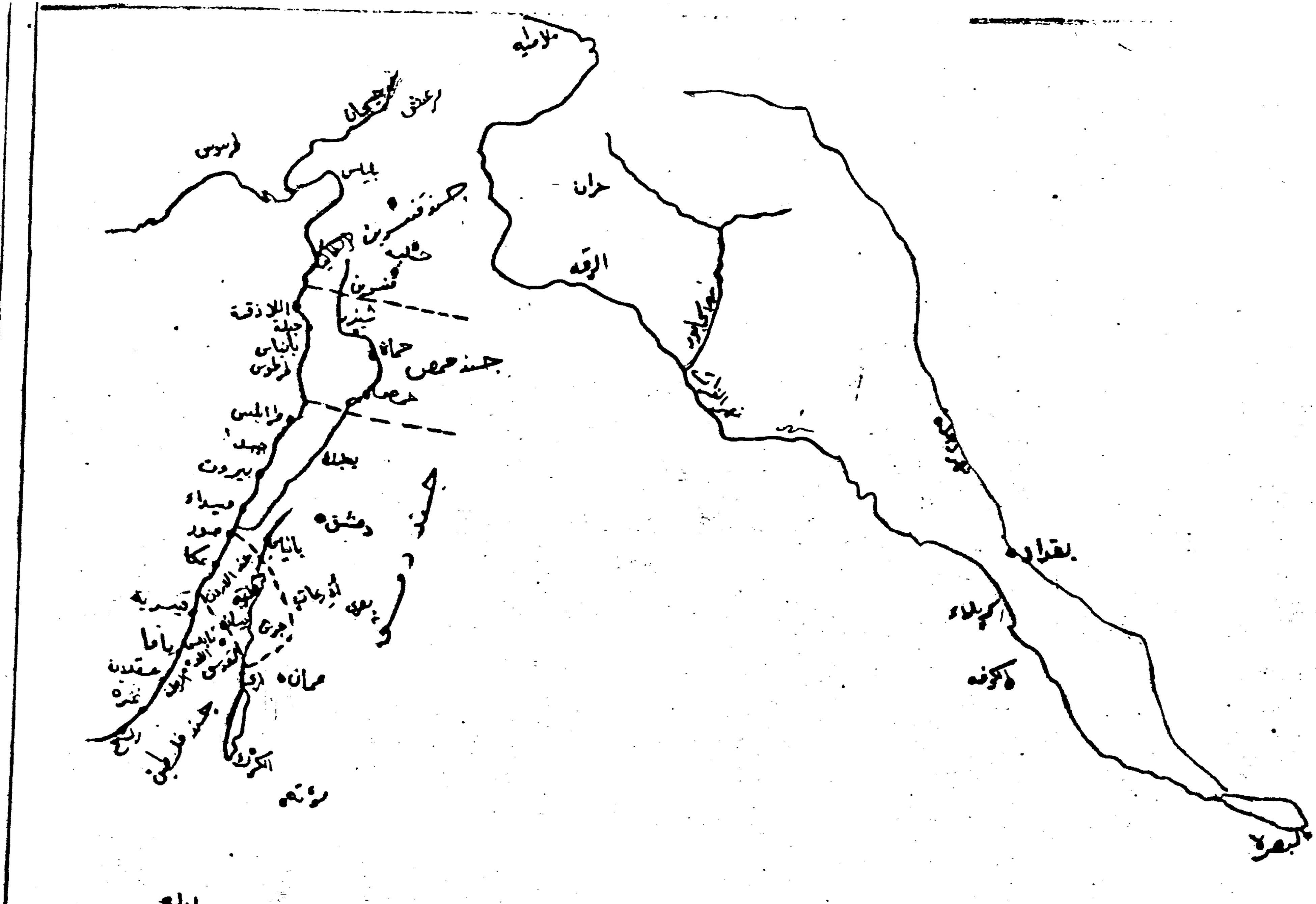
- Lopez : 1. Silk Industry in the Byzantine Empire, in Speculum, 1945, XX.
  2. Mohammed & Charlemagne, A Revision in Speculum, 1943, XVIII .

- Sauvajet, Jean, Chateaux Omayyades de Syrie, Revue des Etudes Islamiques 1967 XXXV .

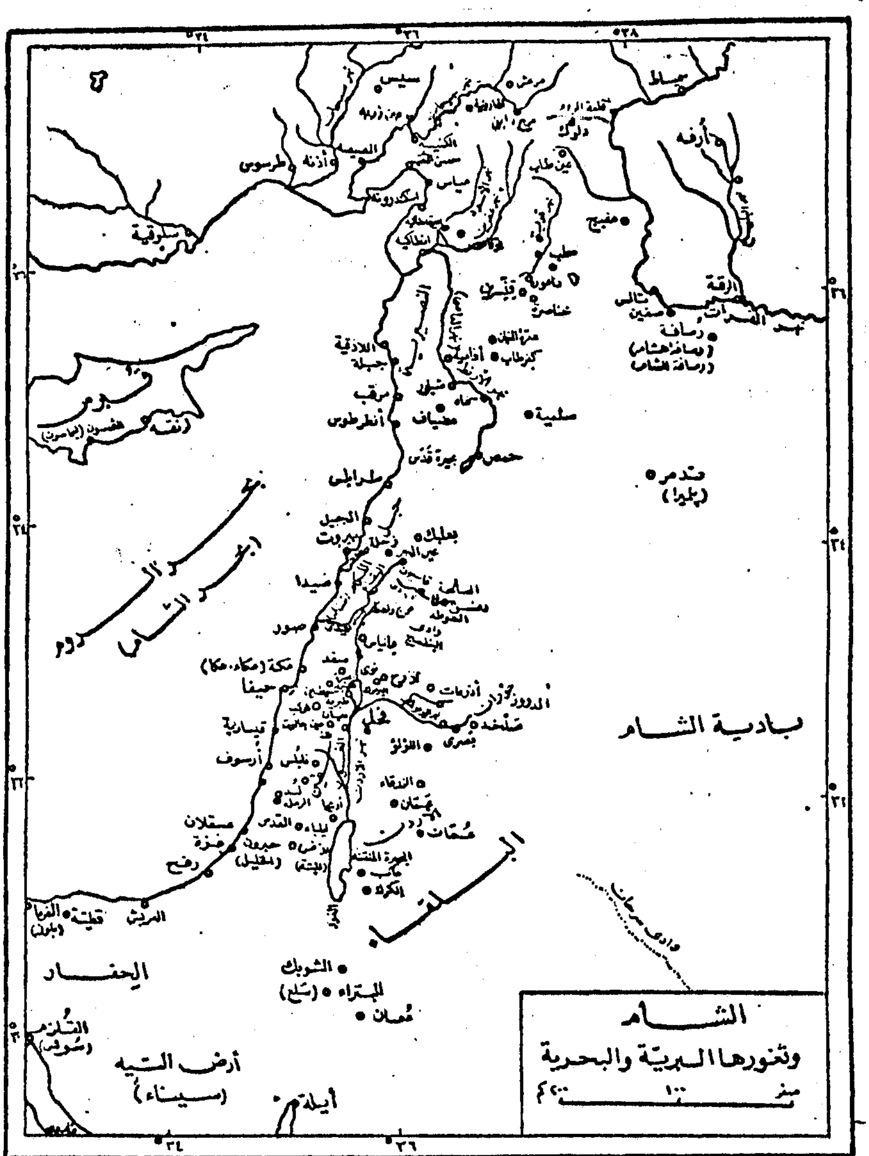
- Vasiliev, A. A., Byzantium and Islam, in Byzantium XI .
- Vernadsky, G., Sur L'origine de La loi agraire, in Byzantium, 1925, IV .

- Islamic Encyclopaedia, New Edition.
- Encyclopaedia Britannica, 15th Edition .
- The Modern Encyclopaedia, First Edition , 1961 .


سورية البزنطية
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ١٠٠
أميال انكليزية
كيليكيا
حوران
بيت عنيا
الغوطة
فلسطين الثالثة
جرشا
بصرى
دمشق

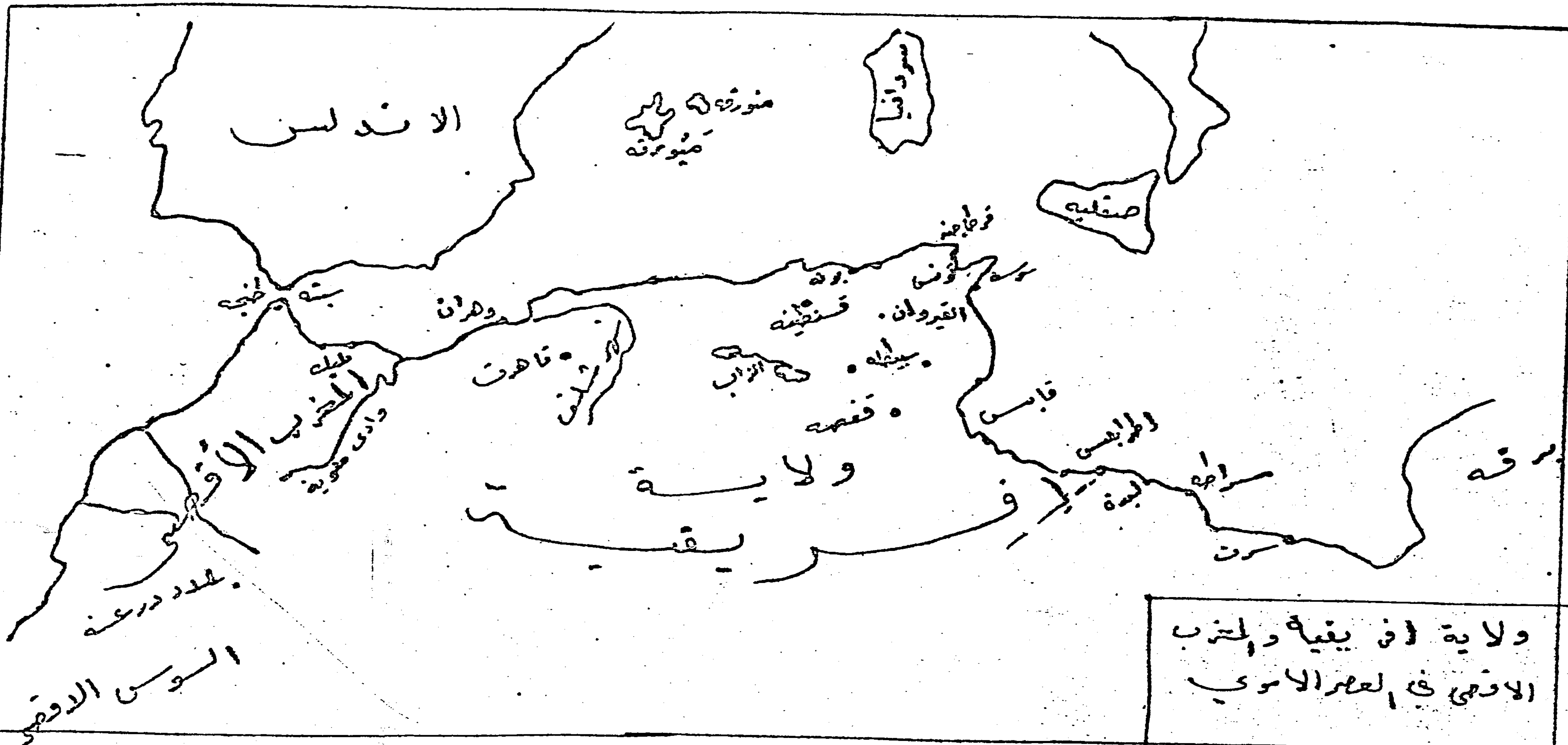


أجناد الشام في العصر الأموي

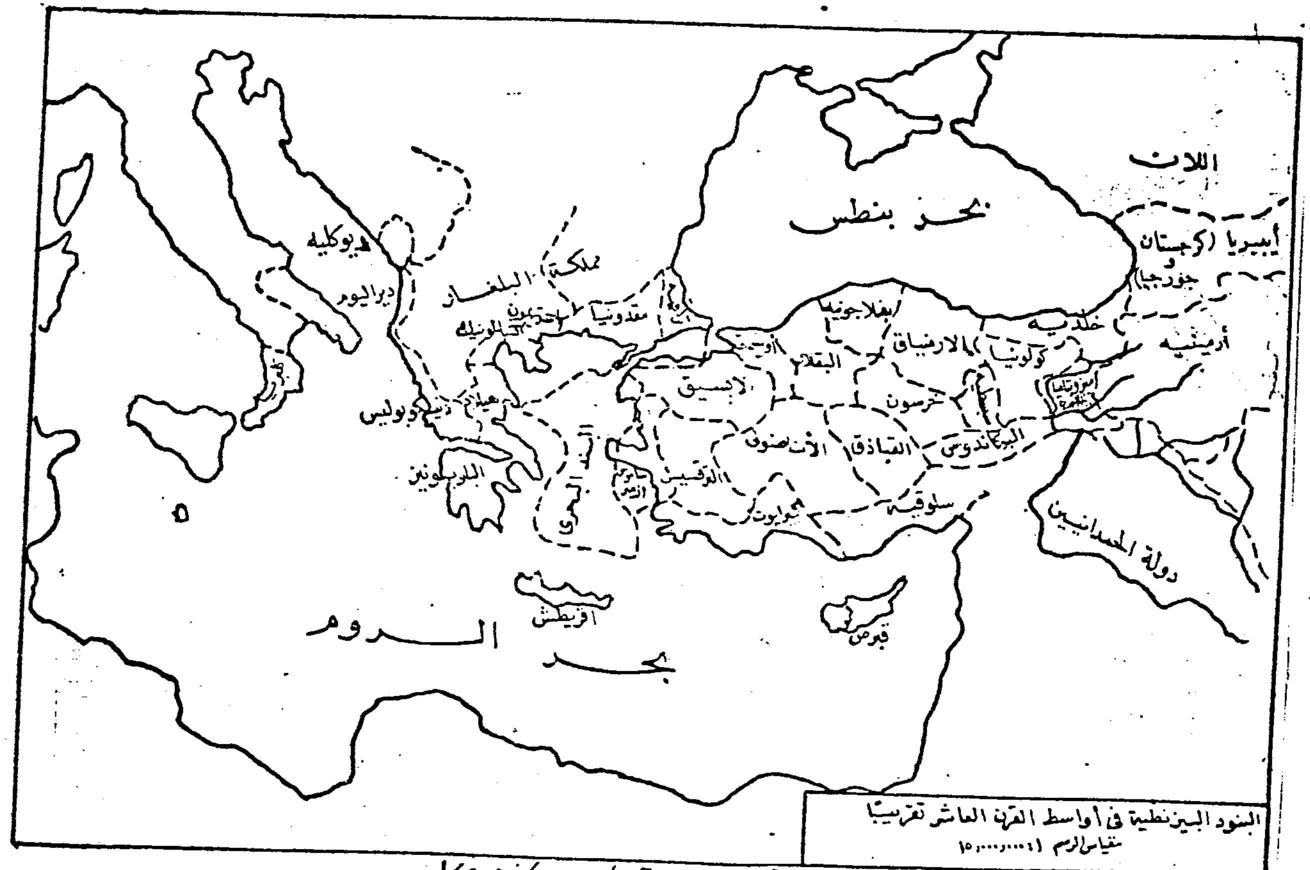


نقلاً عن: (د. ماجد والبنا في الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى)


الجزيرة وثغورها وأرمينية
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ كيلومتر
بلاد الخزر
بلاد الروسية
بلاد اللان
بلنجر
سوتلى
بحر بنطس (نيطش)
(بحر طرابزندة)
أطرابزنده (طرابزون)
باطوم
جبال القبق
(القبج)
خزران
(جورجيا)
كندمان
تفليس
جبال الأبواب
بند (باب الأبواب)
بلاد شروان
شماخى
باكة (النفاطة)
قرص
آلى
شمكور
أران
بردعة
برذعة
البيلقان
موقان
بلاد موقان
ورثان
أذربيجان
مورند
أهر
أردبيل
تبريز
مرند
أرمينية الكبرى
ملازكرد (مناذكرد)
أرجيش
خلاط
وان
وسطان
بحيرة وان
(بحيرة خلاط)
بدليس
أرزن
قاليقلا
أرزن الروم
بايبورت
أرزنجان
جبال أرمينية
جبل عرعوى
سيواس
زرة
توقات
حصن أماسية
نهر آلى (هاليس)
(قزل أرماق)
قيسارية
(قيصرية)
قره حصار
الأبروق
طرندة
ملطية
شميشاط
خرتبرت (حصن زياد)
ميافارقين
آمد
حصن كيفا
ديار بكر
ماردين
رأس العين
أرفه (أذاسا)
(الرها (أدسة))
سروج
حران
الرقة
ديار مضر
قرقيسياء
الرحبة
عانة
الحديثة
هيت
تدمر
(بلميرا)
حلب
أنطاكية
اللاذقية
الإسكندرونة
قبرس
بحر الشام
(بحر الروم)
طرسوس
أذنة
هرقلة
لؤلؤة
مرعش
سميساط
جزيرة ابن عمر
نصيبين
برقعيد
سنجار
الموصل
حديثة الموصل
نينوى
إربل
تكريت
سامراء
الجزيرة
الزاب الكبير
الزاب الصغير
كردستان
جبل الجودي
أرمية
أشنه
المراغة
بحيرة المراغة
بحيرة أرمية
دهخوارقان
زنجان
سهرورد
شهرزور
حلوان
جلولاء
إقليم الجبال
مصايف الأكراد ومشاتيه
نهر دجلة
نهر الفرات
نهر الكر
نهر الرس
نهر الأرنط (العاصي)
جبال الديلم
الديلم
بحر أبسكون
بحر الخزر
نهر شروان
رشت



ولاية افريقية والمغرب الاقصى في العصر الاموي



البنود البيزنطية فى أواسط القرن العاشر تقريبا
مقياس الرسم ١ : ١٥,٠٠٠,٠٠٠

نقلا عن: Vasiliev l'Empire Byzantine

الفهـــرس

الباب الثانـــي

Abstract

The social and administrative conditions in al-Sham (Syria) during the early Islamic period is the theme of this study; it commences with the definition of al-Sham, its historical and geographical boundaries during the period under study.

The first part deals with the different social classes and their part in administration, governing and stabilizing the rule of the Omayyads, therefore, the first chapter is concerned with the peoples in al-Sham, before the conquest, the regions of their settlement and their attitude towards the conquest.

The second chapter discusses the new distribution of the peoples after the conquest, especially the Arabs, and discusses the factors that affected their settlement in the different regions (al-Ajnad).

The different social classes, their social position and their part in administration and governing, are discussed in chapter three.

The fourth and the fifth chapters deal with the part of the people of al-Sham in stabilizing the rule of the Umayyads in Syria, Iraq, and in Africa, the conquests they achieved, and the advantages they acquired.

The second part of this study is concerned with the administrative, fiscal and military systems.

In dealing with the administrative system, the administrative divisions were discussed as well as the important officials, their duties and responsibilities and the different state departments (Dawawin).

Taxation, tax collection, and the measures that were carried out by Caliph Umar, and then by the Umayyads,

as well as the coinage used and the striking of the first Arab gold coinage and its consequences are presented in detail in dealing with the fiscal system.

The elements of the Syrian army, leadership, and mobilization, means of defence and fortification, the organization of the Diwan and the Ata' of the Muqatilah in al-Sham are dealt with in the last chapter.

The conclusions that I have come into are presented throughout the dissertation, amongst them are the following:

1- Al-Sham's position was unique, speaking from a social point of view, and the social problems that arose in Iraq were not felt so strongly in Syria, for most of the Byzantines and their mercenaries in the coastal and internal cities left Syria and followed Hercules to Asia Minor; the Christian Arabs in Syria before the conquest formed quite a considerable proportion of the population, and when they adopted Islam they were not regarded as clients; but were socially regarded as the Moslem Arabs who joined the armies of the conquest; this could be deduced from the increase in the numbers of the Muqatilah in each region, and this increase of course was not due to migration only, but to the adoption of Islam by the Christian Arabs.

2- Most of the Arabs in al-Sham during the Umayyad period were of Yamanite or Quda'i origin, with the exception of the region of Qinnisrin; but while the Arabs formed the majority of the coastal cities of Jund Hims, the population of the coastal cities belonging to the Jund of Damascus were mostly composed of Jews and Persians, and because of the Caliph's tolerant and indulgent policy towards the Dhimmis, Christianity remained widely spread in Syria Specially in Palestine.

3 - The factors that defined the social position of the Moslem Arabs changed gradually in consequence of the political developments after the battles of Ṣiffin and Marj-Rahiṭ. The companions of the prophet, their sons, and the commanders of the conquest enjoyed the most distinguished position at first; but after the battle of Siffin and the support Mu'awiyah received from the southern tribes, who formed the majority of the Arabs in Syria, he had to change his policy and depend more and more on the notables of the tribes whether in governing the different regions of al-Sham or in commanding the armies sent against Byzantium or against Armenia in the North. After the battle of Marj-Rahit, the highest position was that of the princes of the house of Marwan and the Umayyads in general, then came the notables of the tribes and of course all the true and loyal supporters of the Umayyads.

4 - The Marwanid period showed an increase in depending on Arab governors sent from al-Sham to the two most important districts, Iraq and Egypt, and it showed also an inclination to depend more and more on the clients (al-Mawali) especially the freed slaves (Mawali al 'Itaqah) in the different departments of the state and in sending them as governors especially to Africa; but the dependence of the state on the Dhimmis in administration decreased at the end of the Umayyad period in al-Sham.

5 - As al-Sham was the central district, the duties of the most important officials were somewhat different from those of the same officials in the other districts, and the state departments (Dawawin) were greater in number and importance.

6 - Although al-Sham was the first country conquered - yet the traditions concerning the treaties with the different cities show that the Arabs distinguished clearly from the very beginning between the poll-tax (al-jizyah) and the land-tax (al-kharaj) and while the jizyah in Syria at the beginning was one dinar, Umar I changed it later to a graded tax of four dinars maximum for the well to do with reductions for the middle class and the poor, this seems to have taken place in the year 640 A.D. 20 A.H. for Theophanes mentions that in the thirtieth year of Heracules, Umar made a census of all the lands, men, animals and palms; but as the traditions concerning the kharaj land and the Sawafi lands are very few in comparison to those connected with Iraq, it was necessary to depend on them in order to clarify and illustrate the ones concerning Syria specially if there were hints allowing such comparisons, and an interpretation for the term Sulh and 'Unwah has been presented .

7 - When Mu'awiyah became Caliph he made it clear that the different districts should participate in sending the overflow of their income to the central treasury in Damascus (Bayt Mal al-Fay'), this procedure was carried out by all the other Caliphs and traditions directly or indirectly allude to this fact except where Spain is concerned. The Arab tribes in Iraq in general and the tribes of al-Kufa in particular resented this procedure which aroused their wrath against the Umayyads and the people of al-Sham, who enjoyed a number of priviliges denied to others, for example, the traditions do not mention extra taxes being collected from the people in Syria like the ones mentioned in Iraq and Egypt.

8 - The important political and economic changes following the striking of the Arab gold coins have been discussed.

9 - The Army of al-Sham was mainly composed of Arabs, and the Yamanites and Guda'i tribes formed the majority, it was natural that most of the Muqatilah were from these tribes in addition to the Qaysites in Qinnisrin and al-Jazirah; but the Umayyads made use of all the man-power, so they used the Dhimmis in the frontier lines as well as the Mawali later on, for we read of Mawali troops during the Marwanid period; yet the leadership remained in the hands of the Arabs, the companions of the prophet, their sons, and the notables of the tribes during the Sufyanid period, and the princes of the house of Umayya during the Marwanid period specially in leading the Summer and Winter expeditions (al-Sawa'if wal-Shawati)

10 - The tribes and clans in al-sham still formed the prominent parts in mobilization, even when they were incorporated in larger organizations for military or fiscal purposes.